

العقيدة

أحمد بن حمد الخليلي

المفتي العام لسلطنة عمان

الإعداد والمراجعة

قسم الفتوى بمكتب الإفتاء

وزارة الأوقاف والشؤون الدينيّة

الجزء الثاني

تعرف على الإباضية بالفيديو

تعرف على الإباضية (مقال)-

الرد على ضلالات الخليلي



الإيمان بالقضاء والقدر

 القضاء والقدر

ما الفرق بين القضاء والقدر؟ وما معنى قول الرسول ﷺ عندما مر تحت جدار مائل فقال: «أفر من قضاء الله إلى قدره» ؟

اختلف العلماء في تعريف القضاء والقدر، اختلافاً كثيراً، منهم من قال: **القضاء** هو اجتماع الحقائق الكونية في العقل الأول ـ حسب تعبير الفلاسفة ـ اجتماعاً إجمالياً **والقدر** هو اجتماع هذه الأشياء في اللوح المحفوظ ويعبر عنه عند الفلاسفة: بالنفس الكلية تفصيلاً. ومنهم من قال: **القضاء** هو إثبات الله تبارك وتعالى الأشياء إجمالا كإثباته ﷻ أن كل نفس ذائقة الموت، وأما **القدر** فإثبات ذلك تفصيلاً مع الأسباب والأزمنة والأمكنة، كأن يثبت الله سبحانه وتعالى بأن فلاناً سيموت في موضع كذا لسبب كذا في زمن كذا فذلك هو القدر. ومنهم من قال: بأن **القضاء** هو إثبات الأشياء في اللوح المحفوظ إجمالا، **والقدر** هو إثباتها في المواد تفصيلاً ـ أي إنشاؤها في المواد تفصيلاً ـ وهذا معنى قول القطب رحمه الله في الذهب الخالص حيث قال: **القدر** خلق الأعراض والأجسام، **والقضاء** إثبات ذلك في اللوح، فخلق أجسامنا والأعراض التي تحدث فينا هو القدر وإثبات ذلك في اللوح المحفوظ هو القضاء وهذا التفسير هو الذي يتفق مع ما ذكروه من قول: «أفر من قضاء الله إلى قدره»[(١)] أي أفرّ من الأمر المقضي في اللوح المحفوظ إلى القدر أي إلى الأمر الذي لا بدّ أن يحصل لي أو عليّ كما هو مقضي عند الله في اللوح، ولكن هذا لم يثبت حديثا عن رسول الله ﷺ ولا موقوفا على أحد من صحابته، وإنما المروي من قول عمر لأبي عبيدة رضي الله عنهما: «نفر من قدر الله إلى قدر الله» ومعنى

---

(١) الحديث لفظه (نفر من قدر الله إلى قدر الله) قاله عمر لأبي عبيدة، رواه الربيع (٦٤١) والبخاري (٥٢٨٨) ومسلم (٤١١٤).

ذلك أن فرار العبـد عن القدر لا يدفع القدر، فلا بد مـن وقوعه في ميقاته المحدد في علم الله، والله أعلم.

قوله تعالـى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] وقوله ﷺ: «أفر من قضاء الله إلى قدره» يوحيان بأن الإنسـان له يد في صنع قدره أو تأخيره على الأقل فإذا كان هذا صحيحاً فكيف يمكننا التوفيق بينه وبين حقيقة أن القدر ما هو إلا القضاء مفصلاً مكاناً وزماناً والقضاء محقق وقوعه؟

سـبق التفريق بين القضاء والقدر ومن ضمن ما قلناه فـي التفريق بين القضاء والقدر أن القضاء هو إثبات الأشـياء في اللـوح إجمالا، والقدر هو إيجادها في المواد تفصيلاً بحسـب مـا قضيت. فالقدر هـو فعل الله تعالى وليس للعبد كسب في قدر الله، وإنما له كسـب في المقدور، والمقدور هو فعل العبد وهو الذي يتعلق به الثواب والعقاب أما القدر فلا يتعلق به ثواب ولا عقاب، لأنه فعل الله، والأثر المروي إنما هو بلفظ: «نفر من قدر الله إلى قدره»، وهو يعني: أنني أفر إلى الشـيء الذي قدر لي أو علي أي أفر إلى ما قدّره الله تعالى لي من نجاة أو عدمها، فإنه لا مخلص لي مما قدّره الله تبارك وتعالى فإن كان قدّر لي عدم النجاة فلا مخلـص لي من ذلك، وإن كان قد قدّر لي النجاة فإن تلك النجاة ستتاح لي ولا يحول بيني وبينها حائل، وإنما علـيّ أن أعمل وليس لي أن أختبر ربّي فـإن لله أن يختبر عبده وليس للعبد أن يختبر ربّـه، بل عليه أن يستسـلم لأمره ويذعن لطاعته، فـإذا كان الأمر هكذا فليس للإنسان أن يدع الأمور تجري بنفسها من غير أن يأخذ بالحيطة والحذر ويقول: أنا أفعل ما بـدا لي وأن هذا بقضاء وقدر، فليس للإنسـان أن يرمي نفسـه في بئر ويقول: هذا بقضاء وقدر!! فقد هدى تعالى الإنسـان النجدين وبصّره بما يأتي ومـا يذر، فليس له أن يأتي الشـيء مما حرم الله ويقول بأن هذا بقضاء الله وقدره.

فالمؤمن يجب أن يعمل عملاً صالحاً، نافعاً، يصلح به الأمة، ويرتقي به إلى أوج الكمال وأن لا تنِيَ به همته وتقعد به عزيمته متعللاً بالقضاء والقدر فإن أقدار الخير تجتلب بحسن النوايا وتتساوق مع عزائم الإيمان، فإن الله لا يضيع عمل عامل، وبالله التوفيق.

ما حقيقة الإيمَان بالقَضَاء والقَدَر؟

أما الفَرْق بين القضاء والقَدَر فإنَّ القضاء ـ كما قيل ـ إيجَادُ الله ـ تعالى ـ الأشْيَاء في اللَّوْحِ إجْمَالاً، ومعنَى ذلك إثْبَاته ما يكون في اللَّوْح الـمَحْفُوظ فذلك أمرٌ مقْضِيّ لا بُدَّ مِنْ أن يكون مَا قَضَاهُ الله تعالى قَبْلَ أن يَكُون.

ومِنْهُم مَن قال بأنَّ إثبات ما سَيَقَع وما سَيَحْدُث في اللَّوح هو القَضَاء.

بيْنَمَا القَدَر وُقُوعُ ذَلك، أيْ إيجَادُ الله ـ تعالى ـ للأَشْياء التي قَضَى أن تُوجَد في اللَّوْحِ الـمَحْفُوظ، ولذلك قال مَن قال بأنَّ القدر هو خَلْقُ الله الأجساد والأَعْرَاض، والقضاء هو إِثْبَات ذلك في اللَّوْح فهذا هو الفرق بين القَضَاء والقَدَر.

أمَّا الأخذ بالأسباب مع كَوْنِ كل ما يقع في الوُجُود مَقْضِيا ولا بد من أن يَقَع كما قَضَاهُ الله تعالى، فإنَّ الأخذ بها مِن سُنَّة الحياة، فالمسلم مع إيمانه بقضَاءِ الله ـ تعالى ـ وقَدَره وأنَّه لن يُصِيبَه إلا ما كَتَب الله لَه كما قال الله تعالى:

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

وقال: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧] وقال: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ

إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧].

هــو مَأمُورٌ بأن يأخُذَ بأسبابِ الخَيْرِ مِن ناحِية عَمَلِه بِنَفْسه في حياته وعليه أن يَتَّقِيَ الله بِحَيث يَمْتَثِلُ أَمْرَه ويَزْدَجِرُ عن نَهْيِه ويقِفُ عند حُدُودِه ويُحكِّم شَرْعَه ويُذْعِن لِطَاعته في كل جزئيةٍ من الجزئيات فضلاً عن الكُلِّيات، حتَّى تكون حَيَاتُه كُلُّها تَجْسِيداً لأَمْرِ الله، فهو وإن كان لا يَدري بالخَواتِم إنما عليه أن يحرص على حسن الطاعة لله في سره وجهره ويتكل على الله في إحسان خاتمته.

وكذلك في أَمْرِ دنياه يجب عليه أن يَتَّقِي شُرُورها بتفادي أسبابها ويجتلب خيرها بالتعرض لأسبابه، فليس له أن يهْمِل أسباب هذه الحياة بل عليه أن يتداوى من سقمه وإن كان يعلم أن الدواء لا يدْفَع المَنُون فإن كان ذلك المَرَض سبباً لِوَفاته في علم الله وقضائه فإنَّه سَيَمُوت قَطعاً بسببه وَلَن يَقِف العِلاج حَائِلاً بَينه وبَين المَوْت، وكذلك إن كَانَ مَقْضِيّاً بأن يتضَرَّر بِشيءٍ فلا بد من أن يتضَرَّر به ولَكِن يأخُذُ بالأسباب فيَدْفَع الضرر بِقَدْرِ المُسْتَطَاع، وقد يُصَادِفُ الإنسان خَطَراً في طَرِيقِه فعليه أن لا يقول: «إنْ كان هذا الخطر مَقْضِيّاً أن يُصِيبَنِي فَلا بد من أن يُصِيبَنِي وأنا لا أَحْتَرِزُ منه»، بل عليه أن يَحْتَرِزَ مِنه وعليه أن يأخُذَ في كل أمرٍ بأسباب السلامة، فليس له إن رأى سيارة مُقْبِلَة أن يتعرض لها، ويقول: «لا أُبَالِي لأنَّ المُقَدَّر كَائن» وإنَّمَا عليه أن يَحْتَرِز ويَبْتَعِد عن الاصْطِدَامِ بها، كذلك عندما يَرى سَبُعاً مُقبِلاً نَحوه عليه أن يَحْتَرِزَ ويَبْتَعِد مِنه وأن يأْخُذَ بأسباب الدِّفَاع عَن نَفسه، ولا يقُولُ بأنَّه لا بد مِن أن يُصِيبَنِي مَا كُتِبَ عَلَيّ، فإنَّ القضاء أَمْر والأخذ بالأَسْبَاب أَمْرٌ آخر لا بُدَّ مِنه فالقضاء أَمرٌ غَيْبِيٌّ والأخذ بالأسباب أَمْرٌ تَكْلِيفِيٌّ لا بد منه، والله أعلم.

ما قولكم فيما يعتذر به بعض الناس عندما ينصحون بعدم السرعة من أن الشوارع مؤهلة للإسراع وكل شيء بقضاء وقدر؟

الذين يجيبون هذه الإجابة جهلة وإلا فمن رمى نفسه من جبل ومن شرب سماً ومن رمى نفسه في بئر كل هؤلاء لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم، وكلُّ ما يَجْرِي في هذا الكوْن إنَّما يَجْرِي بِتدْبيرٍ مِنَ الله الذي أَوْجَدَ الأسباب واقْتَضَتْ حِكمتُه أن تَكونَ مُفْضِيَةً إلى مُسَبَّبَاتِها، فالإنسان عليه أن يَأخُذَ بِأسبابِ الخيْر وأن يَدَعَ أَسبابَ الشر، فلَو كان هذا الذي يَقُولُونَه عُذرا لَهم في الإسراع لَكان أيضاً في ذلك عُذْر لِمَن رَمَى نفسَه مِن شاهِق أو في بِئر أو مَن شَربَ سمّا أو أَطْلَقَ على نفسِه الرصاص أو فَعَلَ أيَّ شيءٍ مِن هذا القَبِيل، لأنَّ كلَّ ذلك إنَّما تَكونُ الإصابةُ فيه بِقَدَرٍ مِن الله تعالى، فلَن يُصِيبَ أحدا إلا ما كَتَبَه الله ـ تعالى ـ لَه، ولكنَّ الله ـ تعالى ـ أَوْجَدَ العقولَ في البَشَر، وجَعَلَ الإنسانَ أَمِيناً على نفسِه: ﴿ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴾ [القيامة: ١٤] فهو مأمورٌ أن يَتَّقِيَ كلَّ ما يُؤدِّي بِه إلى الهلاك، وكلَّ ما يُؤدِّي بِه إلى الضَّرَر، وليس هو أَمِينا على نفسِه إن كان لا يُبالِي بِأن يُورِدَهَا مَوارِدَ الهلاكِ والعَطَب، والله أعلم.

ما الفرق بين القضاء والقدر؟

قال كثيرٌ مِن العلماء إنَّ القضاء هو إِيجَادُ الأشياء في اللوح إِجْمالا، والقدر هو إِيجَادُها في المواد تفصيلا.

فالله تعالى قضى في اللوح المحفوظ كل ما وقع في هذا الكون، فحركاتنا وسكناتنا وأعمالنا وفرحنا وترحنا وكسبنا وعطائنا وكل ما يصدر منا وما يقع علينا إنَّما هو مقضي في اللوح المحفوظ، ووجود ذلك في اللوح المحفوظ هو القضاء، ولكن إيجاد ذلك في الحياة التي نعيشها هو القدر، ولذلك عَرَّف

قطب الأئمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ القضاء والقدر تعريفاً مُبسطاً وابتدأ بالقدر فقال: القدر خلق الله الأجسام والأعراض، والقضاء إثبات ذلك في اللوح والله أعلم.

كيْف يَكون آخِرُ رمضان عِتْقاً مِن النار مع أَنّ الله تعالى قَضى أنّ مَن كان مِن أهلِ النار فَهُوَ في النار ؟

لا تبديل لكلمات الله تعالى ولا مُعَقِّبَ لِحُكمِه ولا رَادَّ لِقَضائِه، يَقولُ الله تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ٦٤] ويَقُولُ: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [قٓ: ٢٩] ولكن هذا لا يُنَافِي أن يَكتُبَ الله تعالى لأحَدٍ نَجَاةً بِسَببٍ ما، فَهَذَا الذي يُعْتِقُهُ الله تعالى في شهْر رمضان مِن النَّار عَلِمَ الله أنَّه سَيَصُومُ شهر رمضان إيمانا واحتِسابا مُخْلِصاً في عملِه لِوجْهِ الله ـ سبحانه ـ ومُتَنَصِّلا مِن ذنوبِه تائِبا منها فَيَكتُبُ الله تعالى لـه عِتْقاً مِن النار في مِيقَاتٍ مُعَيَّن مع أنَّ الله عَلِم أنه سَيُعْتِقُه مِن النار، وهذا كَمَا يَكتُبُ الله تعالى لِعِبادِه النَّجاة بِسببِ الأعمال التي يَعمَلُونَها، وكما يَكتُب ـ أيضاً ـ الهَلَكَة لِمَن كَتَبَ عليه الهلاك بِسببِ الأعمال التي يَعمَلُها، فكَوْنُ كلّ شيْء عندَ الله تعالى بِمِقْدار وكُلّ شيْءٍ مَعلوماً ومُقَدَّراً تَقدِيرا لا يُنافِي أن يَجعَلَ الله تعالى لِلسّعادةِ ولِلشَّقَاوةِ أسباباً عندَما يُمارِسُها الإنسان تُفْضِي بِه إلى أَحَدِ الأمْرَيْن، فعندَما يُمارِس أسبابَ السعادَة تُفْضِي بِه إلى السعادَة، وعندَما يُمَارِسُ أسبابَ الشَّقَاوة تُفْضِي بِه إلى الشقاوةِ والعياذ بالله والله أعلم.

القضاء والقَدَر لُغَةٌ يَتحدّث بِها مَن يقع في المخالفات الشرعية، فبِماذا يُجاب على هؤلاء ؟

كل شيءٍ بِقضاء وقَدَر، فلو قَتَلَ إنسانٌ إنساناً فإنه لم يَقتُله إلا بِقضاء وقَدَر، ولو زنى الزاني ـ والعياذ بالله ـ فهو لم يَزْنِ إلا بِقضاء وقَدَر، ولو

شَـرِبَ أحدٌ الخمر فإنه يَشـربُها بِقضاء وقَدَر، وآكلُ الربا إنمـا يَأكله بِقضاءٍ وقَـدَر، وكل معصيةٍ يَرتكِبها الإنسـان يَرتكِبها بِقضاء وقَـدَر، لكن لا يَعني ذلك إعفاءَ الإنسـانِ عن مسـؤوليته، فالله تعالى الذي خَلَقَ هذا الوجود هو خبير بِكل ما يَجري، وبِكل ما سـيَقع في هذا الكـون، لا تَخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فهو سـبحانه يَعلَم طوايا النُّفوس قبلَ أن تُخلَق، ويَعلَم الدوافعَ التي تَدفعُها إلى الخيْر والتي تَدفعُها إلى الشـر، ويَعلَم مدى استجابتها لِلخير واسـتجابتِها لِلشـر، ولكن مع هذا كلِّه فإنّ الله تعالى آتى الإنسـانَ اختياراً، وكلُّ أحـدٍ يَرى الفرْق بيْـن حركتِـه الاختيارية والحركة الاضطرارية، فعندما يُحرِّك يَده بِاختيارِه يَجِد أنّ تلك الحركة مخالِفة لِلحركة التي تَقَعُ لِليد اضطراراً كحركة الرَّعْشَة مثلاً، والإنسان مؤاخَذٌ بِكَسْبِه، فالزاني ـ مثلاً ـ ليس مُعاقَباً بِقضاء الله وقَدَره، وإنَّما هو مُعَاقَبٌ بِكَسْبِه الزِّنا وقد كان كسبُه بِاختيارِه بِنفسِه، وقد علم الله تعالى هذا الاختيار وهو في الأزل فلذلك قضى أنه سيَقع ذلك، لأنه عَلِمَ أنّ العاصي سيَختار الشَّر على الخيْر وسيُؤْثِر هَوَى نفسِـه على طاعةِ ربِّه سـبحانه فحَكَمَ الله تعالى بِما حَكَمَ به عليه في الأزَل لا لأجل أنّه مُصَرَّفٌ كما هو الشـأن في الميت الذي لا حِرَاك له وإنَّما هو مُتَصَرِّفٌ بِاختيارِه، وقضاءُ الله ـ تعالى ـ وقَدَره جَرَى حَسْبَ علمه ﷻ مِن اختيارِ هذا العبد، فليس لِلإنسـان أن يَتَخَلَّصَ مِن أيَّةِ مسؤوليةٍ بِدعوى قضاءِ الله ـ تعالى ـ وقَدَره، ولو كان الأمر كذلك لَما بَقيَت مسؤولية على أيِّ أحد، فلا تثريب على قاتلِ النفس أن يُقتَل ولا يلزم مَن سَرَقَ أن تُقطَع يَدُه بِحَسب الحكم الشـرعي وأن تُردَّ السـرقةُ إلى أهلها، ولا يلَـزِم أن يُؤمَر بِالمعروف ويُنهى عن المنكَر بل المفروض لو كانت المسؤولية على القضاء والقدر أن يُترَك الأمر بِالمعروف والنهي عن المنكَر ويُخَلَّى كلُّ أحدٍ يَرتكِب ما يَرتكِب لأنّ كل ما يَجري إنَّما هو بِقضاء وقَـدَر، ولكن أنَّى يكون ذلك. ونحن نَعلَم

أنّ الله ـ تعالى ـ لا يُعصى بِإكراه فإن عصاه العبدُ فإن تلك المعصية لا تَكون خارجة عن إرادة الحق تعالى ولكن إرادته أن يُعْطِيَ النَّاسَ القدرةَ على الاكتساب وأن يُؤاخِذهم بِما كَسَبوا ويُثِيبَهم على اكتسابِهم الخير ويعاقبهم على اكتسابهم الشر، والله ـ تعالى ـ المستعان، والله أعلم.

هل يمكن أن نصف الحالات التي نعيشها من فقر وغنى ونجاح وفشل أنها أقدار كتبت علينا، أم أنها أقدار نكتبها بأيدينا؟

سبحان الله ما أعجب هذا السؤال وما أغرب هذا التفكير فمن الذي يغني أو يسعد؟ ومن الذي يكتب لنفسه النجاح أو الفشل؟ أترون أن أحداً يريد لنفسه الفقر أو الفشل أو المرض أو العقم أو البؤس أو الخمول، أو أن تلك هي قسمة الله بين عباده وهو أحكم الحاكمين!؟.

إن بعض الناس كثيراً ما تكون عندهم نوادر في الآراء والأفكار، وقد يطوّعون آيات القرآن الكريم أو نصوص الحديث النبوي الشريف لما يعتمل في نفوسهم من أفكار وما ينقدح في أذهانهم من تصورات، سواءاً أمكن حملها على ما أرادوا أو تعذر، وقد يدفعهم أحياناً حبُّ الظهور إلى مخالفة الجمهور والخروج عن المشهور بناءاً على قاعدة: «خالف تُعرف»، ومن ذلك أن أحد المفسرين المعاصرين فسر قول الله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩] بما معناه يغفر لمن يشاء المغفرة بسلوك الأسباب الموصلة إليها، ويعذب من يشاء العذاب بسلوك الأسباب المؤدية إليه، فجعل المشيئة مشيئة العبد في العذاب والمغفرة وسلبها عن الله تبارك وتعالى إذ جعل فاعل فعلها «يشاء» ضمير العبد المغفور له أو المعذب.

وقد وجه إليه ـ إبان تأليفه هذا التفسير ـ شيخنا العلامة إبراهيم بن سعيد العبري رسالة حافلة بالأدلة المقنعة بيّن له فيها أن النصوص القرآنية

لا تطاوعه على هذا التفسير، لأنه لا يمكن أن يُجعل فاعل يشاء في هذه الآية ضميراً راجعاً إلى العبد المغفور له أو المعذب مع أن فاعل المشيئةِ في نصوصٍ كثيرة مشابهة لا يمكن أن يكون غير الله، من ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى ٤٩ ـ ٥٠].

فهل من شاء الإناث يوهب الإناث ومن شاء الذكور يوهب الذكور، وهل من أحد يشاء بنفسه أن يكون عقيماً، ولئن قدرنا هناك من يشاء بنفسه أن يكون عقيماً فهل هذه المشيئة يتفاعل الواقع معها، فيكون الذي يختار العقم بنفسه عقيماً، والذي يريد لنفسه الذكور يوهب الذكور، والذي يريد الإناث يوهب الإناث، والذي يشاء الذكران والإناث معاً يوهب الذكران والإناث معاً وذلك أن يوهب كما يشاء، أو أن ذلك كله راجع إلى مشيئة الله.

وسرد له غالب آيات المشيئة، ومنها الآيات التي فيها خطاب الله تبارك وتعالى، وإسناد المشيئة إليه كقوله:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦]

أوليس في هذا ما يكفي دليلاً على أن مشيئة المغفرة والعذاب لله وحده وإلا فكيف يتصرف في هذه الآيات بحسب الهوى فتجعل المشيئة تارةً لله وتارةً للعبد وهل يعقل أن أحدا مهما كانت شقاوته يشاء لنفسه العذاب ولكن شهوته هي التي تدفعه إلى ارتكاب الأعمال التي تؤدي به إلى العذاب، وما أشبه هذا السؤال وما ينم عنه من تفكير سائله بما ذكرته من هذا التفسير الشاذ المصادم للنصوص والعقل والله أعلم.

إذا كان الله عالماً بما سيصدر من العبد، فلم كان هناك إرسال الرسل، والأمر بالدعوة إلى غير ذلك من أسباب هداية الشخص، مع علم الله سبحانه وتعالى بأن تلك الأسباب لن تهدي ذلك الشخص؟

إن الله تعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيَّ عن بينة، فالحجة تقوم بإرسال الرسل وبإنزال الكتب، فمن أعرض عما أنزل الله من ذكر بعد قيام الحجة عليه ووضوح المحجة له فقد سلك سبيل الغواية بنفسه فلا يلومن إلا نفسه إن أفضى به عناده إلى هلكته، حتى لا تكون هناك حجة لأي أحد على الله عز وجل.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩] وحتى يقطع عذر كل جاحد ومعاند ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] على أن رسالة هؤلاء المرسلين وحجة هذه الكتبِ اهتدى بهما كثيرمن الذين كانوا على ضلالة، ثم إن الله تبارك وتعالى أراد أن يرسم طريقة لعباده في الدعوة إليه، فقد أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بإبلاغ جميع الناس الدعوة، مع علمه سبحانه وتعالى أن كثيراً من الذين يدعونه لا يؤمنون، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧] وقال فيهم: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠] وقال فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] ولكن مع ذلك لم يحرمهم الله سبحانه وتعالى دون سائر الناس عن هداية البيان التي تقوم بها الحجة عليهم، ولم يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتجاوزهم في الدعوة وأن يخص بها غيرهم، وإنما شملتهم الدعوة مع غيرهم لأسباب منها: أن تقوم الحجة عليهم فلا يكون لهم عذر في تركهم اتباع الحق، ومنها: رسم منهج الدعوة إلى الله تعالى للعباد، فالداعي إلى الله عليه أن يبلغ دعوته إلى الناس، ولا يبالي أقبلوا ما يدعوهم إليه أم رفضوا، أما إن أخذ على نفسه أن يهدي الناس إلى الحق ويزحزحهم عن الباطل فسينتهي به عمله إلى طريق

مسدود، وعندئذ تنقلب النتيجة عكســية، عندما يصطدم بإعراض الناس عما يدعوهم إليه.

فلا يعني أمر الله ﷻ الرسل أن يبلغوا رســالاته إلى الناس أن عليهم أن يهدوا قلوبهم ويحولوا حياتهم من الشر إلى الخير ومن الشقاء إلى السعادة، وإنما يعني ذلك أن يعرفوهم بالله وما له عليهم من حق الإيمان والطاعة، هذا مع ما ســبق في علمه سبحانه بأن كثيراً منهم لا يســلمون ولا يصح أن يعد ذلك من العبث، تعالى الله عن العبث والله أعلم.

يقول الله تعالى: ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٣٩] فهل هناك سبب يغير به الله ما قضاه في الأزل؟

أما ما قضى في الأزل فلا، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الرعد: ٣١] وقوله: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ٦٤] ويقول سبحانه: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [قٓ: ٢٩] فالتبديل مســتحيل علــى الله، ولكن قدر الله تعالى في اللوح أمــوراً مطلقة اختباراً لملائكته، وهي في علمه ســبحانه مقيدة بأمر يعلم الله عدم وقوعه، وعندما يأتي المقدور قد يتبادر بادي الأمر أن الواقع كان بخلاف ما هو مكتوب في اللوح، وقد يُؤدي ذلك إلى تســاؤل الملائكة حتى يكشف الله تبارك وتعالى لهم ما هم جاهلوه، فعلى سبيل المثال يقول العلماء «قد يكتب الله تعالى بأن فلاناً يعيش مدة كذا ولكن في علم الله أن عيشه هذه المدة مقيد بما إن لم يفعل كذا، فإن فعل كذا فسوف يعيش مدة أخرى فوق ما هو مكتوب، وقد علم الله أنه سيفعل ذلك، ففي علم الله أن عمره سيطول أكثر مما هو مكتوب» وهذا مجــرد تمثيل فقط، ولا يلزم وقــوع ذلك، وهذا مبني على أن المقصود بالمحو هنا هو المحو من اللوح المحفوظ.

ومن العلماء من يرى أن المقصود به أنه يمحو ما يشــاء من الآيات التي

يبعث بها رسله، ويثبت ما يشاء منها، بحيث إن الرسول قد يقرن بمعجزة من المعجزات وعندما ينتهي أَمَدَ هذه الرسالة تمتحي تلك المعجزة بانتهاء أثرها، ثم تأتي معجزة أخرى عندما يبعث الله رسولا آخر فتتجدد المعجزات بتجدد الرسالات، وهكذا فآية موسى عليه السلام انتهت بانتهاء وقته وقد كانت آيته العصا، ثم أرسل الله تبارك وتعالى رسولاً آخر وهو عيسى عليه السلام وقرنه بآيات أخرى كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، فالله يمحو ما يشاء من هذه الآيات ويثبت وقيل: يمحو الله ما يشاء ويثبت من الأحكام الشرعية وذلك بتناسخ الشرائع في رسالات الله حتى استقرت شريعة النبي ﷺ على ما هي عليه.

ولله أن يصرف الأمر كما يشاء، أما المقضي في الأزل فلا مناص عن وقوعه ولا يأتي عليه من يحول دون وقوعه، وقيل يمحو الله ما يشاء من الفرائض والنوافل بنسخ أحكامها، ويثبت ما يشاء بإبقاء أحكامها، وقيل يمحو ما يشاء من القرون بإبادتها ويثبت ما يشاء بإنشائها، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

نحن نعلم أن الإنسان يولد وقد كتب في علم الغيب جنسه وعمله وهل هو شقي أم سعيد وأجله ومصيره. فكيف نوفق بين إرادة الإنسان، وبين تدخل الله في أعماله، وموضع الإنسان بين كونه مخيراً أم مسيراً فيما يأتيه من أعمال؟

للإنسان إرادة، ويترتب عليها كسبه ومنه كل ما يأتيه وما يذره مما يعد طاعة أو معصية. وكل أحد يدرك الفرق ما بين الحركة الفطرية الاضطرارية في جسمه، وما بين الحركة الكسبية الاختيارية التي تنشأ عن إرادته. فالحركات الاضطرارية لا مناص للإنسان عنها. كنبضات القلب وخلجات الجسم والرعشة التي تكون بسبب برد أو خوف فكل ذلك لا يملك الإنسان دفعه أو منعه بوجه من الوجوه، أما الحركة الكسبية الاختيارية فإنه يقدم

عليها بدافع من نفسه، وهذا الدافع يُحس به لأنه أمرٌ وجداني سواء كان غضباً أو شهوة، فالذي يقتل أحداً يحمل السلاح مختاراً ويفتك بالمقتول من غير إكراه ولا اضطرار، لأنه يدرك عندما يفعل ذلك أنه قادر على منع نفسه من هذا الفعل، والله سبحانه وتعالى عندما قضى في الأزل ما قضاه من أعمال الإنسان، علم ما سيصدر عن كل واحد بمجرد اختياره وقصده، فقضىَ أن يكون ذلك باختيار هذا الإنسان لا بإجبار من الله، ولكنه هو في الحقيقة مقضي عند الله، لأن الله تعالى علم أن ذلك سيكون ويستحيل أن يكون شيء على خلاف ما علمه الله، وبهذا يوفق ما بين كون الإنسان كتبت تصرفاته في الأزل، وبين كونه مخيراً في هذه التصرفات، والله أعلم

ما تعني الآية ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠]؟

تعني الآية أن الإنسان لا يمكنه أن يحقق مشيئته بنفسه إلا أن تكون هناك مشيئة من الله تعالى، تسند مشيئته، فمشيئة العبد لو كانت بنفسها لما استطاعت أن تحقق شيئاً، فأنت ترى أن الإنسان قد يكون مصمماً على أمر ما ولكن تحول بينه وبين ما هو مصمم عليه حوائل، فلا يمكنه أن ينفذ إرادته وإن كان منه قاب قوسين أو أدنى، فما الذي يحول بينه وبين مراده؟، لا ريب أن ذلك راجع إلى أن مشيئة الله لا إلى مشيئة الإنسان والله أعلم.

ما المقصود بقولكم «إن إرادة الله فيما أمر به وليست فيما نهى عنه»؟

أنا لم أقل هذا ولم يكن هذا معتقدي أو قولي كذلك، وإنما ذكرت قول المعتزلة أن الله عندما يأمر بفعل الطاعات وينهى عن المعاصي، فإن إرادته هي وفق ما يقتضيه أمره ونهيه. أما جمهور الأمة فيقولون: إن إرادة الله تكون بحسب ما كان من طاعة أو معصية. إذ الله تبارك وتعالى لا يُعصى

مغلوباً، كما أنه تعالى لم يجبر العبد على المعصية. والقول بأن الإنسان يستقل بإيجاد فعله استقلالاً تاماً، وأن الله يريد منه الطاعة ولكن هو يفعل المعصية بخلاف مقتضى إرادة الله، فذلك يعني أن تكون إرادة الإنسان غالبة على إرادة الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً والله أعلم.

نعلم أن الله قد كتب ما سوف يفعله الإنسان من خير أو شر لعلم الله تعالى بما سوف يقصده هذا الفاعل. لكن هل يقال بما أن الله تعالى قد كتب ما سوف يكون للإنسان أن يفعله بأنه لا بد أن الإنسان سوف يسلك هذا المكتوب لا غير؟ ألا يسمى هذا تسييراً لا تخييراً؟

نعم، لا بد من أن يقع هذا الذي كتبه الله لأنه لو لم يقع لتبدل علم الله، تعالى الله عن ذلك ـ، والله تعالى لا تبديل لكلماته، وعِلمَ الله لا يتغير بحال من الأحوال وإلا لجاز أن يتحول جهلاً، فما عَلِمَ اللهُ تعالى أنه سيصدر من أي أحد من خير أو شر لا بد من صدوره منه، ولكن علينا أن ندرك أن صدور ذلك منه لم يكن بإكراه بل هو بإرادته واختياره ولم يكن مدفوعاً إلى هذا الذي صدر عنه والله أعلم.

هل يصح قولنا إن الكافر يدخل النار لأن الله لم يهده؟ وإذا كانت الإجابة بنعم، فهل لنا أن نقول بأنه لا ذنب لهذا الكافر لدخوله النار، لأنه أصلاً لم ينل الهداية ليعبد ربه وبعدها يدخل الجنة؟

يقال إن الكافر يدخل النار لأنه عصى الله تعالى وكفر به، فكفره هو السبب لدخوله النار، وكون الكفرُ مسبباً عن عدم هداية الله سبحانه وتعالى له، لا يعني ذلك أن عدم الهداية سبب لدخوله النار، لأن عدم الهداية راجع إلى الله سبحانه وتعالى، ودخوله النار راجع إلى فعل نفسه، ففعل نفسه هو الذي سبَّب له دخول

النار. ولا يصح أن يقال إن الكافر لا إثم عليه، لأنه اختار الكفر على الإيمان بنفسه مع أنه لم يحرم من هداية البيان التي تقوم بها الحجة عليه وإنما حرم هداية التوفيق والله أعلم.

ما معنى قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [الكهف: ٥١] واستشهاد من قال بأن الفعل غير المفعول أو عينه في هذه الآية والحق من ذلك؟

هذه الآية دليلٌ على أن الفعلَ غير المفعول والقضاء غير المقضي والخلق غير المخلوق. فإن قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [الكهف: ٥١] يدل على أن هؤلاء الناس ما أشهدهم الله خلق أنفسهم، ولكن أشهدهم أنفسهم، فهم غير شاهدين على خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وإنما هم شاهدون على السموات والأرض وعلى أنفسهم، ولو كان الخلق هو عين المخلوق لكان الله تعالى قد أشهدهم خلقهم لأنه أشهدهم أنفسهم وكذلك السموات والأرض، فالخلق إذن غير المخلوق، وهذا ما تدل عليه الآية الكريمة، أما الذين قالوا بأن الخلق هو المخلوق نفسه فإنهم قالوا لو كان غير المخلوق لكان الخلق مفتقراً إلى خلقٍ آخر لأنه حادث، والخلق الآخر يكون مفتقراً إلى خلقٍ آخر أيضاً لأنه حادث وهكذا يتسلسل الخلق خلقاً بعد خلق إلى ما لا نهاية له، فقرروا فراراً من ذلك بأن الخلق هو المخلوق، وإنما يجاب عن ذلك بأن الخلق فعل يحدث بإحداث الله له ولا داعي إلى التسلسل في الخلق فإن كل فعل يحدث معه مفعوله ولا ريب كل أحد يدرك بأن الزجاجة هي غير صنعها، فالصنع هو فعل الفاعل بها والزجاجة حصلت بصنع صانعها وقد توقف فعله، ولكنها ظلت باقية بعده لأنها أثره والله أعلم.

السائل يقول: ـ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] فإذا كان كل شيء جرى في الدنيا بمشيئة الله فلماذا يحاسبنا؟

الحساب إنما هو على أفعال العباد، فالله تعالى يشاء وقوع المعصية مع كراهته لها، والإنسان نفسه قد يكره الشيء ويشاء وقوعه، فلو أراد أن يقيم الحجة على أحد من أتباعه الذين تلزمهم الطاعة أنه مخالف لأمره فمع كراهته لمخالفته قد يأمره أمام الناس بِفعل أمر وهو يريد في ذلك الوقت ألا يفعله ليقيم الحجة عليه أنه مخالف لأمره، فالله تعالى يحاسبنا على أفعالنا التي كسبناها باختيارنا لا على مشيئته هو. وهو سبحانه الذي خلقها لنا ولم يخلقها إلا بمشيئته، ولو كان خلقها بغير مشيئته لكان خلقها اضطراراً ـ تعالى الله عن ذلك ـ ولو لم يكن هناك خلق لكنا مستقلين بإيجاد الأشياء استقلالاً تاماً. ونحن نرى أفعالنا كلها تأتي بعد تهيئة الله تعالى الأسباب لها ونجد الأسباب بعضها آخذاً بحجزة بعض حتى تصل إلى مسببها وهو الإتيان بهذه الأعمال، فمثلاً لو أراد أن يقتل إنسان غيره، فإن قتله له لا بد أن تسبقه أسباب تتسلسل حتى يتم له مراده، ومن جملة الأسباب وجود السلاح، والله تعالى يعلم أن هذا السلاح يوصل إلى القتل، ولكنه سبحانه هيأه له، إذ هيأ أولاً من يصنعه، كما هيأ المادة التي يصنع منها ثم هيأ وصول السلاح إلى القاتل، وبجانب ذلك هيأ الأسباب لأن يلتقي القاتل والمقتول في المكان الذي يتمكن فيه القاتل من المقتول فيقتله، وعندما يريد الإنسان ارتكاب مثل هذا الجرم وكان ذلك غير مراد لله سبحانه في الأزل فإنه لا يمكن أن يتهيأ له ما أراده، إما بباعث من نفسه بحيث يحس بما يثنيه عن مراده، أو لانقطاع الأسباب التي توصله إلى ذلك الفعل، فقد يصرف الله ذلك الذي يريد قتله عن الحضور في المكان الذي يتهيأ له فيه قتله، وقد يكون السلاح عاطلاً عن الفتك فلا يقوى القاتل على تحقيق مراده، وهذه الأمور كلها تدل

على أن الله تعالى هو الذي يهيئ الأسباب، وتهيئة الأسباب إنما هي بمشيئته تعالى لأن أفعال الله تعالى لا تكون كرهاً ـ تعالى الله عن ذلك والله أعلم.

كيف تسنى لنا أن نسند فعل الخير إلى الله ونسند الشر إلى أنفسنا وإلى الشيطان، مع أن خالق الخير والشر هو الله ؟

نسند الخير إلى الله خلقاً لا كسباً، ونسند الشر إلى أنفسنا تنزيهاً وتقديساً لله ﷻ، لأننا اكتسبنا الشر، ونسنده إلى الشيطان لأن الشيطان هو الذي وسوس به لنا، أما أن نسند الشر إلى الله بمعنى أن هذا الشر قد كان كَسْبُه من الله ـ تعالى الله عن ذلك فذلك غير جائز. والخلق نثبته لله إلا أننا علينا أن نتأدب مع الله، فالله تعالى خالق كل شيء، ولكنه عندما ندعوه لا نقول يا خالق الشر، كما لا نقول يا خالق الخنزير ويا خالق القردة ويا خالق القبائح، أو يا خالق الخمور أو يا خالق المعاصي، كل ذلك تأدباً مع الله، مع أنه خالق كل شيء، وإنما يقال يا خالقَ الخير ويا إلٰه الخير ويا خالق كل شيء فكونه خالق كل شيء هو عين الحقيقة التي أذنت الشريعة بأن يوصف الله بها على طريق الإجمال أما من حيث التفصيل فإن الحقيقة وإن كانت شاهدة على أنه خلق الشر كما خلق الخير وخلق القبائح كما خلق المحاسن إلا إن الشريعة منعت وصف الله تعالى بذلك تأدبا مع مقام الربوبية وهذا كما يمتنع فيما بين الناس التنابز بالألقاب ووصف بعضهم لبعض بما هم منطوون عليه من الدنايا الفطرية التي لا مناص لهم عنها كالانطواء على العورات وتلبيتهم للضرورات الطبعية بنحو إفرازهم الفضلات المعهودة من أجسادهم فإنه لا يعد من الأدب أن ينادي بعضهم بعضا بهذه الأوصاف ولو كان ذلك هو عين الحقيقة، وتتحتم مراعاة ذلك على الأولاد في خطابهم لوالديهم إذ لو أخذوا ينادونهم بمثل هذه الأوصاف لكان ذلك عقوقا منهم.

وهذا مثال لبيان وجه الافتراق بين الشريعة والحقيقة في هذا وإن كان يفرق بين أحوال العباد وشأن الله سبحانه بأن ما بالعباد إنما هو عيوب يبتغى سترها ونقائص لا مناص لهم عنها أما شأن الله سبحانه فكله كمال إذ لا يعد خلقه للشر أو لدنايا الأمور نقيصة أو عيبا وإنما هو كمال وعظمة كما في خلقه الخير وعظائم الأمور وإنما تنزيهه عن إضافتها إليه بالتفصيل لتجريد أسمائه سبحانه عن كل ما يشي بالقبح، كيف وقد وصفها الله بالحسنى في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] والله أعلم.

هل القدرة والمشيئة والإرادة كلمات مترادفة ؟

لا. فالقدرة ضدها العجز، كما أن العلم ضده الجهل، وأما الإرادة والمشيئة فهما كلمتان مترادفتان على الصحيح، وإن فرق بعض الناس بينهما تفريقاً جزئياً بسيطاً، وضد الإرادة الإكراه، كأن يكره الإنسان على فعل شيء وهو لا يريد فعله، والله تعالى لا يكون مكرهاً ـ تعالى الله عن ذلك ـ والله أعلم

انشق أبو الحسن الأشعري عن المعتزلة وخالفهم في عدة مسائل ومنها مسألة القدر، فهل يُعتبر رأيه رأياً وسطاً ؟

نعم، موقف أبي الحسن الأشعري في قضية خلق الأفعال يتفق تمام الاتفاق مع الأدلة الصريحة التي تدل على أن الله تعالى خالق لأفعال العباد، ويتفق أيضاً مع بيان رسول الله ﷺ لذلك وموقف سلف الأمة من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من هذه القضية، وهو عين موقف أصحابنا منها وإن كانت له في العقيدة آراء غير مسلمة لمنافاتها الأدلة القاطعة كما أن أصحابه منهم من جنح إلى القول بالجبر في هذه القضية وهو باطل قطعا والله أعلم.

لو فرضنا أن رجلاً يقود سيارة مع الالتزام التام بقوانين السير والمرور في ذلك الطريق، وفجأة اصطدم بسيارة عن طريق شخص آخر، هل نستطيع أن نصف ما حدث لذلك الرجل هو اكتساب لقدرة الله وكذا قيادة سيارته في ذلك الطريق أم قضاء مباشر من الله ؟

لا نقول اكتساب لقدرة الله، فقدرة الله لا تكتسب، وإنما يكتسب الفعل الذي يفعله العبد وهو كائن بقدرة الله وقدره كما قال تعالى ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فهذا الحدث كان بقضاء من الله، ولا يؤاخذ غير المتعمد بالخطأ وإنما يلزم في الخطأ الضمان في الأنفس والأموال لأجل سد الذرائع لئلا يتعمد الناس فعل شيء مما فيه ضرر بالغير ويلبسوا ذلك ثوب الخطأ والله أعلم.

السائل يسأل ذكرت أن خلق الخير والشر ليس لتمييز الصالح من الطالح والخبيث من الطيب إذاً فما معنى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]؟

الظاهر أن السائل ما فهم ما قلته أنا قلت بأن إرسال الرسل وإنزال الكتب ليس كما تقول الجهمية أنه لمجرد تعيين السعيد من الشقي، وإنما هو ابتلاء من الله وتكليف للعباد. وليس في ذلك تعيين للسعيد من الشقي، فإن السعادة والشقاوة أمرهما إلى الله ﷻ، والله يختم لمن يشاء بما يشاء والله أعلم

بماذا تفسرون أنه قد يقضي الله لإنسان أفنى حياته في عبادته وطاعته ثم يختم له بخاتمة سيئة فيكون من أصحاب النار أو العكس ؟

نقول ذلك من مشيئة الله سبحانه وتعالى، وله أن يفعل ما يشاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، أما بالنسبة للصالح الذي يختم له بخاتمة سيئة: فقد يكون

ذلك عقوبة على انطوائه على شـــيء يعلمه الله في قرارة نفســـه وإن لم يكن ذلك بادياً للعباد، وهذا الذي يختم الله له بالأعمال الصالحة ويجعله من أهل السـعادة مع أنه يقضي عمره في الشـر، قد يكون ذلك مجرد فضل من الله تعالى عليه، وقد يكون ذلك جزاءً حسـناً من الله له على خير فعله في حال عصيانه والله لا يظلم أحداً والله أعلم.

الله خالق الأفعال والإنسان مكتسبها، فهل اختيار الإنسان خَلَقَهُ الله بالنظر إلى أن الله عالم بما سيختاره الإنسان؟

نعم، اختيار العبد هو مخلوق لله لأن ذلك الترجيح الذي يقع في نفســه إنما هو بداع خلقه الله وأما ما وراء ذلك فسرٌّ ينتهي دونه طور العقل البشري والله أعلم.

هل صحيح أن الله قد قدر كل ما سيفعله الإنسان في حياته؟ وأنه قدر له السعادة أو الشــقاء؟ وإذا كان هذا صحيحاً فكيف سيكون الإنسان على هذا النحو مخيراً؟

نعم هذا صحيح، فالله تعالى يعلم من ســيكون من أهل الجنة من عباده لاختياره العمل الصالح، ومن سيكون من أهل النار لاختياره العمل الطالح، فالسعادة والشقاء مقضيان عند الله بحسب ما علم الله من أفعال العباد، وهذا لا ينافي الاختيار، والإنســان يدرك بفطرته أن له اختيــاراً، فهناك فارق بين حركتيه الفطرية الاضطرارية والكسبية الاختيارية، فاختياره للأعمال الصالحة أو السيئة يكون من قبل نفسه، والكل معلوم لله تعالى والله أعلم.

هناك بعض الآيات القرآنية التي تدل على أن النار لا بد أن تكون جزاءً كقوله تعالــى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٩] وهذا

يعنى أنه لا بد من وجود أناس يعصون باختيارهم أو بغير اختيارهم فتكون النار جزائهم؟

يعصون باختيارهم لا بإلجاء إلى هذا العصيان والله أعلم.

ما الرد على من يقول إن النساء أطول عمرا من الرجال، أو أن بعض التصرفات كالضحك مثلا يطيل العمر؟

الله تعالى يُعَمِّر من يشاء من النساء والرجال، وقد تكون النساء غير معرضات لما يتعرض له الرجال فتكون نسبة المعمرات منهن أكثر، وقد يقع العكس وكل ذلك بمشيئة الله، وأما كون الضحك يطيل العمر فذلك بمشيئة الله فكم من مرح وهو في حالة مرحه يموت وكم من عابس حزين ينسأ له في عمره والله أعلم.

إذا كان الإنسان يعلم أنه عند فعله لعمل ما كالسرقة مثلاً فإنه سيجد العقاب، فهل يعد بذلك الإنسان مخيّراً؟!

فعل الإنسان له جانبان: جانب هو مخير فيه وهو اختياره ما يريد أن يفعله من خير وشر، والجانب الآخر هو تمام ذلك الفعل وهذا أمره إلى الله عزوجل فالحاجز النفسي الذي يردعه عن فعل المعصية وهو خوف العقاب هو بقدر الله سبحانه وتعالى وقد كان يكون العائق من تمام الفعل أمراً خارجياً والكل قدر إلٰهي والله أعلم.

ما رأيكم في القول عند حصول بعض الحوادث: إنها حدثت صدفة؟

هي صدفة بالنظر إلى علم الإنسان المحدود القاصر الذي لا يحيط بكل شيء بل لا يعلم الا ظواهر الأمور وأما بالنظر إلى علم الله تعالى وقدره فذلك لم يحدث صدفة أبداً، فكل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكَيَس

وكل ما يحدث فى هذا الكون إنما يحدث بقضاء وقدر، ولو كانت الأشياء تحدث بالصدف من غير أن يكون هناك دخل للقضاء والقدر لكان الله تعالى قد تخلى عن هذا الكون بعد خلقه، والأمر ليس كذلك فإنه لم يتخل عن شيء بعد خلقه والله أعلم.

كيف يكون الإنسان مخيراً في عمل قد قدره الله عليه من قبل خلقه؟

قدّر الله تبارك وتعالى للإنسان قبل خلقه ما سيعمله، ولكن قدر الله تعالى كان ناشئاً عن علمه عزوجل باختيار الإنسان لأن الله عليم في الأزل بما سيختاره من خير أو شر وقد قضى ﷻ بأنه سيحقق له الخير إن أراده بتوفيق الله له وقدر أيضاً أن هذا الإنسان سيكسب الشر ويميل إليه بطبعه من غير إكراه، اللهم إلا إذا أراد الله ﷻ أن يصرف الإنسان عن الشر فيحول بينه وبين ممارسته إياه بما يشاؤه من الأسباب لطفاً منه تعالى والله أعلم.

هل القضاء والقدر يصدق على الأعمال أم على الاعتقاد أيضاً وإذا كان يصدق على الاعتقاد فكيف يولد الإنسان موحداً ؟

الفطرة التي يولد عليها الإنسان هي التوحيد ثم بعد ذلك عندما تنمو الملكات فيه وينشأ في الأجواء التي ينشأ فيها يتأثر برغبات نفسه وتأثير الشيطان ـ والعياذ بالله وشياطين الإنس عليه فيُصَدَّ عن الفطرة إن لم يكن موفقاً للمضي قدماً في سبيلها والله أعلم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. إن الله قادر على أن يكون الجميع في جنته، فهل هناك حكمة أو سبب في وجود أناس في الجنة وآخرين في النار؟

أمر القدر هو سر من أسرار الله، وقد جاء في بعض الروايات عن النبي ﷺ الأمر بالإمساك عند ذكر القدر[١]، فنحن لا نستطيع أن نكتنه حِكَمَ الله تعالى كما هي ولكن نعلم أن الله تبارك وتعالى أعطى الإنسان الاختيار وهداه النجدين كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] فما أصاب الإنسان من شر فإنما أصابه من نفسه وما أصابه من خير فهو بتوفيق الله تبارك وتعالى وبكسب نفسه أيضاً، حيث اختار بنفسه الخير ووفقه الله تعالى له فانقلاب قوم إلى الجنة وآخرين إلى النار أمر سبق في علم الله تعالى في الأزل واقتضته حكمته ولا نستطيع أن نخوض فيما لم يجعل الله تبارك وتعالى لنا الخوض فيه والله أعلم.

ما دام كل شيء بقضاء الله وقدره حتى العجز فهل الإنسان محاسب على ما يترتب على عجزه؟

هناك فرق ما بين عجز وعجز؛ عجز هو تكاسل عن فعل الخير مع وجود الطاقات في النفس، فهذا يحاسب عليه الإنسان أما العجز الذي هو عدم القدرة والاستطاعة أصلاً فلا يحاسب عليه والله أعلم.

إذا سألني شخص وقال لي: إذا كان الله قد كتب عليّ الشقاء فَلِمَ يعذبني؟ كيف يمكن الرد على هذا التساؤل؟!

الرد عليه بأن يقال له: إنما يعذبك بعملك الشر وكسبك الإثم فهو يعذبك على عملك ولا يعذبك على علمه ولا على قضائه وقدره وإنما على مقضيه ومقدوره وهو عملك والله أعلم.

---

(١) رواه الطبراني. انظر مجمع الزوائد (١١٨٥١).

إذا سأل شخص آخر وقال: هل ستأتي معنا؟. فيقول المسؤول: إن شاء الله، يمكن. فما قولكم في جواب المسؤول؟!

نعم، يعني إن شاء الله أن يقع هذا الشيء مني سيقع، أي إن شاء الله أن آتيك فسآتيك، وإن شاء الله عدم مجيئي فلن آتيك فكل شيء معلق بمشيئة الله والله أعلم.

ندرس في الجغرافيا البشرية أن متوسط الأعمار في الدول الفقيرة منخفض مقارنة بالدول الغنية أو المتقدمة، ونحن نؤمن أن الأعمار بيد الله.. فهل قاعدة متوسط الأعمار مخالفة لتعاليم الإسلام؟

جعل الله ﷻ الأمور مرتبطة بأسبابها، ولكن مع ذلك هي مقدرة تقديرا، لأن الله إذا أراد أمرا هيأ أسبابه، وهذه الأسباب ليست مؤدية إلى مسبباتها بطبيعتها، بل لأن الله ﷻ جعلها أسباباً وأذن لها بأن تؤدي إلى مسبباتها، وعليه فلا مانع من أن تكون هناك أسباب لطول العمر وأسباب لقصر العمر، ولكنها أسباب غير مطردة، فإن الدول المتقدمة قد يوجد فيها قصار العمر، بل يوجد فيها من لا يعيش إلا لحظات، ويوجد فيها من يعيش أياماً، ومن يعيش شهورا، ومن يعيش أعواما، والدول النامية قد يوجد فيها المعمرون الذين يعيشون عمراً مديداً، وهذا لا ينافي أن تكون هناك أسباب لطول العمر وقصره، ولكن مع ذلك فإن إرادة مسبب الأسباب فوق تلك الأسباب والله أعلم.

يقال: إن الإنسان مسير ومخير، فهل الهداية إلى طريق الحق والتوبة هي من الإنسان نفسه، أم أن الله جعل له الهداية وقدّر له السير في طريق الصواب رغم كل التيارات الدنيوية والشيطانية، ولقد قال تعالى في

كتابه العزيز ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤] فهل دخول الإنسان الجنة أو النار بقدرة الله أم لا ؟! نرجو ألا تعتبروه سؤالا ليس في محله أو أنه سؤال غير مناسب ؟

الله ﷻ عندما خلق هذا الكون لم يتخلَ عنه، ولم يتركه تحت تصريف غيره، بل كل ما يجري فيه إنما هو بقضاء وقدر، والله ﷻ هو المقدّر، فلا تتحرك ذرة إلا بقدر سابق من الله، ولكن الطريق في معرفة الصواب في هذا طريق شائك، ولذلك تورطت في هذا الأمر طائفتان: طائفة أفرطت وأخرى فَرَّطت، فالطائفة المُفرطة هي التي نسبت كل شيء إلى الله ﷻ، ولم تجعل للعبد كسبا لأعماله، وقالت: إن الإنسان كالخيط في الهواء تحركه الرياح حيث شاءت، والمفرّطة هي التي قالت: إن الإنسان يستقل بإيجاد أفعاله استقلالا تاما، من غير حاجة إلى تدخل القدر فيما يفعل أو يترك، فالإنسان ـ بناءاً على معتقدهم ـ خالق لأفعاله، والله ﷻ لا تتعلق له إرادة بفعل العبد، وعليه فقد جعلته تعالى عاجزاً عن رد ما يكره وإن لم تكن صرحت بذلك ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ والذي دفعهم إلى ذلك أنهم أرادوا تنزيه الله عن المعصية غير أنهم أخطأوا فجعلوا إرادة خلقه هي النافذة في أفعالهم دون إرادته، والطائفة الأولى فرّطت حيث قصّرت في تنزيه الله ﷻ، إذ نسبت المعاصي إليه وهو منزه عن ذلك.

والمسلك السليم هو وسط ما بين مسلكي التفريط والإفراط، وهو اعتقاد أن كل ما يجري في هذا الكون هو بمشيئة الله، ولكن للإنسان كسب وإرادة واختيار كما قال تعالى ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان ٣]، فالإنسان مخير بجانب كونه مسيرا، ويدرك الإنسان بفطرته وبعقله الفارق بين حركتيه: الاختيارية والاضطرارية، فالرعشة التي تكون في جسمه بغير اختياره أو الحركة الفطرية التي تكون في بدنه كنبضات قلبه ليس للإنسان

فيها كسب، إذ لا يستطيع أن يوقف ذلك من تلقاء نفسه، والحركة التي يريدها فيأتيها باختياره، هي من كسبه، ولا يمكن أن تكون الحركتان جميعا من باب واحد.

فإن قيل كيف تتعلق بالفعل الواحد الذي يفعله العبد إرادتان إرادة الخالق وإرادة المخلوق؟ فالجواب: أن الله ﷻ عليم بكل شيء قبل حدوث الأشياء، فهو في الأزل عليم بما سيكون كيف يكون، وقد علم الله ﷻ اختيار كل عبد من عباده، فهو يعلم اختيار الطائع للطاعة واختيار العاصي للمعصية، وقد هيأ الله ﷻ لكل منهما ما يختاره، فيكون خلق الفعل مع اختيار العبد له وتوجهه إليه، وقد قضى الله في الأزل ما يكون من فعل الطائع أو العاصي بحسب ما علم من اختيارهما، ومع ذلك قد يحول الله ﷻ بين العبد وما يختار، فقد يختار الإنسان المعصية ولكن الله ﷻ للطفه به يحول بينه وبين ارتكابها بموانع لا يريدها الإنسان، وأحيانا يريد الإنسان أن يأتي بالطاعة وتحول بينه وبين الإتيان بتلك الطاعة حواجز وموانع، ولا ريب أن تلك الموانع عندما تكون خارجة عن كسب الإنسان لا تكون مانعاً من أن يكتب له أجر نيته فعل تلك الطاعة التي أرادها، فإن لكل امرئ ما نوى. فإذاً قدرة الله ﷻ تتعلق بكل ما يكون وبكل كائن، وقدر الله يتعلق بكل كائن، فالله بقَدرته وإرادته وقدره يدخل من يشاء الجنة ويدخل من يشاء النار، ولا يعجز الله ﷻ شيء، والمقصود بالقدر هنا القدر المصحوب بالمقدور، وليس القدر الإلٰهي وحده هو السبب في استحقاق العبد دخول الجنة أو النار، بل المقدور ـ وهو فعل العبد ـ هو الأصل الذي يستحق به العبد المصير الذي يؤول إليه من الجنة أو النار والله أعلم.

ما الفرقُ بين قدرةِ الله تعالى وعلمه؟ حيث التبســت أذهان بعض الناس فظنوا أن علم الله الأزلي اقتضى حتمية مصير الإنسان للجنة كان أو النار، فمنهم من لج في المعاصي، ومنهم من ســلك طريــق العبادات، فيرون أنهم واقعون تحت قدرة جبرية لا يد لهم فيها؟

أما الفرق بين قــدرة الله تعالــى وعلمه فواضح، فمدلول القدرة شــيء ومدلول العلم شيء آخر، فالقدرة هي ضد العجز، فالله بقدرته المطلقة يُوجد المعدوم ويُعــدم الموجود، بحيث تنفعل له الأشــياء انفعــالاً تاماً، من غير بطء ولا عسر، أما علمه تعالى فهو انكشــاف جميع المعلومات أو انكشاف الحقائق لله تعالى انكشــافاً تاماً فهو ضــد الجهل، وقد عَلِمَ الله ســبحانه ما يختارهُ كل واحد من العباد، ولذلك كتب الله تعالى ما كتب في ســابق علمه بأن فلاناً من أهل الجنة أو من أهل النار بحسب اختيار كل أحد لنفسه الخير أو الشــر وموته على ما اختار، لأنه علم الذي هو من أهل الجنة أنه سيختار الخير ويموت عليه، وأن الذي هو من أهل النار ســيختار الشر ويموت عليه ـ والعياذ بالله ـ، فلم يكن في ذلك شيء من الجبر.

والإنسان بنفسه يدرك الفارق ما بين حركتيه: الحركة الفطرية الاضطرارية والحركة الكسبية الاختيارية، فالإنســان تعتريه الرعشة فلا يستطيع أن يمتنع عن الارتعاش، وكذلك دقات قلبه لا يســتطيع أن يوقفهــا ويمنعها عن قلبه، وكذلك لا يســتطيع منع نبضات العــروق النابضة في جســمه، فكل حركة اضطرارية فيه لا يمكنه أن يمنعها، ولكن بجانب ذلك يتحرك بنفسه حركات اختيارية، فيرفع يده إذا أراد، ويضعها إذا أراد، ويتناول الشــيء الذي يريده، فهو يشرب الماء، ويتناول الغذاء متى أرادهما ويسعى بقدميه إلى حيث يريد ويشيح بوجهه ويصرف نظره إلى حيث أراد.

والإنسان يشعر أن هنالك فارقاً ما بين فعله الذي يضطر إليه اضطراراً بحيث لا يكون له فيه كسب، وبين الفعل الذي يكسبه باختياره، فالفعل الذي له فيه كسب إنما يخلقه الله له عندما يريد أن يكتسبه، فالخلق من الله والكسب من العبد، وكسب العبد هو الذي يترتب عليه الثواب والعقاب، وخلق الله سبحانه تعالى الفعل لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، لأن الإنسان غير مجبور على ما اكتسبه والله أعلم.

الذي يُسرع في سَوق السيارة حتى يؤدي به الإسراع إلى حادث يقضي على حياته، هل هذا من جملة الأشياء المقضية؟

نعم، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: «كل شيء بقضاء وقدر حتى العجز والكَيس»[1]، فما من شيء إلا وهو مقضي عند الله، فالله ﷻ خلق أفعالنا، وإنما نحن نكتسبها، وقد أعطى الله الإنسان إرادة وقدرة، والإنسان بعقله يفرِّق ما بين حركتيه الاختيارية والاضطرارية، فعندما تعتريه رعشة لا يستطيع أن يدفعها عن نفسه، لكنه في المقابل يملك إرادة في أن يضع يده هنا أو يضع قدمه هناك، فهو يتصرف في ذلك وفق مقتضيات إرادته ويتحرك كما تملي عليه رغبته، وهذه الحركة التي يتحركها هي حركة اختيارية وليست حركة اضطرارية، إلا أنها مع ذلك مقضية عند الله فلا مناص للإنسان عنها، وإنما قضاها الله بحسب ما عَلِمَ من اختيار الإنسان نفسه، فالسكران الذي يسكر ذنبه مقضي، وقد عَلم الله ﷻ أنه يسكر، ومكتوب في الأزل بأن هذا الإنسان يكون من السكارى، والذي يموت قاتلاً نفسه، كأن يئِد نفسه بحديدة، أو يتحسى سماً عمله معلوم عند الله، ولكن مع ذلك هو مؤاخذ به، لأنه اكتسبه، فالإنسان مؤاخذ بفعله الذي يفعله باختياره لا بخلق الله ﷻ لأفعاله.

---

(١) رواه الإمام الربيع (٧٢).

ومن هنا نقول: إن الإنسان منهي عن الإسراع في السير لأنه مظنة الهلكة وقد قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] على أن هذه السرعة إما أن تؤدي به إما إلى قتل نفسه أو إلى قتل غيره وحسبك من أمرين أحلاهما مر. ذلك لأن المُسرع لا تمكنه السيطرة على السيارة، وأحياناً ينفلت طفل فيقطع الطريق خصوصاً عندما تكون السرعة في الطرق الآهلة بالسكان، أو يخرج إنسان على غير قصد، أو تخرج سيارة أخرى من غير أن يُحس سائق تلك السيارة بأن سيارة آتية من بعيد بسرعة، لأنه لا يرى في القرب شبح سيارة. وهذا كله يدعو الإنسان إلى أن يفكر ويحاسب نفسه، وهو مؤاخذ بتعرضه للأسباب التي تؤدي به إلى الموت، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩ ـ ٣٠] والله أعلم.

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وقدّر له أعماله، فيقول قائل: كيف يحاسب الله سبحانه وتعالى الإنسان بعد أن قدّر له أعماله وهو يعلم ما ينوي على فعله؟

انقسم الناس في هذه القضية إلى ثلاثة أقسام: منهم من أفرط ومنهم من فرّط ومنهم من اعتدل. أمّا من أفرط فقد حرص على تنزيه الله سبحانه وتعالى ولكن تجاوز حدود الاعتدال حتى وقع في العكس، إذ حاول أن ينزه الله فانقلب إلى ضد ذلك وهم المعتزلة، الذين قالوا: بأن كل ما يعمله الإنسان ليس مقضياً عند الله، وإنما يعمل الإنسان ما يعمل باختيار بنفسه من غير أن يكون لله قضاء وقدر في ذلك الأمر، فليس هنالك قدر، هؤلاء أرادوا أن ينزهوا الله عن المعصية، ولكن وقعوا فيما هو أشد، إذ سلبوا الله نفاذ الإرادة والقدرة.

والفئة الأخرى ـ وهي التي تسمى بالجبرية وهم أصحاب جهم بن صفوان ـ قالوا إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يفعل كل شيء، والعبد لا يفعل شيئاً،

فالعبد مثله عندما يواقع المعصية أو يأتي بالطاعة كالخيط في الهواء تقلبه الرياح، في حين أن الإنسان يدرك بفطرته أن هناك فرقا ما بين الأعمال التي يأتيها اختياراً، والأعمال التي يضطر إليها، فهو يتحرك مختاراً ويتحرك مضطراً ولكن ما بين الحركتين الاختيارية والاضطرارية فرق واضح، فحركة الرعشة التي تحدث لليد أو أي عضو تحدث بدون إرادة، ومثلها نبضات قلبه وخلجات جسمه، ولكن حركته عندما يريد أن يتناول شيئاً حركة مصحوبة بإرادة وناشئة عن اختيار، فشتان ما بين الحركتين، والله ﷻ لا يعاقب على القدر الذي هو فعله ولكنه يعاقب على المقدور، الذي هو فعل العبد، لأن العبد فعل ما فعل من اختياره ولم يفعل ذلك جبراً، والله عليم منذ الأزل بالذي سيختاره الإنسان، هل سيختار الخير أو سيختار الشر؟ وقد جرى القلم بحسب ما علم الله ﷻ من اختيار العبد، فقد يختار الإنسان بادئ ذي بدئ مسلك الحق ويستمر عليه طويلاً، والله عالم بأنه لا يموت على ذلك بل يموت شقياً، وأنه سيختار آخر العمر معصية الله، فيكون في علم الله من الأشقياء، وكذلك قد يعمل الإنسان عملا سيئا يعد من كبائر الإثم، وقد يكون ملحداً لا يدين بشيء من الأديان، ومع ذلك فهو في علم الله من السعداء، لأن الله ﷻ علم بأنه سيختار آخر ما يختار نهج الحق، وسيسلك الصراط المستقيم ويستمسك بالدين القويم، فالله لا يؤاخذ الناس بقدره، ولكنه يؤاخذهم بما هو مقدور ـ أي ما يصدر منهم ـ والله أعلم.

هل القدر هو فعل العبد واختياره وخلق الله تعالى للفعل؟ وهل يقال مشيئة العبد من مشيئة الله تعالى؟

القدر خلق الله الأجسام والأعراض، والقضاء هو إثباتهما في اللوح، ومشيئة الإنسان منوطة بمشيئة الله وليست عينها، والله أعلم.

تســأل فتاة فتقول إن الله تعالى خلقها معوقة فــي رِجْلَيْهَا، ولكن بعض إخوتِها أو بعــض الذين يكونون حولَها يُعَيِّرُونَهَــا بإعَاقَتِها ويقولون إنَّ الله كان يعلم أنَّك لو خُلِقْتِ ســليمة ستكونين جائرة في الأرض، فتريد نصيحة.

بِئْسَ ما يَقُولُون، فهذا الكلام لا يَصْدُرُ إلا عن جَهل وعَنْجَهِيَّة وعَدَم فهمٍ للواقع، وعدم معرفة بحِكمة الله تعالى، فإنَّ الله ـ تعالى ـ يَبتَلِي مَن يشاء مِن عِبَاده بِما يشــاء مِن البلاء، وأعظم النَّاس بَلاءاً الأنبياء ثُــم الذين يَلُونَهُم ثُم الذين يَلُونَهم، وإنَّما البَلايا تَتنَوَّع، فقد يُبْتَلَى الإنســان بِمُصِيبَة فِي بَدَنِه، وقد يُبْتَلَى بِمُصِيبَة فِي مَاله، وقد يُبتَلَى بِمصيبة فِي عِرْضِه، وقد يُبتلى بِمصيبة فِي أَهله وذُرِّيتِه، وقد يُبتلى بِمصيبة فِي عِزِّهِ وَفِي شَرَفِه، فكل ذلك مِمَّا يَبتلي الله ـ تعالى ـ به مَن يشــاء، وكل مُصيبة تُصِيب الإنســان تَرفَعُ مِن قَدره، وتُعْلِي مِن شأنِه عند الله عندما يَحْتَسِب أجره عنده، ولا يَجد في نفسه غَضَاضَة مِمَّا أصابه.

ويَجب على النَّاس أنْ يُخفِّفُوا عن أصحــاب المصائب، لا أن يُضَاعِفُوا المصائب عليهم بِجَعْلها سَــبَبا للسخرية منهم والاستهزاء بِهم، والاستخفاف بأقدارهــم، والتَّنْكِيت عليهم، فإنَّ هذا شــأن الجهلة الذيــن لا يُفَرِّقُون بين الضَّبِّ والنُّونِ، ولا بين التَّمْرَة والجَمْرَة، وعلى العاقل أن يترفَّع عن مثل هذا التصرُّف، وأن يكون حَلِيما في تَصَرُّفِه، وَدُوداً إلى النَّاس، يُحب لَهم الخير، ويَسْتَعْطِف النَّاس بأخلاقه وبِحُسن معاملته، ويتَلَطَّف بالضُّعفاء كما كان ذلك مِن شأن الرســول ـ عليه أفضل الصلاة والســلام ـ وكان ذلك شَأْن السَّلَف الصالِح، فَهَذه المعامَلَة مِن الآبــاء والأمهات أحيانا، ومِن الإخوة والأخوات أحيانا أخرى، ومِن المجتمع في بعــض الأحيان في حَقِّ المصابين إنَّما تدُلُّ على تَحَجُّر العقول وعدم الإدراك لِحِكمة الله تعالى وإلَّا فما على الإنســان

إلَّا أنْ يَشكر الله ـ تعالى ـ على نعمة العافية إن كان مُعَافَى، كما أنَّ على المبْتَلَى أن يصبرَ على البلاء إن كان مُبْتَلَى؛ والله تعالى يُؤتِي فضلَه مَن يشاء والله أعلم.

جاء في كتاب «بأنه إذا تمّ أمر لإنسان فهو قضاء وقدَر لا يمكنه أن يدعو من أجل إصلاحه، فإذا انكسرت يد الإنسان فإنه لا يصحّ له أن يدعو الله ـ تعالى ـ ليبرئها، نظرا لأنّ ذلك قضاء وقدَر وقد فات أمره وانتُهِي منه»، ما رأيكم في هذا الكلام؟

لا ريب أنّ كل شيء بقضاء وقدَر، كما دلّ على ذلك حديث الرسول عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، ذلك لأنّ الله تعالى الذي خلق هذا الوجود هو الذي يُصرِّفه، فما يحدث في هذا الوجود إنما يحدث بقضاء وقدَر من الله تعالى.

والفرق بين القضاء والقدَر أنّ القضاء ـ كما يُفسِّر ذلك بعض العلماء ـ هو إيجاد الأشياء في اللوح المحفوظ إجمالا، والقدَر إيجادها في المواد تفصيلا؛ وفي هذا يقول قطب الأئمة رَحِمَهُ اللَّهُ: «القدَر خَلْق الأجسام والأعراض، والقضاء إثبات ذلك في اللوح»؛ ومؤدى ذلك واحد.

ولكن لا يعني هذا أنّ الإنسان لا يطلب من ربه جل وعلا أن يدفع البلاء، وأن يكشف الضراء، وأن يأتي بالسراء؛ ولو كان قضاء الله وقدره يقتضي الاستسلام المطلق من الإنسان لما يجري من غير أن يحاول إصلاح ما فسد، أو يحاول معالجة مرض، أو يحاول تقويم ما اعوج، لأدى ذلك إلى فساد نظام الكون بأسره، ولكن الإنسان ـ وإن كان يصاب بأنواع البلايا بقضاء وقدر من الله ـ فإنه يعمل جهد المستطاع من أجل دفع الضراء عنه وتحقيق السراء له، فلربما كان دعاء الإنسان سببا لتحقق القدر السعيد له،

ولربما كان امتناع الإنسان عن دعاء الله تعالى سببا لنزول البلاء به، فعلى الإنسان أن يسعى، وأنتم تعلمون أنّ الله تعالى هو عليم بأهل الجنة وبأهل النار، ومن علِمه الله أنه من أهل الجنة لن يتحول ويكون من أهل النار، ومن علِمه أنه من أهل النار فلن يتحول ويكون من أهل الجنة، ولكن مع ذلك على الإنسان يدعو ربه أن يجيره من النار وأن يغفر له خطاياه ويدخله الجنة، فقد أمرنا الله بالدعاء وحثنا عليه وذكر عن المرسلين أنهم يدعونه رغبا ورهبا، وحكى عن عبده إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢] وكذلك نجد أنّ الله يُعلِّم عباده في كتابه العزيز أن يدعوه ويُعلِّم نبيَّه ﷺ أن يدعوَه بالخير وأن يصرف عنه الشر، من ذلك قوله سبحانه تعليما له وهو تعليم لجميع المسلمين: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ۝٨٠ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء٨٠-٨١] فما معنى هذا الدعاء إن كان قضاء الله ـ تعالى ـ وقدره يقتضيان ألّا يسعى الإنسان في إصلاح أمره ؟!.

وما معنى ذهاب الإنسان إلى الطبيب من أجل طلب العلاج منه مع أنّ ما قضي لا بد من أن يقع عليه ؟! ذلك إنما هو تحرك للإنسان في عالَم الواقع بحسب ما جعل الله ـ تعالى ـ في هذا الكون من نواميس وسُنن، ولا يتنافى ذلك مع قضاء الله ـ تعالى ـ وقدره.

وقد أمرنا الله تعالى أن نتجه إليه بالعبادات وأن نحذر من الوقوع في محظوراته رغبة وطمعا في حسن ثوابه وحذرا وإشفاقا من التعرض لعقابه مع أنه تعالى يعلم مصير كل أحد إلى الجنة أو إلى النار والأعمال بخواتيمها وقد جعل الله كل أحد ميسّرا لما خُلق له، فلذلك على الإنسان أن يعمل الصالحات قدْر مستطاعه، وأن يتجنّب السيئات، وأن يحرص على كل ما يقربه إلى الله.

ولو كان الإيمان بالقضاء والقدر يقتضي ألّا يدعو الإنسان بالخير لم يكن هنالك معنى لأن يدعو الإنسان بالرحمة للأموات الصالحين، وبالرضا والمغفرة عنهم، فما معنى قولنا في أصحاب النبي ﷺ وفي الصالحين من عباد الله تعالى: «رضي الله ـ تعالى ـ عنهم»، «ورحمهم الله»، «وغفر الله ـ تعالى ـ لنا ولهم»؟! وقد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

ونحن نرى أنّ الله ـ تعالى ـ يُعلِّمنا الدعاء كثيرا في كتابه المحكم من ذلك قوله سبحانه ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٤] وقوله تعالى:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾

[آل عمران: ٨] وقوله:

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

[البقرة: ٢٠١].

وقوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

هذا مع أنّ نصر الله ـ تعالى ـ من جملة الأمور المقضية والمقدّرة؟!

فالدعاء إنما هو لجلب المصلحة ودفع المضرة، وقد يكون ذلك مقضيا ولكنّ الله ـ تعالى ـ جعل لكل شيئا سببا، وجعل من أسباب تحقق المصلحة للإنسان أن يدعو ربه تبارك وتعالى، ولذلك يقول الله تعالى ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾ [غافر: ٦٠].

فليَحْذَر الذين يتحدّثون عن هذه القضايا العَقَدية من الخوض فيها بدون علم وبصيرة.

والناس الذين يعتقدون أنّ من أصيب بشيء ودعا الله ـ تعالى ـ أن يكشف البلاء عنه كان دعاؤه منافيا للقضاء والقدر إنما هم يجهلون حقيقة الإيمان بالقضاء والقدر، فما على الإنسان إلا أن يتحرك وُسعه في الخير وأن يُصلح من أمره. والله أعلم.

وردت بعض الأحاديث تبيّن بأنّ الإنسان إذا عمل أعمالا صالحة فإنّ ذلك يزيد في عمره كزيارة الأرحام، ووردت أحاديث أخرى تبيّن بأنّ عمر الإنسان محدّد في اللوح المحفوظ، فكيف التوفيق بين هذا وذاك؟

العمر محدّد إذ الله تعالى يقول: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤] فالأجل لا يتقدم ولا يتأخر عن ميقاته المحدّد، وقد دل الحديث الشريف على أنّ الله تعالى يبعث الملَك عندما تُنفخ الروح في الجنين ليكتب كل شيء ومن جملة ما يكتبه أجله المحدد؛ فلا يزيد أجله عن ذلك ولا ينقص.

ولكن ما ورد من الأحاديث بأنّ بعض الأعمال تزيد في العمر وفي مقدّمتها صلة الأرحام معناها أنّ الله ـ تعالى ـ يجعل البركة في هذا العمر

بحيث يوفِّقه الله ـ تعالى ـ فيه للأعمال الصالحة وتتحقّق فيه المصالح له، لا بمعنى أنّ العمر يكون أكثر مما قدر؛ على أنّ من أهل العلم من يقول بأنه يحتمل أن يكون معنى ذلك أن الله تعالى يكتب أنّ فلانا عمره كذا ولكن إن عمل العمل الفلاني فإنه سيكون عمره أطول من ذلك بمقدار كذا والله ـ تعالى ـ عليم بأنه سيعمل ذلك العمل، والذي نميل إليه أنّ زيادة العمر إنما هي زيادة بركته لا غير والله أعلم.

كيف يتقبل الإنسان تجليات الله تعالى بالقبول والجمال والرضا مِن غير انفعال أو مِن غير رَفض أو ضَجر؟

المؤمن يرى كل ما يأتيه مِن قبل الله تعالى حسنا، لأنَّ الله تعالى لا يسئل عما يفعل، فلا يجري عليه حكم مِن قبل أحد، بل هو الذي يحكم على غيره، ثُمَّ إنَّ الله تعالى هو العليم الخبير السميع البصير الذي أحاط بكل شيء علماً وخبرة، فتأتي أفعاله وفق حكمة يعلمها سبحانه وإن كنا لا نعلمها.

وعلينا أن ندرك أنَّ ما يأتي مِن قبل الله تعالى إن تلقيناه بالقبول والرضا كان ذلك سبباً للوصول إلى استقرار الحال، وطمأنينة النفس وَهُدوء البال، ذلك لأنَّ الله تعالى يَختبر مَن يشاء مِن عباده بِما يشاء مِن أفعاله، فهو يَختبر عباده بالشدة ويختبرهم بالرخاء، ويختبرهم بالبؤس ويختبرهم بالنعيم، ويختبرهم بالراحة ويختبرهم بالتعب، وكل مِن ذلك لحكمة يعلمها سبحانه.

وعلينا أن ندرك بأنَّ الله تعالى مهما لقينا مِن قضائه وقدره مِن شدة وتعب فإنَّ أَلطَافه هي أعظم مِن أن تُحصى، فهو اللطيف بعباده، خلقهم وَهَيَّأَ لَهم أسباب الحياة، ووهب لَهم هذه الحياة نفسها، وجعل لَهم مَناخ الاستقرار في هذه الأرض، ومَن الذي يقدر على فعل ذلك غيره؟

وقد منّ الله تعالى على الإنسان بإخراجه مِن العدم إلى الوجود، ثم غَمَرَهُ بأنواع أَلطَافه منذ بداية وجوده في الحياة الدنيا، وهو ضعيف لا يستطيع أن يرد عن نفسه ضراً ولا أن يجلب لها نفعا، يسّر الله تعالى له مَن يقوم بأمره ومَن يرعاه في طفولته حتى بلغ إلى حيث بلغ، ومع ذلك كله فإنه الله تعالى جعل الطبيعة متوائمة مع الإنسان وخِلْقَته وفِطْرَته فهي تخدم فطرته.

وقد شد الله عَجَّلَ انتباهنا إلى ذلك في آيات كثيرة مِن كتابه العزيز كقوله سُبحانه: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس: ١٧ - ٣٢].

فقد خلق الإنسان مِن نطفة مهينة حقيرة، بل مِن خلية مِن خلايا هذه النطفة، ثم تدرج هذا الكائن في مدارج الأطوار التي مر بِها حتى خرج بشراً سوياً سميعاً بصيرا، ثم أخذ بعد ذلك ينمو شيئا فشيئا وتنمو معه مداركه وقواه ومشاعره وأحاسيسه إلى أن انتهى إلى حيث انتهى.

ثم إنَّ الله تعالى يسّر له العلم فعلمه مالَم يكن يعلم، وهَيَّأَ له الرزق الذي يقتات به، وهو يَمر عبر حلقات كثيرة فقد قدَّر الله تعالى نزول الأمطار، وجعل في الأرض خاصية النبات، وجعل فيما ينزل عليها من الغيث خاصية الإنبات، فتنبت الأرض بِمشيئة الله تعالى ثم إنَّ هذا النبات يُسخر الله ـ تعالى ـ له أيديا تخدمه، حتى يتحول إلى طعام مهيئ ليتناوله الإنسان بعد أن يمر بسلسلة من الحلقات التي لا تحصى أعدها الله لإصلاح هذا الرزق وإحضاره إلى أن يكون طعاماً صالحاً لتغذية جسم الإنسان.

هذا ونجد أنَّ الله ـ سبحانه ـ يَسَّر للإنسان ما كانت حاجته إليه أدعى بدون كلفة ومشقة؛ فالإنسان أحوج ما يكون إلى التنفس، وهذا الأوكسجين مهيأ له في جميع أحواله، يستنشقه في حركته وفي سكونه وفي يقظته وفي نومه وفي راحته وفي تعبه وفي شدته وفي رخائه وفي فرحه وفي حزنه وفي جميع أحواله، فلو أنَّ الله ـ تعالى ـ قطع عنه الأوكسجين مَن الذي كان يأتي به؟

ومع ذلك لا يكلفه أي مؤونة أو مغرم، فهو يستنشقه في نومه كما يستنشقه في يقظته.

وتلي ذلك حاجته إلى الماء فإن حاجة الإنسان إليه أقل مِن حاجته إلى الهواء، وقد جعل الله ـ تعالى ـ الماء مُيسراً أكثر مِن الطعام، ولكنه أقل يُسراً مِن الهواء، فهو ليس كالأكسجين في يسره، بل يحتاج إلى بعض العناء حتى يتناوله الإنسان، ثم يأتي بعد ذلك الطعام، ثم يأتي بعد ذلك الدواء وهكذا.

وقد جعل الله ـ سبحانه ـ ما في هذه الأرض مَخلوقاً لمصلحة الإنسان، وامتن عليه بذلك عندما قال سبحانه: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا** ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ** ﴾ [الجاثية: ١٣] فالكون بأسره يخدم هذا الإنسان فلذلك كان جديراً بِه أن يذكر هذه الألطاف التي تغمره مِن قبل الله تعالى، وبذلك يكون راضياً عن تجليات الحق مِن خلال أفعاله سبحانه التي تتعلق بِهذا العبد نفسه، فلا يسخط على الله ـ سبحانه ـ لأجل أي شدة يلقاها بل يكون دائم الرضا، وهو الذي يجعله قرير العين، ولعل هذه الشدة مع رضاه بِها، وعدم استنكاره لما جاءه مِن قبل الله تكون عاقبتها حسنة، وتنقلب بعد ذلك إلى رخاء، ولطف، «وعند الصباح يحمد القوم السرى» والله أعلم.

ما حُكم ما يقوله بعض الناس مِن سَبِّ الزَّمَان، «هذا الزمان غدار»، «هذا زمان سوء»، «هذا منك يا زمن» أو نحوها مِن العبارات؟

لا ريب أنَّهم لا يعنون الزمن، وإنَّما يعنون أصحاب الزمن، فإنْ كانوا يعنون أصحاب الزمن فليس في ذلك حَرج إن كان الواقع كما قالوا؛ وأما إن كانوا يعنون الزمن فالزمن خلقه الله تبارك وتعالى، وما يأتِي به الزمن إنَّما هو مِن عند الله، فلا يَجوز سَبُّ الزمن لأنَّ الزمن مِن عند الله والله أعلم.

العين وتأثيرها

ازداد عدد الناس الذين يشعرون أنَّ سبب أمراضهم مردها إلى العين أو الحسد أو الجان فازدحموا على بيوت المعالجين، هل كل هذا العدد الهائل ـ من وجهة نظركم ـ مرده إلى هذه المسببات أو أنَّ الجانب النفسي له دور في شيوع مثل هذا النوع مِن الأمراض؟

نحن لا نُنكر أنَّ الحسد له أثر، ولذلك أمر الله تعالى بالاستعاذة مِن شر حاسد إذا حسد وعلمنا ذلك في قوله سبحانه: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١ ـ ٥].

وكذلك نَجد أنَّ الله ـ سبحانه ـ يَحكي عن عبده يعقوب عليه السلام أنَّه قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ [يوسف: ٦٧ ـ ٦٨]، وقالوا إنَّ هذه الحاجة هي أن لا يُصابوا

بالحسد مِن قبل أحد عندما يراهم إخوة سويي الفطرة قويي البنية متكاملين مِن كل ناحية؛ وبذلك يتقون الحسد.

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**العَين تُدخل الرَّجل القَبر والجمل القدر**»[1]، فنحن لا ننكر أن يكون للحسد أثر في مثل هذه الحالات.

كما لا ننكر أن يكون أيضاً للشياطين والمردة أثر في بعض الأشياء التي تَحدث لأنَّ الله ـ تعالى ـ حكى عن عبده أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه نادى ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] لكن لا يعني أنَّ هذا الكم الهائل وهذه الأعداد الوافرة كلها أصيبت بسبب حسد حاسد، أو بسبب سحر ساحر، أو بسبب نَفْثٍ مِن الشيطان أو نحو ذلك.

على أنَّ الإنسان ينشأ مِن ضعف ثم يتحول إلى قوة ثم يعود إلى ضعف مرة أخرى كما قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ﴾ [الروم: ٥٤] فالإنسان يبدأ بالضعف وينتهي إلى الضعف إن أنسئ له في عمره كما قال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ [يس: ٦٨].

ويصعد شيئاً فشيئاً في هذه الحياة، إذ يولد وهو غير قادر على شيء حتى أنَّه لا يستطيع أن يَذُبَّ الذباب عن عينيه أو عن أي شيء مِن جسده، ثم يتدرج في مدارج القوة والنُّمو شيئاً فشيئاً حتى يتكامل عندما يبلغ نَحو سن الأربعين، ثم يبدأ بعد ذلك في الانحدار مرة أخرى ويأخذ الضعف يدب إليه شيئاً فشيئاً، ويتسارع الضعف فيه لأنَّه في حالة إدبار بعدما يتجاوز العمر الذي جعل الله تعالى فيه اكتمال قواه ومداركه وطاقاته.

---

(١) أخرجه ابن عدى (٤٠٧/٦ ترجمة ١٨٩٠ معاوية بن هشام القصار)، وأبو نعيم فى الحلية (٩٠/٧)، والخطيب (٢٤٤/٩)، والقضاعى (١٤٠/٢، رقم ١٠٥٩).

هذه هي طبيعة الإنسان، ولكنَّ الناس بسبب ما تراكم على نفوسهم مِن هذه الأخبار التي لا أساس لَها مِن الصحة، وبسبب إخلادهم إلى الخرافات صاروا يعتقدون أنَّ كل ما يصيبهم بسـبب حسد حاسـد، وسحر ساحر، أو مَسٍّ مِـن الجان، حتى أنَّ أحداً لو أصيب بوجع فـي رجليه لاعتقد أنَّ ذلك بسبب الجن أو الحسد أو نحو هذا.

فتراكم الأوهام ولد هذه الأحاسـيس، وصار الإنسـان عرضة للوساوس النفسية، والوساوس هي نفسـها مرض فتاك، لأنَّ الإنسان عندما يعتقد شيئاً ما ويتصوره تصوراً قاطعاً يؤدي به إلى أنْ يُحس به إحساسـاً كأنَّما هو مَاثِلٌ أمامه، هذه قضية مُسَلّمة، فَرُبَّما أدى الوسواس الوهم بالإنسان إلى أن يتصور أنَّه شُق جسـده مع أَنَّه لَم يشق شـيء منه لكنه يتصور هكذا، أو أنَّه أصيب بداء مُعين وما به ذلك الداء، ولكنه يُحس بالإحساس الذي يُحس به صاحب الداء.

أخبرني أحد أنَّه ذهب إلى أحد الأطباء مِـن أجل فحصه وغلط الطبيب قال له: إنَّك مُصاب بالسـكري، فصار يتردد إلى بيت الماء في كل ليلة عدة مرات، وصار يشرب الماء كثيراً، كما هو شأن مَن أصيب بالسكري، ثم بعد ذلك فحص عند طبيب آخر فـإذا به ينفي ما قاله الطبيـب الأول ويؤكد له سلامته من هذا الداء، فعاد إلى طبيعته كأن لم يكن يعاني شيئا.

فـإذن الوهم له أثره في نفس الإنسـان، فإذا تصور الإنسـان أنَّه أصيب بِمرض ما فإنه لا بـد من أن يحس بعـوارض ذلك المرض كأنَّـه نزل به؛ فهؤلاء الذين يعتقدون مثل هذه المعتقدات بسـبب ما تراكم عليهم مِن هذه الأوهام يتصورون تصوراً جازمـاً أنَّهم مُصابون بعـوارض هذه الإصابات، وبقدر ما تَمضي الأيام تترسـخ هذه الأوهام في النفـس فتصبح جزءاً منها بحيث لا يستطيع الإنسان الفكاك عنها، والله المستعان.

قال العلماء بأنه لا يجوز أن يأتي شـــخص قبراً أو شجرة أو حجرة يطلب المعافاة ـ فما قولك في عين الإنسان إذا أصابت طفلاً وأصابت هذا الطفل بنوع من التشـــويه الخلقي ـ وهـــذا بإذن الله ولا شـــك ـ، فهل يجوز أن يُذهب به إلى أحد الصالحين ليتعوذ عليه لتزول عنه تلك العين بإذن الله؟

هذا دعاء، والدعـــاء غير ممنوع، والرقية غير ممنوعـــة إذا كانت بالقرآن الكريم، وبالكلمات التي يرضاها الله. أما أن يأتي أحد إلى قبر أو شـــجرة أو حجرة طالباً قضاء حاجة من الحاجات، فهذا من الشـــركيات. فإن الله تعالى علمنا أن نفرده بالاســـتعانة كما نفرده بالعبادة حيث قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] والله أعلم.

 المالد والزّار وحكم الشرع فيهما

رجل مريض ذهب إلى المستشفيات للعلاج ولكنه لم يكتب له الشفاء، وأخيراً تبين أنه به مس من الجن وتكلموا بأنفسهم فيه، فتتورم رجله من الركبتين إلى الخفين، ولا يســـتطيع الحركة لفترة طويلة، وعندما تكلموا فيه قالـــوا لن يذهب عنك هذا المرض حتى تلعب لنا الزار كما يســـمى (أي دق الطبل)، فهل يجوز له الإقـــدام على هذا العمل علماً بأن الرجل ليس عنده من يعوله إلا امرأته؟

الزار من عمل الشيطان، فلا يجوز بحال، وإن اعتصم بالله كفاه الله والله أعلم.

امرأة ذهبت إلى الزار أو المالد وأنت تعرف فضيلة الشيخ أن بلاء هذين الشيئين قد انتشـــر مع أصحاب البدع والخرافات أخزاهم الله. هل تحرم عليه زوجته؟

إن اعتقدت شيئاً من الشركيات حرمت عليه وإلّا فلا، والله أعلم.

سماحة الشيخ.. لقد سبق أن اطلعنا على فتوى سماحتكم المتعلقة بتحريم ما يسمى بالمالد القائم على استحضار الجن والشياطين واختلاط النساء بالرجال، وضرب الدف وغيره من الآلات المؤدية إلى تمايل الرجال على النساء والنساء على الرجال على نغماتها، والذبائح التي تذبح لغير الله تعالى، وشرب بعض الممسوسين الدم اعتقاداً منهم أن ذلك يجلب لهم الشفاء، وما ينتج من ذلك من مفاسد في الدين، ولا سيما في عقيدة المسلم وإيمانه بقرارات القضاء والقدر، وتفسخ في القيم والأخلاق وغيرها من المفاسد الاجتماعية التي حرص الإسلام على القضاء عليها.

ولعلمنا وما عهدنا من سماحتكم من محاربة مثل هذه الحفلات والتجمعات، فإنني أؤكد لسماحتكم أن بعض الناس أخذ يتفنن في دعوة الناس إلى مثل هذه الحفلات، حيث يقوم بتوزيع المنشورات التي تفيد دعوة للمشاركة فيما يسمى بالمالد على المنازل وبيوت الجيران، وإنني ألتمس من سماحتكم كتابة تحذير للمسلمين كرد على تلك الدعوة يفيد خطورة إقامة مثل هذه الحفلات والمشاركة فيها، وعواقب ذلك في الدنيا والآخرة، ليتسنى لنا توزيعها على الناس؟

ما أضل هذه العقول الزائفة! وما أطمس هذه البصائر! أيتوافد الناس على الباطل هكذا ضاربين عرض الحائط بجميع نصوص الكتاب والسُّنَّة، التي تحذر من الضلال والبدعة والتعلق بغير الله سبحانه، فالله تعالى يقول: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١] ويقول: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأنعام: ١٧] ويقول: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧] ويقول:

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦]،

فكيف يحضرون مجلساً يدعى فيه غير الله وتنتهك فيه محارمه بما يكون من الاختلاط بين النساء والرجال؟ إن هذا إلا زيغ وضلال، والنبي ﷺ يقول «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»(١)، ويقول «كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»(٢) إلى غير ذلك، ولا ريب أن حضور هذه الحفلات من الكبائر المهلكات، فكل من شارك فيه يبوء بلعنة الله وعقابه، والله المستعان.

 النذر وتقديم القرابين لغير الله

خرج رجل وزوجته للنذر لمسجد أو لعين جهلاً منهما فهل تحرم عليه زوجته؟

إن سارا معاً معتقدين نفعاً من العين أو قدرة على رفع الضراء فهما معاً مرتدان عن الإسلام، وإن عادا إلى الإسلام فقيل: يبقيان على زواجهما بالعقد السابق وقيل: يجددان العقد، وأمّا إن أسلم أحدهما وظل الآخر على ردته فينحل بينهما عقد النكاح، وكذلك إن كان المسير من أحدهما مع استمساك الآخر بالإسلام، فإن المرتد لا يحل للمسلمة ولا العكس والله أعلم.

موقع يسمى الراشدي ينذر عليه ويذبح له الأغنام والإبل سابقاً. والآن بعض الناس الذين يعرفون ذلك المكان إذا مات عليهم شيء من

(١) رواه الإمام الربيع رقم (٤٩) ومسلم (٤٥٩٠).
(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٩).

أغنامهم وإبلهم يظنون في أنفسهم أن الذي يصيبهم من ذلك المكان الذي ينذر عليه، وإذا أتى ذكر اسم الموقع يقولون (الراشدي يذكره الله بالخير). فما حكم ذلك ؟

ذلك من الشركيات وبقايا معتقدات الجاهلية، فمن اعتقد النفع أو الضر، أو العطاء أو المنع، أو الرفع أو الخفض، أو الإحياء أو الإماتة، من قبل شيء من خلق الله، فقد جعل لله تعالى نداً، وكفى به ضلالاً مبيناً، والله المستعان.

هل يجوز قراءة كتاب (أهل بدر) وكتاب (البرزنجي) وجمع الناس، وذلك بمناسبة مولد النبي ﷺ وذكرى الإسراء والمعراج، علماً بأنه بعد الانتهاء من قراءة الكتاب يقومون بتناول الحلوى والفاكهة ؟

أمّا قراءة أسماء أهل بدر للشكوى إليهم وطلب قضاء الحاجات ودفع المضرات من قبلهم فهو من مظاهر اللوثات العقدية، إذ لا يأتي بالسراء ويدفع الضراء إلّا الله سبحانه، ومن اعتقد أن غير الله سبحانه يستقل بالنفع أو الضر أو استعان بغيره سبحانه فهو ممن اتخذ مع الله آلهة أخرى، وأمّا البرزنجي فكتابه الذي يقرءونه فيه كثير من الأخبار التي لا تصح، مع بعض المخالفات العقدية، لذلك أرى عدم قراءته أولى، والله أعلم.

يوجد في منطقتنا ضريح لأحد الموتى، يزعم أنه لولي من أولياء الله تعالى، ويقصده الكثير من الناس بدافع التقديس ولأداء النذور عليه، حيث يضعون عليه البخور والعطور، وهذا الضريح محاط ومشيد ببناء ويوجد تحت شجرة علق فيها الكثير من الأقمشة والأعلام وقد كان سؤالي: هل يجوز لي قطع تلك الشجرة وهدم البناء ؟ وقد تفضلتم سماحتكم فأجبتم بأنه يجوز لي قطع الشجرة وهدم البناء مع الإمكان لأن في ذلك تغيير المنكر باليد ؟

وقد اشتبه هذا الأمر واختلط على بعض الناس فقالوا: ـ

إن الإسلام نهى عن قطع الشجر، لأن الناس ينتفعون بظله، كما أنه يكره التبول والتغوط تحته فكيف بقطعه؟ أما عن البناء فإنه يحمي القبر من عبث العابثين؟ كذلك فإن الشجر على القبر يؤانس الميت بتسبيحه لله تعالى؟

البناء على القبور بدعة، وتغيير البدعة واجب على القادر، والشجرة إن كانت منشئاً لضلال الناس فقطعها دفع للباطل وإحقاق للحق، وعمر ﷺ قطع شجرة الرضوان التي بايع أصحاب رسول الله ﷺ نبيهم ﷺ تحتها بيعة الرضوان، عندما رأى الناس يتبركون بها، فهل هذه الشجرة أقدس وأعظم حرمة من شجرة الرضوان؟! والله المستعان.

 ادعاء علم الغيب

ما قولكم في علم الرمل وهل يؤثم فاعله؟

هو من تعاطى الغيب وهو باطل، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] والله أعلم.

الآن بعض المعالِجين يَحكمون ـ ولا أدري ما أداة حُكمهم ومِن أين استفادوا ذلك ـ على المصاب ـ مثلاً ـ بأنَّ فيه جِنّي أو جِنّية أو ما شابه ذلك ويبدؤون في القراءة بصوت عال ويهددون بالحرق، فما رأيكم في هذا التصرف؟

ينبغي للمعالِج أن يكون عارفاً بعلاج المريض، فقد يكون المريض عنده أزمة نفسية، ولا ينبغي أن يتسرع ويقول هذا المرض مِن الجان، فإن القول

بغير علم حرام بنص القرآن، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] وأنكر على الذين يتبعون الظنون حيث قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨] وهؤلاء الأطباء الروحانيون عليهم أن يعالجوا المرضى علاجاً صحيحاً سليماً، وذلك بأن يُعالِجوا عُقولَهم بتجريدها مِن هذه الأَوهام، ويعرفوهم بأنَّ الأمر كله بيد الله، وأنَّ مِن سُنَنِ الله تعالى في خلقه أن يبتلي المبتلى وأن يُصاب الإنسان بأنواع مِن الأمراض والأسقام والبلاوى والمِحَن، ولا يعني هذا أنَّ كل ما يصيب الإنسان إنَّما هو مِن قبل الجان، ثم مِن أين للإنسان أن يَحكم بأنَّ هذه العلة هي مِن الجن؟ قد يقول أحد مِن هؤلاء لشخص ما: «أصبت في المكان الفلاني».. فمِن أين علم ذلك؟ والله تعالى وحده هو الذي يعلم الغيب يقول ﷻ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، ويقول سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] أي أنَّ الرسول مِن خلال وحي الله ـ تعالى ـ الذي ينزل عليه يتوصل إلى معرفة الغيب، وإلا فما له مِن قدرة على معرفة الغيب قط، وكذلك نَجد أنَّ الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].. فالنبي ﷺ على علو قدره مع كونه يُوحى إليه لَم يكن يعلم الغيب إلا أن يأتيه مِن قبل الله ﷻ في وحيه إليه، أما أن يطلع على الغيب بنفسه فلا، والله المستعان.

ذكرتم الآن أنَّ المعالِج لا يَجوز له أن يقطع بأنَّ جِنِّياً مُعيناً أو لبساً معيناً قد حصل لِهذا الإنسان وهذا ما يَحصل كثيراً....

نعم، هذا مِن ادعاء الغيب، وأشد مِن ذلك أن يقول أحدٌ بأنَّ هذا مِن سحر وأنَّ الساحر فعل كذا كذا، فإن هذا مِن تعاطي الغيب، فمِن أين له أن يعلم

أنَّ أحداً سَحر هذا المصاب حتى أصيب بسبب ذلك السحر؟ وكيف توصل إلى هذه الحقيقة الغيبية، مع أنَّ الغيب لا يعلمه إلا الله؟ ولربَّما أغرى بعض الناس ببعض مِن خلال هذا الكلام، فلربَّما أغرى القريب بقريبه، وأشد مِن ذلك ما بلغني أنَّ أحداً مِن هؤلاء جاء إليه أحد عنده ابنه الصغير يشكو إليه مِن أمراض تُصيبه ومِن بلاوى تأتيه، فقال له بأنَّه أصيب مِن خلال سحر، وأنَّ الساحر امرأة عجوز في بيتكم صفاتها كذا وكذا، فخيل إلى الرجل بحماقته وتأثير الشيطان عليه أن هذه الصفات أقرب ما تنطبق على أمه، وعندما عاد إلى بيته جاءت الأم تستقبله بِحنانِها وتريد أن تسأله عن ابنه، فدفعها دفعاً ودعّها دعاً بتأثير كلام ذلك الدجال الذي استخف بعقله.

فالأمر يُؤدي إلى أن تكون قطيعة ما بين الوالد وولده وما بين القريب وقريبه، وهذا مِن الخطورة بِمكان، فعلى هؤلاء أن يتقوا الله، وأن لا يقولوا إلا قولا سديدا يرضي الله تعالى وأن يدعوا ادعاء معرفتهم بالغيوب، وأن يحذروا كل ما يؤدي إلى الفساد في الأرض والقطيعة ما بين الأقربين بل إلى عقوق الأبناء والبنات لآبائهم وأمهاتِهم، والله المستعان.

يقول بعض الناس إنَّه يستطيع أن يكشف مكان المفقودات، فإذا ذهبت عن بعضهم غنمة أو فقد شيئاً معيناً حدد مكانَها، ما حقيقة هذا الأمر؟

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، فلا يُمكن للإنسان أن يطّلع على الغيب، نعم قد يكون للإنسان حِدْس بحيث يتصور الأمر بسبب تَجربة أو خبرة عنده أو بسبب معرفته بالقِيَافَة، وهذا مِن باب العلم وليس مِن باب ادّعاء الغيب، كما روي في التاريخ القديم بأنَّ نِزار بن معد بن عدنان عندما حضرته الوفاة أوصى أولاده الأربعة ـ وهم إياد ومضر

وربيعة وأنمار ـ عندما يَختلفون أن يحتكموا إلى ملك مِن جُرْهُم اسمه الأفعى، ليفصل بينهم، وبعد وفاة أبيهم وقع بينهم من الشقاق ما دعاهم إلى أن يذهبوا إلى هذا الملك عملا بوصية أبيهم، فذهبوا وفي طريقهم وجدوا رجلاً ينشد ضالة له، فسألَهم عن بعيره الذي فقده، فقال له أحدهم: أهو أزور[١]؟ قال له: نعم، قال له الآخر: أهو أعور؟ قال له: نعم، قال له الآخر: أهو أبتر[٢]؟ قال له: نعم، قال له الرابع: أهو نفور[٣]؟ قال له: نعم؟ قالوا: ما وجدناه، فقال: عجباً تصفون بعيري هذا الوصف الدقيق ثم تدّعون أنكم لَم تروه، فأم الملك الذي كانوا قاصديه، فوجدوا الملك الأفعى طواه الأجل وحل محله ابنه فقدّم الرجل شكواه إلى الملك الجديد فور وصولِهم، فبادرهم الملك بالضيافة قبل الفصل بينهم وبين غريمهم، فكانت لهم في تلك الضيافة مع الملك قصة عرف من خلالها عمق فهمهم وحدة ذهنهم وما أوتوه من الاقتدار على استنتاج الحقائق، ثم استمع إلى غريمهم صاحب البعير الذي اتهمهم في أمر بعيره لمعرفتهم بأحواله ودقتهم في وصفه، واستنطق ضيوفه ليردوا على هذا الاتهام، فقالوا: نعم، عرفناه بآثاره، أما الذي قال له: «أهو أزور» فإنَّه رأى آثار مَنَاسِمِه في الأرض مُتفاوتة وهذا دليل زوره، وأما الذي قال: هو أعور، فأجاب بأنه عرفه بأنَّه أعور لأنَّه يرعى من الشجرة جانباً ولا يرعى الجانب الآخر، والذي قال: «هو أبتر» قال: عرفت ذلك منه باجتماع بعره فإن عادة البعير أن يفرق ذنبه بعره ولا يجتمع إلا بعر الأبتر، والذي قال له هو نفور، قال: عرفت ذلك مِن رعيه ـ أيضاً ـ لأنَّه يرعى الشجرة ثم يدعها ويدع ما حولها إلى شجرة أخرى بعيدة ولا يوالي

---

(١) الأزور: الذي ينظر بمؤخر عينيه مأخوذ من الأعراف.

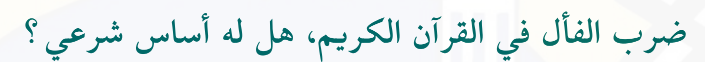
(٢) الأبتر: مقطوع الذنب.

(٣) كل شيء فزع فهو نفور.

رعيه من الشجر القريب وهو دليل نفوره، فهذه خبرة تكون عند الناس بسبب مُمَارستهم، وليس ذلك مِن ادعاء علم الغيب، فمن ادّعى شيئاً مِن ذلك بتأثير الممارسة فهو يُمكن أن يكون صحيحاً أما مِن غير مُمَارسة فلا.

هذا فيما يتعلق بالبهائم والحيوانات لكن فيما يتعلق بالأموال كأن يقول له: إنَّ مالك سرقه فلان أو سُرق في المكان الفلاني فهو من ادّعاء علم الغيب، ولا يُمكن أن يكون ذلك صحيحاً قط، اللهم إلا إن عرف السارق باعتياده السرقة، فإن هذا من الحدس الذي يختص به بعض الناس، والله أعلم.

التفاؤل والتشاؤم



ضرب الفأل في القرآن الكريم، هل له أساس شرعي؟

علينا أن ندرك أن الغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل، يقول تعالى:

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] ويقول سبحانه أيضاً: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥].

فاستشراف الغيب من خلال اطلاع على آية ودلالتها أمر لم تأت به سنة عن النبي ﷺ، ولا دل عليه دليل شرعي قط.

أما كون الإنسان يتفاءل بأن يسمع آية مبشرة، أو يطّلع على آية مبشرة فإن هذا سائغ لأن النبي ﷺ كان يعجبه الفأل الحسن من كل شيء، سواءً كان من أسماء البشر أو من غيرها، فكيف إذا كان هذا الفأل آية من كتاب الله، فإن في سماع الإنسان ما يبشره بالخير من القرآن الكريم ما يشجعه على المضي قدماً في سبيله إن كان في حدود طاعة الله وأن لا يتردد في ذلك.

والنبـــي ﷺ بقدر ما كان يتفــاءل كان لا يتطير أي لا يتشـــاءم، ولذلك قال عليه السلام فيما وصّى بـــه أمّته: «**وإذا تطيرتم فلا ترجعــوا**»، ثم قال بعد ذكر وصاياه: «**وذلك آية مــا بين المؤمن والمنافــق**»[١]، فالمؤمن لا يتطير وإنما يتفاءل ويحب الفأل الحســـن كما كان شأن الرســـول ﷺ، ويرضى بقسمة الله، ويحرص دائماً على أن لا يكون متـــردداً عندما يريد الإقدام على خير، فهذا هو الذي أراه فيما يتعلق بالتفاؤل بســـماع آيـــات الله تعالى أو رؤيتها والله أعلم.

هناك مَن يتَشَاءَم ويَجعل هذه الخصْلَة تُصَاحِبه، فبَعضهم يتشاءَم مِمَّا يَقَع على المسلمين، وبعضهم يَتَشَـــاءَم مِن بعض الأيام أو الليالي فلا يَقْرَبُ فيها أهله، فما قولكم؟

التَّشَاؤُم ليس مِن شِيمَة المؤمِن فإن النبي ﷺ قال: «**وإذا تطَيَّرْتُم فَامْضُوا وعلى الله فَتَوَكَّلُوا**»، فإن ذلك هو الفارق بين المؤمن وغير المؤمن، ذلك أنَّ المؤمن إذا تَطَيَّرَ مَضَى قُدُماً ولَـــم يَلْتَفِت إلى التَّطَيُّر، وغير المؤمن هو الذي يَتَرَاجَع ولا يُمْضِي قُدُماً.

وقد خلق الله الأيام كُلها وأباح الاتصـــال ما بين الرجل وأهله في جَمِيع الأيام واللَّيالِي إلا الوقت الذي تَكُون فيه حائضاً أو نفســـاء وإلا الوقت الذي يَحْرُمُ فيه الاتصال مِن أجل عبادة شَـــرْعِية كأن يكونا أو أحدهما في صيام أو اعتكاف أو إحرام بحج أو عمرة، أمَّا فِيما عدا ذلك فلا يُمْنَع، ولا يَلْتَفِت إلى أيامٍ مُعَيَّنَة بدعوى أنها يُمْنَع فيها الاتصـــال، وكُل ما رُوِيَ في ذلك لَم يثبت عن رسول الله ﷺ، والله أعلم.

---

(١) رواه الإمام الربيع (٧٠١).

المسلم يَعيش مَحدوداً بِما يسمع ويشاهد ويُحلل بِحسب مُقتضيات عقله ويبقى الغيب لله تعالى، كيف يوظف ما يشاهد ويسمع مِن واقعه الأليم ليكون انطلاق فأل وخير في حياته إذا كان واقعه بِخلاف ذلك؟

المسلم يَحرص مِن خلال إيمانه بالله أن يكون موصولاً به سبحانه، وأن يرى إرادة الله تتجلى في كل ما يقع في هذا الكون مِن خير وشر ونفع وضر وعطاء ومنع ورفع وخفض ووَهْبٍ وسَلب إلى غير ذلك، وهذا الإيمان نفسه يَجعله قرير العين مُطمئن البال، وإنَّما يُحاسب نفسه على تقصيرها، فقد يكون ما يصيبه بسبب تقصيره في حق الله تعالى، والمؤمن شَديد المحاسبة لنفسه.

على أنَّه يكون دَائماً مُتفائلاً خيرا، فمهما رَأى مِن مِحَن ينظر مِن أَعماقها إلى ما تَنطوي عليه مِن المنح الربانية، فكم مِن مِحنة تتحول إلى مِنْحة بين عشية وضحاها بسبب طمأنينة قلبه وقرار عينه بِما يأتيه مِن قبل الله تعالى مع إيمانه بقضائه ـ سبحانه ـ وقدره.

ثم مع ذلك ينظر المؤمن إلى الوعد الرباني الذي وعد به عباده المؤمنين، فكم مِن وعد في كتاب الله ـ تعالى ـ يُثلج الصدور ويُريح النُّفوس ويُحيي الضمائر، فعلى المؤمن أن يكون مُتفائلاً دَائماً؛ والله ـ تعالى ـ المستعان.

كيف يُرَبِّي الإنسان نَفسَه على التفاؤُل؟

إنَّ المؤمن يَصِل كُل شيء بالله تعالى الذي خَلَق هذا الوُجود وصرَّفه والذي بِيَده مَلَكُوت كل شيء، وإليه يُرجَع كل شيء، سبحانه له الخلق وله الأَمر وله الحكم وله القَهر: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]، وعقيدة التوحيد تَدْعُو الإنسان دائماً إلى أن ينظر إلى الأمور كلَّها بِمنظار الإيمان بالله ﷻ، ومِن خلال ذلك يرى الإنسان يَدَ الله سبحانه

تُصرِّف الأشياء فتأتي بِما لَم يكن في الحسبان، فالله تعالى قد يَمُنُّ باليسر بعد العسر، وقد يَمُنُّ بالفَرَج بعد الشدة، وقد يَمُنُّ بالسعة بعد الضيق، وهكذا تنقلِب الأحوال مِن حالٍ إلى حال، ودوام الحال مِن الـمُحَال.

والنبي ﷺ وهو إمَام المؤمنين جميعاً علَّمنا كيف نتفاءَل حتى في حالات الشِّدة، فإنه ـ عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام ـ كان كثير التفاؤل ولم يكن يتشاءم، بل كان يَمْضِي قُدُماً مع ما يواجِهُه من التحدِّيات وما يَلْقَاه مِن الصِّعاب، وعندما هاجر عليه السلام مِن مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بعدما أظلمَت الدُّنيا في وجهِه وتنَكَّر لــه المجتمع وبعُدَ عنه القريب ونَفَاه الحمِيم، فخرج مِن بلد فيه مَرتَعُ طفولته ومَسرَح أحلامه وسِــجِلُّ ذكرياته لِيَنْتَقل إلى بلدٍ آخر بينه وبينه نَحو خَمسُــمِائة كيلومتر أو نَحو ذلــك، وكان الرَّصْد مِن أمامه والتَّبْعُ من خَلفه يريدون به ﷺ كُلَّ شَــر ويَضمرون له كل كَيْد، في هذه الحالة عندما تعرَّضَ له سُــرَاقة طمعاً في أن يَنَال الجائزة التي وَعَدت قريش بِها من يَرُدُّ رســول الله ﷺ إليهم حياً أو مَيِّتا وهي مائــة ناقَة، حدثت آية مِن آيات الله تعالى حيث سَــاخَت قَوَائِم فرسه في الأرض الصَّلْبة ورأى مِن آيات الله مــا رأى وطَلَب الأمان مِن النبي ـ عليه وعلى آلــه وصحبه أفضل الصلاة والسلام ـ فمَا كان من رسول الله عليه الصلاة والسلام بعدما مَنَحه الأَمَان إلا أنْ قال له: «كيف بِكَ إذا لبست سِوَارَيْ كِسْرَى؟!»[١] فقد كان ﷺ في هذا الموقف الصَّعب ينظر إلى مســتقبل هذه الأُمَّة وإلى وعد الله ـ تعالى ـ الآتي بــلا رَيب وإلى اليوم الذي يُعِزُّ الله تعالى فيه المؤمنين ويُذِلَّ فيــه الكافرين وينتصِر فيه الحق على الباطل وينْزِل فيه الجبَّارُون من عَلْيَائِهِم بِحيث إنَّ أحداً مِن عامَّة الناس يلبس سِوَارَيْ كِسْرَى وتَاجه لِيَتحقَّق وَعْد الله تعالى لِهذه الأمة بالنصر والتَّمْكِين.

(١) رواه البيهقي (١٣٤١٤).

وقد تَحقَّقَ هذا الوعـد، فأنْجَزَ الله ـ تعالى ـ لِنَبيـه ﷺ وعْده ونَصَر عبده وأعزَّ جُنده وهزم الأحـزاب وحده، فجاء اليوم الذي خرج فيه كِسْـرَى طريداً شريداً مِن مُلكه وقد خلَّف وراءه كل مَا كان يَملك، وإذا بِخَزائنه يُؤْتَى بِها إلى الفاروق رضي الله عنه فَيدعُو سُرَاقة ويُلْبِسُه تاج كِسْرَى وسِوَارَيْه كما وَعد النبي ﷺ.

ويتكرر المشـهد في غـزوة الأحزاب عندمـا جاء المشـركون بِقَضِّهم وقَضِيضِهم وعَدِّهِم وعَدِيدِهم لِيَنْسِفُوا هذه الأُمَّة بغزوها في عُقْرِ دارها، فشرع المؤمنون في حفر خندق ليتحصنوا من وراءه من الجيوش الغازية وكان ﷺ معهم فاعْتَرَضَتْهُم صَخرة فما اسـتطاعوا أن يُفتِّتُوها فَأَخَذ النبي ﷺ المطْرَقَة من أيديهم وطرَقَها طَرْقَة شَعَّ منها شُعاع فقال: «**الله أكبر فُتِحَت لأُمَّتِي مَمَالك كسـرى كأنِّي أنظر إلى قُصُور المدائن**»، وطرَقَها طَرْقَة ثانية فشعَّ منها شعاع فقال: «**الله أكبر فُتِحت لأمَّتِي مَمالك الروم كأني أنظر إلى قصور الشـام**»[1]، وقد تَحقَّق ذلك فعلاً.

فهكذا يَجب على المؤمن أن يكون شديد التَّفَاؤل وأن لا يدخُل التشاؤم قلبه، ولولا الفَأْلُ الحسن لَما بَقي للإنسـان أمَل وهو يواجِه تَحدِّيات الدهر ومشكلاته وصِعابه، والله أعلم.

ما يدور في هـذا العالَم ـ وخاصة في صفحة العالَم الإسـلامي ـ يفهَمُه البعض على أنَّه القدر الأخير وعلى أنَّه نَفَق سـتكون نِهَايته يوم القيامة، فيَنْدبُون حظوظهم ويُبَرْمِجُون عقولَهم على هذا الأسـاس وكأنَّهم آمنوا بِنَظرية فُوكُويَامَا «نِهاية التاريخ»، فهل لِهذا أثر في جُمود العقل المسلم وتوقُّفِه عن النشاط والعَطَاء؟ وهل لاحظتُم أنتم ذلك؟

(١) رواه نحوه النسائي (٣١٧٦).

عندما يكون المسلم مُتشائماً لا يبقى عِنده شيء من الأَمَل للعَمل بل يَتواكل، وهذا الذي وقع فيه كثير مِن الناس مع الأسف الشديد، وحقيقة الأمر ليست كذلك، ونَحن متفائِلُون أيّما تفاؤل بِأن تنقلِب الأمور مِن الشر إلى الخير ومن الضّيّق إلى السَّعَة ومن العُسر إلى اليُسر:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]، وكما قال ﷺ: «**لن يغلِبَ عُسر يُسْرَيْن**»(١) فالله ـ تعالى ـ ذَكَرَ العُسر هنا بِصِيغة التعريف، وذكر اليُّسر بِصِيغة التنكير، والمعرَّف إذا كُرِّرَ كان الثاني هو الأوَّل، والمنكَّر إذا كُرِّرَ كان الثاني غير الأوَّل، فَمعنَى ذلك أنَّ هناك يُسْرَين يَكْتَنِفان عُسراً واحدا، ولا بد أن يغلب اليسران العسر الواحد، والله أعلم.

أنتُم مثال حَيٌّ لِهذا التفاؤل، فهل يُمكن أن تقدِّموا لنا صورة واحدة فقط مِن الصور التي كنتم متفائِلِين فيها وكان غيركم متشائِما ؟

كثيرٌ مِن الناس في فترةٍ مِن الفترات كانوا ينظُرُون إلى أنَّ الدِّين قد مات، وأنَّ الساعة قد أَزِفَت وهي لا تقوم إلا على شِرَارِ الناس، فكانوا ينظُرُون إلى المستقبل أنَّه مستقبل مُظْلِم، وأنَّ الناس كفروا بِما آمنوا به مِن قبل، وأنَّ الإسلام سَيَنقلِب من ضَيْقٍ إلى أضْيَق ومِن شدة إلى أشدّ ومن غُربَة إلى غُربَة أوحش، وكانوا دائماً يُرَدِّدُون ما رُوِيَ عن النبي ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ أنَّه قال: «بدأَ هذا الدِّين غريباً وسَيَعود غريباً كما بَدَأ»(٢)، وبِحَمد لله تعالى انْقَلَبَت الأحوال إلى خِلاف ما كانوا يتصوَّرُون، وكُنا نَأْمَل بأن تُؤْتِيَ الدعوة ثِمَارَها وأن يرجِع الناس إلى دينهم، وأن يُفِيقوا من سَكْرَتِهم، وأن يَعودوا إلى رُشْدِهم وصوابِهم، وبِحمد الله حَصَل ذلك فعلاً فكثير من الناس بعدما غَرِقوا

---

(١) رواه الحاكم (٣٩٥٠).

(٢) رواه مسلم (٣٨٩).

في سكرة الهوى وكانوا لا يَلتَفِتُون إلى هذا الدِّين انقلبوا إلى خلاف ذلك، فكأين من أحد كان شُيُوعِي المبدأ مُلْحِداً في تصوُّره وعقيدَتِه وفِكره لا يؤمن بالله تعالى وَوُجُودِه فضلاً عن أن يُؤمِن بالرسول أو يؤمِن بالقرآن أو يؤمِن بأحدٍ مِن رسل الله وإذا به يتحول من الضلال إلى الهدى ومن الكفر إلى الإيمان فيتجرد من إلحاده كما يخلع الثوب ليلبس آخر، وفي أحد الأيام كان أحد الدعاة الذين يستشرفون المستقبل يتحدث عن انْهِيَار الشيوعِيَّة واضمحلالها، في الوقت الذي كانت فيه لا يتصورها أحد إلا صاعدة نامية تمتد أجنحتها لتغطي أرجاء الأرض، وتنتشر قواتها لترعب البشر وتهلك الحرث والنسل، فكان حديث ذلك الداعية مثار سخرية واستخفاف من أحد سامعيه حتى كان يعده مثالا على ضيق أفق الدعاة وجهلهم بحقيقة الأمر وغبائهم عن تصور الحياة، ولَم تلْبَث الشيوعية حتى تَهَاوَت إلى غير قرار، ودفنت أشلاؤها الممزعة المنتنة في مزبلة التأريخ، وأعلن غُورْبَاتْشُوف في إحدى الفضائِيَّات في بريطانيا عن نهايتها المحتومة عندما سُئِل: «هل يُمكن أن تستمر الشيوعية في فيتنام وفي الصين؟»، فقال: «كلا» قيل له: «وما البديل؟» قال: «لا أعتقد أن البديل يَكْمُن في الرأسْمَالية ولا في الاشتراكية ولا في الديمقراطية وإنَّما هو في نظام آخر فعلينا أن نَتَكَيَّفَ وِفْقَ حضارة جديدة»، ما هي هذه الحضارة الجديدة التي يشير إليها؟ لا ريب أنَّها حضارة الإسلام، وهذا أمرٌ مقطوع به، وإلا فأيُّ حضارة يُمكن أن تُقدِّم لِهذه الإنسانية التعِيسَة حلاً لِمُشكلتها وعلاجا لِمُعْضِلتها ؟!، وهذا ما صرَّح به فيما بعد كَاسْتْرُو مع ما عُرِفَ به من كَوْنِه ملحداً مغاليا في إلحاده عنيفا على خصومه شديد التمسك بشيوعيته، ولكنه صرَّح بأنه لم يبق أمام العالَم إلا النموذج القرآني أو المنهج القرآني، ومعنَى ذلك أنَّ المستقبل لهذا الدِّين كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩].

هل هناك تَفَاؤُلٌ مَذْمُوم؟

نعم إذا كان يتفاءل بأنه سَيَتَمَكَّن في هذه الأرض ويَعِيثُ فيها فساداً ويظلم الخلق ويَجُورُ في البشر ويطغى في الحكم، فإن تفاؤله هذا يعد مِن قبيل التفاؤل المذموم، وإلا فالتفاؤل بالخير هو مَحمود على أي حال، لكن لا يعني هذا أن يتَوَاكَل الإنسان ولا يعمل، بل عليه أن يَجِدّ مع تفاؤله، وأن يكون التفاؤل مَبْعَثاً لعمله لا مبْعَثاً لأمله فحسب، والله أعلم.

مَن يقول حينما يَرى شخصاً مُعَيَّناً: «أنا أتفاءل بك» أو «أنا أتشاءَم منك»، هل يصح هذا؟

أمَّا التشاؤم فلا يَسُوغ ففي الحديث «إذا تَشاءَمْتُم فلا تَرْجِعوا»[1] هكذا قال النبي ﷺ وجعل ذلك آية ما بين المؤمن والمنافق، فمِن جُملة ما يُميِّز المؤمن عن المنافق أنَّ المؤمن إذا تشاءم لا يرجِع.

أما التفاؤل فهو مطلوب فالإنسان يتفاءَل بالفَأْل الحسن، ويُعْجِبُه، وقد يتفاءل بالشخص لأجل استقامَتِه أو بالاسم الحسن منه كأن يكون اسْمه مَحمودا أو سعيداً أو فائزاً أو فَلاحا أو أن تكون امرأة اسْمها سُعَاد أو سَلامَة أو مثل هذه الأسْمَاء التي تدعو إلى التفاؤل، أمَّا الأسْماء غير الطيِّبة فلا يتشاءم بِها، وكذلك يتفاءَل بالأشخاص الطيِّبين ولا يتشاءَم بالأشخاص غير الطيِّبين، والله أعلم.

---

(١) رواه الإمام الربيع (٧٠١) بلفظ «ومن تطير فلا يرجع...».

اعتقاد تأثير الكواكب والأجرام

وماذا عما يقول البعض مِن أنَّ الأجرام السماوية والكواكب لَها علاقة في بعض الأحداث والوقائع التي تَحصل فيوقتون لِحدوث أَمر مُعين بناء على مَعرفتهم بِهذه الأجرام والكواكب، هل هذا صحيح؟

هذا أمر مَردود، وهو ـ فيما يظهر لي ـ دخيل على المسلمين بسبب احتكاكهم بالذين أسلموا مِن المجوس، وقد كانت عندهم بقية مِن مُعتقداتِهم السابقة ومِن مألوفاتِهم المتقدمة، فنقلوا هذه المعتقدات إلى المسلمين وأَلصقوها بالإسلام، وإلا فالأصل أنَّ المسلم يَعتقد أنَّ الأجرام السماوية هي مُسخرة بأمر الله، تَجري في مداراتِها بِحكم الله تعالى وإرادته وقهره، ليس لَها أي تأثير على هذه الحياة، فالنبي ﷺ يُبين لنا أنَّ الله تعالى يقول على أثر مطر نزل بالأرض: «**أصبح من عبادي مؤمن وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب**»[(١)]، فربط الأحداث التي تَحصل في هذه الأرض ـ وهي أحداث طبيعية ـ بالأجرام الفلكية هو لوثة في الاعتقاد واتباع للوهم وتعام عن الحق، ولو كانت تلكم الأجرام الفلكية في وضعها الطبيعي تقترن بها أحداث تقع في الأرض بحيث تنزل الأمطار أو تهب الرياح أو يشتد الحر أو البرد في حال ظهور بعضها أو اختفاء بعض، إذ مِن المعلوم أنَّ الله سبحانه جعل مَواسم للغيث الذي ينزل على عباده، وهذه المواسم ربَّما كانت تظهر مع ظهور بعض الأجرام الفلكية، ولكن مع ذلك لا يجوز أن يقول الإنسان سُقينا بِنَوءِ كذا، بحيث يربط السُّقيا بالنَّوء، لأنَّ الأَنْوَاء إنَّما هي مَخلوقة

---

(١) رواه الربيع (٦٢) والبخاري (٨١٠) ومسلم (٢٤٠).

ومُسخرة وموجهة، والله تعالى هو الذي يدبرها، فالسَّقْي إنَّما هو بِحكمته وبفضله ولطفه، وليس للإنسان أن يَخرج عن هذا الحد الذي رَسَمه الدين لنا، والله أعلم.

لعل مِمَّا انتشر في أوساط العامة في هذا الزمان أمر قد يُعتبر ضرباً مِن ضروب الشعوذة أو نوعاً مِن أنواع التكهن وهو الاهتمام بقراءة الأبراج في الصحف والمجلات، وقد قرأت في بعض الكتب أنَّ مَن يقرأ الأبراج يُعتبر مُشركاً حتى ولو كان قصده التسلية، فهل هذا صحيح ؟

التسرع في الحكم على الإنسان بالإشراك أمر فيه صُعوبة كما قال المحقق الخليلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «إياك ثم إياك أن تَحكم على أهل القبلة بالإشراك قبل المعرفة بذلك، فإنَّه موضع الهلاك والإهلاك».

فالإنسان ليس له أن يَحكم على مَن قال لا إلٰه إلا الله بالإشراك إلا إذا نقض مفهوم لا إلٰه إلا الله بإنكار ما عُلم مِن الدين بالضرورة مِن غير تأويل، ففي هذه الحالة يكون مُرتداً عن الإسلام.

فلذلك لا نستطيع أن نقول بأنَّ مَن قرأ لأجل الاطلاع، والتسلي بأنَّه مُشرك، لكن يُخشى على الإنسان أن يَنْزَلِق عندما يقرأ مثل هذه الأشياء بِحيث ربَّما تولد له الوهم ونَما حتى يُسيطر عليه، فإنَّ الإنسان بقراءته دائماً بأنَّ البرج الفلاني له تأثير في كذا، وأنَّه يرتبط بالبرج الفلاني، وأنَّه عليه أن ينشد حظه مِن موافقته لِحركات فلكية مُعينة، قد تؤثر عليه هذه الأوهام وتزيغ به عن سواء الصراط، حتى يعتقد أنَّ لِهذه الأفلاك تأثيراً في حياة الإنسان وموته وسعده ونَحسه ورقيه وانحطاطه وغناه وفقره وصحته ومرضه وعندما يعتقد ذلك اعتقاداً جازماً لا ريب أنه يكون قد خرج عن مُعتقد الإسلام وخلع ربقته عن عنقه، والله أعلم.

البحث عن اسم للولد عن طريق التنجيم، ما حُكمه؟

الذي يظهر لي أنَّ التَّنْجِيم دخل في أمة الإسلام مِن قبيل المجوس الذين كانوا يُقدسون الأجرام السماوية وينوطون بِها ما يقع في هذه الأرض مِن الأحداث ويُؤَلِّهونَها مِن دون الله ﷻ إذ بقيت عندهم هذه المعتقدات حتى بعد دُخولِهم في الإسلام فنقلوها إلى المسلمين وألصقوها بِهذا الدين، والله أعلم.

السحر والجن

مسألة الجِن والاستعانَة بِهِم مَثَار جَدل كَبير وربَّما أحياناً تسبّب شقاقاً بين الأسر بسبب أن يُقال بأنَّ هَذا مُتلَبَّس بالجِن فَيقول بأنَّ الضر جاءه مِن فلان، وهل فعلاً ما يُرَى هو تَلبُّس حقيقي بالجان؟

وقع أخذٌ وردٌّ بين العلماء في هذه المسألة، والذي يتبَيَّن بأنَّ الجني لا يدخُل في جسم الإنسي وإنَّمَا يُوحِي إليه إيحَاءَات فَيَقَع تَحت تأثِيرِه، لأنَّ قوة الجن قوة رُوحَانِيَّة شِرِّيرَة كما أنَّ قُوَّة المَلَك قوة رُوحانية خَيِّرة، فالـمَلَك يُوحِي بالخير والشيطان يُوحِي بالشر، فعندما يكون أحدٌ واقعاً تَحت تأثير الجان أو تَحت تأثير الشيطان يُوحِي إليه فيتكلَّم بِلِسانه مع أنَّ الـمُتكلِّم هو الإنسان نفسه هذا الذي يبْدُو، ولا يبْدُو أنَّ هنالك دُخولاً في جسم الإنْسِي، والله أعلم.

هناك كثيرٌ من الناسِ يؤمنون بالسحْر، ومن أمثلة ذلك ظهور الميت بعد وفاته. بل يؤمنون بها كل الإيمان، وربمَا تكون القصة التي ذكرها محمد رشيد رضا عن الشخص الذي أحضر روح المرأة بحيث جعلها

بعد ذلك على صورة إنسان جميل هي من فعل السحر، الذي يستخدم فيه الشياطين. نرجو توضيح هذا الأمر؟

السحر الثابت هو سحران، فقد تحدث القرآن الكريم عن السحر الذي كان من سحرة فرعون في مواجهة دعوة موسى عليه السلام وهي التخييل، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، وهذا السحر موجود إلى الآن وقد شاهدته بنفسي، فقد شاهدت أنواعاً من السحر الخيالي عندما كنت في الصين، شاهدت إنساناً جاء بورقة وطواها ثم صب في طيتها حليباً من إناء، وكان الصب ظاهراً، ثم قلبها فإذا بطائر يطير إي تحول الحليب إلى طائر في رأي العين، كما شاهدتهم أيضاً جاءوا بصندوق كبير وغطوا به مذياعاً كان على طاولة بعد تشغيله وسماع البرامج منه، وبعدما غطي ارتفع صوته، ثم كشفوا الصندوق فإذا بفتاة تقفز. وهناك نوع آخر من السحر تحدث عنه القرآن الكريم وهو تأثير روحاني، يمكن للساحر به أن يفرق بين المرء وزوجه، فقد أخبر الله تعالى أنهم يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله، أما أن يتسلط أحد على أحد فيخفيه عن الأبصار ويظهر للناس أنه ميت وما هو بميت فهذا خيال ما دل عليه دليل أبداً، وكل القصص التي تقال من هذا القبيل هي قصص خرافية لا أساس لها من الصحة أبداً، وقد تتبعت قصتين مما قيل في ذلك، وما وجدت لأي منهما أساساً من الصحة، وقضية تحضير الأرواح هذه من جملة الخيالات التي يصورها الدجالون للناس ولا يسوغ تصديقها لأن الروح من أمر الله كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] فليس لأحد عليها سلطان حتى يستحضرها وروح الميت إنما يمسكها الله كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، وأي أحد يقوى على أن يرد ما

أمسكه الله، وقد دل القرآن الكريم على أن من رحل إلى الآخرة لا يحس أحدهم ولا يسمع لهم ركز، فقد قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]، ولا حجة لمدعي ذلك في قصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، ولا في قصة الذين خرجوا من دياهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم، ولا في إحياء المسيح عليه السلام للموتى لأن تلك خصوصيات لا تتكرر، والله أعلم.

ما معنى الخلاف في ثواب الجنّ، وعلى ماذا استند القائلون بأن ثوابهم فقط هو النجاة من النار، وهذا رأي أبي حنيفة والليث بن سعد ومن وافقهما فيما أحسب، وقد ذهب الشافعي ومالك إلى أن الجنّ المؤمن يدخل الجنة فما رأي سماحتكم في ذلك؟

القول الصحيح أنّ الجن كالإنس مجزيون على الإحسان بالجنة وعلى الإساءة بالنار، لدخولهم ضمن المكلفين، وقد استدل لذلك بقول الله تعالى في الحور: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]، والقول بأنهم لا يدخلون الجنة لا أجد دليلاً عليه إلّا عدم النص على دخولهم الجنة، وهو دليل سلبي، لأن السكوت عن الشيء لا يدُل على انتفائه، وقد نص القرآن الكريم على أن الذين سعدوا في الجنة، وذلك يشمل الجن كالإنس، وكذلك قوله تعالى:

﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] هو شامل للإنس والجن وإن من أقوى الأدلة على ذلك قوله تعالى:

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] ـ إلى أن قال ـ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢] والله أعلم.

هل الجن يعلمون الغيب ؟

القرآن تكفل بالرد على ذلك، فالله تعالى يقول: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤]، والله أعلم.

ما حقيقة السحر؟ وما مدى تأثيره على الناس؟ وهل سُحِرَ النبي ﷺ أو لا؟

يجب علينا أن يكون في قرارة نفوسنا جميعاً أن هذا الكون بأسره سماءه وأرضه، علويه وسفليه، ملكه وملكوته، ظاهره وباطنه، روحه ومادته هو ملك لله سبحانه وتعالى، وأن كل ما في هذا الكون إنما هو مملوك لله، فلا يملك أحد لأحد نفعاً ولا ضرا، لا يستطيع أحد مهما كان أن يحقق مصلحة لنفسه، أو أن يدفع مضرة عن نفسه إلا بإذن الله سبحانه.

وإذا كان الحق ـ تبارك وتعالى ـ يخاطب خيرة رسله وصفوته من خلقه سيدنا محمداً عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، فيقول له: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فكيف بمن عداه؟! كيف يتصور الإنسان أن الخلق يملك بعضهم لبعض تحقيق منفعة لم يُرِدْها الله ـ تبارك وتعالى ـ ، أو دفع مضرة شاء الله تعالى وقوعها.

والآيات القرآنية تصل الإنسان بالله سبحانه وتعالى، وتعرّفه أن الكون هو ملك لله، وأن الإنسان هو مملوك لله، فما عليه إلا أن يتجه بروحه وجسمه، بعقله وقلبه، بضميره وغرائزه، بحواسه ومشاعره إلى الخالق العظيم سبحانه وتعالى، يقول عز وجل:

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦]،

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨]،

ويقول تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢]، ويقول سبحانه:

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧]، ويقول ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧].

كل ذلك من أجل أن تصفو عقيدة الإنسان، ويخلص إيمانه، ويتوجه بيقينه إلى ربه سبحانه وتعالى، موقنا أن الخلق أجمعين لا يملكون شيئا من تحقيق المنافع ولا دفع المضار، فلا يتعلق بالجن، ولا بالشياطين، ولا بالسحرة، ولا بأي شيء، إنما يتعلق بالله، فإذا سأل فإنه يسأل ربه سبحانه، وإذا دعا فإنه يتجه بدعائه إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ وهكذا علّم النبي ﷺ حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما إذ قال له: «يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، واعلم أن أهل السماوات والأرض لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك»[1].

ولكن مع هذا فإن الله تعالى يبتلي بعض عباده ببعض، ويبتلي بعض مخلوقاته ببعض لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى، فهو يسلط من يشاء على من

(١) رواه الترمذي (٢٧٠٦) وأحمد (٢٧٢١).

يشـــاء، ويقي من يشاء شـــر من يشـــاء، كل ذلك لأنه ﷻ مدبر هذا الوجود ومصرّفـــه، ويفعل في خلقه مـــا يريـــد، لا رادّ لقضائـــه ولا معقب لحكمه ولا تبديل لكلماته، وذلك لابتلاء العباد عندما يصابون بمثل هذه المواقف هل يصبـــرون أم يجزعون؟ فإن الإنســـان مجزي بصبره خيـــرا عظيما، وقد بشّـــر الله ﷻ الصابرين في آيات كثيرة، منها قولـــه ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، ويقـــول تعالـــى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وهذا لأجل أن يوطن الإنســـان نفسه لجميع الشـــدائد التي يلقاها، والمحن التي يكابدها ويواجهها؛ حتى لا يجزع عند وقوع شيء من ذلك، بل يكون أشد صلة بالله وأشد إيماناً به ﷻ.

والسحر الذي ذُكِرَ في القرآن الكريم إنما هو نوعان:

١ ـ ســـحر تخيل، بحيث يخيل الإنسان للإنسان ما ليس بواقع أنه واقع، وهذا أمر معهود، أنا شاهدته بنفسي، كنت في الصين، ورأيت كيف يتصرف الســـاحر، فيخيل للناس أشـــياء غريبة، رأيت أحداً من الناس جاء بورقة من الورق ولواها، ثـــم أخذ يصب فيها حليبـــا، وبعد حين نفض هـــذه الورقة، وإذا بها بدلاً من أن ينســـكب منها حليب يســـقط منها منديل، ثم بعد ذلك غطّى على المنديل بشيء، وبعد ذلك كشـــف هذا الغطاء فإذا ببطة ـ تسمى هناك عندهم ببطة بكين تطير من هناك، وهذا كله من الســـحر وليس هو من الحقيقة في شيء، والله ﷻ ذكر ذلك في قصة موسى مع فرعون عندما قال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، فالخيال هذا أمر واقع، وهو مشـــاهد، وكثير من الناس تحدث به.

٢ ـ والنوع الآخر الذي تحدث عنه القرآن الكريم هو السحر الذي يكون بإلقاء العـــداوات والكره في النفوس؛ بحيث تكره نفس نفســـا أخرى، وهذا

أيضاً يقع، والله ـ تبارك وتعالى ـ يقــول: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ولكن مع هــذا يقول: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهم لا يملكــون أن يُوقعوا المضرة إلا عندما يريد الله ـ تبارك وتعالى ـ وقوعها ابتلاء منه سبحانه.

فالسحر لا ينفعل بنفسه، وإنما ينفعل بأمر الله تعالى، فإذاً هذان النوعان هما المذكوران، أما ما شاع وذاع في أوساط الكثير من الناس من أن السحرة يأكلون لحوم البشر، وأنهم يخفون البشر ويظهرونهم للناس أنهم موتى، وقد يُخيَّلُ لبعض الناس أن فلانــاً ميت وليس هو بميــت، وإنما أخفي من قبل الساحر، ويُخيَّلُ إليهم أنه يُغسَّــل غسل الموتى والذي يُغسّل في الحقيقة هو جماد وليس ذلك الرجل الذي يخيل إليهم أنه مات، فكلٌّ من ذلك لم يقع، وكل من ذلك لم يدل عليه دليل قط لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله ﷺ، فهذا إنما هو من الأوهام والأســاطير التي تعشــش في الأدمغــة المريضة، والتي يُروّج لها في المجتمعات الساقطة، المجتمعات التي شاع فيها الجهل وانحسر عنها العلم.

وأنا بنفسي تابعت قضيتين اثنتين، قضية واحدة سمعت الكثير من الناس أن شاباً مات ودفن، ووقف أبوه على قبره، ودفنه بنفسه، وواراه في التراب، ثم بعد ســنين ظهر، وشــاع ذلك حتى وجدت أحد المشــايخ مع الأسف الشديد دوّن هذه القصة بقلمه، وبعد هذا جاء أبو الشاب وأمه إليّ، وذكرا أن ابنهما وجداه بعينه، وأن كل العلامات التي كانت في ابنهما ظهرت في هذا الذي وُجد، ولكن قالا بأنه استولى على عقله الساحر، ولا يعترف بأبوة أبيه له ولا بأمومة أمه، بل أصبح ينتمي إلى ذلك الســاحر، والقضية وصلت إلى

الشــرطة، وإذا بي في نفس اليوم ألقى ذلك الشاب وقد كان هذا من قدر الله تعالى المقدور، لقيته في عزاء، وحضر أمامــي، وعُرضت عليّ قضيته؛ لأنه طلق امرأته وهو في حالة يرثى لها بســبب فقدانه الوعي والنباهة، فســألت عنه أهو الذي يقال بأنه مســحور؟ فقيل لي: نعــم، وقد وصل الأمر إلى حد أن بعض الجهات الرسمية صدقت بهذا الأمر، حتى قالوا لذلك الذي يدّعي أنه ابنه خذه إليــك؛ لما جاء به هو وامرأته من العلامــات التي ظهرت فيه، ولكن في نفس الوقت هنالك جماعة من الناس يشــهدون بأن هذا ابن فلان وأنهم عرفوه منذ ولد إلى ذلك الوقت، وابن خالته شخصية بارزة، شخصية لها مكانة اجتماعية ومكانة سياسية في الدولة والمجتمع، ولذلك كان وجود هذه الشخصية سببا للحيلولة دون هذا التصرف الأهوج.

هذه هي القضية الأولى على أن أخواتها من القضايا إنما هي شــبيهة بها ولا تخرج عنهــا، وأما القضية الأخرى التي روّج لها فإنه قد أشــيع عن رجل بأنه ظهــر، بعد اختفاء مدة طويلــة، وبعدما ظهر لأبويه أنه مــات، وجاء إلى المجتمع الذي كان يعيش فيه الشــاب الميت الذي تقمصــه بعد حين، وجاء إلى أم ذلك الشاب وقال أنا ابنك، وأظهر لها العلامات التي تعرفها في ابنها، وأخذ يحدثهم عن قصص ذلك الشــاب وعن أخباره وماذا كان من أمره، هذا الرجــل رُوّج لقضيته هذه حتى جــيء بصورته في بعــض الصحف المحلية ونشرت قصته، وصارت قصة شــائعة تحدث عنها الصغير والكبير، ثم تورط بعلاقة مع امرأة خائنة، واتفق هو وإياها على التخلص من زوجها، وفعلا وقع هذا التخلص، قتلاه جميعا لأجل أن يتزوجها فيما بعد، وبعد هذا كله القضية رُصِدت في الجهات الأمنية باسم ذلك الذي قالوا عنه بأنه مسحور، أي باسم ذلك الشــاب الذي توفي قبل ســنين، وكان قد غرّر بأم ذلك الشــاب، وأكد لها بأنه ابنهــا وصدقته كل تصديق، وعندما عرضــت القضية علينا في اللجنة

الشرعية، سألت هذا الرجل: ما اسمك الحقيقي؟ فاعترف بكل الحقيقة، وقال: اسـمي فلان بن فلان الفلاني، وأبي هو فلان بن فـلان الفلاني، وأمي فلانة بنت فلان الفلانية، فاندهشـت منه حتى تلك العاهرة التي شـاطرته الجريمة، وقالت له: ألا تقول بأن أمك فلانة؟ قال: ليسـت بأمـي، ولكنني ابتليت بها، فقلت له: بل هي التـي ابتليت بك، والرجل اتضحت حقيقتـه قبل أن يُعدم، ووضحت صورته كما هي، وتبيـن أنه لعب بعقول الناس، فإذاً كل هؤلاء إنما هم شـياطين، وهم يلعبون بعقول الناس، ويجدون في المجتمع المنحط من يساندهم، فعندما سألته من أخبرك بقصص ذلك الشاب الذي توفي قبل سنين حتى تقمصت شـخصيته وأخذت تحكي قصصه التي تحكيها كأنك شـاهد عيان، وكأنك أنـت صاحب هذه القصـص التي تحكيها؛ أجابنـي بأن أخاه أي أخا ذلك الشـاب من أبيه هو الذي علّمه تاريخه جميعا وحفّظه إياه حتى استطاع أن يغرِّر الناس بما يحكيه منه، فهكذا شأن هؤلاء.

أما السـؤال عن سـحر النبي عليه وعلى آله وصحبـه ـ أفضل الصلاة والسـلام ـ: فلا ريب أن ذلك مما ورد في الصحيحيـن، وتقبّله الكثير مع الأسف الشديد، ودوّن في الكتب، ولكن عندما نرجع إلى التحقيق نجد أنه ليس كل ما ثبت سنده ثبت متنه، فالروايات يجب أن تنقد من حيث المتون كما يجب أن تنقد من حيث الأسانيد، فالنقد من حيث الإسناد لا يكفي.

ومما هو معلوم أن النبي ﷺ كان معصوما، وحالة السحر التي حُكيت حالةٌ لا يمكن أن تصيب النبي ـ عليه أفضل الصلاة والسـلام ـ بحيث يُخيَّل إليه أنه يفعل الشـيء وهو لا يفعله، يخيل إليه أنه يأتي نساءه وهو لا يفعل ذلك، هذه حالة لا يمكن بحـال من الأحوال أن تصيب المعصوم ـ صلوات الله وسـلامه عليه ـ الـذي ينزل عليه الوحي مـن عند الله؛ لأن هذا ممـا يجعل المجرمين يشـككون في الوحي؛ إذ بناء على هذا يكون غير مأمون أن يصاب بالتحريف

والتبديل من جرّاء هـذا الذي يزعم هؤلاء الزاعمون أنـه أصيب به النبي ﷺ، ومن خلال ذلـك روّج لقصة الغرانيق التي روّج لهـا المروِّجون، وما هي من الحقيقة في شيء، إنما هي خيال في خيال، ولكن تلقفها المتلقفون، وأظهروها في صورة مزوّقة تغري النفوس بقبولها، وليسـت هي من الحقيقة في شـيء، فعلينا أن نوقن بأن الرسول ﷺ معصوم من عند الله، وأن كل ما ينطق به إنما هو وحي من عند الله تعالى، فلا يمكن أن يؤثر عليه سحر الساحرين، كما لا يمكن أن تتدخل الشـياطين في الوحي الموحى إليه مـن رب العالمين؛ حتى يخيل للناس ما يمليه أولئك الشياطين أنه من جملة الوحي. والله تعالى المستعان.

هل يستطيع الساحر أن يخفي إنساناً عن الأنظار من دون أن يميته؟

قد يُخفي نفسه، إذ يمكن للساحر بسـبب ما يُخيِّل للناس من سحره أن يخيل لهم أنه حيوان يمـر كما يمر الحيوان بين أيديهـم، ويمكنه أن يُخيِّل للناس غير الواقـع أنه واقع، ويخيـل لهم ما هو واقع ليـس بواقع، مجرد خيال، يخفي عن الأبصار ما هو ظاهر، لكـن أن يتصرف بحيث ينقل أحداً من مكان إلى مكان، ويخفيه عن الأنظار، ويأتي بخشـبة مثلا فيصورها في صورة إنسان، فهذا أمر مستحيل لا يُصدق.

أنا امـرأة ولله الحمد ملتزمـة بديني من فـروض وتطـوع، وأعتني ببيتي وأولادي، وقبـل فترة من الزمـن تزوج زوجي عليّ زوجـة أخرى، وكانت على خلق وديـن، ولكن طرحت عليّ إحدى القريبـات مني فكرة (عمل)؛ أي تفريق بين زوجي وزوجته، فقمت بهذا العمل وتم التفريق بين زوجي وزوجته، وزوجي في الحقيقة لا يؤمن بهذا، ولا يشك فيّ أبدا، فماذا عليّ؟

من تعامل مع السحرة فقد كفر، وعلى هذه المرأة أن تتوب إلى الله توبة نصوحـا، وأن ترجع إلى حظيـرة الحق التي خرجت منهـا، وأن تطلب من

زوجها العفو عما أجرمته في حقه، وأن تطلب من تلك المرأة التي تسببت للفراق بينها وبين زوجها أن تسامحها، وعليها أن تصلح ما أفسدته بقدر المستطاع، بحيث إن كانت دفنت شيئا من هذا العمل الخبيث في مكان أو استعملت شيئاً من ذلك عليها فإن عليها أن تنتزعه وتتلفه بمشيئة الله تعالى، وأن تطلب من الله سبحانه أن يقضي على أثر هذا السحر الخبيث، وبهذا تكون ذمتها بريئة وتوبتها مقبولة، والله تعالى المستعان.

ألا يجب عليها أيضاً أن تخبر عن ذلك الرجل الذي عمل لها ذلك التفريق حتى تتبعه السلطات ويلحق به العقاب؟

إن كان بحيثُ يمكن أن تناله السلطات فنعم، ولكن إن كان في مكان قاصٍ بعيد بحيث لا يمكن أن تمتد إليه يد العدالة، بحيث يكون في دولة أخرى فماذا عسى أن يقال في مثله والله أعلم؟!

هنالك من يعالج بالقرآن الكريم، وهو حسب الظاهر من الثقات، وهذا المعالج يخبر المريض بأنه مسحور، أو أن أحداً من الناس وضع له عملا، فكيف استدل المعالج على ذلك؟ وما الحكمة من سؤال المعالج عن اسم أم المريض؟

أما السؤال عن سؤال اسم أم المريض فذلك مما يدخل في التنجيم، والتنجيم باطل وهو حرام حرام، لا يجوز لأحد من الناس أن يفعله، ولا يجوز لأحد من الناس أن يأتي من يفعله، فإن التنجيم إنما هو من بقية المعتقدات الضالة، معتقدات الذين يعتقدون أن لهذه النجوم تأثيراً في حياة الناس، فيجب على الناس أن لا يصدقوا هذا الذي يدّعي علم الغيب؛ لأن القرآن صريح في أنه لا يعلم الغيب إلا الله، فالله تعالى يقول: ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥]، فلا يجوز لأحد أن يصدق قط أن هنالك من خلق الله تعالى من يعلم الغيب في السماء ولا في الأرض، هذا ما يجب أن يكون في قرارة نفوسنا جميعاً فإن معرفة البشر بالغيب من غير وحي يوحي إلى أمر مستحيل، ومن كان في قرارة نفسه خلاف ذلك فقد كفر بما أُنزل على محمد؛ لأنه كفر بصريح هذه الآية الكريمة.

ونحن نطلب من أولئك الذين يتورطون ويذهبون إلى هؤلاء العرافين أن يعودوا قبل كل شيء إلى عقيدة الإسلام، وأن يستلهموا الحقائق من القرآن الكريم، وأن لا يقعوا أسارى لأولئك الذين يروّجون بينهم هذه الأوهام، فإنهم بهذا تعمى عليهم السبل، ولا يجدون الطريق الذي يؤدي إلى الحقيقة، فليتقوا الله تعالى وليرجعوا إلى رشدهم، وحديث النبي ﷺ يقول: «**من أتى عرّافا فسأله فقد كفر بما أُنزل على محمد**» (رواه أحمد والبيهقي في السنن الكبرى)، والله تعالى المستعان.

ما مدى صحة استخدام المعالج للأخوة المسلمين من الجن في إبطال الأعمال والأمراض من الجسم؟

الجن لا يعلمون الغيب، فالله ـ تبارك وتعالى ـ يقول وهو أصدق القائلين: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤]، ثم إن الله ﷻ بيّن في سورة الجن أن تشبث الإنس بالجن وتعلقهم بهم من أجل دفع الضرر أو من أجل تحقيق المنافع أمر لا يزيد هؤلاء المتشبثين إلا رهقا ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦]، فالتعلق بالجن من أجل دفع شيء من هذه المضار أو تحقيق شيء من المكاسب لا يعدو أن يكون من الأمور التي هي وليدة الأوهام والجهل والخرافة، فلا يجوز لأحد أن يصدقها.

وأنا أتعجب من تصديق هذه الأشياء من قِبَلِ أحد يتلو كتاب الله تعالى ويصلي وفي صلاته يقرأ سورة الفاتحة الشريفة، وهذه السورة فيها ما يبيّن أن الاستعانة لا تكون إلا بالله كما أن العبادة لا تكون إلا له، فالله تعالى يعلمنا كيف نستعين وكيف نعبد؛ بحيث لا نستعين إلا به ولا نعبد إلا إياه، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فكما أن العبادة لا يجوز أن تكون إلا لله فالاستعانة أيضاً يجب أن لا تكون إلا بالله ﷻ ولا يملك المخلوق إلا العلاج الذي هو سبب للشفاء، هذا في الأمور التي لم يجعل الله تعالى التعاون فيها بين الناس من سنن الحياة ونواميس الوجود، أما الأمور التي جعل الله تعالى التعاون فيها بين الناس من سنن الحياة ومن نواميس الوجود فلا مانع من استعانة أحد بأحد؛ فللإنسان أن يأتي إلى غيره من الناس ليقول له أعني بإقراض مبلغ من المال، ولكن ليس له أن يقول له أعني فاجعلني من الأغنياء، وله أن يقول له: أعني بحيث تعالجني من هذا المرض، ولكن ليس له أن يقول له: أعني بحيث تشفيني من هذا المرض؛ فإن الشافي إنما هو الله ﷻ، وللإنسان أيضاً أن يقول لغيره: أعني بحيث تحمل معي هذا الحمل، أو تحمل عني هذا الحمل، ولكن ليس له أن يقول له: أعني بحيث تجعلني قوياً قادراً على حمل هذا الحمل، فإن ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله ـ تبارك وتعالى ـ.

ولما كان ذلك من مقدور الله تعالى وحده فليس لأحد أن يستعين عليه بأحد إلا به تبارك وتعالى، فليس له أن يستعين بإنسي أو بجني عليه، فالإنس والجن جميعا لا يملكون دفع ضرر ولا يملكون تحقيق منفعة إلا بأمر الله تعالى، والله ـ تبارك وتعالى ـ يعلمنا من خلال ما يحكيه عن إبراهيم عليه السلام أن الشفاء إنما هو بيد الله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، ولكن بما أن الله تعالى جعل لكل داء دواء فالطبيب المعالج إنما يستعمل الدواء النافع سواءً كان هذا الدواء حقنة أو شرابا أو كان هذا الدواء من خلال عملية يجريها ويستأصل بها العلة،

أما أن يكون ذلك الطبيب هو نفسه يملك بأن يشفي أحداً فلا، وإلا لكان هذا الطبيب قادراً على أن يدفع الموت عن الناس، وكم من أحد يعالجه الطبيب وهو يتماثل للشفاء وإذا به يموت وهو على تلك الحالة، فالله ـ تبارك وتعالى ـ وحده هو الشافي، وهو الذي يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، والله المستعان.

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ١١٦]، ما المقصود بسحر عظيم؟

جاءوا بسحر عظيم؛ لأنهم خيلوا لموسى عليه السلام مع أنه من أرسخ الناس عقلاً، وأحياهم نفساً، وأكثرهم بصيرة ـ أنها تسعى وما هي بساعية، فهذا سحر عظيم والله أعلم.

الناس يلصقون بمن يتهمونه بالسحر بعض الصفات، فيقولون بأن الساحر لا يمكن أن يقرب مسجداً، ولا يمكن أن يذهب إلى الحج، فإذا وجدوا شخصية من هذا النوع اتهموه بالسحر، فهل هذا صحيح؟

لا، الساحر قد يأتي المسجد وهو في حقيقته ساحر وقد يحج أيضاً وهو ساحر، والله أعلم.

هل يُعدُّ الساحر كافرا؟

نعم، هو كافر لأنه يستمد من وحي الشياطين، وليس هو من الإيمان في شيء، ولذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «اقتلوا الساحر والساحرة»[1].

(١) روي هذا من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣١٩٥) ويشهد له حديث: «حد الساحر ضربة بالسيف» رواه الترمذي (١٣٨٠) والبيهقي في السنن الكبرى (١٦٢٧٧).

ما هي عقوبة الساحر في الآخرة؟

عقوبته في الآخرة عذاب جهنم خالداً فيه مخلدا والله أعلم.

الإنسان الذي لا يعتني بنظافته ولا يكون نظيفاً في ملابسه وفي مظهره، هل يكون معرضا للسحر؟

الشياطين تألف الخبيث، فإن كان لا يتقي النجاسات فلربما كان ذلك سبباً لقرب الشياطين منه بسبب عدم اتقائه هذه النجاسات، وقد يكون أيضاً الخبث المعنوي سبباً لأسر الشياطين لأولئك كما قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]، فقد يكون الخبث المعنوي ـ وهو أن يكون هذا الإنسان خبيث النفس عاصياً لله ﷻ مجانباً لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج وسائر العبادات وسائر الأعمال بعيداً عن ذكر الله ـ مما يؤدي أيضاً إلى أن تتلبس به الشياطين، والله تعالى أعلم.

امرأة كان لها زوج شديد وقاسٍ ويعمل الأعمال السحرية ليضر بها الناس وكان يجبرها أن تدفع تلك الأعمال السحرية في أماكن معينة ثم تشاهد بنفسها المقصودين بالسحر يتضررون وهي الآن مطلّقة وتائبة ولكنها تسأل عما يمكن أن تُكفّر به عن ذلك الذنب؟

إنّ الله تعالى لم يترك الناس سُدى، ولم يخلقهم هملا، بل كل إنسان محاسب على ما قدّم وأخّر، ومسؤول عن فعله:

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠] بلى، وإنه سبحانه سوف يحاسِب كل أحد بعد إحيائه على ما قدّم وأخّر في هذه الحياة الدنيا، لهذا كانت طاعة من تحق لهم الطاعة من البشر مؤطرة في

حدود طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، فما كان لأحد أن يطيع أحداً من الناس أيّاً كان ـ زوجاً أو والداً أو أيّ أحد له شأن وقدَر ورفعة ـ في معصية الله ﷻ، فإنّ معصية الله ﷻ أمر عظيم، ومن شأن المؤمن ألّا يتردد في طاعة الله وفي طاعة رسوله ﷺ

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

لأنه اجترأ على الله ذي الشأن العظيم والذي له الحق في أن ينقاد له كل أحد من أعماق نفسه.

هذا والسحر هو أكبر الكبائر، لأنه يتضمن الإشراك بالله، والشرك بالله هو أكبر الكبائر، لأن السحر فيه طاعة للشيطان، وتجاوب مع عمله، وانقياد له، وإيثار لطاعته على طاعة الله، وكفر بما أنزل الله تعالى، لذلك كان السحر معدوداً من جملة الإشراك، ولذلك جاء في الحديث عن النبي عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام: «**اقتلوا الساحر والساحرة**»، فالساحر والساحرة حكمهما أن يُقتلا، بسبب ردَّتهما عن الإسلام.. على أنَّ السحر مهما كان إنما يضر من كتب الله تعالى عليه التضرر به، فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ولكن مع ذلك هو من أعظم الكفر، ولذلك تجد التصريح بما يدل على أنّ السحر داخل في ضمن الكفر في قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ومعنى ذلك أن من تعلم السحر فهو كافر، أو من سعى وراء ضلالات السحر فهو كافر، فما كان لهذه المرأة أن تطيع زوجها فيما يأمرها به من الكفر ومخالفة الحق، وعليها ـ بطبيعة الحال ـ مع التوبة إلى

الله ﷻ أن تتخلص إلى أولئك الذين تضرروا، وذلك بأن تضمن لهم ما لحقهم في أنفسهم أو في أموالهم إلا أن ينزلوا عن حقهم ويعفوا عنه، فإن ذلك أمر سائغ؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

قضية تلبس الجن بالإنس، هل هي حقيقة أم هي أمور نفسية؟

هذه القضية بحثها العلماء ووقفوا منها موقفين؛ منهم من قال بدخول الجن في جسم الإنس لأنّ أجسامهم أجسام لطيفة، أي هم أقرب إلى الروحانية فلذلك يتمكنون من الدخول؛ ومنهم من قال بعدم دخولهم لأنهم ولو كانت أجسامهم لطيفة إلا أنهم أجسام فلا يتلبس جسم بجسم، ولكن مع هذا هنالك تأثير من حيث الإيحاء فقد يتكلم الإنسان كلاماً يوحيه إليه الجني الذي تلبس به بطاقته الروحانية لا بدخوله في جسمه حسب ما يبدو، وإنما يؤثِّر عليه تأثيراً حتى يتحدث بما يتحدث به؛ وهذه القضية لا ننكر وقوعها إلا أنّ ذلك قد رُوّج له ترويجاً عجيباً عند الناس، وهذا الذي جعل الناس يتأثرون تأثراً نفسياً عجيباً، وتترادف عليهم الأمراض النفسية، وتكثر عندهم الأوهام، وتشيع عندهم الخيالات حتى يتحدث الإنسان بأنه رأى كذا ورأى كذا وأنه يحس بكذا في حالة نومه أو في حالة انفراده أو في غير ذلك من أنواع الحالات وهذا في الغالب ناشئ عن حالات نفسية، ولقد وصل الأمر بالناس أن أحداً إذا أحس حشرجة في حلقه قال: «هذه من أثر الجن»، أو أوجعته أذنه قال: «هذا من الجن»، أو وجعه رأسه قال: «هذا من الجن»، أو أصابه أيّ شيء قال: «هذا من الجن».. كأنما الإنسان ليس عرضة للبلاء، فمثل هذه الإشاعات أوحت إلى الناس إيحاءات غريبة، وأثّرت عليهم تأثيراً نفسياً فلذلك كان من الواجب أن تكافح ويُؤمر كل أحد أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، وعندما شكا عبدالله بن عمرو بن العاص إلى النبي عليه

أفضل الصلاة والسلام أنه عندما ينام يرى أهوالاً علّمه النبي ﷺ أن يقول: «أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعذابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»[(١)]؛ فالمسلم يؤمر أن يتقي الله في جميع أحواله وأن يتقي الله عندما ينام، فلا ينام إلا على طهارة، وأن يستيقظ على نية خالصة لوجه الله تعالى، وأن يذكر الله قبل نومه، وعند يقظته، وفي جميع أحواله، فإن استجابة المسلم لذكر الله تعالى في أحواله المختلفة سبب لوقايته من هذه الشرور، ومن هذه الأوهام، فإن الله تعالى يقول: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]؛ والله ـ تعالى ـ الموفّق.

نجد من خلال تفحصنا لواقع الناس أنّ مشكلة أيضاً وقعت في هذا الموضوع فقد تنشز زوجة أحدهم عليه فيبقى حائراً هل ذلك النشوز هو بسبب السحر، أم بسبب أنها لا تحبه أو لا ترغب فيه فيرتبك ويضطرب فلا يدري كيف يتصرف.. هل هنالك علامات معينة تدل على أن الزوجة إنما تأثرت بفعل السحر ؟

نحن لا ننكر أن يكون هنالك سعي من بعض السحرة والدجّالين للتفريق بين المرء وزوجه، كما قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ [البقرة: ١٠٢] ولكن مع هذا لا يقع ذلك إلا بقدَر من الله كما قال تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢].. فالضرر إنما يقع إذا كتبه الله تبارك وتعالى وإلا فإن سحر الساحر لا يؤثر حتى يكون ذلك أمراً مقدّراً من قبل الله سبحانه؛ وكثير من الناس ربما يتوهمون أنّ ما يقع بينهم من خصومات وما يقع بينهم من خلاف إنما هو بسبب سحر الساحرين، ولا يلزم أن يكون ذلك صحيحاً، بل لعله من النادر أن يكون

(١) رواه الترمذي رقم (٣٤٥١) وأحمد (٦٤٠٩).

ذلك بسحر السحرة فإنّ كُره المرأة لزوجها، وكراهة الرجل أحياناً لامرأته قد تحصل بدون أن يكون هنالك سحر، والخلاف ما بين الزوجين يقع حتى في أطهر البيوت بيت النبوة فالنبي عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام كان أحياناً يقع خلاف بينه وبين أهله، حتى أنه اعتزل نساءه لمدة شهر؛ وما ذلك إلا بسبب ما يقع من خلاف فيما بينهم، فلا يُعد هذا أمراً خارجاً عن الطبيعة، وعن المألوف، والله أعلم.

الكثير مِن هذه العلاجات التي يَدَّعِيها بعض الناس ـ أو يقولونَها ـ مَبنية على أفكار مُعَيَّنة وعلى حقائق كما يَعتبِرونَها هم، وأَوَّل هذه الأفكار حقيقةُ تَلَبُّس الجنِّ بالإنس ـ كما يسمّونها هم ـ هذه المسألة دار حولَها جدل كثير.. بعضهم ينفيها وبعضهم يُثبِتها، حتى أنَّ بعضهم يَعيب على المسلمين أنَّهم يُؤمِنون بِهذه الفكرة ـ أو بِهذه المسألة ـ على الرغم مِن أنّ العالَم الآخر الذي يُحيط بِهم لا يُوجَد لديه شيء مِن هذا فلماذا الجن تأتي إلى المسلمين فقط فتتلبّس بِهم ولا تأتي إلى غيرهم؟! ما حقيقة هذا الموضوع؟

إنَّ مِن الواجِب على المسلِم أن يكون في قرارة عقيدته وملءَ نفسِه أنَّ الكون كلَّه إنَّما هو مِلك لله، فالإنس والجنّ إنَّما هم مَخلوقون خَلَقَهم الله، وهم مُصرَّفون مِن قِبَله فلا يَملِك أحدُهم أن ينفعَ أحدا أو أن يَضُرَّه إلا بأمر الله، ولا يَملِك أحدُهم أن يدفعَ عن أحد ضرّاء ـ أيضاً ـ إلا بأمر الله تعالى، فالتعلق بالجن إنّما هو تعلّقٌ بوهْم مِن الأوهام، إذ الله تعالى يقول: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، فأولئك الذين كانوا يَعوذون برجال مِن الجن كانت نتيجته أنَّهم زادوهم رَهقا، ولعل كثرةَ اشتغالِ الإنسان بِهذا الجانب، والتَّعَلُّق بِهؤلاء الذين يَعتقِد أنَّهم يُصرِّفون الأمور

ويُقدِّمون ويُؤخِّرون ويكونون سببا للبلاء وسببا للعافية مِمّا يُؤدِّي إلى هذا الرَّهَق الذي أصاب الكثيرَ مِن الناس.

هذا مع أَنَّنَا علينا أن نكون وَاقِعِيِّين، لا أن نكون مُغَالِين لا في هذا الاتِّجَاه ولا في الاتِّجَاه الآخر، فنحن لا يُمكِن أن نُنكِر أن يكون هناك ضرر مِن قِبَل بعض الجن ببعض الإنس وهذا ما يدلُّ عليه القرآن الكريم، فإنَّ الله تعالى يقول حكاية عن عبده أيوب عليه السلام:

﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص: ٤١]، فقد يكون الشيطان سببا لِهذا النُّصْب ولِهذه المشقَّة ولِهذا البلاء، ولكن ذلك إنَّما هو بتسليطٍ مِن الله، إما ابتلاءً لِمَن يُريد أن يَبتَلِيَه، وإما عُقوبةً ونَكالاً لِمَن كان حائداً عن طريق الحق، كما يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣].

وهذا ليس هو عند المسلمين فقط بل حتى في العالَم الغربي، فقد ذكر لي بعض الناس أنَّه اطّلع على «فِلْم» جاء مِن العالم الغربي خِصِّيصا يَكشِف هذه الناحية التي وُجِدَتْ عندهم، فلا يقال بأنَّ هذه الحالة أو هذه الأفكار عند المسلمين فقط، بل هي موجودة حتى عند غير المسلمين، ولَها شواهد.

ولكن كيف نوع هذا التأثير؟

هل بدخول الجِنّي في جسم الإنسي؟ وهذا رأي طائفة مِن أهل العلم.

أو أنَّ للجانّ قوةً روحية، يمكن مِن خلالها أن يكون تأثيرُهم على نفوس الإنس الضِّعَاف أو المبتلاة فيُؤدِّي ذلك إلى أن يَنجذِب الإنسان انْجِذَابا لِما يُمليه عليه هذا الجان، وهذا أوضح، فإنَّ الحديث الذي هو خارج عن المألوف الذي ربّما كان من الإنسان عن أمور بعيدة عن المحيط الذي هو فيه أو كان بلغةٍ غيرِ اللغة التي أَلِفَها وعرفها، كأن يَتحدَّث الأعجمي

بالعربية مع أنَّه ما تَحدَّث في حال صَحْوِه بالعربية قط أو أن يَتحدَّث العربي بالأعجمية مع أنَّه ما كان يَعرِفها ولربَّما كان لا يَختلِط بأصحاب تلك اللغة وهذا مِمّا يَحصُل فهذا إنَّما الأقرب فيه أنه يكون بإيحاء، لأنَّ تأثيرَ الشيطان على الإنسان إنَّما هو تأثير رُوحاني، فمِن خلال الطاقة الروحانية التي جعلها الله تعالى في الشياطين يُمكِن أن يكون هذا الإيحاء.

وهذا لا يُستغرَب، فنحن نرى أنَّ الطاقة الروحية تفعل العجب العجاب، حتى ما بين الإنسي والإنسي، فلربَّما كانت رُوح أحد مِن الناس أقوى فيكون لذلك الشخص تأثيرٌ غريب على شخص آخر تكون روحه أضعف، ومِن هذا الباب التنويم المغناطيسي، فإنَّه رُبَّما ينام الإنسان بِمجرد نظرة مِن إنسان آخر يَفتح عليه عينيه وينام، وأنا قرأتُ في بعض الصحف أنَّ التنويم المغناطيسي قد يكون حتى مِن خلال الاتصال بالهاتف، وهذا لا يُمكِن أن يكون مُجرّد طاقة كلامية عادية، وإنَّما هي طاقة روحانية مؤثِّرة، فهذا ما لا يُمكِن أن نُنكِره إلا أنَّ الناس أفرطوا وتَجاوزوا الحدود، فصاروا كأنَّهم خُلِقوا بَريئين مِن كل الأمراض فلا يُصاب أحدهم بعِلّة قط ولا يُبتلى بأيِّ مرض حتى يدعي أن ذلك مِن طريق الجان، مع أنّ المرض أمرٌ معهود في البشر، فالإنسان يَتقلَّب في حياته بيْن الصِّحَّة والمرض وبيْن البُؤس والنَّعيم وبيْن الراحة والتعب وبيْن الحزن والفرح، فالإفراط الذي يُؤدِّي بالناس إلى أن يَعتقِدوا أنَّ كل ما يُصيبهم إنَّما هو مِن تأثير الجنّ أمر مذموم، فلو أنَّ أحدا أُصيب بوجع في رَأْسه أو ضِرْسه أو أُذُنه أو أَنْفه أو رِجْله أو أيِّ نوع مِن أنواع الأوجاع قال بأنَّ ذلك مِن تأثير الجان، وهذا كلام خارج عن المعقول، فالله تعالى يَبتلي مَن يشاء بِما يشاء، وقد ابتلى الله تعالى النبيين عليهم السلام بما أصابَهم مِن الأمراض والبلاء والحزن فيعقوب عليه السلام ابتُلي بالحزن بسبب ولَدِه

يُوسف عليه السلام حتى ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٨٤]، وكذلك ابتلاء أيوب عليه السلام وإن كان هو بنفسه قال:

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] ولكن مع ذلك فإن البلاء في الأصل أن يكون مِن الله تبارك وتعالى، وإبراهيم عليه السلام قال: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، ولننظر كيف جاءت هذه العبارة بما يدلُّ على القطْع بوقوع المرض، فإنَّه لَم يقل: «وإن مرضتُ»، فإنَّ «إنْ» تُفيد الشك بيْن الوقوع وعدمه، بينما «إذا» تُفيد اليقين بالوقوع، فلذلك قال: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].. ومعنى ذلك أنَّ المرض أمرٌ معهود في النبيين الصالِحين، فكيف بغيرهم.

فالإنسان يُبتلى بالكثير الكثير مِن الأمراض، والبلاوى المتنوّعة، ولا يَلزم أن يكون ذلك كلّه مِن جانّ أو مِن إنس.

والناس الآن يَعتقِدون أنّ كلَّ ما يصيبهم إنَّما هو بسحر ساحر أو بأثرٍ مِن التلبّس بالجان، وهذا خطأ كبير.

ومع هذا ـ أيضاً ـ نَجد أنّ الكثير مِن الناس تركوا العلاج بالوسائل الطبيعية، مع أنّه لا بد مِن العلاج بالوسائل الطبيعية، فالنبي ﷺ أمر بالتداوي، وقال: «**تَداووا عباد الله، فإنَّ الذي أنزل الدَّاءَ أنزل الدَّوَاءَ**»[1]، وقال: «**لكلِّ دَاءٍ دَواء إلا الموت**»[2]، فلكلِّ داء دواء عَلِمَه الناس أو جهلوه موجود في هذا العالَم الذي نعيش فيه إلا الموت فإنَّه لا دواء له، حتى الأمراض التي لَم يُكتشَف لَها دَواء إلى الآن كأنواع مِن السرطان ـ مثلاً ـ لا بد مِن أن

(١) رواه أبو داود (٣٣٧٦) بلفظ قريب.
(٢) رواه مسلم (٤٠٨٤) بلفظ (لكل داءٍ دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل) ورواه الحاكم (٨٢٢٠).

يكون لَها دَواء، لأنه دل على ذلك الحديث الشريف عن النبي عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام.

فالناس مأمورون أن يأخذوا بالوسائل، وقد روي أنَّ داود عليه السلام ابتُلي بِمرض فدعا الله ـ تعالى ـ أن يُعافِيَه فأمره الله أن يأخذ بالأسباب وأن يتداوى، وهذا لئلا تَتَعَطَّلَ سُنن الوجود ونواميس الكون، وإلا فإنَّ الله ـ تعالى ـ قادر على شفائه مِن غير علاج.

ومِمّا يَذكُره العلّامة السيد محمد رشيد رضا في تفسيره «المنار» أنَّ شيخه الأستاذ الإمام محمد عبده كان أصيب بإسهال واستعصى على العلاج فرأى في منامه أحدا يقول له: «اشرب مِن عيْن كذا» وهي عين معهودة أمرَه أن يَشرَب منها فشرِب منها فعُوفِي وتوقّف الإسهال الذي ابتلي به فاكتشفوا مِن بعد أنَّ تلك العيْن ماؤها يَجري على عروق وهي علاج للإسهال.

فالله تعالى أَوجَد هذه الأسباب وهو قادِر على أن يَكشِف ذلك لبعض عباده مِن خلال رُؤى مَنَامية يَرونَها تدلّ على خيْرهم وعلاج أمراضهم، وهو قادِر ـ أيضاً ـ على أن يَجعل في الشيء البسيط الذي لَم يُعْتَدْ أن يَتداوى به الناس علاجا وشفاءً لبعض الناس، لأن الله تعالى على كل شيء قدير.

وإنَّما رُكونُ الناس إلى مثل هذه الأفكار الخاطئة والتعلّق بِهذه الأوهام هو ناتِج عن جهلهم بالعقيدة الصحيحة، فإنَّ العقيدة الصحيحة تَقتضي أن يكون الإنسان واثِقا بربِّه مُتوكِّلا عليه مُنِيبا إليه مُعتقِدا أنَّه وحده بِيَدِه النَّفع والضَّر، وأنَّه لو اجتمع أهل السماوات والأرض على أن ينفعوا أحدا بشيء لَم يَكتبه الله ـ تعالى ـ له لَم يَستطيعوا نفعَه، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء لَم يَكتبه الله عليه لَم يستطيعوا ضره، وهذا الذي دلّ عليه القرآن، فإنَّ الله عز وجل يقول:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، ويقول سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، ويقول جل شأنه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

فالإنسان المسلم يَتعلَّق بِهذه العقيدة الصحيحة، ويَثق بِمضمونِها، وبأنَّ الله تعالى وحده هو الذي بِيَدِه النَّفع والضر، ولكن مع ذلك يأخذ بالأسباب، فيَتعالَج العلاج الطبيعي المعروف، وهو ـ أيضاً ـ يأخذ بالأسباب الروحانية فيَعُوذُ بالله سبحانه من شر البلاء، فإنَّ الإنسان قد يَتعرَّض لأهوال وأزمات نفسية ولكن عندما يَعُوذُ بالله عَزَّوَجَلَّ يَكشِف الضراء عنه، فإنَّ الله سبحانه يقول: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، والنبي عَلَيْهِ السَّلَامُ كان عندما يَنام يَقرأ آية «الكرسي» والمعوِّذَتَيْن ويَنفُثُ في يَدَيْه ويَمسَح على جسده، بِجانب ما يَقرؤه مِن الأوراد والأذكار والآيات والسوَر الأخرى، وعندما جاءه أحد أصحابه وشكا إليه الأهوال التي يراها في منامه أمره أن يقول: «أعوذ بكلمات الله التامّات مِن غضبه وعذابه ومِن شرّ عباده ومِن همزات الشياطين وأن يَحضرون»، والله ولي التوفيق.

أنتم ذكرتم الآن أنَّ التأثير الذي يكون مِن الجنّ في الإنس إنَّما هو تأثير روحي، كيف يكون هذا التأثير؟ هل يَسلب عقل الإنسان؟ وهل يَجعله ـ مثلاً ـ يتكلّم بكلام غريب جدا بعيد عن الحقيقة؟

نعم، قد يتكلّم بكلام لا يَشعُر به وهذا لا يُستغرَب، فتأثير الشيطان تأثيرٌ غريب، كتأثير الملَك، فالله تعالى منح الملائكة طاقة روحانية، فهم نفوس روحانية طَيِّبة، بينما الشياطين نفوس روحانية خَبِيثة، وهم يَتصرَّفون بِموجِب

هذه الطاقة، ومِن ذلك التأثير بالوسوسة بحيث يُملِي على الإنسان ما يَصدّه به عن الحق، ويُزيّن له الباطل ويُغريَه بالفحشاء والمنكَر، بل ويُغريه أحيانا بالجرائم المتنوّعة كل ذلك بِما جعل الله سبحانه في الشياطين مِن طاقة روحانية خبيثة، وقد جاء في الحديث عن النبي عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام أنه قال: «إنَّ للملَك لَمَّةً بابن آدم، وإنَّ للشيطان لَلَمَّة»[1].. يعني أن كل واحد مِن المَلك والشيطان له لَمَّة هذا يُلِمُّ وهذا يُلِمُّ، فالشيطان يَتوعَّد الإنسان بالشر ويأمره بالفحشاء، والملَك يأمره بالحق وبفعل الخير ويَعِدُه بالخير.

هذا هو الذي يظهر لي، أما دخول الجسم في الجسم فهذا مِمَّا يُستبعَد، والله أعلم.

البعض يقول: إنَّ هذه الأمور كلّها لَم تَكن موجودةً في العصر الذهبي ـ في زمن النبي ﷺ والصحابة الراشدين ـ وإنَّما جاءت فيما بعد، فهل يعني ذلك أنَّ الناس تنازلوا عن بعض الأمور الشرعية أو ارتكبوا أشياء... ؟

لا نستطيع أن نقول أنها لَم تكن موجودة قط، فالنبي ﷺ نفسه كان يَعوذ بالله مِن الشيطان، وكما ذكرنا أنَّ أحد أصحاب النبي ﷺ كان تأتيه أهوال في منامه، وسأل النبي عليه السلام فأرشده إلى ما أرشده إليه من الذكر، كما روى ذلك الإمام مالك في الموطأ[2]، وكذلك المرأة التي كانت تُصرع في عهد النبي ﷺ وسألت النبي عليه السلام أنْ يدعو لَها فقال لَها إن شئت دعوت لك وإن شئت صبرت ولك الجنة، فرأت أن تصبر على

(١) رواه الترمذي (٢٩١٤).
(٢) رواه مالك في الموطأ (١٧٠٤).

البلاء، ولكن شـكت إليه أنَّها يُصيبها التعري عندما يأتيها الصرع، فدعا لَها النبي ﷺ أنْ لا يَبِين شيء مِن جسدها[1]، والله أعلم.

بَيَّنتم أنَّ التأثيـر إنَّما يكون روحانيا أما دخول الجني في الجسـم فمِمَّا اختلف فيه...

أنا استبعده، ولا أقطع عذر مَن قال به، ولا أخطئه، والله أعلم.

الرقي والتمائم

الـمُعالَجَـة بالقرآن الكريم مَع إِدخال كلمات غيـر مَفْهُومَة، هل هذا مِن الجائز؟

مَن يُعالِـج بالقرآن يُعالِج بآيات الله تعالى، ولا يُقْحِم كلمات هي أَشْـبَهُ بالطَّلاسِمِ والأَلْغَاز في هذا، وإنَّما يأتي بالدعاء مع القرآن، والله أعلم.

ما حُكـم الحجـاب الـمُتَضَمِّن لآيات مِـن القرآن الكريم، هـل تَعْلِيق الحجاب يُعتبَر مِن التوكُّل على غير الله؟

إذا كان يَرَى أَنَّ ذلك الحجاب هو الشَّافِي والنَّافع والرَّافع للبلاء فهو من باب التوكل على غير الله، أمَّا إذا كان يتَبَرَّكُ بِآيات الله ـ تعالى ـ البيِّنَات كما يتبَرَّك بِتِلاوتِها فقد أَبَاحَ جَماعة مِن العلماء ذلك، والله أعلم.

(١) رواه البخاري (٥٢٢٠) ومسلم (٤٦٧٣).

سؤالي: إني قرأتُ مَقالا في جريدةٍ عن الشيخ الشَّعراوي يَقول فيه: «إنّ قراءةَ آياتِ الشفاء التي في القرآن تَنفَعُ في علاجِ المريض مثل قولِه تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فهل هذا صحيح ؟

إن الله تعالى جَعَلَ القرآنَ الكريم مصدَرَ الخيْرِ كلِّه.

ولا ريب أنّ القرآنَ الكريم هو شفاءٌ لِلقلوب وعلاجٌ لِلأمراضِ النفسية وعلاجٌ لِلأَدْوَاءِ البَشَرِيّة، لأنّ الله تعالى أنزلَه لِيَكُونَ هُدًى لِلناس وبيِّناتٍ مِن الهُدى والفُرْقَان، فهو يَشْفِي مِن كلِّ ناحيةٍ مِن النواحي، يَشفِي مِن الناحيةِ الفكرية، لأنه يُنِيرُ البصائر بِالفكرِ الصحيح والعقيدةِ السويَّة والإيمانِ الخالِص.

وهو مع ذلك شفاء مِن ناحيةِ العبادة، لأنه يُوَجِّه النُّفوس إلى أن تَعْبُدَ الله وَحْدَه وأن تَتعلّقَ به بحيثُ لا تتعلَّقُ بِغيرِه.

وهو شفاء ـ أيضاً ـ مِن حيثُ العلائِق الاجتماعية بِما يَأمُرُ بِه مِن الخيْر ويَأمُرُ بِه مِن التَّرابط بيْن عبادِ الله المؤمنين.

وهو شفاء مِن حيثُ التَّشريع، لأنه أَعطَى كلَّ ذِي حقٍّ حقَّه وأقامَ الناس على سواءِ الصِّراط.

وهو شفاء أيضاً مِن ناحيةِ الأمراض الحِسِّية المَعْرُوفة، لأنّ الله ـ تعالى ـ جَعَلَ فيه البَرَكَة، وقد كان النبي ـ عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام ـ يَستشفِي به، لأنه ﷺ كثيرا مَا كان يَستعمِل الرُّقْيَة، يَرْقِي بِالقرآنِ الكريم، وعندَما يَتَأَلَّم ويُصَابُ بِمرض يَقرأُ مِنَ القرآنِ في كَفَّيْهِ ثُم يَنْفُث فيهما ثُم يَمسَحُ بِهما جسدَه الشريف، وهكذا كان ﷺ يرقِي بِالقرآنِ الكريم لِغيْرِه مِن الناس، وقد أقر بعض الصحابة علـى الرُّقيَة عندَما رَقَى سَلِيماً أي مُصاباً بِلَدغَةِ أَفْعَى بِالفاتِحة الشريفة وقالَ لَه: «مَن أَنبأَكَ أنَّها

رُقْيَة»(١)، وهكذا، فهذا كُلُّه يَدلّ على أنّ القرآنَ كلَّه شـفاء، فمَن قرأَه على نفسِه وطَلَبَ مِن الله تعالى الشفاء شَـفاهُ الله بِبَرَكَةِ القرآن الكريم، هذا لأنّ القرآنَ الكريـم كلامُ الله تعالى الذي لا يَأتِيهِ الباطـل مِن بيْنِ يديْه ولا مِن خَلْفِه كما قال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، ولأنّ تلاوتَه عبادَة وقُرْبَة إلـى الله، فالذي يَقرأُ القرآن ويَتَقَرَّب إلي الله بِتلاوَتِه ثم يَسـألُ الله تعالى أن يُعَافِيَـه، فإنه اتَّخذَ القرآن وسيلةً لاسـتجابةِ دعائِه مِن قِبَلِ الله تعالى، الذي يَسـتجِيبُ دعاء الداعين فهو حري أن يَشْفِي الله عِلَّته بِفضلِه وتَوفيقِه وهو على كلِّ شيءٍ قدير، وهو وحدَه الشـافِي، فكلُّ علاج يَسْتَشْفِي به الإنسـان إنَّما يَتخِذُه مُجرَّدَ وسيلَةٍ فقط وإلا فالشـافِي الحقيقي هو الله، لأنه هُو الذِي يقـدر تأثير الدَّوَاءِ في الداء حتى يَقضِيَ عليـه أو حتى يُخَفِّفَ منه، وإلا فالـدواءُ لا يُؤثِّرُ تلقائيا في الدَّاءِ بغير أمـرِ الله تعالى، كما يَقولُ إبراهيمُ الخلِيل: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وهكذا يَشْفِي الله سبحانه عبادَه بِاستعمالِهم الأدْوِيَة عندَما يُرِيدُ ذلك، ويشـفيهم عندَما يَسـألونَه ويَتضرَّعون إليه، والقرآن مِن وسائلِ إجابةِ الدعاء فلا مانِعَ مِن الاستشفاءِ بِه، والله أعلم.

هُناك مَن يشـتهر بكونه مُعالجاً عن طريق كتابة الحجب أو قراءة بعض الأوراد فيتهافـت الناس عليهم، ويبقـى المريض كالغريـق يُحاول أن يتشـبث بِما يُمكن أن ينقذه مِن هذا الغرق فلا يـدري كيف يُقيّم هذا العالم هل هو معالج يصح الذهاب إليه ليس دجالاً أو لا، فكيف يُمكن أن يعرف هذا المريض ذلك؟

الرُّقية بالقرآن الكريم مشـروعة، وكان النبي يسـتعملها لنفسـه ولغيره،

(١) رواه البخاري (٢١١٥) ومسلم (٤٠٨٠).

فلا مانع مِن الرُّقية بالقرآن؛ أما الطلاسم والحجب التي هي خارجة عن القرآن الكريم، وما كان نحو ذلك فإنَّه لا يَجوز للإنسان أن يعتمد عليه، إذ هذه الطلاسم لا ندري ما هو مَغزاها، وما هي حقيقة أمرها الخفية عنا.

وكذلك بالنسبة إلى الحجب التي تُشبه الطلاسم مِن حيث خفاء معانيها، أما لو كانت مُجرد دعاء أو مُجرد سورة مِن القرآن تكتب مع اعتقاد أنَّ كتابة القرآن وحدها لا تشفي، وأنَّ كتابة الدعاء وحدها لا تشفي، وإنَّما الشافي هو الله تبارك وتعالى كما قال:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال:

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]،

فلا يُمنع أن يستعمل الأنسان مثل هذه الوسائل مع الاختلاف في كتابة القرآن ونحوه إذا كانت هذه الكتابة على هيئة حجاب لأنَّ مِن الناس مَن يَخشى أن يكون ذلك يؤدي إلى اعتقاد أنَّ الكتابة نفسها هي النافع أو هي الشافي أو هي الدافع للمصائب والبلاوى، فعندما يعتقد الإنسان ذلك يكون اعتقاده هذا مُخرجاً له عن سواء الصراط، وزَائِغاً به عن عقيدة الحق، فلذلك يكون استعمال مثل هذه الوسائل في العلاج أمراً مُحرما.

هذا مع أنَّ الدعاء وقراءة المعوذات مِن سور القرآن الكريم وقراءة الرقى المأثورة عن النبي عليه أفضل الصلاة والسلام لا يَمنع ذلك كله أن يتداوى الإنسان بالعلاج العضوي الطبيعي، فالإنسان يؤمر أن يتعالج

بالعلاج العضوي الطبيعي، فالنبي احتجم، وتداوى وأمر بالتداوي، وأخبر أنَّ الله ـ تعالى ـ الذي أنزل الداء أنزل الدواء، وأن لكل داء دواءً إلا الموت.

فأمره بالتداوي إنَّما هو حَضٌّ منه صلوات الله وسلامه عليه على تناول الدواء العضوي الطبيعي.

فيُؤمر أن يأخذ بالأسباب ولا يتواكل، فالعلاج نعمة، ولذلك قال مَن قال في العلم بأنَّه علمان: علم الطب للأبدان، وعلم الفقه للأديان، أما علم الطب فكونه للأبدان لأنَّه سبب لصحة الأبدان، وكون علم الفقه للأديان لأنَّه سبب لاستقامتها، وما زاد على ذلك فبلغة مَجلس، والله أعلم.

هل يصح لِمن يُعالِج بالقرآن أن يأخذ أجراً على مُعالَجته للناس؟

يَجب على الإنسان ألا يتخذ القرآن الكريم وسيلة لاكتساب المال ولا أرى أولئك الذين يُحددون مبالغ يتقاضونَها مِمَّن يُعالجونَهم بالقرآن الكريم إلا مُحتالين همهم ما يكسبونه مِن مال.

أما لو أنَّ أحدا رقى مريضا بآيات مِن القرآن الكريم وأعطاه المريض شيئاً هدية له أو صدقة عليه إن كان فقيراً فلا مانع مِن أن يقبل الصدقة إن كان مُستحقاً لها وذلك بأن يكون مِن الفقراء، أو أن يقبل الهدية إن كان مِمَّن يهدى إليه.

أما أن يشترط للعلاج مبالغ مالية فهذه مِن التدجيلات التي يقوم بِها المحتالون الذين يُريدون مِن وراء القرآن الكريم اكتساب المال والاستكثار منه، والله أعلم.

حديث: «يدخل الجنة تسعون ألفاً بغير حساب»[١]، فهل مفاد هذا الحديث أنَّ الإنسان لا يأخذ بالأسباب؟

لا، فالأخذ بالأسباب مِمَّا يُؤمر به، والنبي ﷺ حَضَّ على العلاج ورقى عليه أفضل الصلاة والسلام نفسه وغيره بآيات قرآنية، وأخذ بالأسباب في كل شيء، والقرآن يأمرنا بذلك، فكيف مع ذلك يُقال بأنَّه لا ينبغي للإنسان أن يأخذ بالأسباب، والله أعلم.

امرأة تلبس في عُنقِها عقْدا فيه زِئبق ونُصِحَتْ مِن قِبَلِ أبنائها بِنَزْعِه ظنّا منهم أنَّ هذا هو نوع مِن لبس التمائِم وعندَما لبسته كان في نيتِها طلَب الشِّفاء.

أنا ما أَدْرِي ما تَأثِيرُ الزِّئْبَق هل له أَثَرٌ في العِلاج مِن ناحية طبِيعِية ؟ وهل لَه أَثَر إذا استُعْمِلَ طعاما.

فالإنسان لا يُمنَع مِن أن يَسْتَعْمِلَ العِلاج بل رُبَّما أُبِيحَ لَه أن يُعالِجَ نفسَه بِما كان في الأصْلِ حَراما لضَرورةُ العِلاج، كما أَباحَ النبي ﷺ لِلزّبَيْر أن يَلْبس ثَوْبَ حَرِيرٍ مِن أَجْلِ حَكَّة آذته[٢].

فهكذا يُباحُ لِلإنسان أن يُعالِجَ نفسَه بِأيِّ طَرِيقٍ كان، سواءً بِطرِيقِ الطعام أو طرِيقِ الحقْن أو طَرِيق اللّبْس أو أيِّ شيْءٍ آخَر إن كان ذلِكَ عِلاجا طبِيعِيا.

أما إن كان يَعتَقِدُ اعتِقاداتٍ خارِجَة عن الحق بِحيْثُ يَعتَقِد أنّه لَو لَبسَ شيئا مّا فذلِكَ الشيْء بِعيْنِه يَكونُ له أَثَرٌ عليه حتى يُحَوِّلَه مِن الـمَرَضِ إلى الصِّحّة ومِن البَلاءِ إلى العافِية فإنَّ هذا الاعتِقاد نفسَه حَرام، إذ هو لَوْثَة عَقَدية تَخْرُجُ بِالإنسان عن التّوحِيدِ الصَّحِيح لله تعالى الذي بِيَدِهِ كُلُّ شيْء.

(١) رواه البخاري (٥٢٧٠) ومسلم (٣١٧).
(٢) رواه البخاري (٧٠٣).

بل لَو اعْتَقَد أنَّه لَو تَنَاوَل دَواءً شُـرْباً أو أكلاً أن هذا الدَّواء يَشْفِيه بِنَفْسِه ولَم يَعْتَقِد أنَّ الله ـ تعالى ـ هو الشّـافِي لَكانَتْ هـذه العقِيدَة مُخْرِجَةً له عن التَّوحِيدِ الصَّحِيح الذي يُطالَبُ بِه الـمُؤمِن، والله أعلم.

البعض مِن هؤلاء المعالِجين يذكر أنَّ الصبي الذي جاءه مريضاً بأنَّ فيه «أم الصبيان»، ويظل يُعالِجـه ويقرأ عليه وربَّما يَموت ذلك الطفل، و«أم الصبيان» التـي يذكرها بعض المعالِجين إنَّما هي تَشـنج يُصيب الطفل بسـبب الحمى ويتعالَج بسـرعة، فـإذا توفي ذلك الطفل مـا ذنب هذا المعالِج الذي ادّعى أنَّ فيه «أم الصبيان»؟

أما إذا كان حال بينه وبين العلاج الصحيح حتى أدى الأمر إلى وفاته إذ مَنعه مِن العلاج الصحيح فهو مُتسبب في قتله، والله المستعان.

هناك بعض ما يثيـره الناس حول هذه المواضيع أو حول علم الأسـرار أو حول امتلاك الجن عن طريق كتب مُعينة تُنسب إلى علماء مَشهورين، وهذه الكتب يَدَّعِـي مَن يقول عنها أنَّه مَن يقرأها سَـيُصاب بلوثـة في عقله أو سَيُصاب بشيء إن لَم يَمتلك القوة الروحية الكافية والطاقة الكافية لقراءتِها، كالكتاب الذي يُنسب إلى الغزالي ـ مثلاً ـ وغيره، ما حقيقة هذه الكتب؟

هذا الشـيء لَم ندخل فيه، ومِن حُسـن إسـلام المرء تركه ما لا يعنيه، فلا يستطيع الإنسـان أن يَحكم على الشـيء ببطلان ولا بصحة ولا بقبول ولا برفض إلا بعدما يكون مُتصوراً له لأنَّ الحكم على الشيء فرع تصور.

نعم نحن نُوقن أنَّ الله تعالى له أَلطاف بعباده، وقد قال سبحانه:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فأمرنـا أن ندعوه بأسْـمائه الحسـنى، والدعوة التي تكون مِن المسلم باسـم مِن أَسْمائه تعالى سواء كان

ذلك باسم الجلالة أو ببقية الأَسْماء الحسنى لا ريب أنَّ لَها تأثيرا، ولا ريب أنَّ خُلوص النِّية وصفاء الطوية والصلة القوية بـالله ﷻ لَها أثر ـ أيضاً ـ في عالَم الإمكان وذلك يُؤذن به الحديث القدسي الرباني «... فإذا أحببته كنت سَمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بِها، ورجله التي يَمشي بِها»[1]، ومعنى ذلك أنَّ الله ـ تعالى ـ يُهيئ له ما يُهيئه مِن الألطاف التي تكون خارجة عن المألوف، وذلك مِن فضل الله تعالى على عباده، والله أعلم.

يقول البعض أنَّ الأحجار الكريمة فيها أسرار مُعينة وتعمل على التأليف بين القلوب، ويستخدمها البعض ـ أيضاً ـ لتخفيف حرارة الإنسان إذا ما أصيب بالحمى، ما هي حقيقة الأحجار الكريمة؟

الأحجار الكريمة هي جَمادات لا تَعي ولا تعقل ولا تسمع ولا تبصر ولا حراك لَها ولا تأثير لَها، فإن كان الله تعالى جعل في طبيعتها ما يُخفض حرارة الحمى ـ مثلاً ـ فذلك كاستعمال الدواء، ولا ندري لعل كونَها تَمَسُّ الجلد يؤدي ذلك إلى تَخفيض درجة الحرارة، وأنا لا أعرف ذلك، والحكم على الشيء إنَّما يكون بعد تصوره، والتجربة هي أصدق برهان.

أما أن تكون هذه الأحجار سبباً للأُلفة بين الزوجين أو الأُلفة بين الأصدقاء أو سبباً لزيادة الهَيبة أو نحو ذلك فهذه مِن الأمور التي لا يُمكن أن تقبل عقلاً ولا علماً.

وَمن أراد الألفة بينه وبين امرأته فليحسن مُعاشرتَها، وليسأل الله تعالى أن يَجمع بين قلبيهما وأن يؤلف بين نفسيهما ويجمعهما على خير، لا أن يعول

(١) رواه البخاري (٦١٣٧).

على حجر كريم، وكذلك بالنسبة إلى بقية الأشياء الجمادية التي لا تَملك شيئا، فأنَّى للجماد أن يَملك دفع مضرة أو تَحقيق منفعة؟! نعم الدواء الذي يستعمله الإنسان شرباً أو أكلاً أو دُهناً لِجسده هو ـ أيضاً ـ جَماد ولكن الله جعل فيه هذه الخاصية، فإن كانت هذه الخاصية في الأحجار الكريمة وثبت ذلك فذلك مِن هذا القبيل لا مِن قبيل الأسرار، والله أعلم.

والخواتم التي بِها فصوص هل تدخل ضمن هذا الكلام؟

نفس الشيء والله أعلم.

هل هذا يدخل ضمن التمائم؟

أما إذا قصد الإنسان استعمال الخاتم أنَّه يدفع به عن نفسه مضرة أو يُحقق له بذلك منفعة فهذا مِن باب التميمة لا فرق بينه وبينها، والله أعلم.

بعض طلبة العلم ينصرفون عن طلب العلوم الشرعية وعن التفقه والتعمق فيها إلى دراسة هذه العلوم وهذه الأسرار كعلم الرمل ويقومون بعد ذلك بِمعالَجة الناس وكشف ما بِهم، فما هي نصيحتكم لَهم؟

نحن ننصح هؤلاء أن يشتغلوا أَوَّلاً بتصفية نُفوسهم، والاعتماد على الله تعالى وحده، وتصحيح المعتقد بأنَّه لا نافع ولا ضار إلا الله، وأنَّه لا يعلم أحد مِمَّن في السماوات والأرض الغيب إلا الله وحده، فهو الذي يعلم الغيب، وكل مَن عدا الله فهو لا يعلم مِن الغيب شيئا.

وندعوهم إلى التَّفَقه في دين الله والحرص على ذلك فإنَّ النبي ﷺ يقول: «**مَن يُرد الله به خَيراً يُفقهه في الدين**»[١].

---

(١) رواه الربيع (٢٦).

وندعوهم إلى الاستمساك بالكتاب العزيز والسُّنَّة النبوية الطاهرة، والإعراض عن كل مُحدثات الأمور التي لا تتفق مع ما جاء به الكتاب وما جاءت به السُّنَّة، والله أعلم.

هل هناك آيات مُعينة تنصحون بِها؟ إذا قرأها الإنسان يكون بإذن الله ـ تعالى ـ في حرز وفي مَأْمَن مِن الشياطين وغيرهم مِن الجن المردة.

ذكرنا بأنَّ مِن الصحابة ﵃ مَن ذكر عشر آيات مِن سورة البقرة، وهذا مروي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، وهي أربع آيات مِن أَوَّل السورة إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥]، وثلاث آيات في أثنائها وهي آية الكرسي والآيتان بعدها إلى قوله تعالى: ﴿خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥]، والثلاث الآيات الأخيرة مِن السورة مِن قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٢٨٤] إلى نِهاية السورة، وكذلك قراءة المعوذتين وقراءة الفاتحة ـ أيضاً ـ فهي مَجمع الخير كله لأنَّها أُمُّ القرآن، فيها تقديس لله ـ سبحانه ـ وتنزيه له، وفيها وصل ما بين العبد وربه ووصل ما بين الدنيا والآخرة، فجدير بالإنسان أن يقرأ الفاتحة الشريفة، وأن يسأل الله تعالى بركتها.

وهكذا سائر القرآن فإنَّه فيه خير وفيه بركة، ولكن السور التي فيها التنزيه لله تعالى بركتها أظهر، ومثلها الآيات الخاصة بذلك كخواتم سورة الحشر والله أعلم.

ما صحة التداوي بأَسْمَاءِ الله الحسنى؟

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فالإنسان يدعو الله بأسمائه الحسنى ويسأله تعالى الشفاء والرحمة ورفع البلاء والله أعلم.

هناك مَن يتحدث عن بدعة لبس الحجاب الذي تُكتب فيه الآيات على اعتبار أنَّه ـ أيضاً ـ له علاقة بِما يُسمى بالطَّلاسِم وما شابه ذلك ؟

أما القرآن الكريم فهو يَختلف تَمام الاختلاف عن الطلاسم، هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه، ولكن نَختار أن يكون العلاج بالطريقة التي سُنَّت في عهد الرسول ﷺ وهي التلاوة مع النَّفْثِ في الكفين ومسح الجسد، فإنَّ هذه هي الطريقة المأثورة عن النبي عليه السلام، أما الكتابة فلم يأت في السُّنَّة ما يدل على إثباتِها ولا ما يدل ـ أيضاً ـ على ردها، ولذلك اختلف العلماء فيها، مِنهم مَن توسع نظر إلى أنَّ القرآن كما نتبرك بتلاوته لا مانع مِن أن نتبرك بكتابته وحَمله، ومِنهم مَن رَفض ذلك نَظَراً إلى أنَّ هذه الطريقة مُحدثة، وهذا الذي مال إليه الإمام السالمي رحمه الله تعالى في جوهره عندما قال:

ثم الكتابة التي قد ظهرت	لا أعرف الوجه لَها لو شهرت
حادثة في جَمعنا المعهود	وأصلها قد كان في إليهود
والله قد أغنى العباد عنها	بأدعيات يُستجاب منها

وتعجب الإمام السالمي مِمَّن يَلجأ إلى هذه الكتابة ويَحترس بِها، وقال بأنَّ أصحاب النبي ﷺ ما كانوا يعتنون بِهذه الكتابة، بل كانوا يدعون الله ـ تعالى ـ ويعولون عليه سبحانه، والله أعلم.

امرأة تعلق الحروز والتمائم، وهي عبارة عن حجرة صغيرة، وأحياناً بعض أوراق وثمار بعض الأشجار في يد ابنها عندما يمرض، فهل تشرك بهذا، وماذا عليها لو ماتت على هذا؟ مع العلم أنها تقول أحياناً أنا لا أعتقد فيه الشفاء ولكني أتماشى مع العادات والتقاليد الموروثة؟

إن كانت تعتقد أن هذه الحروز تشفي المرضى وترفع البلاء وتحقق المطلوب فذلك عين الشرك، وإلا فهي بدعة دون الشرك، والله أعلم.

قبل فترة من الزمن حصلت على كتاب يُقَال له: «الدائرة» أو «الدويرة»، وأقرأ لكم بعض منه: «وإنَّه مِن سليمان وإنَّه بسم الله الرحمٰن الرحيم أَلا تَعْلُو عَلَيَّ وأتوني مسلمين ـ مكتوب هنا ـ اللهم بأسْمَاء الآلِهَة ساتونة أجري أيتها الحجارة الجامدة إلى حيث منفعك عن النظر إلى الجبل فتحرَّك فَخَرَّ موسى صعقا» ومكتوب بعد ذلك: «اللهم هذه الأسْمَاء والآيات أسألك أن تُحرِّك ما تَحت يَمِينِي بِحَق لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله وبِحَق ملائكتك وحَملة عرشك» ومكتوب بعد ذلك «ياهو ياهو» ولا أعرف هذه الأسْمَاء على ماذا تدُل؟

ما في ذلك الكتاب إنَّما هو شِرْك، إذ لَيست هُنَالِك آلِهَة إلا الله، فقوله: «بِحَقِّ الآلِهَة» أو «بِكذا» إنَّما هو إشراك، إذ مَا مِن إلٰه إلا الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤] وهذا فيما أعتقد أنَّه مِن دَسَائِسِ اليهود فإنَّ كُلمة «يَا هُو» إنَّما هي كلمة يهودية فيجب تَجَنُّبُ ذلك؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

ما حكم «الحورة»؟ وهي شيءٌ مُتعارف عليه، فإذا فقد الإنسان شَيئا يَذهب إلى شخص لِيَصنع له شَيئا يَدله على ذلك المفقود.

لا يُمكن أن يكون ذلك دليلا على المفقود قط، وإنَّما يُمكنه أن يسأل الله ـ تعالى ـ بأسمائه الحسنى وبصفاته العلى بأنْ يَكشف له ما خَفِي عليه، وأنْ يَرد إليه ما فقده، وأما ما عدا ذلك فلا يَجوز؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

الخرافات والشعوذة

المشعوذ رجل يأتي المنكر عندما يأتي الغيب، ما هو واجب المسلمين تجاه؟

الواجب ردعه بقدر المستطاع، أما أولياء الأمر فإنَّهم يردعونه بِما يرونه مِن الوجوه الشرعية الرادعة لِمثله، لكن الذين لا يَملكون مِن الأمر شيئا عليهم أن يُقاطعوه وأن يُحاولوا منع الناس مِن الاتصال به، والله أعلم.

شَاعَ في الأيام الأخيرة تبادُل رسائِل عبر الجوَّال ونَصُّها: يقول الرسول ﷺ: «أنا النُّور ومن تبعنِي فلن يعيش في الظلام» ودَمَجُوا مَعها جُملة أخرى: «أرسِلْهَا وسَتَرى السرور»، فهل هناك حديث بالنص السابق؟

هذا شيءٌ لم أطَّلِع عليه، ولا ينبغي للإنسان أن يتقوَّل على الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ فيَنْسِبَ إليه ما لم يقُله، لأن الكذب على النبي ﷺ أمرٌ عظيم، وليس هو كالكذب على غيره مِن الناس، وإنَّما هو يأتي بعد الكَذِب على الله تبارك وتعالى، فلذلك يَجب على الإنسان أن يَحْتَرِز من أن يُسْنِد إلى النبي عليه الصلاة والسلام ما لَم يَقُلْه، والله أعلم.

سؤال عما يَتَدَاوَله الناس بأن انْهِيَار البُرجين في أمريكا نَصت عليه الآية في سورة التوبة: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩] وتطورت المسألة إلى أن أصبحت هذه الآية توزع على الأوراق ثُم تَطوَّرت إلى أن أصبح يُطَالب كل مَن يَقْرَؤُها أن يَطبعها وأن يُوزعها على المسلمين وأن مَن لَم يوزعها سَيُصيبه مرض أو سَتُصيبه خسارة وما شابه ذلك، فما صحة هذا الكلام؟

هذا من الكلام العَقِيم، ما أشـبَه هذا بِما لا يَزَال يُتَدَاول مِن قِصة الشيخ أحْمد حَامِل مفاتيح حَرم رسـول الله ﷺ هذه القِصة أنا سَـمعت والدي قبل ثلاثة وخَمسـين عاماً يَذكر أنَّه اطلع عليها قبل عام ١٣٥٠ للهجرة، أي قَبل أكثر مِن ثلاثة وَسـبعين عاماً اطلَـع على هِذه القصة ولا تَـزال تُتداول إلى الآن كأنَّما هي غَضَّة طَرِيَّة حَصَلت الآن، والناس لِقِلَّة إدراكهم يُصَدِّقون هذه الأوْهَام ويقعُون فريسَـة لَها، نعم المسـلم يحرص علـى الدعوة إلى الحق، وإلى التَّمسـك بآداب الإسـلام وقِيمِه، ولكن على أن لا يكون ذلك بِطُرُق الأوهام. فإن الدَّعوة إلى الـحَق بِطُرق الأوهَام تَنقَلِب رأسـاً على عَقِب على هَذِه الدَّعْوة نَفْسِها لا على أصحابِها فحسب، والإسلام جَاء بِتحريم الكذب، وتَحريم الغِش والتَّدليس ولَبس الحق بالباطل لأن الحق حَق والباطل باطل، الحق ثَابت والبَاطل غَيْرُ ثابت، فأنَّى للحق أن يُقَرَّ ويُؤيَد بِطريق الباطل، فلا يُمكن أن يَكُون لِلحق سند من الباطل، إنَّما سَـنَدُ الحق حق، فالأوهام هذه كُلهـا يَجب أن نَتْرُكَهَا جانبـاً، وأن نَحرص كل الحرص علـى أن نَدعُو إلى الإسلام بِحجة واضحة ودليل يقين، وما أكثر الحجج والأدلة التي تَدل على صدق الإسلام وَحَقِّه، فلسنا بِحاجة إلى التَّلَبُّس بِهذه الأوْهَام.

وهذا إنَّما أخذه النَّاس مِن مَسْلِك دُعَاة النصرانية فإنهم كثيراً مَا يُشِيعُون مِثل هـذه الأوهام وَيُروجون لَهـا ويقولون مَن فعل كذا فـإن عاقبة أمْرِه أن يَنَال مِن الرِّبح وأن يَنَال الخير الكثير وأن يُشـفى مـن مرضه وأن... وأن... إلـخ، ومن فعل خـلاف ذلك حلت عليـه اللَّعنة ووقع عليـه البَوَار وأصيب في مَالِه وفي نفسه وفي أهله وفي ولده.. إلى غَيْر ذلك مِما يروجون له، وضِّعَاف المسـلمين الذين لا يَملكون الحجة عندما يريدون الدَّعوة إلى الإسلام يَسْـلِكون هذا الـمَسْلَك نفسه. وهَذَا مسـلك خطأ لأنَّه لَم يَقم على منهج صحيح، فعلى الناس أن يتجنبوا مثل هذه الأشياء، ومثل هذه الأوراق

يَجب إتلافها، وأنا بِنَفْسِي أُتلفها وأُحْرِقها أمام الناس حتى يقتنعوا بأن أي ضرر لن يُصِيبَهم من خلال عَدَم تطبيق ما فيها، فنحن لا نُصَدِّق بِهذا أبداً، وإنَّما نستمسك بالحق الذي أنزله الله تبارك وتعالى، والله أعلم.

أشخاص يعانون من بعض الأمراض فيقول: لهم البعض بأن هذا ربما من الاسم فيطلبون منهم أن يغيروا الاسم حتى يتحقق لهم الشفاء، فهل يجوز هذا؟

أريد أن أنبه أن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

والنبي ﷺ أكرم الخلق على الله، ورسوله الذي اصطفاه ـ سبحانه ـ لأن يحمل الرسالة الخاتمة، الرسالة العالمية التي تبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والله تعالى أنبأ عن فضله العظيم وقدره الجسيم إذ قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ومع ذلك كله أمره سبحانه أن يعلن للناس أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا، وأنه لا يعلم الغيب، فقد قال ـ تعالى ـ له: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

والله سبحانه بين أنه لا يظهر على غيبه إلا من ارتضى من رسول وذلك بوحي يوحيه إليه، لا أن الرسول يعلم الغيب، ولكن الله ـ تعالى ـ عندما يريد أن يطلع أحداً من الرسل على غيبه يوحي إليه وحياً لينبئه بما في ذلك الغيب، وإلا فعلم الغيب لا سبيل لأحد إليه، فكيف هؤلاء يدعون الغيب، على أن الحديث الصحيح عن النبي ﷺ شدّد في أمر هؤلاء، فقد قال عليه

أفضل الصلاة والسلام: «من أتى عرافاً[١] فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد»[٢] لأن مما أنزل على محمد كما ذكرنا من قبل قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥].

فمن صدّقه في ادعاء الغيب فقد كفر بما أنزل على محمد من هذا البيان القطعي، فلا يجوز لأي أحد أن يذهب إلى أحد من هؤلاء، وعلى الكل أن يعتقد بأن الله هو وحده رافع الضر، يبتلي من يشاء بما يشاء، ويرفع الضر متى يشاء عمن يشاء، يقول سبحانه: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الأنعام: ١٧].

ويقول سبحانه: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧]،

ويقول سبحانه: ﴿ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦] ويقول سبحانه: ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢] ويقول: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

ويقول جل شأنه: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

---

(١) المقصود بالعراف ما يعبر عنه بالباصر عندنا.

(٢) رواه البيهقي (١٦٩٣٨) والحاكم (١٥).

فالآيات الكريمة ناصة على أنه لا يكشف الضر إلا الله، فهؤلاء الذين يذهبون إلى هؤلاء طالبين منهم كشف الضر إنما هم في الحقيقة أصيبوا بلوثة في عقيدتهم، إذ العقيدة الصحيحة تقتضي أن لا يتعلق الإنسان إلا بالله، والله تعالى يعلمنا في كتابه أن نفرده بالاستعانة كما نفرده بالعبادة حيث علمنا الله أن نقول في صلاتنا وغيرها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] أي لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا إياك، فكما أن العبادة لا تكون إلا لله فكذلك الاستعانة يجب ألا لا تكون إلا بالله ﷻ.

وهذا لا ينافي أن يتعالج الإنسان علاجاً طبيعياً عند أحد من الأطباء، فذلك لا يخرج عن كونه استعانة بالحق سبحانه، لأنه الله جعل لهذا الكون نواميس وسننا، والأخذ بالأسباب والدخول على الأشياء من أبوابها إنما هو من باب الاستعانة بالله، لأن الله تعالى هو الذي سبب هذه الأسباب وهو الذي هيأها وهو الذي جعلها تفضي إلى مسبباتها، وجعل الوسائل مؤدية إلى الغايات المطلوبة، فطلب الأمور من أبوابها ومن وسائلها الطبيعية لا يخرج عن كونه استعانة بالله، بخلاف أن يأتي أحد إلى أحد يدعي علم الغيب فيطلب منه رفع ضر أو تحقيق منفعة إذ لا يكون ضر ولا نفع إلا من قبل الله ـ سبحانه ـ الذي له ملك السماوات والأرض والذي يصرف الكائنات كما يشاء.

على أن الأسماء لا تأثير لها في المسميات، وإنما كل شيء منوط بقضاء وقدر ولربما حصل شيء من انتفاع بعض الناس ظاهراً باتباع مثل هذه النصائح، ولكن يجب علينا أن ندرك أن ذلك لا يعدو أن يكون استدراجا فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٣] فهذا استدراج من الله تعالى فعلى المسلم أن يتيقظ لذلك؛ والله المستعان.

الورقة التي تنسب إلى الشيخ أحمد حَامِل مَفَاتِيح حرم رسول الله ﷺ يُطلَب من الذي يقرأ هذه الورقة أن ينسخها وأن يوزعها وإلا أصابته أمراض، وأنتم قد تَحدثتم عن هذا ولكن السائل تَوَهَّم أنَّها تنسب إليكم، فهلا تفضلتم علينا بتوضيح حقيقة هذا الأمر؟

هذه الأباطيل والأوهام والأكاذيب والافتراءات بدأَت منذ أَمَد بعيد قبل ولادَتِي، فقد سَمعت من أبِي يقول بأنَّها وقعت في يده منذ نَحو ثَمانين عاماً من الآن، ولا تزال تتكرَّر إلى الآن، ومعنَى هذا أنه مضى عليها ما يقارب القرن من الزمن حتى الآن، والناس لا يزالون يعيشون في هذه الأوهام، وأنا أعجب مِمن يصوِّر مثل هذه الأوراق ويوزِّعها، وقد صرَّحت أوَّلاً تصريحاً نُشِر فيما أعتقد في جريدة عمان وفي جريدة الوطن بأن هذه أكاذيب، وأن هذه شخصية وهْمِية غير معروفة، والإسلام لا يدعى إليه بمثل هذه الأكاذيب، وإنما يُدعى إليه بوسيلة إيجابية لأن الأكاذيب ليست وسائل للدعوة إلى الاستقامة والطاعة وحب الله ـ تعالى ـ ورسوله، وبعض الناس نسبُوا إليَّ ما وُجِدَ في هذه الأوراق مع أنَّ هذه الأوراق ـ كما قلنا ـ كانت قبل ولادتِي بأمد بعيد؛ والله ـ تعالى ـ المستعان.

يُقال إنّ هنالك شجرة تُسمى «شجرة الأقدار» تُنفَض في الخامس عشر مِن شعبان، فهل لِهذه حقيقة؟

أمَّا إذا كانتْ شجرةً مَحْسُوسَةً تُرَى بِالأبصَار فأنا لَم أُبْصِرْهَا ولَم أرها ولَم أسْمَع أحداً يذكر أنَّه رآها، وإن كانتْ مِمَّا هو في عالَم الغيب فعالَم الغيب لا يُنْفَذُ إليه ولا يُتَوَصَّل إلى مَعْرِفَتِه إلا بِنصٍّ مِن كتابِ الله أو حديثٍ ثابت عن رسولِ الله ﷺ، ولَم يَأتِ بِذلك نَصٌّ في كتابِ الله ولا حديثٌ عن رسولِ الله ﷺ فيَجِب رفض مِثل هَذِه الأقَاوِيل، والله أعلم.

الكهانة والعرافة

مَن قَالَ بأنَّ فلانا شُفِيَ بِسببِ فلان، هل هذه اللَّفْظة تُخالِف مُقْتَضَى ما يَعتقِد الإنسان؟

لا ريب أنَّ الشافي هو الله سبحانه، الذي يَبْتَلي مَن يشاء بِما يشاء، ويرفع البلاء عمن يشاء، سبحانه هو الذي يَبتلِي بالأمراض والأسْقَام وهو الذي يَشفِي منها: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠] وإنَّما الإنسان يتَسبَّب كتسبُّبِ الطبيب، والله تعالى نَاطَ المسبَّبَات بأسبابِهَا وعلينا أن نَعتقد أنَّها لا تُفضِي بنفسها إلى مسبَّبَاتِها وإنَّما تُفضِي إليها بِأَمر الله، فَوَراء كل شيءٍ وَقَع قَدَر الله، هُو الذي يُدَبِّر هذا الكون ويُسَيِّر هذا الوُجُود ويُصَرِّف هذه الأشياء، وبه يَشْفَى المريض من مَرضه، وبِه يُبْتلى الصحيح بالمرض، وبه يَموت الحي، وبِه يَحيا الميت وذلك عندما يشاء الله نُشُور عباده، فكل ما يقع في الوجود إنَّما هو بِقَضاء الله وقَدَره.

أما أن يعتقد الإنسان أن أحداً مِن الناس له تأثير على الناس صِحةً وشِفاءً وحياةً ومَمَاتاً فَذَلك من المعتقَدَات المُبَايِنَة لعقيدة الإسلام وقد يَخْرُج الإنسان بِذَلك مِن مِلَّة الإسلام.

وأنت ترى أنَّ الله تعالى ضرب الأمثال في كتابه لمن وعى فقال:

﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨] لأَجْلِ النَّأْيِ بالناس عن هذه المعتقَدَات الجاهلية، وكَثير من الناس يَعتقدون أنَّ لِلجن تأثيراً في حياة الناس وموتِهِم وصِحتهم ومرضهم وبَلائِهِم وعافيتهم، وهذا كُلُّه من المعتقدات الجاهلية لأن الجن خَلْقٌ مِن خَلْقِ الله

لا يُمكن أن يضُرُّوا أحداً أبداً إلا بإذن الله، والعيــاذ بالجن إنَّما هو عِيَاذٌ بِغير الله وذلك مِمَّا يزيد الإنسان رَهَقا كما قال الله تعالى:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، والله أعلم.

أنا امرأة مُتزوجة ولدي ثلاثة أولاد وكلهــم مرضى، ومرضهم لا علاج له، مِن هذا المنطلق جاء أَبِي بشــخص وأخبرني عن امرأة قد تُساعدنِي على علاجهــم أو على الأقل تُخفف مِــن آلامهم، وأقنعنــي أن أذهب لرؤيتها، وبعد ذلك جاءت هــذه المرأة إلى بيتي وقامت ببعــض الأعمال، وكانت هذه الأعمال عبارة عن كتابة بعض الآيات القرآنية وتضعها في ماء وتطلب مني أن أعطيها لأولادي ليشربوا منه، ولَم أعارض لأنَّها آيات قرآنية ولكن بعد ذلك ذهبت هذه المرأة لتقوم ببعض الأعمــال في القبور حيث قامت بدفن بعض الأشــياء التي لا أعرف ما هي، مع العلم أنَّنِي علمت بذهابِها إلى هنالك، ولا أعرف ما الــذي جعلني أوافق على مثل هذا الشــيء فأنا امرأة لا أصدق ولا أؤمن أبداً بالشعوذة وأعمال السحر ولكن مرض أولادي هو الذي جعلني أقوم بِهذا، ما حُكم تعاملي مع هذه المرأة؟

أما الاستشفاء بكتاب الله ســبحانه فلا مانع منه، لأنَّ الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢] فالقرآن الكريم شــافٍ للأرواح والقلوب، وأيضاً جعل الله تعالى فيه شفاء للأجســام بِما جعل فيه مِن البركة، ولذلك كان النبي ﷺ يستشفي بالقــرآن الكريم، فكان يتلــو ما يتلو مِن القــرآن الكريــم كالمعوذتين وآية الكرسي وينفث في يديه ثم يَمسح بعد ذلك على جسده لأجل الاستشفاء.

وأقرّ عليه أفضل الصلاة والســلام الرُّقية بالفاتِحة الشــريفة وبغيرها مِن القرآن الكريم، وفي هذا ما يدل على جواز الاستشــفاء بالقرآن الكريم، مع

اعتقاد أنَّ الله تعالى هو الشافي، لا شافي غيره: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠] ولكنَّ الله ﷻ جعل بركة في كلامه المنزل على خاتم النبيين عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم، فلذلك يكون به شفاء هذه الأجساد المريضة كما أنَّ الله تعالى يشفي به القلوب العليلة والأرواح السقيمة.

وأما الذهاب إلى القبور ودفن أشياء فيها فذلك مِمَّا يتنافى مع التوجيهات الربانية والتوجيهات النبوية الشريفة، فإنَّ الإنسان عليه أن يعتقد أنَّه لا ضار ولا نافع إلا الله، فالقبر لا يُمكن أن ينفع أحداً أو يضره، وكذلك صاحب القبر، إذ هو أحوج ما يكون إلى الأحياء لأنَّه بِحاجه إلى دعوة صالِحة تَلحقه مِن حَيٍّ مؤمن يؤمن بالله واليوم الأخر، وهو بِحاجة إلى عمل صالِح يعمله الإنسان ويقصد ثوابه له كالصدقة والحج والعمرة مثلاً، أما أن يكون قادراً على شفاء أحد أو دفع بلاء عن أحد فذلك ما لا يَجوز اعتقاده قط.

والله تعالى علمنا في كتابه الكريم أنْ نتعلق به وحده، وأن لا نتعلق بأحد مِن خلقه، فهو سبحانه يقول: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦].

ويقول جل شأنه أيضاً: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧]، ويقول تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧] ويقول سبحانه: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١]

ويقـــول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

وإذا كان الله ـ تعالى ـ يُخاطب عبده ورســوله ﷺ وهــو أفضل الخلق على الإطلاق بقولــه تعالــى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] فكيف بغيـره عَلَيْهِ السَّلَامُ بل كيف بالجمادات كالقبــور أو الأموات في قبورهم، أنَّى لأولئك أن يَملكوا لأحد دفع مَضرة أو تَحقيق مَنفعة، وأنَّى لشجرة أو حجرة أو نَهر أو أي شـــي مِن هذه الأشـــياء التي يتقرب الناس إليها بالنذور والقرابيــن مِن أجل الاستشــفاء أو مِن أجــل تَحقيق المنافــع أو مِن أجل دفع المضار، أنَّى لشيء مِن ذلك أن يدفع شيئاً مِن الضرر عن أي أحد كان.

كذلك التعلق بالجن أو غيرهم مِن عالَم الغيــب فإنَّ ذلك ـ أيضاً ـ مِما لا يَجوز قط، فإنَّ الله تعالى يقــول: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦] فهم ما زَادوهم إلا رَهقا بســبب زَيغ عَقيدتِهم وعدم تعلقهم بالله سبحانه.

وإذا كان الإنســان يؤمن بالله تعالــى وحده أنَّه هو النافــع الضار، وأنَّه هو الذي يَبتلي مَن يشاء بالمرض، ويَمُنُّ على مَن يشاء بالعافية، وهو سبحانه الذي يُصَرِّف هذا الكون بأســره، ولا تصريف لأحد فيه، إذ لا رَادَّ لقضائه ولا مُعقب لِحكمه ولا تبديل لكلماته، فإنَّ عليــه أن يقطع صلته بغير الله تعالى، وعليه أن يكون تعلقه بالله وحده، لا أن يَجمع بين التعلق بالله والتعلق بغيره.

فالجمع بين الاستشــفاء بكلام الله ـ تعالى ـ المنــزل على خاتم النبيين ـ عليه أفضل الصلاة والتســليم ـ وبين هذه الأَوْهَام والتُّرَّهَات مِمَّا يَجب أن يصرفه الإنسان عن باله.

ونَحن ندعو النــاس إلى أن يتعلقوا بــالله بِحيث يدعونــه مُخلصين له الدعاء، لأنَّ الإنســان مُطالب بــأن يَحصر اســتعانته فــي الله تعالى بِحيث لا يستعين بغيره كما يَحصر عبادته في الله، فالله ـ تعالى ـ عَلَّمنا كيف نَجمع بين التعلق بالله ـ تعالى ـ في العبادة والتعلق به في الاســتعانة، فلا نستعين بغيره ولا نعبد غيره، يقول ســبحانه في الســورة التي نُكررها في كل ركعة مِن ركعات صلاتنــا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، أي لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا إياك.

فلا تَجوز الاســتعانة في مثل هذه الأشــياء إلا بالله؛ نعم الاســتعانة في الأمور التي جعل الله تعالى التعاون فيها مِن سُــنن الحيــاة ونَوامِيس النِّظام الكونِي أمر مشــروع، فلا مانع مِن أن يســتعين أحد بأحد ليرفع عنه حِملاً ثقيلاً مثلاً، أو يســتعين أحد بأحد مِن أجل أن يُخاطب مسئولاً ليخفف عنه شــيئاً مِن المغرم أو ليحقق له شــيئاً مِن المنفعة لا مانع مِــن ذلك كله، بل هذه الاســتعانة في الحقيقة دَاخلة في الاســتعانة بالله، عند من أبصر وتأمل، لأنَّ الله ـ تعالى ـ هو الذي أوجد هذه الأســباب، والاســتعانة بِهذه الأسباب التي أوجدها الله إنَّما هي في الحقيقة اســتعانة بالله الذي خلق هذه الأسباب وهيأها؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

أخت تقول إنَّ لَها أخاً يُعانِي مِن أَلَــمٍ في أذنيه ولَم يَجدوا له علاجاً في المستشفيات، واستخدموا معه الكي، فهل ذهابُهم إلى العرافين مِن أجل معرفة مرضه جائز؟

أما العَرَّافُونَ فلا، ففي الحديث: «مَن أَتَى عَرَّافاً فصدقه فقد كفر بِما أُنزل على مُحمد»[1]، والقرآن الكريم قطع دابر ذلك عندما قال:

(١) رواه البيهقي (١٦٩٣٨) والحاكم (١٥).

﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥] والله أعلم.

كيف يُمكن للمسلم أن يعرف المشعوذ والساحر مِن الذي له علم السر كما يقال؟

الحق واضح، وبينته هي أظهر مِن الشمس في رابعة النهار، والباطل دَاحض كيفما ادَّعاه صاحبه، فالشعوذة هي باطل، والله تعالى يقول:

﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨] ويقول تعالى: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [الأنفال: ٨]، فالله ـ سبحانه ـ أنزل موازيين القسط وبيّن الهدى مِن غيره، وصراطه واضح لا غُبار عليه،

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فكل ما حاد عن صراط الله ﷻ الذي جعله مَنهجاً لعباده يصلهم برضوانه مَعدود مِن الباطل، فالذي يدَّعي علم الغيب مردود عليه، لأنَّ هذه هي عَين الشعوذة، والله أعلم.

كذلك إذا طالب أحد هؤلاء بشيء يَتنافى مع تعاليم الإسلام كأن يطلبه بأن يذبح لغير الله، كأن يذبح لقبر أو لشجرة أو لنهر أو مِن أجل التقرب إلى الجن أو إلى غير ذلك مِمَّا يُتقرب إليه مِن دون الله تعالى فذلك بيّنٌ أنَّه مِن الشعوذة لأنَّ الذبح لا يكون إلا لله فإنَّ الله ﷻ يقول: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴾ [الكوثر: ٢] فقرن ما بين الصلاة التي هي أقدس عبادة وما بين النحر، كما قرن ﷻ أيضاً بين الصلاة والنسك عندما قال: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

[الأنعام: ١٦٢-١٦٣] فلذلك إذا ادَّعى مُدَّعٍ بأنَّه يستطيع أن يوصل أحداً إلى مُراده مِن شفاء أو غيره بطريق الذبح لغير الله سبحانه فهذا مِن الشعوذة.

أما ما قيل مِن مَعرفة السِّر فإنَّ ذلك أمر بين العبد وبين ربه، والله تعالى يَختص مَن يشاء مِن عباده بِما يشاء مِن أَلطَافِه، تلكم ألطاف يَختص بِها سبحانه مَن يشاء، ومِن ذلك ما حكاه الله ﷻ في كتابه مِن قصة الذي كان عنده علم مِن الكتاب وقد استطاع أن يُحضر عرش بلقيس مِن مكانه إلى حيث كان سليمان عليه السلام، فهذا أمر غريب إذ كيف انتقل ذلك العرش في لَحظة عين مِن مكانه الذي كان فيه إلى مكانه الذي انتقل إليه، فإن هذا مِن سِرِّ الله تعالى في خلقه، والله أعلم.

في سياق الحديث عن المنجمين علم الفلك وعلم الرمل اللذين ينهجهما بعض الناس في التعرف على سبب المرض هل في ذلك مخالفة للدين؟

نعم في ذلك مخالفة وأي مخالفة فإن الغيب لله سبحانه وحده، قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥] فالغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه ولا يجوز لأحد أن يعتمد على التنجيم ولا على الرمل لاستكشاف الغيب، وعباد الله سبحانه لم يطلعوا على شيء من غيبه تعالى إلا ما أطلع الله سبحانه وتعالى عليه المرسلين بواسطة الوحي، يقول تعالى لعبده ورسوله ﷺ:

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] فقد قيل: إن هذه الآية نزلت على الرسول ﷺ عندما حفر المنافقون له حفرةً ليقع فيها فوقعت دابة النبي ﷺ فأنزل الله ﷻ تثبيتاً لقلوب المؤمنين هذه الآية الكريمة لئلَّا

تتزلزل بما أصاب النبي ﷺ. والرسول ﷺ بشر يطرقه ما يطرق البشر، وإنما هو أصفى البشر سريرة وأطهرهم قلباً وأنقاهم فطرة ومع ذلك لا يطلع على الغيب إلا ما أطلعه الله عليه كما قال ﷻ: ﴿عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] فالمغيبات التي أخبرنا الله سبحانه وتعالى بها نعلمها من خلال الأخبار التي جاءت من طريق الوحي على الرسول ﷺ، أما أي غيب آخر لم يوح الله تعالى به إليه فلا يمكننا أن نخوض فيه أبداً، نعم ما أخبر الله سبحانه وتعالى به واقع لا محالة وقد أخبر الله عن أشياء كثيرة في القرآن الكريم فوقعت كما أخبر سبحانه وكذلك أخبر الرسول ﷺ أيضاً ـ بما أوحاه الله إليه ـ بأخبار غيبية وكان ذلك بوحي خفي غير القرآن الكريم الذي هو وحي ظاهر، لأن النبي ﷺ لا ينطق في هذه الجوانب إلا عن الوحي الذي يوحيه الله تعالى إليه، ومن أمثلة ما أخبر به الرسول ﷺ من الغيب ما جاء في حديث جبريل عليه السلام عندما سأله عن الساعة فقال ﷺ ما المسؤول بأعلم من السائل، ثم سأله عن أشراطها فقال له: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الأعراب الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان»[1] وهذا ما رأيناه رأي العين فالأعراب الحفاة الرعاة رعاء الإبل والشاء أصبحوا يتطاولون الآن في البنيان بما لم يكن يتصور، ومن أمثلة ما أخبر به الرسول ﷺ من الغيب أيضاً ما جاء في الحديث عن النبي ﷺ «**لا تقوم الساعة حتى تتحول جزيرة العرب إلى مروج وأنهار**»[2] فقد بدأت تظهر المروج الخضراء في الجزيرة العربية من خلال استخراج المياه من أعماق الأرض أو بتحلية مياه البحر والغرس والزرع واستصلاح الأرض بوسائل شتى، والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم رقم (١٠٢).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٣٨٦).

أصيب رجل باحمرار في عينيه ودامت الحمــرة في مقلتيه، فأخذوه إلى الباصر[١] فقال لهم: الولد به مضــرة من دم أم الصبيان ونظرة من الإنس، فهذا حرز لعله يبخر بلبان ويلبس إياه في رأسه، ويبخر بهذه الطلاسم يوم الخميس مرتين ظهراً ومغرباً، ويوم الجمعة ثلاث مرات صباحاً وظهراً ومغربــاً، ويهدى له مغبار من البيت جانب الســهيل، ويؤخذ بثــلاث أصابع تراب مــن الطريق من تحــت الأصابع غفلة الناس ويتبخر بــه. فما قولكم فــي كلام الباصر؟ ومــا الحكم في الذهاب إلى هؤلاء البصار؟

ما قاله ـ المدعو بالباصر ـ بدعة وضلالة وكفر، لأنه مناف للعقيدة النقية التي يقوم عليها الإسلام، وهي أن لا يعول إلّا على الله في طلب نيل السراء ودفع الضراء، قال تعالى:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧].

فاحذروا هذه الترهات، والله المستعان.

ما الحكم في امرأة وقعت في شــرك عن جهل بذهابهــا إلى العرافين، أيجب عليها شــيء أم لا؟ وما الحكم إن كانت قد أُخبرتْ بعدم جواز الذهاب إلى العرافين ولكن أصرت بالذهاب؟

عليها الرجوع إلى الإســلام والتوبة، وإلّا انهــدم إيمانها وأصبحت في عداد المرتدين والله أعلم.

(١) هو العراف أو الكاهن أو الدجال الذي يدّعي علم الغيب.

الإمام الذي يصلي بالناس إذا ثبت عنه أنه أتى عرافا فقد ورد أنه لا تقبل منه الصلاة أربعين يوما، فهل يصلى خلفه؟

جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**من أتى عرافا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد**»؛ ذلك لأنّ الله تعالى أنزل على عبده ورسوله ﷺ قوله:

﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥] فالإنسان أيا كان لا يمكن أن يعلم الغيب اللهم إلا أن يوحى إليه من قِبَل الله، ولذلك استثنى الله تعالى رسله، وبيّن أنّ ذلك بطريق الوحي لا لأنهم بأنفسهم يعلمون الغيب، قال تعالى:

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] والنبي ﷺ الذي هو أفضل الرسل جميعا وقد وصفه الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أمره الله تعالى أن يعلن أنه لا يعلم من الغيب شيئا، فقد قال الله تعالى له: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] فالآية الكريمة نص صريح في أنّ النبي ﷺ لم يكن يعلم الغيب، وإذا كان هو كذلك فسائر الرسل أيضاً لم يكونوا يعلمون الغيب، والله أعلم.

رجل تَحدث في بيته أمور غريبة كأن يكون التلفاز مُشغلاً فيزداد صوته دون سبب، أو أنَّ الأوانِي تَسقط مِن خزانة المطبخ أو تنكسر دون سبب، وأمور كثيرة عجيبة تَحدث لَهم في المنزل، ذهب هذا الرجل إلى بعض الذين يقولون بأن لَهم علم الحكمة فأمره أحدهم أن يأتي بشاة ويضع فيها بعض الأمور بعد ذَبْحها ثم يدفنها في بستان مُتصل بالبيت، ففعل ذلك وذهب ما كانوا يَجدونه في البيت مِن العجائب، فما حكم ذلك؟

نقول هذا مِن التقرب إلى غير الله ﷻ، ولا يَجوز للإنسان أن يذبح لغير الله، لأنَّ الذبح لغير الله ـ سبحانه ـ كالصلاة لغير الله، إذ الذبح عبادة: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢] ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣] ولذلك أُمر بذكر اسم الله تعالى على الذبح لأجل الإيذان بأنَّه يقدم على هذا الشيء بِحكم مِن الله ـ سبحانه ـ الذي هو مالك هذا الحيوان والذي أباح ذَبْحَه مِن أجل الانتفاع به بِهذه الطريقة.

أما أن يُذبح الحيوان ويُحمل إلى قبر ليدفن حوله أو إلى بستان ليدفن فيه، مِن أجل ميت أو مِن أجل جني أو شيطان فذلك مِن التقرب إلى غير الله.

وقد كان هؤلاء أحرياء أن يلجأوا إلى الله تبارك وتعالى، بقراءة كتابه الكريم وبدعائه بأسمائه الحسنى، فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِي وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

لا أن يلجأوا إلى العَرّافين والكهنة والدجالين الذين يأمرون بِهذه الأشياء.

أما ما حصل فإنَّ ذلك مِن الإملاء الذي يَحصل للإنسان وهو يُجانب طريق الحق، فقد يُملى لِمن يُجانب طريق الحق ويُستدرج، والناس قد قالوا بأنَّه قد تَحصل أشياء تُعد خوارق للعادات لغير المستقيمين، ولا يعدو أن يكون ذلك استدراجا، ولا تسمى كرامة، فالله تعالى يقول:

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٢] والاستدراج متنوع، قد يكون الاستدراج بأن يُمهَل للإنسان في حياته وهو على الخطأ، وقد يكون بأن يكثر رزقه وهو على الخطأ، وقد يكون بِمثل هذه الأمور التي يطمئن الإنسان فيها إلى خطئه، ويركن إلى ضلاله ويَميل إلى غَيِّه.

وقد كان هؤلاء أحرياء ـ كما ذكرنا سابقاً ـ بأن يذكروا اسم الله تعالى، وأن يتلو كتابه، كأن يتلوا آية الكرسي والمعوذتين وسورة الإخلاص، وكذلك ما جاء في بعض الروايات عن ابن عمر رضي الله عنهما وعن غيره من تلاوة عشر آيات مِن سورة البقرة في مثل هذه الأحوال: أربع مِن أَوَّل السورة إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] وثلاث آيات هي آية الكرسي والآيتان بعدها إلى قوله تعالى: ﴿خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] والثلاث الأخرى هي آخر السورة مِن قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٨٤] إلى نِهاية السورة؛ فينبغي للإنسان أن يستمسك بِهذا، وأن يدع عنه هذه الأوهام، والله المستعان.

الدعاء وصلته بالقدر

إذا كان الله تعالى قد خلق أفعال العباد فما هي فائدة الدعاء؟

فائدة الدعاء كفائدة العبادة، فإن الله تبارك وتعالى قد يقضي في الأزل بأن فلاناً يصيبه مكروه. إن لم يدعُ، وقد علم الله تعالى بأنه سيدعو، فيكون ذلك الدعاء سبباً لتفريج تلك الغمة. فعلينا أن نفعل ما أمرنا به، ونكل أمر الله عز وجل إليه، وليس لنا أن نبحث عما جرى به قلم القضاء في الأزل والله أعلم.

كيف يرد الدعاء القضاء، والقضاء هو إرادة الله؟

القضاء الذي علم الله تعالى أنه سَينْفُذْ لا يمكن أن يردَه الدعاء، ولكن قد يقضي الله أن فلاناً يصيبه كذا إن لم يدعني، وإن دعاني صرفت عنه ذلك، وقد علم الله تعالى أنه سيدعوه، فهذا الدعاء نفسه بقضاء منه تعالى، وهو يصرف القضاء الذي سيقع لو لم يكن الدعاء، والله أعلم.

ما الحكم في قول بعضهم «لا قدر الله ذلك» أو «لا سمح الله» عندما يذكرون حادثة لا يريدون وقوعها؟

لا مانع من ذلك لأن المراد به دعاء أن لا يقع ذلك، والله أعلم.

هل يجوز التوسل بالنبي أو بجاه النبي ﷺ؟

في ذلك خلاف وتركه والاقتصار في الدعاء على أسماء الله الحسنى أولى، والله أعلم.

ورد في السُّنَّة أنه مادام الإنسان ذا دين وعلم فإنه مؤكد أن الله سوف يقبل دعاءه وطلبه. هل يجوز أن نستخدم كلمة مؤكد؟

يستجيب الله تعالى لدعاء الداعين، ولكن قد يعلم سبحانه أن الخير للعبد في عدم استجابة دعاء معين من أدعيته، فالداعي ببر إما أن يعجل الله له الإجابة فيستجيب دعاءه، وإما أن يكف عنه من الشر بقدر ما دعا، وإما أن يَدَّخِر له دعاءه في الآخرة فيثيبه عليه ما هو خير، وقد يستجيب الله دعاء غير الديّن ـ أي الكافر أو الفاجر ـ وذلك لحكمة علمها سبحانه والله تعالى أعلم.

هل يجوز أن نقول أطال الله عمرك؟

نعم، ذلك جائز كما نقول أغناك الله وكما يدعو الإنسان لنفسه أن يكون من أهل الخير وأن يميته الله على السعادة ويجعله من أهل الجنة مع أن أهل الجنة وأهل النار يعلمهم الله ومصير كل واحد معلوم عنده ﷻ ولكن ذلك لا ينافي الدعاء ومن أخلص في دعائه لله كان ذلك مظنة الاستجابة من الله سبحانه والله أعلم.

هل لعن اليهود والنصارى عامة يمنع من الدعاء لهم بالهداية خاصة، أو تحديد أحدهم بدعاء للهداية إلى الإسلام (كالمغنين منهم مثلاً) أم لا ؟

لا مانع من الدعاء بالهداية ولو لمشرك، فقد دعا[1] النبي ﷺ للمشركين، والله أعلم.

ما تأويلكم في قوله عليه الصلاة والسلام من طريق عائشة رضي الله عنها قالت: قال عليه الصلاة والسلام «لا يغني حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيتعالجان إلى يوم القيامة»[2] ؟

القدر لا يقي الحذر منه، وإنما يلطف الدعاء ما ينزل به القدر من البلاء بمشيئة الله، والله أعلم.

امرأةٌ تقول إنها أثناء الدعاء تشعر بخشوع تام وبعد الدعاء تشعر ببرودة خفيفة في يديها تصاحبها رعشة في الجسد، فهل يدل ذلك على إجابة الدعاء؟

نرجو من الله تعالى أن يكون ذلك دليلا على صدق إيمانها فإن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤] فخشوع القلب عند ذكر الله ـ تعالى ـ في الصلاة وفي الدعاء وفي

(١) قدم طفيل عمرو الدوسي وأصحابه على النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن دوساً عصتْ وأبتْ فادع الله عليهم، فقيل هلكتْ دوسٌ، قال عليه السلام: (اللهم اهدِ دوساً وأتِ بهم) رواه البخاري رقم ٢٩٣٧.

(٢) رواه الحاكم رقم (١٨١٣).

مطلق الذكر مما يبشر بالخير هو أيضاً مما قد يدل على إجابة الدعاء، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، واتصال القلب بالله تعالى عندما يدعو الإنسان مؤذنٌ بإجابة الدعوة وهذه الانفعالات والآثار التي تبدو على الإنسان عندما يذكر الله ـ تعالى ـ دليل هذه الصلة والحمد لله.


الإيمان
باليوم الآخر

أصحاب الأعراف

ما معنى الأعراف؟ وما المقصودُ بِأصحاب الأعراف؟

أصحابُ الأعرافِ فيهم خلاف كثير بيْن أهل العلم:

فمنهم مَن قال: «هم قومٌ استَوَتْ حسناتُهم وسيئاتُهم» وقد نَصَّ المفسِّرون على أنَّ المرادَ بِذلك الصَّغَائِرِ لا الكَبَائِرِ، كما في «تفسير القرطبي» وغيره مِن كلامِ المفسِّرين، وجاءتْ بِذلك روايات إلا أنَّ هذه الروايات لَم تَصِل إلى درجةِ الصِّحة التي يُعْتَمَد عليها، ومع هذا ـ أيضاً ـ فإنَّه مِن المعلوم أنّ الحديثَ الآحادِي لا يؤخذ به في القضايا العَقَدِية، لأنّ الاعتقاد ثَمرة اليقين واليقين لا يَكون إلا بِدليلٍ قطعي والدليلُ القطعي لا يَكون إلا نَصّا متواتِرا، وذلك إما أن يَكون نَصّا في كتابِ الله أو في روايةٍ متواتِرة عن النبي عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام.

ومنهم مَن قال: هم الأنبياء.

ومنهم مَن قال: هم الملائكة؛ ولَكِنّ القول بِأنَّهُم ملائكة بَعِيد، لأنَّ الله ـ تعالى ـ وصَفَهم بِأنَّهم رِجَال.

ومنهم مَن قال: هم الشُّهُود الذين يَشهَدون على الخلقِ يوم القيامة.

ومنهم مَن قال: هم شُهُودُ الأنبياء الذين يَشهدُون لَهم بِالتبليغ.

والآراء فيه متعدِّدَة تصل إلى اثني عشر قولاً.

ولعلَّ أقْرَبَ هذه الآراءِ إلى التَّرْجِيح قولُ مَن قال بِأنَّهم شُهُودٌ يَشهدُون على الناس، لأنَّهم يُخاطِبون أهلَ الجنة ويُخاطِبون أهلَ النار جَميعا، وهذا دليلٌ على أنَّهم شهود.

فلو كانوا كما قيل: «قوم اسْتَوَتْ حسناتُهم وسيئاتُهم وأنَّهم مَحبُوسُون عن دخولِ الجنة ثم يُؤْذَن لَهم بِدخولِها» فإنّ الموقف يَقتضِي أن يَكونوا مشغولين بِأنفسِهم، لا أن يَكونوا مشغولِين بِمخاطبةِ هؤلاءِ تارة ومُخاطبةِ أولئك تارةً أخرى.

والأصلُ في «الأعراف» أنَّها الأماكِن المرتفِعة، فـ«العُرْفُ» هو المكان النَّاتِئُ المرتفِع الذي هو فوق غيرِه، ولذلك سُمِّي عُرْفُ الدِّيكِ «عُرْفا» بِسببِ ارتفاعِه.

فهذا دليلٌ على أنَّهم في مكانٍ مُرْتَفِع ويُشْرِفُون على هَؤلاءِ وهَؤلاء، فلا يَبْعُد أن يَكون القولُ الصحيح أنَّ أصحاب الأعراف هم الشهود الذين يَشهدُون يومَ القيامة على الناس بِما عَملوه، هذا مِنْ غيرِ قَطْع، لأنّ القطعَ ثَمرةُ الدليلِ القطعي ولا يُوجَد دليلٌ قطعي كما ذكرنا، وإنَّما نَقُولُ ذلك مِن بابِ التفسير بِمَا يَتَبَيَّن مِن القرائن مِن غيرِ أن نَقطَع بِه؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

هل نستطيع أن نقول إن أصحاب الأعراف لم يطبقوا الجملة عمليا ولذلك كانت تلك حالتهم؟

نحن لا نقول ذلك، ولكن نقول ربما حصل عندهم تقصير غير متعمد في التطبيق العملي هذا بناءً على قول من قال بأنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، ودليلهم في هذا رواية ضعيفة، ولذلك اختلف المفسرون فيهم على أكثر من اثني عشر قولاً، والذي أراه أن أصحاب الأعراف هم الشهود الذين يشهدون على الأمم بدليل مخاطبتهم للسعداء والأشقياء، ولو كانوا كما قيل بأنهم قوم محبوسون بين الجنة والنار لكانوا مشغولين بأنفسهم عن مخاطبة الفريقين، ويشهد لهذا وصفهم بأنهم على الأعراف، والأعراف جمع عرف، والعرف ما ارتفع من أي شيء فهم في مكان رفيع يرون فيه الأمم ويشهدون عليهم بأعمالهم، والله أعلم.

الحشر وقيام الساعة

يسأل سائل عن الجمع بين قوله تعالى: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]، وآيات أخرى تَذْكُر أَنَّ المؤْمِنِين في هَذَا اليوم يَكُونُون في أَمَان ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ومَعْلُوم أَنَّ الصغار هم غير مُكَلَّفِين.. أَشْكَلَ عليه ما ورد في الآيتين؟

لا إشكال في الجمْعُ بيْنَ الآيَتَيْن.. بَيْنَ قَوْلِه تعالى:

﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٣]، وكذلك قَوْل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١]، والجمْع ما بَيْنَ تِلْكَ الآية وما بين هذه الآيات جَمْعٌ مُيَسَّر بِمشيئة الله تعالى، فإن قَوْل الله تعالى:: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ إنَّما هُو لِبَيَان هَوْلِ هذا اليوم، فهو كناية عن شدة هذا اليوم وفَظَاعَتِه، فهو لِهَوْلِه لَوْ صَادَفَ الوِلْدَان في هذه الدنيا لحولهم إلى شيب من شدة هَوْلِه.

وأسلوب الكناية مَأْلُوف عند العرب، فإنَّهم يقولون في وَصْفِ الكريم مثلاً هو «جبان الكلب» ولو لَمْ يكن له كَلب، وإنما المقصود بذلك الكناية أَنَّه لكثرة ما يطرقه الزوار لو كان له كلب لَكَان جَبَاناً لا يَنْبَحُ الطَّارِقِين لكثرة ما أَلِفَهم، ويقولون فيه: «كثير الرَّمَاد» ولو لَمْ يكن في بَيْتِه رَمَاد بل ولو كان يطبخ الطعام في غير بَيْتِهِ ولكن هذه كناية عن كثرة إعْدَادِه الطعام للضيوف، ويقولون للطويل ـ كناية عن طوله ـ: «طويل النجاد» وإن لَم يكن له نجاد قط.

فإذن هذه كِنَايَة عن هَــوْلِ ذلك اليوم، أي هَوْلُ ذلــك اليوم هَوْلٌ عظيم بِحَيْثُ لو صَادَفَه أولاد وهُــمْ في مُنْتَهَى الفُتُوَّة والصِّغَــر لأَدَّى ذلك إلى أن يَشِيبُوا مِن هَوْلِه.

وأمَّا قول الله تعالــى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ فهَــذَا وصْفٌ لِحال المؤمنين.

هذا والأولاد الذين ماتوا وهُم صِغَــار فإنَّهُم مَاتُوا على الفِطْرَة لحديث «كُلُّ مَوْلُود يُولَد على الفطرة...»[1]، فهم لا يَحْزُنُهُم هَوْلُ ذلك اليوم، والله أعلم.

ما صحة الحديث «ولدتُ يوم الجمعة وأبعث يوم الجمعة وتقوم الساعة يوم الجمعة»؟

هذا حديث لا يصح، نعم ثبت في حديــث أبي هريرة عند الإمام الربيع وعند الشــيخين وعند غيرهم مِن أئمة الحديث أن قيام الساعة يوم الجمعه، أما «ولدتُ يوم الجمعة» فلم يثبت.

وقد اشــتهر عند الناس أنَّ النبي ﷺ ولد يوم الاثنين، وقد دلّ على هذا الحديث الذي رواه مسلم وفيه «... وسئل عن صوم يوم الاثنين قال ذاك يوم ولدت فيه...»[2]، والله أعلم.

قلتم باستحالة تصور مشهد من مشاهد البرزخ أو أي مرحلة من ذلك فما القــول فيمن كلفــوا طباعهــم وكتبوا عن الحشــر مســتدلين على كل تصوراتهم بما ورد في الذكر الحكيم؟

قلت بأن الإنسان الحي لا يســتطيع أن يتصور تمام التصور الإحساس الذي

(١) رواه البخاري (١٢٧٠) ومسلم (٤٨٠٣).

(٢) روى بنحوه مسلم ١١٦٢.

يحسه الميت وهو في البرزخ، ونحن لا نستطيع أن ندرك حقيقة الحلم الذي يراه أحدنا فــي منامه فلا ندري هل الروح هي التي تــرى؟ وهل ما نراه هو انعكاس لأشياء خيالية يجعلها الله دلالة على حقائق تنعكس على إدراك الإنسان ووعيه؟ فكيف يمكن لأحدنا أن يدرك الإحساس الذي يحس به الميت وهو في القبر؟!.

أما الذين يســتندون إلى القــرآن الكريم في بيان حقيقــة ما، فهم على صواب فلا يعول إلا على القرآن وعلى السُّــنَّة التي هي امتداد للقران، وإنما مقدار ما يحس به الميت في البرزخ أمر يعلمه الله وحده والله أعلم.

في قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨] نريد توضيح قوله: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

الآية أجملت ولم تبين، وقد اختلف المفســرون في المراد بالاســتثناء منهم من قال: هــم الأنبياء، ومنهم مــن قال: بعضهم، ومنهــم من قال: هم الأنبيــاء والصديقون، ومنهم من قــال: الحور العين. ولم أجــد عليها دليلا يمكن أن أستند إليه، وأقول إن الله على كل شيء قدير فيمكن أن يكون هناك طائفة من الملائكة وغيرهم يجعل الله سبحانه وتعالى لهم القوة على ســماع دوي النفخ في الصور ويمكن أن تكون طائفة من البشر والله أعلم.

السائل يســأل عن قول الله تعالى: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣] لماذا أشرك الأزواج مع الذين ظلموا والله يقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]؟

كلمة الأزواج لا يلزم أن يكون المراد منهــا الاقتران المعهود بين رجل وامرأه، فكلمة «أزواج» في الآية قيل هم قرناؤهم من شــياطين الجن، وقيل

قرناؤهم من شياطين الإنس، أي يبعثون يوم القيامة مقترنين في العذاب، كما كانوا مقترنين في الكفر بالله والإصرار على معصيته والإخلاد إلى محارمه تعالى في هذه الدنيا، ولو قدرنا أن المقصود بالأزواج أولئك الذين كانوا مقترنين بالعلاقة الزوجية في الدنيا فيحمل ذلك على ما إذا ماتوا مصرين على ما يخالف الحق فإنهم عندئذ يكونون سواء في الإثم كما كانوا سواء في العمل، ولا يراد بذلك أبداً أن يحمل أحد الزوجين إثم الزوج الآخر، وناهيكم أن امرأة فرعون ذكرها الله سبحانه بالخير في كتابه الكريم مع أنها كانت مع شر زوج في الدنيا، كيف وهو الذي جعل من نفسه إلها يعبد من دون الله، والله أعلم.

سؤال عن قول الله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَاۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ ما تمييز العدد المحذوف أهي ثمانية ملائكة أم صفوف؟

الله أعلم بذلك، هل ثمانية ملائكة أو ثمانية صفوف أو ثمانية آلاف، وما علينا إلّا أن نكل علم ذلك إلى الله، وقد قال بعض العلماء إن هذه الآية داخلة في باب المتشابه، والله أعلم.

ذكرتم أن الأرض التي يرتكب عليها الإنسان المعصية تشهد عليه يوم القيامة، وقبلها ذكرتم الآية ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٤] فما دامت الأرض تدك وتتلاشى علاماتها، فكيف تشهد على الإنسان يوم القيامة؟

الأرض ينشئها الله ﷻ نشأة أخرى لتكون أرضاً غير هذه الأرض، ولا مانع من أن تشهد تلك الأرض التي أنشأها الله بما ارتكب العبد، ولعل الله ينشئها من نفس هذه الذرات، وتعود بطبيعة غير الطبيعة السابقة، والله أعلم.

ما معنى قوله تعالى ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمٰن: ٣٧]؟

جعل الله ﷻ انشقاق السماء أو انفطارها إيذاناً بقيام الساعة إذ يختل نظام هذا الكون فتتساقط أجرامه ويرى الأفق أحمر كالوردة ولا يبعد أن يكون ذلك ـ والله أعلم بحقيقة الأمر ـ بسبب الغبار الذي يكون حول الأرض حيث يراه من على الأرض كمثل وردة حمراء، وهذا الانفطار الذي ذكره الله تعالى يشير إلى الجاذبية؛ فالكواكب التي جعلها الله ﷻ بعضها مشدوداً إلى بعض عندئذ يختل توازنها وتتساقط ويقع بعضها على بعض بسبب انعدام الرابطة التي تربط ما بينها، والله أعلم.

 أشراط الساعة

انْتَشِر عن طريق البَرِيد الإلكتروني بَعْضُ المعلومات وكذا أيضاً عَن طَرِيق الرسائل القَصِيرة في الهواتف أنَّ ما حَدَث مِن نَكَبَات أو كوَارث في جَنُوب شرق آسيا[١] هو بدَايَة اضطرابات في هِذِه الأرض، وأنَّ هَذه الاضطرابات آخذة في الاستمْرَار حَتَى تَصِل بالأرض إلى أن تَدُورَ دَوَرَاناً عَكْسِياً يَقْتَضِي طُلُوع الشمس من مَغْرِبِها، وأنَّ مِثْلَ هَذَا يُؤذِن باقتراب السَّاعة، مَا تَعْلِيقُكُم عَلى مِثْل هَذِهِ الرَّسَائِل؟

نَحْن لَا نَسْتَطِيع أن نَقُولَ فِي أَمرٍ مَا بِغَيْر بَيِّنة مِن الله تعالى، فإن الإنسان لَيْسَ له أن يَتَقَوَّل على الله بِغير علم فالله تعالى يَقُول: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] فقد قرن تعالى التَقَوُّل عَلَيْه بِغَيْرِ علم بالإشْرَاكِ بِه وهو مِما يَدُل عَلَى خُطُورَته.

(١) التسونامي عام ٢٠٠٤.

نَعَم قَد يَنقَدِحُ في ذِهْن الإنسان مَعنى مِنَ المعاني ويُريد أن يَبُوح به فلَا يُمنع مِن ذلك كأن يَقُول: «هَذَا الذي انقدَح فِي ذِهنِي وهذا تَصَوُّرِي» وإلا فالأَمْرُ لله.

ونَحْن نُدرِك أن الساعة آتية لا رَيْبَ فيها، والإنسان مأمور بِأَن يَنتَظِرها ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨] فالذين آمَنُوا دَائِماً عَلَى إشْفَاق مِن قِيَام السَّاعة وَهُم مَدْركون أنّها لا بد مِن أَنْ تَقُومَ، على أن النبي ﷺ ذَكَر للساعة عَلَامَات فَعِندَمَا سُئِل ـ كما في حديث جبريل عليه السلام عَن عَلَامَات الساعة قَال عليه أفضل الصلاة والسلام: «وأن تَرَى الأَعْرَاب الجفَاة العُرَاة رِعَاءَ الشاء يَتطَاوَلُونَ فِي البُنْيَان»[1]، فمِن علامات الساعة أن يصبح النَّاس الذين مَا كَانُوا يَحْفِلُون بِمظاهِر المدنية والرقي، ومَا كَانوا آخذين بِحظ من عِمَارَة هَذِهِ الأرض مَتطَاوِلين في البُنيان.

ومَن الذِي يُنْكِر الآن التَطَاوُل في البُنْيَانِ ! فهَذِه العمارات الشاهقة التي يُعبَّر عَنها بِنَاطِحات السَحاب أَلَيْست هي مِن مَظَاهِر التَطَاوُل في البُنيان.. وهذا مما وقع حَتَى عند أولئك الذين وُصِفوا في الحديث الشريف بِما وُصِفُوا بِهِ من أَنَّهم كانوا من قَبل على تِلْكم الحَالة، فهَذَا مِمَّا يُؤذِن بِقِيَام الساعة.

على أننا نَسْتَطيع أن نَقُول بِأن القرآن الكريم يُشِير إلى ذلك، وإن كَانَ المفسرون لم يَحْملوه في هَذَا المَوْضِعِ بالذَّات على هذا الـمَحْمَل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] فلا أستَبْعد أن تَكُون في ذلك إشارة إلى هذا المعنى،

---

(١) النسائي رقم ٥٠٠٥.

وهذا مِما قَالَه أحد العُلمَاء قبل سنين ـ فيما رأيت ـ وهو الشيخ إبراهيم عبد الباقي في كِتَاب له يُسمَى: «الدين والعلم الحديث».. فقد تحدث عن دلالة الآية على ما يحدث في آخر الزمان من اهتمام الناس بعمارة الأرض وزخرفها وتشييد مبانيها مع اغترارهم بما أوتوا من القدرة على التحكم في شؤونها حتى يظنوا أنهم قابضون على ناصيتها متحكمون في أمرها فيفاجئهم أمر الله بقيام الساعة ليلا أو نهارا، وهذا ما فهمه من الشطر الأخير من الآية، بينما أَطْبَقَ المفسرون عَلَى أنّ الله تعالى أراد أن يَضْرِب فيها مثلاً لِهذه الحيَاة الدنيا في زَهْرَتِهَا ونَضرتِها واختلَابِها القلوب وميْل الناس إليها ثم كيف تنقلب بَعْد ذلك إلى عكس ما كانت عليه، فهي كَمَاء يَنزِل مِنَ السمَاء فَيَخْتَلِط بِه نَبَات الأرض وتَزْدَهِرُ به الأرض ثُم يَأتِيهَا أَمْر مِنَ الله ـ كإعْصَارٍ مُدَمِّر أو بركان مُحرق أو عاصفة ماحقة ـ ليْلاً أو نَهاراً فَتُصْبح يَبَاباً بَعْدَمَا كانت رَوْضاً نَضِيراً، هَذَا هو قَوْلُ المفَسِّرين فِيمَا اطَّلَعْتُ عَلَيْه وَلَم اطَّلِع عَلَى غَيْر ذَلك مِن أقوالِهم.

ولكن الشيْخ إبراهيم عَبْدَ الباقي ـ كما ذكرت ـ قَالَ بِأن الآية تُشِيرُ إلى نِهَايَة الساعة حيث يَكُونُ في الأرض ازدِهَار وعُمْرَان وغُرورٌ بِحيث يَظُن الناس أنَّهم سيْطَرُوا على هَذِه الأرض وتَمَكَّنُوا فِيهَا بما أوتوه من قوة وما أحدثوه من أسباب التمكين، وهَذَا مَا يَتَصَوَّره الكَثِير الآن مِن خِلَالِ الآلات المُستَحدثة ومِن خِلال القوى التي بِأيدي هَؤُلاء فإنَّهم يَتَصَوَّرُون أَنَّهُم أحاطُوا بِالأرض مِن قُطْرَيْهَا وسَيْطَرُوا عَلَيها مِن كل جانب، وهَذَا هُوَ مَنْشأ الغُرور، فَهُنَا يَأْتي أمر الله تعالى ليلاً أو نهاراً وذكر بأن: «أو» هُنَا لا تَدُل على الشك ـ تعالى الله عَن الشك وَإِنَّما هي للدلالة على تَنَوُّع الوَقت بِاختلاف جِهَات الأرض، فإن الساعة عِندَمَا تَقُوم تَقُومُ لَحظة واحدة كما قَالَ تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحِۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠] وحيث إن الأرض كرة يلزم أن يكون ذلك الزمن ليلا في نصف الأرض ونهارا في نصفها الآخر، فتقوم

الساعة على ليل عند قوم ونهار عند آخرين، ومن المحتمل أن تَكون العِبَارة تتسع لكلا التفسيرين مراعاة لجانب التشبيه بحيث يدخل هذا الشطر من الآية فيه أو أن يكون مقصودا به المشبه لا المشبه به، لأن مِن أُسْلُوبِ القرآن الكريم أن لعباراته من الاحتمَالَات ما تتسع به معانيه لأجل أن تستحضر هذه المعَانِي كلها في تلاوته أو تفسيره، فلا يَبْعد أن يَكون قوله سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارًا ﴾ [يونس: ٢٤]، تصويرا لِحَال الدُّنيا ومآلها عند انتهائها.

ويُمْكِن أن يَكُون ذَلك داخلا في المثل بِحيْثُ يَكُون جزءًا منه.

فالآية بِناءً عَلَى مَا ذَكَرْنَاه لَا يَبْعُد أن تَكُونَ مُومِية إلى هَذا الذي حَصَل مِن الازدِهَار والعُمْرَان والتَّقدم العِلْمي والتقني وغَير ذلك مِمَا ظَنَّ النَّاس بِسَبَبِه أنَّهم مُتَمَكِّنُونَ حتى أصبحوا يتحدثون عما يَحْصُل مِن الأعَاصِير والزلازل ومِن الأمطار والرِّيَاح وغَيْر ذلك قَبْل وقُوعه، ولكن مَع ذلك ما استَطَاعُوا أن يَمْنَعُوا شَيْئاً، فهَذا الزلزال نَفْسُه ما استطاعوا أن يَتَصَوَّروه قبل وقُوعِه بِهذا المقْدَار بل لَمْ يَتَصَوَّرُوا قط أن كَارِثة تَحُل بِهذه السرعة، وَهَذَا يَعْني أنَّه ـ مَهْمَا تقدم الإنسان وأوتِي مِن وَسَائِل التمْكِين والاستِخْلَاف في هَذِه الأرض ـ يَبْقَى قَاصِراً وقدرة الله تعالى هي التِي تُحِيط بِكل شيْء، وَهِيَ التي تُدبِّر كُل شَيْء، فَمَا عَلى العَبد إلا أن يَكون عبداً خاضعاً ذليلاً بين يدي الله سبحانه، حريصاً على طاعته، مُسَارعاً إلى مَرْضاتِه، مُتَحَرّياً لامتثال أمره، لا يَخرج عن طَاعَتِه في مَا أمر بِه أو في مَا نَهَى عَنْه.

كيف نوفق بين كون الساعة لا تأتي إلا بغتة ولا يعلمها إلا الله، وبين ظهور علامات الساعة سواءً الكبرى أو الصغرى، خصوصاً وأنها تأتي على الترتيب والتدرج؟

نعم الساعة لا يعلمها إلا الله، ولا تأتي إلا بغتةً، فنحن الآن رأينا كثيراً من العلامات الصغرى، ولكن مع ذلك لا نستطيع أن نحدد ميقات الساعة، فالمرأة الحامل يعلم أنها ستضع حملها، ولكن لا يستطيع أحد أن يحدد الساعة أو اليوم الذي تضع فيه حملها، وقد أخبرنا الله تعالى أن الساعة أزفت، ولكن متى تقوم؟ علم ذلك إلى الله تبارك وتعالى وحده، ومن ادّعى أنه يعلم ذلك ويستطيع أن يحدد ميقات قيام الساعة فقد ادعى على الله ﷻ ما ليس له به علم، وتقوّل على الله بغير علم، فدخل في الوعيد الذي جاء به قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] فظهور العلامات لا ينافي جهلنا بالساعة واليوم والشهر والعام الذي تقوم فيه القيامة، فذلك أمره إلى الله ﷻ والله أعلم.

جاء في حديث جبريل عليه السلام عندما سأل رسول ﷺ عن أشراط الساعة، فقال له: أن تلد الأمة ربتها[١]، نرجو أن تزيدونا توضيحاً شافياً؟

أما من ناحية الحكم الشرعي فليس من المعقول أن تلد الأمة ربتها التي تملكها ويقر ذلك الشرع، لأن كل واحد من الوالدين يعتق بمجرد ملك الولد له، فلو وقع والد في ملك ولده فإنه يعتق تلقائياً من غير أن يعتقه ولده، وكثير من العلماء زادوا على ذلك ذا الرحم المحرِّم، كأن يملك الأخ أخته أو الأخت أخاها أو الأخ أخاه أو الأخت أختها أو العمات والأعمام وأبناء الإخوة وبنات الإخوة بعضهم بعضاً، وكذلك الأخوال والخالات وأبناء وبنات الأخوات، كل من هؤلاء يدخلون في الحرية بمجرد أن تفضي الملكية إلى ذوي محارمهم، فليس من المعقول

(١) رواه مسلم (٩).

أن يقر في الشـــرع ملك الولد لوالده، فلذلـــك كان الحديث بحاجة إلى التأويل.

وقد سلك العلماء مسالك متعددة في التأويل، منهم من قال: بأن التسري يكثر فيتســرى أحد الأمة وتلد له مولودة، ثم بعد ذلك يتجاسر على بيع أم ولده ويشـــتريها غيره ويجهل أمرها ثم تعود إلى ابنتها بطريق البيع أو غيره، وكل واحدة منهما تجهل الأخرى، أو أن الوالدة تُســرق ثــم بعد ذلك تباع وتشتريها ابنتها، وهي لا تعلم أنها والدتها، ولكنني نظراً إلى اختلاف ظروف الناس بين الأمس واليوم لا أستبعد أن يكون الحديث يشير إلى تحول الناس من وضع إلى وضع آخر، بحيث يكون الجيل الآتي إذا ما قيس حاله بحال الجيل الذي سبقه بينهما من التفاوت كالذي يكون بين الخادم والمخدوم أو المالك والمملوك، فلربما امرأة كانت بالأمس تعيسة تعاني الويلات وتكابد لأواء الفقر والضعف وإذا بابنتها بعد زمن تنقلب إلى وضع آخر حتى تكون كالسيدة المالكة لأمها، فتكون كأنها ولدت ربتها، هذا الذي انقدح في ذهني وأرى أنه لا يبعد أن يكون هو المراد في الحديث، والله أعلم.

أرجو بيان الجمع بين أن الساعة لا تأتي إلا بغتة، وإخباره ﷺ بعلاماتها، ألا تعتبر هذه العلامات إعلاماً بوقوعها ؟

الساعة لا تأتي إلّا بغتة، وإنما لها أشراط تدل على قربها، وذلك لا ينافي جهل الناس بتحديد زمنها، والله أعلم.

هل يلزم ظهور العلامات الكبرى لقيام الساعة ؟

ما ثبت بالدليـــل القاطع فهو مقطـــوع بأنه لا بدّ من وقوعـــه، وما كان بخلاف ذلك فلا يقطع به، والله أعلم.

أين موقع ومكان يأجوج ومأجوج وسدهم الذي ذكره القرآن في سورة الكهف وهل هم هؤلاء الجنس التوراني الذين يسكنون في شرق آسيا كما ذكر الشيخ أبو إسحاق في تعليقه على الذهب الخالص؟

الله أعلم والأقرب أن مكانهم هو في بعض مناطق الاتحاد السوفيتي كما ذكر ذلك العلامة السيد رشيد رضا صاحب المنار في بعض فتاواه لأن صفات سدهم المذكورة في القرآن تنطبق على السد الموجود هناك حسب وصفه ولأن من حول السد المذكور يطلق عليهم ياقوق وماقوق حسبما قيل، والله أعلم.

هل من الصحيح خروج المهدي المنتظر وما رأي فضيلتكم في كتاب الدكتور مصطفى محمود الذي تكلم فيه عن الشفاعة ؟

الأحاديث التي دلت على خروج المهدي في آخر الزمان لم تثبت، وقد تكفل علماء الحديث ببيان عللها واستقصاء عدم ثبوتها، ومن بين هؤلاء الشيخ المحدث د. عداب بن السيد محمود بن السيد إبراهيم بن الشيخ محمد الحمش، فقد أفرد لها مؤلفاً في مجلد كبير.

أما الدكتور مصطفى محمود فقد بحث موضوع الشفاعة بحثاً موضوعياً غير متأثر بما تراكم من الأفكار التي عششت في أدمغة كثير من الناس، فتناسوا بسببها نصوص الوحي وأهملوا النظر في تحذير الله تعالى هذه الأمة من التعلق بالأماني التي تعلقت بها الأمم قبلها، فلذلك استنكروا قوله لأنهم أسلسوا قيادهم الفكري لتلك التراكمات التي توارثوها وإلا فالحق في ذلك بين، فقد قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٨]، وقال: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

ﭐلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقال:

﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ [النساء: ١٢٣]، وهذا ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، فإن النبي ﷺ حذر أقرب قرابته وأخص خاصته حتى فلذة كبده فاطمة رضي الله عنها من التعلق بأماني الشفاعة وإهمال العمل، فقد قال: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئا يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا يا صفية بنت عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت لا أغني عنك من الله شيئا»[1]، وكفى بهذا قاطعا لحبال الأماني التي ألهت الناس عن الأعمال وجعلتهم يسرحون في عالم الأوهام ضاربين عرض الحائط بكل دليل شرعي يصدهم عن هذه الأماني، والله المستعان.



الموت

ما هو تفسيركم للموت؟ وكيف يمكن للإنسان توظيفه في إصلاح نفسه؟

اليوم الآخر يعني الموت فما بعده، فالإيمان بالموت يدخل في الإيمان باليوم الآخر، والناس كلهم موقنون بالموت وإن لم يشتغل الكثير منهم به،

(١) صحيح البخاري رقم: ٢٦٠٢، ٤٤٩٣، وصحيح مسلم رقم: ٢٠٦، ٢٠٥، ٢٠٤، وصحيح ابن حبان رقم: ١٢٤٢٨، ١٢٤٢٩، وسنن النسائي الكبرى رقم: ٦٤٧١، ٦٤٧٢، ٦٤٧٣، ٦٤٧٤، ٦٤٧٥.

فإنهم يشـــاهدون قوافل الأحياء تخرج من هذه الدار إلى الدار الآخرة، وكل أحد يشـــاهد إخوانه وخلانه وأقرباءه الذين تقرضهم أنياب المنايا، فيغادرون هذه الحياة بعدما كانوا من أهلها يســـرون ويتمتعون معهم وينافسونهم فيما جعل الله ﷻ فيها من أمور تدفـــع أهل هذه الدنيا إلى التنافـــس فيها، فبهذا لا يبقى مجال للريب في الموت، فالله ـ تبارك وتعالى قال: خطاباً لرسوله ﷺ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] فمـــا من أحد يبقى في هـــذه الدنيا، وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ويقـــول عـــز مـــن قائـــل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ويقول سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١ - ٢] فالآيات ناصة على الموت وأحاديث الرســـول ﷺ ناصة عليه، ووضع الناس في هذه الدنيا شـــاهد عليه، فكل أحد يعلم أن الليـــل والنهار يتنقصان عمره باستمرار:

إذا ما تقاضـــى المرء يوم وليلة   تقاضاه شـــيء لا يمل التقاضيا

فما من شـــك في الموت وإنما هناك اشـــتغال عنه والتهاء بشؤون الحياة دونـــه، فالناس جبلوا على حب هـــذه الحياة حبا جما، وقـــد عزب عنهم ذكر المـــوت فما بعـــده فلذلك يســـتنفذ أحدهم طاقتـــه فيما يعود عليـــه بالمنفعة الموهومة في هذه الحياة، التي لا يدري أحد من الناس أنه ســـيتحقق له نيلها، لأنها منفعة قد تقطع الآجالُ بينه وبينها فصوارم المنايا تقطع حبال الآمال في هذه الدنيا، ولكن الناس مع ذلك متشبثون بهذه الحبال، ولا ينظرون إلى من تخطف المنايا من حولهم مـــن إخوانهم وخلانهم وأقاربهم وعشـــائرهم، كل ذلك بسبب الرغبة الملحة في الدار الدنيا، والتعلق بها إنما هو تعلق بأوهام.

شـر الغرور سـكون ذي بصر ... إلى عيش تمزقه يد الأخطار
عبر تلونها الصـروف وأنفس ... تفنـى وآثـار علـى آثـار
هـل زاد عيشـك ذرة عن هذه ... لو كنت في الدنيا على استبصار
هلا اعتبرت ففي حياتك عبرة ... ممـا تصرفه يـد المقدار
لا تستمر لك السـلامة لمحة ... وغوائل الأيام في اسـتمرار
ما بالنا نبكي الفقيد ونحن من ... حب الـذي أرداه في استهتار
شغف النفوس بما يراقبه الفنا ... أثـر الهوى ومحبـة الأوطار
جسر المنون أمام وجهك عابر ... ولسـوف تعبره مع السـفار
شـمر لتعبره مخفا سـالما ... من ثقل ما أوقـرت من أوزار
ليس العظـات بما يقول مذكر ... مثل العظـات بمصرع الأعمار
كم للمنون لـو اعتبرنا من يد ... في سـلبها الأرواح بالتذكار
ما الحزم ألفتنا لمقصود الردى ... يغتال في الإيـراد والإصـدار
أترى يجـد البين فينـا هـازلا ... ويريحنـا بمصـارع الأخيـار
كلا ولكـن الحيـاة بهيمة ... تجـري عليها مديـة الجزار
مزمومة نيـر القضـاء يقودها ... مربوبـة لمشـيئة المختـار
كتـب البقاء لنفسـه مسـتأثرا ... بإماتـة الأحيـاء والإنشـار
وإذا اعتبرت حياتك الدنيا تجد ... أن الحيـاة مظنـة الإعـذار
ما بين معركـة وأخرى يبتغي ... أمـلا لباقيـة ذوو الأبصـار
لو كان يشـترط البقاء لغادرت ... غيـل المنيـة أنفـس الأبرار

هذا هو شـأن هذه الحيـاة فهي مجرد ظـل زائل وخيـال عابر، يصبح الإنسان على ظهر الأرض ويمسي في بطنها، فرب غاد غير رائح ورائح غير غاد، وهكذا تتخـرم المنايا أعمار الناس باسـتمرار، فإيمانهـم بالموت هو

الإيمان الحق الذي يجعلهم يكيفون حياتهم حسب هذا الإيمان بحيث يتزودون من هذه الدار للدار الآخرة، فرحم الله امرءًا تزود من يومه لغده، ومن حاضره لمستقبله، ومن حياته لموته، ومن شبابه لهرمه، ومن صحته لسقمه ومن دنياه لآخرته، فالكيس ـ كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أعطى نفسه هواها وتمنى على الله الأماني[1]، وقد سمى الله ـ سبحانه ـ هذه الحياة «متاعا» والمتاع الشيء القليل الذي يستمتع به، وقد أضاف الله ـ تعالى ـ هذا المتاع إلى الغرور في قوله ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ونفس كلمة المتاع تدل على سرعة انقضاء هذا الاستمتاع بهذه الحياة التي سماها الله ـ تعالى ـ بهذه الاسم، فإن المتاع هو كل ما يستمتع به من مجالسة المحبوب أو النظر أو الارتياح إليه أو قضاء وطر منه، فقد روي أن سليمان بن عبد الملك وقف على قبر ولد له صغير بعدما دفن وقال:

وقفت على قبر غريب بقفرة ... متاع قليل من حبيب مفارق

هذا، وحقيقة الموت لا يمكننا أن نتصورها فنحن نؤمن أن الموت الذي يعقب الحياة هو من خلق الله ـ سبحانه ـ لقوله ـ تعالى ـ:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢]، وإنما أثر الموت أن تتوقف حركات الجسم ويفقد الإحساس الطبيعي فيه ويعود الجسم جثة هامدة لا تتلاحم خلاياه، كما كانت تتلاحم من قبل من أثر الحياة، والحياة نفسها سر من أسرار الله ـ سبحانه ـ وهي تكون بنفخة الروح في الجسم، ولكن أثر هذه النفخة يتلاشى بحلول الموت بمشيئة الله ـ سبحانه ـ، فنحن لا نستطيع أن نفسر الموت تفسيرا ماديا كما ذهب إليه الأطباء وقد وافقهم جماعة من

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٤٧).

المفسرين فقالوا: إن الموت هو اختلال حركة هذا الجسم اختلالا يؤدي إلى وقوف نبضات القلب وتعطل الدورة الدموية ويؤدي أيضاً إلى عدم تلاحم الخلايا كما هو معهود في الحياة، وهذا الذي ذكروه أثر من آثار الموت وأما الموت نفسه فهو أمر غامض لأن الله ـ سبحانه ـ هو الذي يتوفى الأنفس، وقد بين عز وجل أن هذه الوفاة تكون بمشيئته وبحكمته وإرادته وقدرته، بواسطة ملك من الملائكة يقدره الله ـ تعالى ـ على ذلك، ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١]، ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال: ٥٠]، ويقول في المؤمنين: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ﴾ [النحل: ٣٢] والموت يكون بقبض الروح، والروح سر من أسرار الله ـ تعالى ـ أودعه في هذا الجسم فلا يدري الإنسان حقيقته.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، فقول جماعة من المفسرين: إن الروح لم يخبر عنها في ذلك الوقت لعدم احتمال قوى الناس العلمية معرفتها ولكن حقيقتها تكشف بواسطة الاكتشافات العلمية إلى آخر ما قالوه، كلام مرفوض، فإن الله سبحانه وتعالى أخبر عن الحقائق الغيبية التي لم يكن الناس يتصورونها آنذاك، فقد أخبر عن البعث الذي لم يكن المشركون يتصورونه بل كانوا يجحدونه وكانوا يعدونه من الخرافات التي لا تقبل، فهم أيسوا من الدار الآخرة لأنهم يعتبرون أن هذه الدار هي كل شيء ومتعتها هي متعة الحياة كلها فلا متعة بعدها، ولا وجود بعدها، ومع ذلك فإن الله ـ تعالى ـ ضرب لهم الأمثال وأقام عليهم الحجج وأحالهم على ما سبق من خلقه إياهم ليعرفوا من خلال ذلك قدرته ـ سبحانه ـ على إعادتهم مرة أخرى، وقد أخبر تعالى عن الجنة وما فيها من نعيم وأخبر عن النار وما فيها من عذاب، وأخبر عن التخاطب الذي يقع بين

أهل الجنة وأهل النار مع بُعد ما بين الدارين والناس في ذلك الوقت ما كانوا يألفون شيئا من هذه الأمور، هذا مع احتواء القرآن من حيث الإشارات التي فيه على عجائب صنع الإنسان وعجائب تكوين هذا الخلق بأسره ووجود آيات تكاد تكون صريحة في بيان حقائق غيبية لم تكن تتصور آنذاك، فكيف يقال إن الروح رد الله ـ تبارك وتعالى كشف حقيقتها إلى ما بعد نزول القرآن ليتم هذا الكشف بواسطة الاكتشافات العلمية، ولم يحدث عنها في ذلك الوقت بسبب أن قوى الناس العلمية وطاقاتهم الفكرية ما كانت تحتمل هذه الحقيقة، هذا كلام مرفوض من أساسه فحقيقة الروح وقبض الملك الموكل بقبضها لها وكيفية الانتقال وأين تكون هذه الروح من بعد ذلك شيء نعجز عنه وإنما جاءت هناك روايات عن الرسول ﷺ أن أرواح المؤمنين في حواصل طير خضر ترعى في الجنة وهذه الروايات تحتمل معاني، فهي تحتمل أن تكون نفس تلك الأرواح متشكلة في صورة طيور خضر وتحتمل أن تكون تلكم الأرواح في طيور خضر، فالله أعلم بها، ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وإنما علينا أن نؤمن بما أخبر الله ـ تبارك وتعالى به، من أن ملك الموت يتوفى هذه الأنفس وهو الذي يقبض هذه الأرواح، ويظهر أثر ذلك كما ذُكر في تعطل وظائف الجسم من دماغ وقلب وكبد ورئتين، ثم بعد ذلك الانتقال إلى البرزخ، وقد أشارت الآيات إلى وجود ما يمكن أن يسمى حياة في البرزخ، ولكن هذه الحياة تختلف عن الحياة التي نحياها الآن، حياة يمكن أن يحس معها من كان في البرزخ إما بنعيم إن كان من أهل السعادة، وإما بعذاب إن كان ـ والعياذ بالله من أهل الشقاوة، وقد جاء في الأحاديث عن الرسول ﷺ الأمر بالاستعاذة من عذاب القبر وجاءت الروايات أيضاً بالإخبار عن سؤال الملكين للميت في قبره، وجاءت في عذاب القبر روايات استفاضت حتى قال بعض العلماء

إنها متواترة تواترا معنويا، وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في مثل قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]، فإن هذا العرض كما قال العلماء المفسرون هو عرض في البرزخ، قبل أن تقوم الساعة، وهل هذا العرض على الأجسام والأرواح أو على الأجسام فقط، أو على الأرواح فقط، أو هناك صلة بين الأجسام والأرواح، وإن كانت هذه الأرواح انفصلت عن الأجسام إذ لا يبعد أن تكون لها صلة وتأثير على هذه الأجسام بقدر ما تحس هذه الأجسام إما بالنعيم وإما بالعذاب ذلك كله أمر غيبي نكله إلى الله ﷻ، وإنما على المؤمن الذي آمن إيمانا عميقا بالموت فما بعده أن يتزود من هذا الإيمان ما يقوي عزيمته على الخير، فالإنسان يعيش في رحاب هذه الحياة عيشة النعيم يتقلب فيها من نعمة إلى أخرى ويتنقل حيثما يريد، ثم بعد ذلك ينتقل إلى مكان ضيق إلى حفرة محدودة المساحة طولا وعرضا بقدر ما يتسع طولها وعرضها لطول جسمه وعرضه فجدير به ألا يغتر بمتع هذه الحياة وألا يركن إليها وأن يتزود منها ما ينفعه في ذلك الوقت.

وإن الذي لا يدري متى يفجؤه المنون في ليله أو في نهاره في نومه أو يقظته، في سفره أو في حضره في آنه ذاك أو في مستقبله وهل هو في المستقبل البعيد أو في المستقبل القريب، جدير بأن يكون في كل لحظة من لحظاته مستعدا للقاء الله، وأن يعد هذه الأنفاس التي تتساقط منه خطواته إلى تلك الدار الآخرة، فإن كل نفس يتنفسه لا يمكن أن يعود إليه أبدا، وعليه أن يحاسب نفسه وأن يجعل نفسه في كل لحظة من لحظاته أقرب إلى الله ـ تعالى ـ بالطاعة وبحسن العمل منه في اللحظات السابقة، هذا ما يستفيده الإنسان المؤمن من إيمانه بالموت ومن إيمانه بالقبر، وبنعيمه وبعذابه، بخلاف أصحاب الشهوات الذين جعلوا الدنيا فرصة للتسابق في مضمارها

وإحراز أكبر قدر منها فإن هؤلاء يرون أن متعة هذه الحياة هي كل شيء ولذلك لا يعملون لما بعدها من الحياة الآخرة، فنسأل الله ﷻ العفو والعافية.

الله ﷻ يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] إذاً فما حجة الذين يقولون بعدم موت الخضر؟

أنا أطالب أيضاً بهذه الحجة لأني لا أدري ما هي الحجة التي تدل على ذلك وإلى أي شيء استندوا. وهذه الأمور الغيبية يجب أن يستند فيها إلى الأدلة القطعية لا إلى الروايات الآحادية، فكيف إذا كانت هذه الروايات لا تخلو من مقال؟ فما علينا إلّا أن نكل الأمر في ذلك إلى الله ﷻ، ونؤمن بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ والله أعلم.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] هل يعني أن النائم يموت حتى يستقيظ؟

النوم أخو الموت، والله ﷻ يمسك روح النائم إلى أن يستيقظ من غير أن تفارق الجسد وإنما يمسكها الله ﷻ كما شاء والله أعلم.

ذكرتم أن المقتول ميت لأجله فما مدى علم الإنسان بهذا الأجل؟ أقصد إذا كان القاتل يريد تنفيذ حكم الإعدام على هذا الشخص خصوصا عندما يحدد السنة والشهر واليوم والساعة بل قد يحدد الدقيقة والثانية؟

ذلك لا يعني أنه يعلم أجله، فكم من أحد يؤتى به ليقتل ويوقف لينفذ فيه حكم الإعدام ولكن الله سبحانه يتداركه فينجو من الموت وقد لقيت بنفسي رجلاً أخذ للإعدام ظلماً مع جماعة من المواطنين الجزائريين، وذلك إبان الاستعمار الفرنسي وقد أطلقت العيارات النارية على أكثرهم وترك

منهم القليل فنجوا وكان هو من بينهم، ولا يزال حياً مع أنه مضى على هذا الحدث نحو خمسين عاماً أو أكثر. وذكر الإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تحفة الأعيان أن رجلاً من أهل عمان أخذه أحد جبابرتها ليقتله بالسيف فاستجار به الرجل مرتين فلم يجره ولمّا حمل عليه الثالثة استجار بالله فسقط السيف من يد الضارب وخرَّ ميتاً ونجّى الله الرجل فعاش بعد الجبار عمراً والله المستعان.

كيف نوفق بين قوله تعالى في الآيات التالية:

قال تعالى: ـ ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة: ١١] **وقوله:** ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]، **وقوله:** ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [الأنفال: ٥٠]؟

علينا أن نعلم أن نسبة الإثبات والنفي تكون تارة حقيقية وأخرى مجازية، فالله يقول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]، فأول الآية فيه نفي الرمي عن الرسول ﷺ ووسطها فيه إثبات الرمي له، وفي آخرها إسناد الرمي إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فلو أخذنا بظاهر اللفظ من غير أن نفرق بين ما أُريد به هنا وما أريد به هناك لقلنا بالتناقض، ولكن المراد بقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ أي: ما سددت الرمي حينما رميت، ولكن الله هو الذي سدَّد الرمي، وكذلك التوفي فالمُتوفي في الحقيقة هو الله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق هؤلاء الملائكة وأعطاهم من التمكين ما يقبضون به أرواح الناس، فهم صاروا بحكم مباشرتهم لقبض الروح مُتوفِين. وإلا فالمتوفِي الحقيقي هو الله عَزَّ وَجَلَّ، وقد جعل الله لملك الموت أعواناً من الملائكة. فلذلك قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ فهؤلاء الملائكة هم أعوان لملك الموت، والله أعلم.

هل يشعر الإنسان بدنو أجله وإذا كان كذلك ألا يتنافى ذلك مع علم الغيب؟

لعله يرى رؤيا منامية تدل على ذلك والله أعلم.

نعيم القبر وعذابه

ما القول في عذاب القبر وقول الإمام الربيع فيه ؟

الإمام الربيع كغيره من أئمة السلف يثبتون عذاب القبر، وهو المروي عن الصحابة والتابعين، وهناك إشارات من القرآن الكريم تدل على ذلك فإن الله تعالى يقول: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]، في هذه الآية إشارة إلى عذاب القبر، وهناك إشارات متعددة من آيات أخرى بجانب الأحاديث الكثيرة التي قالوا بأنها متواترة المعنى وهي تدل على أن الكافر والفاسق يعذبان في قبريهما والعياذ بالله.

هل عذاب القبر يكفر للمسلم سيئاته في الدنيا ليدخل الجنة طاهرا ؟

الله أعلم. وإنما جاءت روايات تدل على أن شدة نزع الروح أحيانا تكون تكفيرا للإنسان، فقد تكون ميتة شديدة على الصالح لأجل تكفير خطاياه وأما هل يعذب المؤمن في القبر شيئاً لتكفير خطاياه؟ فإن ذلك لا نعلمه إذ لم تنص عليه الآيات القرآنية ولا الأحاديث النبوية ولا تدل على ذلك بل تدل على أن الصالحين ينعّمون في قبورهم والله أعلم.

روي أن النبي ﷺ كان يحدث أصحابه عن قادة مؤتة حيث كان يقول إنه رآهم في مواضع في الجنة، فهل هذا من قبيل الجزاء في القبر أم أنهم حقا في الجنة ؟

هم من الشهداء فيحتمل أن يكون معناه بأن أرواحهم في الجنة مثلت

لرسول الله ﷺ فرآها ويحتمل أن يكون النبي ﷺ رأى ما يدل على سعادتهم وأنهم في الجنة. والنبي ﷺ قد أطلعه الله تعالى على مصير بعض أهل السعادة أو الشقاوة كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه عدد كبير من أئمة الحديث عن أبي هريرة قال: «سافرنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر فلم نغنم ذهبا ولا فضة إلا الأموال والمتاع فأهدى رجل من بني الضبيب يسمى رفاعة إلى رسول الله ﷺ غلاما أسود يسمى مدعما فوجه النبي ﷺ نحو وادي القرى فبينما مدعم يحط رحال رسول الله ﷺ إذ جاء سهم غرب فأصابه فقال الناس: هنيئا له الجنة. فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها من المغانم يوم خيبر لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا»[1]، وهذا أيضاً من أدلة عذاب القبر وظاهر الحديث أن نفس الشملة صارت نارا تشتعل عليه، لكن الحقيقة أن الشملة ليست هي المشتعلة بذاتها وإنما المراد أن الله جعلها سبباً لإيقاد النار وإحساسه بعذابها والعياذ بالله والله أعلم.

السائل يسأل عن «السين» في قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٠١] هل هي للاستقبال؟ وإذا كانت للاستقبال فهل يحتمل أن يكون عذابه في الحياة الأخروية؟

هذا وعيد نزل في ناس كانوا فى عهد رسول الله ﷺ يكذبون وكانوا آنذاك أحياء وقد توعدهم الله ﷻ بهذا الوعيد بأنه سينزل بهم عذابا مرتين ثم يردون بعد ذلك إلى عذاب عظيم والله أعلم.

روي عن رسول الله ﷺ أنه وقف على قبرين وقال: «هذان يعذبان في قبريهما وما يعذبان في كبير أما الأول فكان لا يستبرئ من بوله، وأما

(١) رواه الربيع (٤٧٠) والبخاري (٣٩٩٣) ومسلم (٣٢٥).

الآخر فكان يسعى بين الناس بالنميمة»[1]، ألا يستشهد بهذا الحديث على عذاب القبر؟ وهل عدم الاستجمار من البول يورث عذاب القبر؟

نعم، لأن الاستبراء من البول واجب، ومن لم يستبرئ أدى ذلك إلى عذابه في القبر والعياذ بالله والله أعلم.

إذا مات ميت حرقا بالنار وانتهت جثته رمادا فهل تعاد جثته لمقابلة الملكين أم ماذا يكون حكمه؟

إذا مات الميت وتحول رمادا فإن الله الذي هو قادر على أن يجعل الإنسان المخلوق من تراب يحس ويسمع ويبصر ويعقل، قادر على أن يجعله في حالة كونه رمادا يجيب على الأسئلة ويحس بالنعيم أو العذاب، والله أعلم.

كيف يكون حال من يموت غرقاً أو حرقاً أو من تشتت أجزاؤه حول سؤال الملكين وما بعده من عذاب أو نعيم؟

الله تعالى قادر على أن يجعل في هذه الأشلاء الممزعة والأوصال المقطعة حياة لا نعرف كنهها، بحيث تتمكن هذه الأوصال من الإجابة على هذا السؤال، أو أن الروح هي التي تتولى الإجابة، ونحن نؤمن أن الله قادر على كل ذلك، ونكل علم ذلك إليه سبحانه والله أعلم.

ما صحة الحديث المروي عن رسول الله ﷺ عن ضمة القبر، وأنه لو نجا منه أحد لنجا سعد بن معاذ؟

الحديث الذي ورد بذلك هو عند الربيع مروي عن طريق ابن عباس

(١) رواه الربيع (٤٨٧) والبخاري (٢١٥).

بغير إسناد[1] وهو في بعض نسخ المسند موقوف على ابن عباس ﵄، وهَبهُ حديثاً صحيحاً ثبت رفعه بإسناد صحيح فإنه لا يعدو أن يكون آحادياً، وقد قلت غير مرة بأن الحديث الآحادي يترتب عليه وجوب العمل لا وجوب الاعتقاد، وذلك لأجل الاحتمالات المتعددة التي تطرقه، فمن المحتمل أن يكون أحد الرواة ـ ولو كان ثقة أميناً ـ سَهَا ونقل خلاف ما سَمِعَه، ومن العلماء من قال في معنى الحديث بأن ضمة القبر للمؤمن إنما هي ضمة شفقة وحنان كضمة الأم لولدها، ونحن نسلم الأمر لله تعالى وحده ونقف عما ليس لنا به علم، والله أعلم.

هل مسألة عذاب القبر من المسائل العقدية؟

هي قضية عقدية ليست من الأمور العملية، ولكننا مع ذلك لا نفسق من أنكره إن تمسك بما يتأوله أو خالف في ذلك ما لم يعتقد أو يقل بتكذيب الرسول ﷺ، والله أعلم.

هل صحيح أن الميت يعذب في قبره ببكاء أهله عليه؟

رُوي ذلك عن عبد الله بن عمر ﵁ ولما بلغ ذلك أم المؤمنين عائشة ﵂ أنكرته، وقالت: يغفر الله لأبي عبد الرحمٰن أما إنه لم يكذب ولكنه نسي أو أخطأ إنما مر رسول الله ﷺ على يهودية يبكى عليها فقال «إنهم ليبكون عليها وإنها لتعذب في قبرها»، ثم عزت عائشة ﵂ إنكارها بقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2]، ولكن الذين عوّلوا على هذه الرواية، قالوا: بأن الرواية تحمل على أن الميت يعذب ببكاء أهله إن كان يقر

(١) رواه الربيع (٨١٣).
(٢) رواه الربيع (٤٨٣) والبخاري (١٢٢٧) ومسلم (٢١٩٩).

ذلك البكاء ويأمر به في حياته لينعى ويُبْكى بعد موته، كما هي عادة أهل الجاهلية، كما قال قائلهم:

فَإِن مُتُّ فَانعيني بِما أَنا أَهلُهُ وَشُقّي عَلَيَّ الجَيبَ يا ابنَةَ مَعبَدِ

وكما يقول آخر آمر ابنتيه أن تبكيا عليه حولاً كاملاً

إِلى الحَولِ ثُمَ اسمُ السَلامِ عَلَيكُما وَمَن يَبكِ حَولاً كامِلاً فَقَد اِعتَذَر

فيحمل الحديث ـ إن ثبت أن النبي ﷺ قاله على هذا المعنى، وليس هنالك لبس كما قالت عائشة رضي الله عنها، فلا ريب أنه إن أقر الإنسان بكاء أهله عليه وأوصاهم به فهو موص بمعصية، والموصي بمعصية عاص والعاصي يعذب والله أعلم.

هل يلحق عذاب القبر الأمم السابقة ؟

ولماذا لا يلحقهم؟! فإن الأمم السابقة أيضاً مخاطبة ومكلفة، فهم مثابون ومعذبون. فآل فرعون الذين قال الله سبحانه تعالى فيهم ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ﴾ [غافر: ٤٦] هم من الأمم السابقة وهذا ما أخبر الله به عنهم والله أعلم.

أرجو بيان كيفية عذاب القبر، هل تعذب الروح والجسد أم الروح ؟ وأين تكون أرواح الكفار والمجرمين عندما تغادر الجسد ؟

الله أعلم بذلك، وهو على كل شيء قدير، ومن جعل الإحساس في الجسد والروح إذا اجتمعا، قادر بأن يجعله في أحدهما إذا افترقا، والله أعلم.

هل في القبر عذاب، وهل يوجد للإنسان الذي قال: لا إلٰه إلّا الله محمد رسول الله عذاب ؟

عذاب القبر ثبت من طرق متعددة عن النبي ﷺ، حتى قيل: إنها بلغت مبلغ التواتر المعنوي، وقد أشارت إليه آيات قرآنية كقوله تعالى ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]، لذلك ذهب جمهور الأمة إلى اعتقاده، وقد دلت الروايات على أنّ كل شقي يعذب في قبره ولو كان موحداً، إن لم يكن موفياً بمقتضيات توحيده، والله أعلم.

قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] هم: «جبريل واسرافيل وميكائيل وعزرائيل أو هم حملة العرش وقيل هم رضوان والحور أو هم مالك وخازن النار والزبانية أو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ»[١].

بما أن النفخة الأولى خاصة بالأقوام الذين سيعاصرونها فقط، وبما أن ملائكة القبر (منكر ونكير) سيكونون ممن تشملهم تلك الصاعقة، فهل ستسأل تلك الأقوام سؤال القبر، وهل سيصيبها من عذاب القبر شيء؟ إن كان الجواب بنعم، فمن سيقوم بسؤالها؟

سؤال منكر ونكير مما اشتهرت به الروايات، ولم تبلغ حدّ التواتر، ولكن تلقيت بالقبول، ولعلها أقبل عليها الجمهور لما فيها من الوعظ والتخويف، وربما كان السؤال خاصاً بحيث لا يسأل بعض الموتى، ولعل أولئك منهم والله أعلم.

(١) كتاب التفسير للعلامة (محمد أطفيش) الجزء (١١) ص ٣٠٠، كما ذكر نفس التفسير في كتب التفسير الأخرى.

الحياة البرزخية

كَثُرَ الكلام حول شريطٍ صوتي يتحدّث عن حفريات «سيبيريا» وعذاب القبر حيث تم تسجيل أصوات مِن أعماق الأرض فعندما حُوِّلت لذبذبات تستطيع الأذن سماعها سمعوا أصواتا آدمية تصرخ مِن شدّة العذاب، فما رأيكم في هذا الخبر؟

إنّ المؤمن عليه أن يكون مؤمنا بما وراء هذا العالَم المحسوس المشَاهد، فهناك عالَم الغَيْب، ونَحن هنا في عالَم الشهادة فنُؤمن بأنّ وراء هذا العالَم الذي نشاهده ونُحِسُّ به عالَما آخَر، إذ وراء عالَم الأجسام عالَم الأرواح ووراء العالَم الظاهر عالَم خفي.

ونُؤمن بأنّ اطلاع الإنسان على أحوال ذلك العالَم موقوف على النص الشرعي، فلا يُمكن للإنسان لا بعقله ولا بتجربته أن يطَّلع على أحوال ذلك العالَم، ولذلك كان الإيمان بالغيب طريق أهل الإيمان والحق الذين يؤمنون بعالَم الغيب بل يؤمنون بكل ما جاء به الشَّرْع، لأنَّهم آمنوا بأنّ الشرع إنَّما تُلُقِّي مِن قِبَل أمين الأرض وهو تلقاه مِن قِبَل أَمِين السماء وقد تلَقَّاه عن الله تعالى.

فنؤمن بكل ما أخبَرنا به الشرع من أنّ هذه الحياة تَليها حياة أخرى، وأنّ هذه الحياة ليست نِهاية كل شيء، وأنّ الراحة والسعادة فيها ليست هي السَّعادة المنشودة، إذ وراءها سعادة أخرى لأهل العمل الصالِح، ونؤمن أنّ ما يُكَابِدُه الإنسان مِن مَشَاق وَصِعَاب في هذه الحياة ليس أقصى ما يكون مِن الصعوبة والمشقة والعنت، وإنَّما وراء ذلك عنت ومشقة وعذاب شديد لِمَن أعرض عن ذِكْر الله، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾

قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٧]، فالإنسان عليه أن يكون مؤمنا بذلك، وبِهَذا يستطيع أن يُسَيْطر على نَزَغَاته ونزعاته ويوجّه حياته في الطريق السليم الذي يؤدي إلى سلامة الدنيا وإلى سعادة العُقبى، وبِهذا يُمكن أن يُوَازِن بين جوانبه الـمُتعَدِّدة.

ولكن مع إيمانِنا بِهذا كُلِّه فإننا إنَّما نتَلَقَّى هذه الحقائق مِن عالِم الغيب والشهادة من وحي الرَّحمن الرَّحيم، ولا يُمكن أن نكون عاطفيين نندفع وراء جَميع التيَّارات ونسمع كلَّ ما يُلقى إلينا مِن هنا وهناك، فعلينا أن نَتَبَصَّر في هذه الأمور.

هذا ونَحن لا ننكر أنّ الله تعالى يُعذب الكفرة الفَجَرَة بعذابه بعد أن ينتقلوا مِن هذه الدار الدنيا بوفاتِهم، فالله ـ تعالى ـ يقول في فرعون وآله: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]، فهم يُعرضون على النار بالغُدُوِّ والعَشي وهم في البَرْزَخ، والله ـ تعالى ـ قادر على أن يعذبَهم في البرزخ كما أنَّه قادر على أن يعذبَهُم في الدنيا والآخرة، إذ قدرة الله ـ تعالى ـ لا تُحَد.

ونَحن توصلنا إلى ما توصلنا إليه مِن فهم طبيعة المشقة والعنت والعذاب الذي يُقَاسِيه الإنسان في هذه الدنيا مِن خلال مُمَارَسَتِنَا لِهذه الحياة وتَجربتنا فيها، ولكن لا يُمكن أن نُحدد كيفية العذاب يوم القيامة أو في البرزخ، فذلك أمر خارج عمَّا هو معهود عندنا.

ولا ننكر أن يهيئ الله تعالى أسبابا للتَّوَصُّل إلى إدراك شيء مِمّا يدور هناك مِن خلال كشف الله بعض الحقائق لبعض الناس، فذلك أمر راجع إلى الله، ولكن لا يعني هذا أننا نندفع وَرَاء تصديق كل ما يُلْقَى إلينا.

فحسب ما سَمِعتُ أنّ هذه الحفريات وصلت إلى مكان بَالِغِ الحرارة، بِحيث إنّ الحرارة هنالك تصل إلى قدر ثلث حرارة سطح الشمس، فهل يُمكن لآلات التسجيل أن تصل إلى ذلك المكان وتبقى مِن غير أن تذوب ؟!.

ثم مع ذلك أين هؤلاء الثقات الأمناء الذين سجلوا هذه الأصوات فنقلوها إلينا ؟!

ومما يؤسف له أن نرى كثيراً من الناس يندفعون وراء كل ما يَتَصَوَّرونه أو يَتَرَاءَوْنَه لأجل أن يثبتوا إعجاز كتاب الله ـ تعالى ـ وإعجاز دِينِ الله تعالى، وهم مشكورون على هذه العاطفة الإيمانية ولكن لا يعني ذلك أنهم مُبَرَّؤون مِن الخطأِ بسبب هذا الاندفاع، فقبل فترة عندما حدثت الأحداث التي عُرفت بـ«أحداث سبتمبر» قال كثير مِن الناس بأنّ هذه الأحداث مشار إليها في كتاب الله ـ تعالى ـ في قوله: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٠] مِن أين لهم أنّ المراد بـ«البنيان» العمارات التي اشتعلت فيها النار وذابت، فهذا مِن محاولة حمل كتاب الله تعالى على معانيَ لا يمكن أن يتحمّلها ولا يمكن أن يَنسجِم معها، فلذلك يَجِب التحفظ في ذلك.

فأنا لا أستطيع أن أُنكِر بأنّ هذه الأصوات أصوات المعذَّبين كما أنني لا أستطيع أن أُثبِت ذلك فالإثبات والإنكار يَتوقّفان على الدليل، ولكن أقول بأنّ الواجب على المسلم ألّا يَندفِع، لأنه لو بنى عقيدته ودعوته على هذا وحاول أن يَجعل مِن ذلك حُجّة على صِحّة الإسلام ثم انكشف بعد ذلك أنّ هذا الأمر مِن افتراءات بعض الناس أو مِن تلبيسات مَن أراد أن يُلبِّس على الناس الحقيقة فسوف يُفهَم أنّ الإسلام مجرّد تلبيس وأوهام وخرافات، وهذا مِمّا يَجِب أن نُبعِد عنه ساحةَ الإسلام.

ونحن نرى أنّ الله تعالى في كل دقيقة وجليلة عندما يتحدّى القوم

المشركين يَردّهم إلى كتاب الله فعندما طلبوا الآيات ردّهم تعالى إلى كتابه العزيز، فقد قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣]، وقال: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١]، ردّهم إلى هذا الكتاب الكريم الذي فيه آياتٌ بيّنات دالّة على صِدق النبوة، وتُحُدِّيَ بِهذا الكتاب مَن تُحُدِّيْ فعَجزَ عن الإتيان بِمثلِه أو بسورةٍ مِن مثلِه أو بعشرِ سورٍ مِن مثلِه، ولا يزال هذا التحدي قائما، وتتجلّى آيات الكتاب بين حين وآخَر، وتبرُز دلائله وحُجَجُه مِن خلال الاكتشافات العلمية وغيرها ولكن مع هذا كلِّه فإننا يَجِب علينا أن نكون موضوعيين لا أن نكون عاطفيين نَندفِع وراء العواطف ونصدق كل ما يقال مما يراد به الموعظة أو تقوية جانب الإيمان.

فنحن نؤمن بأنّ الله على كل شيء قدير، ونؤمن بأنّ الله ـ سبحانه ـ يُعذّب أعداءه ويُكرِم أولياءَه ولكن ذلك عالَم آخَر غير هذا العالَم الذي نحن فيه، والله المستعان.

بعد معركة بدر كلم الرسول ﷺ قتلى كفار قريش ولما سأله أصحابه رضي الله عنهم عن ذلك كان جوابه عليه السلام: «ما أنتم بأسمع منهم[1]» فكيف يسمع الميت وهو مفارق للحياة؟

الله قادر على كل شيء فلعل الله سبحانه وتعالى أراد لأولئك بصفة خاصة أن يسمعوا هذا الصوت من النبي ﷺ، وقد أحيا الله الموتى لعيسى عليه السلام وأحيا الرجل الذي أماته مائة عام، فالله قادر على كل شيء فلا يمكن أن نقول بتعذر ذلك أما الكيفية التي تم بها ذلك فالله وحده هو الذي يعلمها، والله أعلم.

(١) روى نحوه البخاري رقم ١٣٠٤.

ذكرتم من قبل أن بعض ذرات الغبار كانت بعض أجزاء الأجداد، ومن المعلوم أن الشجر يستفيد من هذه الذرات، فقد تكون بعض الذرات مشتركة بين بعض الأجساد فلمن تكون مع علمنا أن الله على كل شيء قدير.

ليس نفس تلك الذرة تكون في الجسم وإنما العنصر، إذ الجسد يستمد من الجسد أيضاً فجسد الولد يستمد من جسد الوالد، لأن الخلية التي تكون منها الولد استمدت من كل العناصر الموجودة في جسم الأب وكذلك الأم وهذا لا يعني أن تلك الذرات تكون مشتركة أو أن الخلايا تكون مشتركة، والله أعلم.

ما معنى أن الميت يتأذى بجاره السيء؟

قد يجعل الله سبحانه وتعالى في الحياة البرزخية تأثراً جزئياً كما يجعله في الحياة الدنيا، ودلت على هذه الأشياء أمور منامية، ولكن كما قلنا أن المنامات لا يمكن أن نقطع بها، فقد روي عن أحد الصالحين أنه رئي في المنام وقد دفن بجوار بعض الظلمة فلما أبصره الرائي في منامه قال له كيف حالك؟، قال له: إنني بخير والحمد لله إلا أن الرائحة الكريهة تأتيني من هذا الكنيف أي (المرحاض) والعياذ بالله من الشر، وفسرها الرائي بأنه يشير إلى الجار السيء، فقد تكون هناك تأثيرات جزئية بحيث يتأذى الميت من تعذيب جاره والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: ٥٢] في هذه الآية الكريمة شبه الله سبحانه وتعالى الكفار بالموتى في عدم استجابتهم للإسلام، فهل يصح أن يستدل بهذه الآية الكريمة على عدم سماع أهل القبور من يناديهم؟ وما درجة صحة الأحاديث المروية في سماعهم لمن يكلمهم كقوله ﷺ «ما أنتم بأسمع منهم».

نعم روي عن النبي ﷺ أنه قال بعدما ألقي صناديد قريش الذين قتلوا

في معركة بدر في القليب مخاطبا لهم: «يا أهــل القليب لقد وجدت ما وعدني ربي حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟» فتعجب منه الصحابه رضــوان الله عليهم كيــف يخاطبهم، فقال: «مــا أنتم بأســمع منهم»[١]، فيحتمل أن يكــون الله ﷻ جعل في أولئك الكفار خاصة في تلك الحالة بالذات قدرة على السماع فســمعوا قول النبي ﷺ ليكون ذلك أنكى لهم والله أعلم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦] فما المقصود باللبث في هذه الآية هل لبثتم في القبور أم في هذه الدنيا الفانية؟

ظاهر اللبث «إلى يوم البعث» إنما هو في القبور وعليه فهو الذي يعتمد ويعول عليه، والله أعلم.

من المعلوم أن النبي ﷺ ميت؛ فكيف يسلم الناس عليه في موسم الحج ويحملون سلاما من الناس فهل يرد النبي ﷺ على الرغم أنه متوفى أم أن الروح ترد؟

جاء فــي الروايات عن النبي ﷺ أنه ما من أحد يســلم عليــه إلا ردّ الله تعالــى عليه روحه فيرد الســلام[٢]؛ وجــاء في روايات أخــرى أن ملكاً من الملائكة موكل برد الســلام وكلا الأمرين محتمل ونكل علم ذلك إلى الله، وهذا لا يتوقف على موسم الحج فقط، والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري (١٣٠٤).

(٢) رواه أبو داود (٢٠٤٣).

ما القول فيما يحصل للميت من أنه يرى مقعده في الجنة والنار فإن كان سعيداً يقال له: انظر شمالك فيرى مقعده من النار، فيقال له: لو كنت عصيت الله فذاك مكانك من النار ولكن بما أنك اتبعت أوامر الله ولم تعصه فانظر إلى يمينك فيرى مقعده في الجنة وهكذا الشقي[١].

هذه روايات جاءت عن الرسول ﷺ وجاءت الروايات على أن الإنسان يفتح له باب إلى الجنة في قبره إن كان من أهل السعادة ويفتح له باب إلى النار ـ والعياذ بالله في قبره إن كان من أهل الشقاوة. لكن بما أنه من المحتمل أن يكون هذا تصويراً، بحيث تمثّل له الجنة والنار فإن هذا لا يدل بالقطع على أن الجنة والنار موجودتان الآن وإنما هو من مرجحات وجودهما والله على كل شيء قدير، والله أعلم.

كيف تكون حياة الشهداء في قبورهم ؟

عالم البرزخ عالم آخر، تختلف طبيعته عن طبيعة العالم الذي نعيش في أكنافه، فلا يمكننا أن نتحدث عن حياة هؤلاء الشهداء أو نتصورها، نعم جاء في روايات عن الرسول ﷺ أن أرواحهم في حواصل طير خضر تطير في الجنة وتأكل من ثمارها[٢]، وجاء أيضاً أن أرواح الشهداء طيور خضر، فالله أعلم هل المقصود بتلكم الحياة حياة الأرواح فقط، وبالرزق ذلكم الرزق الذي تستمد منه الأرواح، أو أن تلك الحياة حياة حقيقية في القبور أو في البرزخ لكننا نؤمن إيماناً جازماً بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، ويحتمل أيضاً أن تكون أجساد الشهداء لا تبلى، ففي مسقط قبل سنين اكتشف قبر قريب من القنصلية البريطانية ـ مقر السفارة الآن ـ، وظهر فيه إنسان كأنما هو حي نائم، وفيه طعنة وكان الدم

---

(١) روى نحوه الربيع (٤٨٤) والبخاري (١٣١٣) ومسلم (٧٣٩٠).

(٢) رواه الترمذي (١٧٤٢).

لا يزال يفور من تلك الطعنة، والظاهر أن ذلك شـهيد، وما أدرانا لعله استشهد في مقاومة البرتغال، وقد أخبرت أيضاً أن امرأة اكتشـف قبرها عندما كان أحد يحفر أرضاً فاكتشف قبراً فإذا هو قبر إمرأة، والكفن يتطاير من بلاه، ولكن جسم تلك المرأة لم يتغير وكأنما هي عروس، ولا تزال نضارة جسـمها كما هي بادية للعيان لم تتغير، ولا غرو في ذلك فإن الله على كل شيء قدير، والله أعلم.

هل صحيح أن كل أعضاء جسم الإنسان تتحلل وتصير تراباً ماعدا عجب الذنب؟

نعم: جاء في الحديث عن النبي ﷺ «كل ابن آدم تأكله التراب إلا عجب الذنب فمنه يركّب»[1]، وقد اختلفوا في تأويله فقال بعض العلماء: الاسـتثناء متصل، وعلى هذا فـإن عجب الذنب لا يبلى، ومنهم مـن قال: هو منقطع، فيكون المعنى: ولكن عجـب الذنب منه يركّب وبموجـب هذا المعنى هو يبلى كما يبلى سائر الجسم، والله أعلم.

سؤال عن تسـليم النبي ﷺ على الموتى بعد ما قبروا ودفنوا في الأرض، فهل الموتى يعلمون بصاحب الزيارة أو صاحب السلام الذي زارهم وسلم عليهم؟

يحتمل ذلـك، ويحتمل أن يكـون الموتى ينتفعون بهذا السـلام وبهذا الدعاء والله أعلم.

ما حكم نبش القبور القديمة التي مر عليهـا زمن طويل، وتحويلها إلى أرض صالحة للسكن وللمرافق العامة، كما هو حادث في كثير من بلاد الإسـلام وغيرها، أو نقل رفات الموتى من مكان دفنهم إلى مكان آخر، وذلك لإفساح المجال للقادمين من غيرهم؟

---

(١) رواه مسلم (٢٢٩٢).

ثبت من قول النبي ﷺ ما يدل على وجوب صـــون القبور من الانتهاك، وجاء التشديد في ذلك حتى أن النبي ﷺ قال ـ كما في حديث أبي هريرة عند مسلم وأبي داود وغيرهما ـ «لأن يقعد أحدكم على جمرة من نار فتحرق ثوبه حتى تفضي إلى جســـمه خير له من أن يجلس على قبر»[(١)] وناهيك أن يكون إحـــراق الجمرة للثوب حتى تفضي النار إلى الجســـم خيراً للإنســـان من أن يجلس على قبر تحذيراً من كل ما يمس القبر بسوء، فلا تنتهك حرمة القبور، وإنما ينبغي أن تكون دارســـة «فخير القبور دوارســـها»، فإذا درس القبر ولم يعلم أنه قبر، فما على الذي بنى عليه أو غرس فوقه من بأس، فهذه المساكن التي بنيت والناس يســـكنونها كم يكتشـــف بعد قرون أنها بنيت على قبور، كذلك تأتي الرياح وتذرو الرمال على هذه القبور وتغطيها حتى تكون طبقات من التراب فوقها ثم تكتشـــف القبور بعـــد قرون في أثنـــاء الحفر في عمق الأرض، أو تأتي الأمطار وتســـيل منهـــا الأودية فتلقي الأتربـــة على القبور، وتتعاقب أجيال بعد أجيـــال وهي لا تدري عن هذه القبور شـــيئاً، وأما كون النبي ﷺ اســـتأصل قبور موتى وبنى في مكانها مسجده الشريف، فذلك لأن أولئك الموتى هم من أهل الجاهلية ليست لهم حرمات المسلمين، والله أعلم.

ذكرتم في محاضرة أن الله قد يُسمع أنين الميت المخلوقات إلا الثقلين، فإذا كان المقصود بهذا الاســـتثناء الإنس والجن، فكيف ســـمع الرجلان أنين أحد الأموات كما ذكرتم في القصة ؟

الغالب في الثقلين عدم السماع، وإذا شاء الله سبحانه وتعالى إسماع من يشاء فذلك يقع كما أراد، أما النادر فلا حكم له، فالله تعالى إن شـــاء أسمع وإن شاء لم يسمع والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم (٩٧١).

ما رأيكم في الروايات التي يقولها الناس عن الأنوار المشاهدة على القبور، وعلى بعض الصالحين الأحياء؟

أقول إن ذلك استفاض ونقله الثقات الأمناء الذين تقوم بهم الحجة، والله على كل شيء قدير والله أعلم.

الحوض

هل يشرب المؤمنون من الأمم السالفة من حوض رسول الله ﷺ أو أنه خاص بهذه الأمة؟

الأدلة التي وردت عن الرسول ﷺ تدل على أن الحوض يُسقى منه الأوفياء المؤمنون من أمة الرسول ﷺ[١]، وجاء في رواية أن لكل نبي حوضا[٢] ولكن لا تعدو هذه الرواية كونها آحادية والله أعلم بصحتها، فالله سبحانه وتعالى يُعطي الأنبياء الآخرين أيضاً حياضا يشرب منها الذين آمنوا بهم على قدر قلتهم وكثرتهم لأن النبي ﷺ هو أكثر الأنبياء اتباعاً، والله أعلم.

 مصير أطفال الكفار

ما هو مصير أطفال الكفار الذين ماتوا قبل البلوغ؟

أمرهم إلى الله عز وجل، ولكن الذي تطمئن إليه النفس ويسكن إليه القلب أنهم على الفطرة، لقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[٣] وجاء في بعض الروايات ما يدل على أنهم من أهل

(١) رواه الربيع (٤٣) والبخاري (٢٢٣٨) ومسلم (٦٠٧).
(٢) رواه الترمذي (٢٦٣١).
(٣) رواه البخاري (١٢٩٢) ومسلم (٦٩٢٦).

الجنة وفي بعضها ما يدل على أنهم خدم لأهل الجنة[١]، والله ﷻ قادر على أن يجعلهم من السعداء وفضل الله تعالى واسع، على أنهم لم ينقضوا الميثاق الذي أخذه الله عليهم والقول بأنهم معذبون في النار لا نقول به ولا نقره، فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فما عليهم شيء من أوزار آبائهم وأمهاتهم ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] وهؤلاء ما كسبوا شيئا من الشر، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] لا يدل على أن ذرية غير المؤمنين لا تكون كذلك، وإنما غاية ما فيها أن الله ﷻ يلحق ذرية المؤمنين إن ماتوا صغارا بآبائهم، وكذلك من اتبعهم من ذرياتهم على الإيمان من الذين ماتوا كبارا، والاستدلال بالآية على أن ذرية غير المؤمنين تكون بخلاف ذلك استدلال بالمفهوم، وهو استدلال بدليل ضعيف، والقضايا العقدية تحتاج إلى أدلة قطعية لا إلى أدلة ظنية خصوصا في مثل هذا الموقف لأنه قطع بمصير طائفة من البشر فهو من الغيب الذي لا يستفاد من الظنون، والله أعلم.

الورود على النار

يسأل عن الورود في قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

في الوُرُود كَلام لأهل العلم:

مِنهُم مَن قال: الوُرُود لا يعنِي الدخول وإنما يعني الإشراف على الدخول كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣]، فليس معنَى ذلك دخول مَاء مَدْين وإنَّما المقصود بذلك الإشْرَاف.

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢١٩).

وقيل بأنَّ الوُرُود هنا هو بِمعنَى الدخول، ولكنه إنَّما هو للكافرين لا للمؤمنين بِدَلِيل سياق الآيات، وهذا القول من القُوَّة بِمكان، ذلك لأنَّ الله تعالى قال في هذه الآيات: ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ٦٧ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيًّا ٦٩ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ٧٠ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيًّا ﴾ [مريم: ٦٦ - ٧١].

فأصل السياق «وَإِن مِّنهُمْ»، ولكن التفت وبعدما كان يتحدَّث عن هؤلاء حديث الغَيْبَة صار الحديث مَعَهم حديث الخِطاب، ذلك لأنَّ الخطاب في مثل هذا المَقام يكون أقوى، وإنَّما وُجِّه هذا الخطاب إليهم بأسلوب الالتفات.

والالتفات معروفٌ في كَلام العَرب، وهو يكون مِنَ الغَيْبَة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغَيْبَة، ومن التكلُّم إلى الغَيْبَة أو الخطاب، ومن الغَيْبَة أو الخطاب إلى التكلُّم، كما هو معروف عند علماء البلاغة، وله مَزِيَّة وهي تَطْرِيَّة الكلام وتَجديده، وهذه مَزِيَّة عامة للالتفات، وقد يكون الالتفات لأسباب أخرى منها اقْتِضَاء المَقَام ذلك كما في قول الله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] حيث وُجِّه الخطاب إلى الله تعالى بعد وَصْفِه بِصِفَاتِه العظيمة وآخِر تلكم الصفات قوله: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤]، فإنَّ ذلك الوصف يقتَضِي توجُّه الإنسان بكُلِّيته إلى الله فلذلك كان توجيه الخطاب إلى الله تعالى هو الأليق هنا، وكذلك قوله:

﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١] أُرِيدَ فيه تأكيد الوعيد بتوجيه الخطاب إلى الذين أَعْرَضُوا عن الله تعالى وجادلوا في البَعْث، وقالوا كيف يُبعَث

الإنســان بعد موته؟!، واحتجَّ الله عليهم بِما احتجَّ به مــن خلقِهِم من عدم وإخراجهم من العدم إلى الوجود.

ثم جاء بعده قَوْلُه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]، وحتى نَفهم المراد منه لا بد أن ندرك بأن «ثُمَّ» هنا ليست هي للمَهْلَة الزَّمَنِية، وإنَّمَا هي للمَهْلة الرُّتْبِيَّة، والأصل في ﴿ثُمَّ﴾ أن تكون للمَهْلَة الزمنية، ولكن عندما تعطِف الجمل بعضها على بعــض غالباً ما تكون للمَهْلَة الرُّتْبِيَّة، حتى أنَّ من النحويِّين من قال بأنَّها في عطف الجمل بعضها على بعض لا تكون إلا للمَهْلَة الرُّتبِيَّة فحسب.

والـمَهْلَة الرُّتْبِيَّة هي أنَّ ما بيْن الكلامَيْن بُعْداً، فالرَّبط ما بينهما يَقْتَضِي أن يكون «بثُمَّ» التي تدُلُّ على الـمَهْلَة، ولِهَــذا أمثلة كثيرة مِن ذلك قول الله تعالــى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، فإنَّنَا لو نظرنا إلى «ثُمَّ» وحَملناها على المهْلَة الزمنية لقلنا بأنَّ قول الله تعالى: ﴿ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ إنَّما كان بعد الخلق وبعد التصوير، بينما ما في سورة الحجر وما في سورة ص يدُلُّ على أنَّ الأمر بالســجود كان قَبل الخلق، فالله تعالى يقول في سورة الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨ - ٢٩]، هذا الأمر كان قبل تَســوِيَّته وقبل النفخ فيه من روح الله، وكذلك في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١ - ٧٢].

ومِن شواهد ذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١١ - ١٧]، فكَوْنُه من الذين آمنوا

لا بد من أن يكون سَـــابِقاً على ما تقدَّم، لكن ذُكر متأخراً معطوفاً «بِثُم» التي تقتَضِي المهلة، ولكنها هنا ـ كما قلت ـ ليســـت مَهْلَة زمانية وإنَّما هي مهلة رُتْبِيَّة، لأن الأمر أمرٌ عظيم جَلَل اقتضى أن يُعطَف على ما قبله «بِثُمَّ» للدلالة على عِظَم شَأْنِه ومَكَانَتِهِ وقَدْرِه، والله ـ تعالى ـ أعلم.

السائل يســـأل عن قول الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١] هناك من يفسر هذه الآية بأن كل إنسان سيدخل النار ثم يخرج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المؤمنين منها، هل هذا صحيح؟ وإذا لم يكن صحيحاً فمـــا معنـــى قولـــه تعالـــى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧٢]؟

هل يقال بأن الرســـول ﷺ وهو وغيـــره من أنبيـــاء الله تعالى على رأس المؤمنين سيدخلون النار؟! معاذ الله، مع أن الله نص على بعد المؤمنين عنها كما قال تعالـــى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١ ـ ١٠٢]، أما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ فإن (ثم) هذه ليســـت للمهلة الزمنية وهي التي تعطف المتأخر على المتقدم زمنـــا لأن المعطوف عليه والمعطوف هنا كلاهما جملة و(ثم) إذا عطفت جملة على جملة فكثير من النحويين ومنهم الرضى قالوا: بأنها لا تكون إلا للمهلة الرتبيّة دون المهلة الزمنية، ونحن وإن كنّا لا نقول بذلك على الإطلاق في كل موضع عطفت جملة على جملة إلا أننا نقول: إن ذلك هو الغالب في عطف الجمل.

ومن شـــواهد ذلك ما جاء في نفس هذه الآيات فـــالله تبارك وتعالى يقول قبل هذه الآية الكريمـــة: ﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٦٦ - ٧٠]، فهل علم الله تعالى بالذين هم أولى بها صلياً متأخر عما تقدمه؟ كلَّا بل هو سابق لأنه علمه أزلي، ولكن «ثم» هنا كما سبق هي للمهلة الرتبيّة، وذلك لأن الفكر يقطع مسافة بين تصور المعطوف عليه وتصور المعطوف. وهذا البعد ما بين تصورهما هو الذي يقتضي العطف بـ«ثمّ» مع أن المعطوف عليه قد يكون متأخراً عن المعطوف ويكون المعطوف سابقاً على المعطوف عليه، فعندما نقول:

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم ساد قبل ذلك جده

لا يعني ذلك تقدم سيادة الابن على أبيه وجده.

وليست لفظة «ثمّ» فقط تأتي لهذا المعنى بل كلمة «بعد» تأتي لهذا المعنى نفسه فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [القلم: ١٠ - ١٣]، وكونه عتلاً وزنيماً سابق على الصفات السَّابقة في الذكر، لأنهما صفتان ذاتيتان، فهما متقدمتان على ما تقدمها؛ لأن كونه همَّازاً مسبوق بكونه زنيماً، والزنيم هو من لا يعرف أبوه، وكذا هو سابق على كونه حلافاً وعلى كونه مشاءً بنميم إلى غير ذلك من الصفات المذكورة فيما قبل فكذلك «ثمّ» هنا هي للمهلة الرتبية مراعاة لما ذكرناه، والله أعلم.

ما ينفع الميت بعد موته

فيمن يُهْدِي خَتْمَةَ القرآن للميت؟

قَضِيَّة إهْدَاء قراءة القرآن إلى الميت، أو إهداء عمل من الأعمال إلى الميت أمر ازْدَحَمَت فيه أقوال العلماء وتضَارَبَت:

فمِنَ العلماء مَن يرى بأن الميت لا ينتفع بما يُقدَّم إليه اللهم إلا ما دل النص الشرعي عليه، وهؤلاء يستدلُّون بأدلة منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩-٤١]، فَالإنسان مَجْزِي بِسَعْيِه، وليس مَجْزِياً بسعي غيره، على أنَّ العمل يفتقر إلى نية فلا بد من إخلاصه لِوجه الله، والميت لا نِيَّة له في عَمَل غيره، فكيف يُجْزَى به مع أنَّ المخْلِص هو الذي يُجْزَى بعمله الذي عَمِلَه ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

ومنهم من رأى بأنه يُقْبَل نَحو هذا العمل كقراءة القرآن وغير ذلك بناء على حَمْلِ مثل هذه الأعمال مَحْمَل الأعمال المنصوص عليها كالحج والصَّدَقَة فإنه مِمَّا دلَّ الدليل الشرعي مِن أحاديث الرسول ﷺ بأن من تصَدَّقَ عن مَيِّتِه فإن الله ـ تعالى ـ يَقْبَل تلك الصدقة ويَجْزِي بِها الميت خَيْرا[1]، بِحَيْثُ يكون ثوابُها للميت، ولا يُحْرَم المتصدِّق نفسه من الثواب، وكذلك إن حجَّ عنه والعمرة حكمها حكم الحج.

والذي نذهب إليه بأنَّ هذا أمر يتوقَّف على الدليل الشرعي، ولا يكفي في ذلك القياس لأنَّه من الأمور الـمُغَيَّبَة، ولَمَّا كان من الأمور الـمُغَيَّبَة فلا يُمكن

---

(١) راه الربيع (٦٧٨) بلفظ جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها وأراها لو تكلمت لتصدقت أفأتصدق عنها فقال له رسول الله ﷺ (نعم تصدق عنها).

أن نَقِيس ما لَم يُنَصَّ عليه على ما نُصَّ عليه، وإنَّما نقتصر في الحكم على ما نُصَّ عليه، وقد دَلَّ الدليل الشرعي على أنَّ الميت ينتفع بالحج الذي يُحَج عنه وينتفع بالصدقة التي يُتصدَّق بها عنه فنقتصر على ذلك، وفيما عدا ذلك نَبْقَى عند عموم قول الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩] وإنَّما دلَّ حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بأنَّه إن مات أَحَد وعليه صيام فَوَلِيُّهُ يصوم عنه، والله أعلم.

ما حكم قراءة سورة الفاتِحة على قبر الميت؟

هذه ـ أيضاً ـ من الأمور التي اختُلِفَ فيها، ونَحن نرى بأن زيارة القبور ليست للعبادة، وإنَّما هي للاتِّعَاظ والذِّكرى، فالإنسان يُشْرَع له أن يزور القبر بعدما كان النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْهَى عن زيارة القبور في أوَّل عهد هذه الدَّعوة لقرب الناس بعهد الجاهلية، ولكن بعد ذلك أباح لَهم أن يزوروا القبور من غير أن يقولوا هُجْرا، وهذه الزيارة إنَّما هي لأجل الاتِّعَاظ، فَقَد دلَّت الأحاديث عن الرسول ﷺ على النَّهي عن اتِّخاذ القبور مساجد، وقال: «لَعَنَ الله اليهود اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وهذا معناه أنَّه لا يَجوز للإنسان أن يتَّخذ القبر مسجداً أي مكاناً للصلاة أو العبادة، وقد نَهى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن الصلاة في المقبرة وهذا دليل على أنه لا يَجوز للإنسان أن يأتِي بالعبادات في المقابر، وكذلك جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنَّه أمر بأن يُقْرَأَ القرآن في البيوت وقال: «لا تَجعلوا بيوتكم قبورا»، ومعنى ذلك أن القبور ليست مكاناً لقراءة القرآن، فالقرآن إنَّما يُقْرَأ في المساجد وفي البيوت، وفي سائر الأماكن دُون القبور، لذلك نَرَى أنَّ الزيارة إنَّما تكون للدعاء للميت، وللاتِّعَاظ من قِبَلِ الحي كما فعل النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا ما قاله الإمام السالِمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ قال:

أَتُعْمَرَن قُبُورُنا الدَّوَارِسُ ... ويَتَرَدَّدَن إليها الدَّارِس

وهذه المساجد المُعَدَّة ... نتركها وهي لذاك عُدَّة

والمصطفى قد زراها وما قَرَا إلا سَلاماً ودَعَا وأَدْبَرَ
حسبك أن تَتَّبِعَ المختار وإن يقولوا خالف الآثار

فنحن نأخذ بِهَذا، والله ـ تعالى ـ أعلم.

هل العمل له دخل في تغيير القدر بعد موت الإنسان، مما يلحقه من عمل صالح أو طالح من غيره ولم يعمله هو في حياته، مثل الحج عنه أو الصوم عنه؟

أما العمل الطالح من غيره فلا علاقة له به، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] إلا إذا كان هو السبب له، فإن «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[١]، فالذي يكون سبباً في الشر يعاقب أو سبباً في الخير يثاب، وأما إن كان رجلاً صالحاً تقياً وعمل له أحد عملاً من الأعمال التي تجوز فيها النيابة كالحج والعمرة رجونا أن يتقبل الله ذلك ويضاعف من حسناته، أما أن يتحول من حالة إلى حالة كأن يكون كتب الله عليه الشقاء ثم يتحول بعد ذلك إلى النعيم، فلا لأن الله يقول: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩] والله أعلم.

إذا أَرادَ أَحَدٌ أن يَختِمَ القرآنَ عن والِدِه أو والِدَتِه ويُهدِي ثَوابَ ذلِك لَهُما، فهل يَجُوز له ذلك؟

القضِية ليست قضِية جَواز أو عَدَمه بل القضِية هل هذا يَنفَع الميِّت أو لا يَنفَعُه؟ والأصل أنَّ الإنسانَ إنَّما يَنتَفِعُ بِعَمَلِه.. لا بِعَمَلِ غيرِه، فإنَّ الله ـ تعالى ـ يَقُول: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩] ولكِن جاءَت السنَّة

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

النبوية ـ على صاحبِها أفضلُ الصلاة والسلام ـ لِتُخَصِّصَ بعضَ الأمور بِحَيثُ يَكونُ عَمَلُهَا عن الميت نافِعا لَه بعدَ موتِه، ومِن ذلِك الحج والعمرة والصَّدقه، والأُمُورُ الغَيْبِيَّة لا يُمكِنُنَا أن نَتَوَصَّلَ إليها إلا مِن نافِذَةِ الوحْي، ولَيْسَ لَنا أن نَحَكَّمَ فيها بِالقِيَاس؛ لأنَّ القياسَ إنَّما هُوَ في الأمُورِ التي يُمكِنُ أن تُعَلَّلَ، أمَّا الأُمُورُ الغَيْبِية فهِيَ لا تُعَلَّل، إذ الله ـ تعالى ـ يَقضِي ما يَشاءُ ويَحكُمُ ما يُرِيد، لِذلِك فإن مَن أَرادَ أن يَعمَلَ شيئا عن الميِّت فَلْيَقْتَصِرْ على ما وَرَدَتْ بِه السنَّة من الصَّدَقَة أو الحج أو العمرة أو الصدقة الجارِيَة كأن يَقِفَ وَقْفا خيْرِيا عنه، أمَّا ما عدا ذلِك فإنَّه ليْس هنالِكَ مِن دلِيل يدل على أنَّ الميِّتَ يَنتَفِعُ بِه، والعمل الذي يَعمَلُه الإنسان مِن غيْرِ أن يَكونَ مُوقِنا بِأنَّه يَعُودُ بِالمصلحةِ التي يَنْشُدُها يُعَدُّ عَمَلا ضائِعا؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

 الروح وأسرارها

هُنَاك مُصْطَلَحات أربع هي الروح والوِجْدَان والضمير والنفس يَجمع بينها الخفَاء في مُقابِل الجسد المادي، ولذا يَجعلها البعض بِمعنى واحد ويبدو أنّكم تفرِّقُون بينها كما ورد ذلك في قولكم في «جواهر التفسير» الجزء الأول الصفحة الأولى: «ومِن المعلوم أنَّ تكوين الإنسان تكوين عجيب فهو يَجمع بين الروح والجسم والعقل والقلب والضمير والغريزة ولِكل منها طَبْعُه وخَصَائِصُه وضَرُورَته»، نرجو التَّكرُّم بتوضيح ذلك.

الروح هي التي بِها الحياة، فالله تعالى عندما ينفُخُ الروح في هذا الجسم الميت يَحيا، ويتحوَّل إلى خلق آخر كما قال: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]، أي: بِنَفْخِ الروح فيه، لأنَّهُ يُصْبِح مِن جِنْسِ الأَحْياء، وَكَذلك إذا فُصِلَت الرُّوح عن الجسم مات، ونَحن لا نعرف كيفية اتصال هذه الروح

بالجسم، وكيفية انفِصَالُها عنه، لأن الله نسبها إلى نفسه فهو العليم بها: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وأمَّا النَّفس فهي الـمُدْرِكَة الواعية، التي يكون بها الإدراك والتمييز وإن كان ذلك مُرْتَبِطاً بالروح، ولكن ليس كُلُّ ذِي رُوحٍ مُدْرِكاً، فالنَّفس جَعَلها الله تُمَيِّز ما بين المسمُوعَات وما بين المبصَرات وما بين الوُجْدَانِيات.

أما الوجدان: فهو الإحساس كأن يَجِدَ الإنسان شَوْقاً إلى شيء، أو كراهة له، أو حباً فيه، أو أن يَجد في نفسه حُزْناً أو فرحاً أو مثل هذه الأشياء فهذا كله يَعُود إلى الوجدان.

وأمَّا الضمير: فهو الإحساس الذي يدفع الإنسان إلى مُحاسبة نفسه، لأنَّ الضمير الداخِلِي قد يَرضَى بِشَيء ولا يرضى بآخر، فهو الذي يدفع الإنسان إلى مُحاسبة نفسه على ما قدَّم وأخَّر، فنفس هذه المحاسبة إنما مبعثها ضَمِير في نفس الإنسان.

والغَرِيزَة هي ما ركز في الإنسان من الأمور الفطرية كغريزة حُبِّ الأكل وحُبِّ الشرب في حَال العَطَش وغريزة الاتِّصَال الجنسي وغير ذلك مِنَ الغرائز.

هل في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] دلالة على أنّ البشر سيقفون يوما مِن الأيام عند الرُّوح فقط، وأمَّا ما دون الرُّوح فسيستطيعون استكشافه؟

الله أعلم، وهذه أمور لا نستطيع أن نَجْزِم بِها، ولا نستطيع أن نتعجل الأحداث قبل وُقُوعِهاوالله أعلم.

هل المصير الذي تذهب إليه روح المسلم والكافر واحد بعد الموت في الحياة البرزخية؟

لا، لا يكون المصير واحـــداً، فمصير أرواح المؤمنين إلى عليين وأرواح الكفرة إلى سجين والعياذ بالله، والله أعلم.

هل جزاء الصالحين بالجنة والعاصيـــن بالنار يبدأ من أول خروجهم من هذه الدنيا بالموت أم يبدأ الجزاء من قيام الساعة؟

أما الأرواح فقد جاءت الروايات بأن أرواح الشهداء وفي بعض الروايات أرواح المؤمنيـــن تكون فـــي حواصل طير خضر تطير فـــي الجنة وتحط في شـــجرها وتأكل من نباتها، وأرواح الأشـــقياء والعياذ بالله تكون في سجين، وعلى هذا فنعيم الروح فـــي الجنة وعذابها في النار منذ وفاة الإنســـان؛ أما انتقال الأجساد إلى الجنة والنار فذلك إنما يكون يوم القيامة والله أعلم.

هل أرواح الموتى تتلاقى فـــي عالم البرزخ وتتزاور، ســـواء كانت هذه الأرواح من المنعمين أو من المعذبين؟

ذكر بأن هذه الأرواح تتلاقـــى، وإقرار ذلك يعتمد على دليل قطعي وبما أن الدليل غير قطعي ما علينا إلّا أن نقف عـــن ذلك فهذه من الأمور الغيبيّة التي نكلها إلى الله، والله أعلم.

بعض الناس يعتقدون أن الشيطان يتمثل في صورة ابن آدم أربعين يوما، فهل في هذا حقيقة؟

كثير من القضايا إنما هي من وحي الشـــياطين، حتى ما يسمى الآن بتحضير الأرواح إنمـــا هو من وحي الشـــياطين، وليس ذلك من الحقيقة في شـــيء، وأنا أخبرني أحد من الناس قبل ما يقارب ثلاثين عاما من الآن؛ لأنني كنت أتابع هذه القضية وأسأل عنها لما أشيع عند الناس من أن هنالك من يحضر الأرواح، مع أن القرآن الكريم يدل على أن تحضير الأرواح من المستحيل؛ فأن الله تعالى يقول:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥]، ويقول سبحانه: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم: ٩٨]، ويقول ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَاۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢]، فلئن كانت الروح التي ماتت يمسكها الله فمن الذي يستطيع أن يطلقها من يد الله تعالى لتعود وتتحدث إلى الناس.

تابعت هذه القضية، وسألت بعض المشايخ الذين جربوا هذا الأمر، فذكروا بأن رجلاً من الناس كان يزعم أنه يحضّر أرواحاً بطريقة معينة، يقول: كان الناس يلتفون من حوله، فهذا يقول له حضّر روح فلان، وذلك يقول له حضّر روح فلان، وإذا بي ـ يعني الشخص المتحدث ـ أقول: أرى أنني أرغب أن أسمع من روحي بعض الحديث، فقلت له: حضّر روحي أنا فلان بن فلان، فوافقني على ذلك، وكان هنالك «زنبيل»[1] عندما تحضّر الروح حسب ما يزعمون يتحرك، فتحرك الزنبيل، فسُئل: من أنت؟ فقال: فلان؛ باسم الرجل الذي طلب تحضير روحه، يقول محدِّثي: فطرحت على هذا الذي حضر أسئلة عن أشياء لا يعلمها غيري، فأجابني كما هي، فعجبت من هذا الأمر، ولكن سألته عن بعض الأمور؛ كحفظ القرآن وغير ذلك فإذا به ليس على صفتي التي أعلمها من نفسي، فقلت له: من أنت؟ واصدقني في ما تقول، فقال لي: أنا قرينك؛ أي هو القرين من الجن، هو الذي يتحدث بهذا ليضلل الناس، فإذاً هؤلاء إنما يحضرون الشياطين الذين يريدون أن يضلوا الناس، ولهم صلة بهؤلاء الشياطين من خلال خبث النفوس؛ لأن الشياطين تألف النفوس الخبيثة كما تألف الملائكة الأرواح الطيبة ـ.

(١) الزِّنْبِيل الجِراب وقيل الوِعاء يُحْمل فيه، ويجمع على زَنابيل، وقيل الزِّنْبِيل خطأ وإنما هو زَبِيل وجمعه زُبُل وزُبْلان (ابن منظور؛ لسان العرب؛ مادة زبل).



الوعد والوعيد

عمومات الوعيد في الآيات، هل تشمل مَن لم يتب؟

عُمومات الوعيد إنَّما هــي في مَن لم يتــب، لأنَّ الله تعالى قيدها بعدم التوبة، فالله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠] ويقــول أيضــاً: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، وهذا مُقيــد بما إذا لم يتب الإنســان، أما مع التوبة فإنَّ الله يتقبــل توبته؛ وآيات الوعيــد وأحاديثه إنَّما تَجري فِي عُمومها إلا في مَــن تاب فقط، أما غير التائــب فإنَّه يجري عليه عموم الوعيد.

وقول مَن قال بأنَّ الله تعالى يُنجز وَعْدَهُ وَيُخْلِفُ وَعِيدَهُ ليس بشيء؛ لأنَّه يترتب عليه أنَّ الله عندما يَتَوَعَّدُ على أمر ما إما أن يكون عالما بأنَّه سيخلفه، وهذا يعني الكذب فِي كلام الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ، وإما أن يعني أن الله يَبدو له فيما بعــد أن يُخلف هذا الوعيــد بعد ظنه أنه ســينفذه وهذا يعني الجهل، والجهل مُنتف عن الله، لأنَّ الله ـ تعالى ـ يَعلم ما كان وما يكون وما لَم يكن أن لو كان كيف يكون، فكل مِن ذلك مَعلوم له ســبحانه، فهو بكل شي عليم، كما أنَّه على كل شيء قدير.

وجاءت الآيات القرآنية تدل على أنَّ كلمات الله ـ تعالى ـ لا تَبديل لها، وأنَّ الوعيد لا يتبدل، فالله يقول: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٨ - ٢٩]، ويقول أيضاً: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ

﴿ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤] ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، فالقول بأنَّ الله يُنجز وعده ويُخلف وعيده هو في منتهى الخطورة.

على أنَّ هذا الادعاء هو الذي يَدفع إلى انتهاك الحُرم، والوقوع في المعاصي، وارتكاب الموبقات، فإنَّ الله ذكر عن بني إسرائيل الوقوع في هذا الأمر، وهذه الأمة حُذرت أن تتبع سَنَن مَن قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع، وقد وقعت في ذلك والعياذ بالله، فالله يقول في بني إسرائيل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩] وهذا هو نفس الاعتقاد الذي يعتقده أولئك الذين يقولون بأن الله يُنجز وعده ويُخلف وعيده، فهم إنَّما يتعلقون فيه بأماني المغفرة، على أنَّ هذه الأماني قد اجتُثت بالنصوص القاطعة في كتاب الله، فإنَّ الله تعالى يقول: ـ وهو أصدق القائلين ـ ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٣].

أما كون هذه الأدلة أدلة عامة، وأن العُمومات قد خُصصت، وما مِن عَامٍّ إلا وقد خصص، فإنَّ ذلك ليس على إطلاقه، إذ ليس كل عموم يكون في دلالته ظنيا، إذ مِن العُمومات ما لا يَحتمل التخصيص بِحال مِن الأحوال، فمِن العُمومات ما لو قيل بتخصيصه لأدَّى ذلك ـ والعياذ بالله تعالى ـ إلى الكفر، ومِن ذلك قول الله في وصف نفسه: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، فقوله: ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ نفي لأن يكون الله تعالى والدا لأيِّ أحد كان، لأنَّ المنفي هنا فعل والفعل حكمه حكم النكرة، فيعم في النَّفي كعُموم النكرة في النفي؛ وكذلك قوله: ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ هو نفي للمَولودية عنه، فهو لا يتصف بِها بالنسبة إلى أي أحد كان، فلا يَجوز بأنْ يقال: إنَّ هذا العُموم خُصِّص، وأنَّه مَولود لبعض الخلق دون بعض، فهو تبارك وتعالى لا يتصف بالمولودية، كما أنَّه لا يتصف بالوالدية.

وكذلك قوله سُبحانه بعد ذلك: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فهو على عمومه، ولا يمكن أن يقال بأنَّه خصص، وأنَّ أحدا مِن الخلق يُمكن أن يكون كُفؤا له تبارك وتعالى، فإنَّ الله لا يُكَافِئه شيء مِن خلقه.

ومثل ذلك قول الله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، فلا يجوز تخصيصه بتاتاً، لأنَّ تَخصيصه يُؤدي إلى بطلان التوحيد، ذلك لأنَّ القول باتخاذ الله بعض الصواحب يناقض أصل الإيمان فمعنى ذلك أنَّه تبارك وتعالى صار مُفتقرا إلى الصاحبة، تعالى الله عن ذلك.

ومثله قوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] فإنَّ بقاء هذا العام على عُمومه أمر قطعي، ولا يُمكن أنْ يَشُك فيه أحد، إلَّا مَن أراد أن ينسب إلى الله تعالى ما هو بريء منه مِن الظلم؛ ومثله قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فنفي الألوهية غيره تعالى على عمومها، والدلالة على ذلك دلالة قطعية، إذ لو كانت هذه الدلالة دلالة ظنية لسَاغَ الشَّك في وجود إلٰه غيره تبارك وتعالى؛ وكذلك قوله: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، فإنَّ قوله ذلك على عُمومه، وإلَّا لكان هنالك مَجال للشك في أن بعض الأشياء تَخفى على الله سبحانه؛ ومثل هذا كثير.

وضابط ذلك أن يكون تَخصيص هذا العموم يؤدي إلى أمر لا يقره العقل، لأنَّه يُؤدي إلى نقص في حق الله تعالى؛ ومسائل الوعيد تعود إلى هذا الأمر، لأنَّ الله تعالى متصف بالعدل، فهو لا يُحابي أحدا، فالنَّاس كلهم سواء، ليست بين أحد مِن خلقه تبارك وتعالى وبينه صلة نسب، ولا صلة سبب إلا التقوى، فالصلة التي بين العباد وبين ربهم جل وعلى هي صلة التقوى، فلذلك كانت مُحاباة بعض النَّاس بأن يُتهاون في حقهم

وأن يُشدد على الآخرين أمر يستحيل على الله تعالى، لأنَّه يُنافي العدل الذي هو متصف به سبحانه، فلذلك كانت هذه الأدلة أدلة قطعية؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

ما معنى قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]؟ ربما البعض تمسك بهذه الآية وسوّل لنفسه الآثام والمعاصي كالربا ونحوها.

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، سيق في موضعين من كتاب الله من سورة النساء، وفي كلا الموضعين جاء في مقام الدعوة إلى الإسلام والتحذير من الكفر، فالله تعالى يقول في الموضع الأول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٧ ـ ٤٨] وفي الموضع الثاني مسبوق بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]، ثم جاء من بعده: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ١١٦]، فيستخلص من هذا أن توبة المشرك من جميع معاصيه الأخرى مع بقائه على شركه لا تنفع، أما إن كان على ملة من ملل الشرك كالوثنية أو النصرانية أو غيرها ثم تاب من شركه ذلك فإن معاصيه جميعاً تغفر بتوبته من الشرك، إذ الإسلام جب لما قبله، فلذلك لو قتل النفس أو نهب المال أو فعل ما فعل من المنكرات فإنه بتوبته من شركه بالله تعالى تغفر تلك السيئات، ولا يجب عليه أن يرد المال ولا أن يتخلص من تبعات الدم ولا من أي تبعات أخرى.

وهذا الذي قلناه تدل عليه دلائل متعددة فالله تعالى حذّر هذه الأمة من الاغترار بالأماني والتشبث بها فقد قال سبحانه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ [النساء: ١٢٣] أي يا معشر المسلمين، ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]، وقوله ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] أي منكم يا معشر المسلمين أو من معاشر أهل الكتاب وغيرهم الذين اغتروا بهذه الأماني، كما أنكر الله ـ تعالى ـ على أهل الكتاب قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ في قوله سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وكذلك يقول سبحانه محذراً لهذه الأمة من الاغترار بالأماني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، فحذّرهم من الاغترار بالأماني وأمرهم بالاستعداد لذلك اليوم الذي لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، ويقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩ ـ ١١]، وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٩ ـ ٩٠]، وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤]، و«أل» في الحسنة وفي السيئة هنا للجنس، وكذلك يقول سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فيجب على الإنسان أن يحذر وأن لا يتعلق بالأماني، والله أعلم.

ما هو الفكر الإحْدَاثِي والفكر الإرْجَائِي؟ وما أثرهُمَا على عقيدة المسلم؟

أما الفكر الإحداثي فلم أسْمَع عنه، ولعلَّه يعنِي الفكر الحَدَاثِي، فإن كان يعني ذلك فهو فكر دَخِيل على الإسلام ولا يَمُتُّ إليه بصِلَة، وقد ألَّف كثير من العلماء فيه وانتقدوه وفَنَّدُوه وبَيَّنُوا عُوَارَه وكَشَفُوا مَخازِيَه.

وأما الإرجاء فهو عقيدة يهودية، لأن الله تعالى نسب إليهم عقيدة الإرجاء، يقول تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وذلك أنَّهم يُقْدِمُون على ارتكاب مَحَارِمِ الله تعالى مع أملهم في المغفرة بلا توبة، وكذلك خُيِّلَ إليهم أنَّ عذابَهم إلى أمدٍ مَحدود موقوت، وأنَّهم بعد ذلك يُخْرَجُون مِن دَار العذاب ويُنَعَّمُون كما يُنَعَّمُ المؤمنون المتقون، وهذا ما دَلَّ عليه قوله تعالى فيما نقله عن اليهود:

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠ بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠-٨١]، وهو جل شأنه يُبَيِّنُ أن هذه العقيدة لَزَّت بهم إلى الفساد، ودفعت بهم إلى ارتكاب الحرَم، وأوقعتهم في المعَاطِب، فالله ـ تعالى ـ يقول: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣-٢٥]، وقد حَذَّر الله ـ تعالى ـ هذه الأمة من التعلُّق بهذه الأماني والتشبُّث بهذه الآمال فقد قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٣]، وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي

ﭐلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٩ - ٩٠]، ويقول سبحانه: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [القصص: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٠]؛ فحذَّر الله تعالى من التعلُّق بِهذه الأماني الفارغة، وبَيَّن أن كل أحد مَجزِي بعمله الذي عمله، فهو يُجزَى بالإحسان إحسانا ويُجزى بالسيئة مثلها.

والأمة وقعت فيما وقع فيه مَن قَبلَها تصديقاً لقول النبي ﷺ: «لَتَتَّبِعُن سَنَنَ مَن قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو أنَّهم دخلوا جُحْرَ ضَب لَدَخَلتُمُوه»(١) ففي الأمة مَن يقول بأنَّ الله ـ تعالى ـ إذا وَعَدَ وَفَى وإذا تَوَعَّدَ عفَا، أين ذلك مِن قوله سبحانه: ﴿ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [قٓ: ٢٨ - ٢٩] وقوله تعالى: ﴿ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ٦٤]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ٩]؟!، والله أعلم.

هناك مِن التصورات ما تشجع للوقوع في المعاصي قد لا تكون مقصودة بصفة مُباشرة مثل بعض التصورات أن الإنسان يكتفي مِن عقيدته بلا إلٰه إلا الله وإن سرق وإن زنى، فما هو قولكم؟

المسلم يستمد عقيدته وتصوره أَوَّلاً مِن نصوص الكتاب العزيز، ثم مِن المتواتر مِن السُّنَّة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام؛ ولا يترك المتواتر مِن أجل روايات آحادية، قد يكون فيها كثير مِن الاختلاف وكثير مِن التناقض، وهي مُجرد ظنون والعقيدة لا تُبنى على ظن، والله تعالى يقول: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن

(١) رواه البخاري (٣٢٦٩) ومسلم (٦٩٥٢).

دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣]، ويقول سبحانه: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٩-٩٠]، ويقول ﷻ: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص: ٨٤] ويقول: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٠] إلى غير ذلك مِن النصوص الكثيرة، فهل يعقل أن تهمل هذه النصوص مِن أجل رواية ؟!.

وما المانع مِن أن نَحمل هذه الرواية الآحادية على ما يتفق مع النصوص القطعية، وذلك بأنْ نقول مَن قال لا إلٰه إلا الله بعد إشراكه بالله تعالى دخل الجنة وإن كان زَنَى أو سرق في شركه، فإنَّه لا يؤاخذ بِما كان منه مِن الأعمال المنحرفة في حال شركه إذ الإسلام جب لِما قبله، وهذا الذي يدل عليه قول الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨].

 الحساب والميزان والصراط

ما هو الحساب؟ وما كيفيته؟ وما أثر الإيمان به في سلوك الإنسان؟

بين الله سبحانه في كتابه العزيز أنه يحاسب العباد على أعمالهم التي قدموها في الدنيا، والحساب عندما يذكر في كتاب الله ﷻ كثيرا ما يقترن ذكره بذكر أهوال يوم القيامة، وتداعي هذا الكون واختلال نظامه وتساقط أجرامه وما يكون مع ذلك من هول شديد تشيب له الولدان، وذلك كله لأجل تهويل أمر الحساب، وبيان أن أمر الحساب ليس بالأمر اليسير، وإنما هو أمر صعب تقترن به هذه الأهوال العظيمة، فالله تعالى يقول: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾

وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة: ١٣ - ٣٢]، ويقول تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ٧ - ١٣]، ويقول سبحانه: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير: ١ - ١٤]، ويقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١ - ١٢]، ويقول عز من قائل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ [الانشقاق: ١ - ١٥]، فعلى العبد أن يعد له عدته وأن يعد لكل سؤال جوابا صوابا حتى يلقى الله ـ سبحانه ـ وقد أخذ العدة لذلك اليوم، فإن حوسب كان حسابه يسيرا وانقلب إلى أهله بمشيئة ربه مسرورا.

وقد بين الله ـ سبحانه ـ أن الحساب يكون بإشهاد على الإنسان بجانب علم الله تعالى بكل ما يقع في هذا الكون فلا يخفى عليه ما يصدر من الإنسان، هذا الإشهاد يكون بالملائكة الكرام الكاتبين ويشهد الإنسان على نفسه، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩ - ١٢]، ويقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ١٦ - ٢٢]، فالعبد في غفلة مما يقع في ذلك اليوم ولكنه يوم يكشف فيه الغطاء ويتجلى للإنسان الأمر وينكشف له ما كان متواريا عنه، ومن الشهود الذين يشهدون على الإنسان جوارحه، تشهد بمباشرتها المعصية وإتيانها الفحشاء وتسخيرها للآثام، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ١٩ - ٢٢]، فهذه الجوارح التي باشرت المعصية تشهد على العاصي يوم القيامة، وإذا أراد أن يكذبها بلسانه ختم عليه كما يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، ولكن نلاحظ بجانب ذلك أيضاً أن القرآن الكريم يشير إلى أن المعصية التي يباشرها العبد إن كانت معصية قولية فإن اللسان تنطلق بالشهادة عليه، فالله ـ تعالى ـ يقول في الذين يرمون المحصنات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي

ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٣ – ٢٤].

هذا وقد يجادل الناس الذين ختم الله ـ تعالى ـ على أبصارهم وعلى قلوبهم، وطمس بصائرهم في نطق الجوارح التي لم تكن تنطق من قبل وهذا ينم عن عقم تفكيرهم وتعفن طباعهم وإلا فإنهم لو فكروا في نطق اللسان، لأدركوا أن هذا النطق ليس بالأمر الهين، فالله ـ تعالى ـ الذي أعطى لسان الإنسان القدرة على النطق قادر على أن يسلب هذه الصفة عنه ويجعلها في سائر أعضائه، والله ـ سبحانه ـ الذي جعل النطق في الحياة الدنيا أمرا اختياريا هو قادر على أن يجعله في الدار الآخرة امرا اضطراريا، فكما لا يملك الإنسان أن يوقف نبضات قلبه ونبضات عروقه في جسمه كذلك لا يمكن أن يوقف هذا النطق، فإنه نطق بمشيئة الله سبحانه، وهو وإن كان نطقا غير إرادي إلا أنه كاف في كون الإنسان يحس بعظم ما ارتكبه وبفداحة ما أتاه ويحس بأمانة الشهادة وصدقها لأنه يتصور الواقع، وما أدرى الإنسان الذي يرتكب أي خطيئة في هذه الدنيا ويباشر أي منكر من المنكرات لعل معصيته تصور فيرى نفسه وهو يباشر المنكر ويأتي الخطيئة ثم يعرض عليه يوم القيامة فيرى كيف كان ارتكابه للخطايا رأي العين، فإني لا استبعد أن يكون ذلك كذلك، وإن لم أجده منصوصا عليه لأنني أجد الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴾ [الحاقة: ١٨]، فإن قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ ﴾ أدل على أنهم يعرضون بأعمالهم التي كانوا يباشرونها فيرونها رأي العين، ولا يقتصر على عرض الأعمال وحدها مسجلة في الدواوين إذ لم يقل تعالى: «اليوم تعرض أعمالكم» وإنما قال: ﴿ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴾ فما يدرينا لعل هذا العرض يكون بالصورة والصوت، ليكون ذلك أقوى بينة وأدعى إلى الحسرة وأقوم للشهادة، وكل ما يكون من الله ـ سبحانه ـ هو حق، ولكن

لا يريد الله عَزَّ وَجَلَّ أن تبقى للفجار يوم القيامة حجة يتشبثون بها، فالحساب حق، والناس يومئذ يأخذون كتبهم منهم من يأخذ كتابه بيمينه وهو المتقي السعيد الذي ينقلب إلى جنة عالية، ومنهم ـ والعياذ بالله من يأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره وهو الشقي المفتون الذي أبعده الله ـ سبحانه ـ عن ساحة الرحمة وباعد بينه وبين الطاعة، فكتب له ـ والعياذ بالله في الحياة الآخرة الشقاء.

وإذا كان من شأن الإنسان أن يخشى حساب مخلوق مثله حتى ولو لم يكن يفوقه في القدرة، فالشريك يحسب حسابه لمحاسبة شريكه له، والمرؤوس يحسب حسابه لمحاسبة رئيسه له، وكل ذي عمل يحاسب عليه يحسب حسابه لمحاسبة من يحاسبه على ذلك العمل، فإنه أحرى به أن يحسب كل حسابه لحساب العزيز العليم السميع البصير، الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم يعلم ما يتلجلج في الصدور وما يخطر في القلوب، وما تشتمل عليه حنايا الضمائر، وبجانب ذلك يشهد الشهود العدول، فتشهد الملائكة وتشهد جوارحه، وتشهد الأرض التي باشر عليها المعصية بما قدم وعمل في هذه الدنيا ويشهد كل شيء من حوله، وكما أن المجرم الذي يرتكب السيئات تشهد عليه هذه الجوارح بسوء ما ارتكب وشر ما أتى فإن الذي يعمل الصالحات يشهد له أيضاً كل ما حوله بما أتاه من العمل الصالح، لذلك أمر الرسول ﷺ الراعي صاحب الماشية الذي في البادية إذا كان في ماشيته وباديته وأذن أن يرفع صوته بالأذان لأن كل ما سمع ذلك الصوت من شجر وحجر وغيرهما من أنواع الخلق يشهد له يوم القيامة، وما أدراكم أن يودع الله ـ تعالى ـ هذه الكائنات المختلفة التي نحسها الآن بأنها غير واعية إحساسا بقدر ما تحفظ هذه الشهادة وتؤديها يوم القيامة، وإذا كان الإنسان الآن يسمع صوت نفسه في آلة التسجيل، ويشاهد على الشاشة صورته على ما هي عليه عندما يباشر أمرا ما أو يسمع صوت غيره ويشاهد

صورته ولو من بُعْد فما أدراكم أن تكون هذه الكائنات المختلفة مستودعات بأصوات بني آدم وصورهم التي تمثل جانب الحق وجانب الباطل، فإذا جاءت يوم القيامة شهدت للمطيع وشهدت على العاصي.

والإيمان بالحساب جدير أن يجعل صاحبه يراقب الله ـ سبحانه ـ في خلوته، فإذا ما خلا يوما فلا يطلق لنفسه هواها ولا يرخي لها العنان لترعى حيثما شاءت بل يزجرها ويذكرها بأن عليها رقيبا ومن وراء كل رقيب رقيب، والرقيب الأعظم هو الله ـ سبحانه ـ الذي يعلم كل شيء لا تخفى عليه خافية، فجسم الإنسان نفسه رقيب عليه لأن أعضاءه تشهد عليه إن باشر المعصية ـ كما تقدم ـ، والملائكة الكرام الكاتبون الذين لا تحجبهم الحواجب ولا تحول بينهم وبينه الحوائل هم أيضاً رقباء عليه، يسجلون كل ما يأتيه وما يذره، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [قٓ: ١٨] والأرض التي هو عليها والجدر التي تواريه عن الأبصار أن تراه هي أيضاً رقيبة عليه وستؤدي الشهادة عليه يوم القيامة، وما حوله من أثاث ومتاع مما يستخدمه في المعصية قد يكون أيضاً شاهدا عليه يوم القيامة وهكذا كل ما انطوى عليه وكل ما هو حوله قد يأتي ليشهد عليه يوم القيامة إن لم يؤد الطاعة ويعمل الصالحات، فحري بهذا الإنسان أن يكيف نفسه مع هذا المعتقد وأن يجعل أعماله كلها ناشئة عن هذا الفكر الأصيل النابع من إيمانه المنغرس في وجدانه؛ حتى تكون أفعاله كلها ترجمة لهذا الإيمان وتصديقا له، ويكون في كل ما يأتيه في خلواته أو جلواته متفاعلا مع إيمانه بالحساب في يوم القيامة.

وقد بين الله سبحانه في كتابه العزيز أن العبد مسؤول في ذلك اليوم عن كل شيء فهو مسؤول عن النعيم الذي يتقلب في أعطافه في هذه الحياة الدنيا ويلامسه برده يقول تعالى:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ١-٨]، وفي حديث رسول الله ﷺ تبيان لما يسأل عنه العبد يوم القيامة، فالرسول ﷺ يقول: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس، عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم»[(١)]، فالعبد يسأل أول ما يسأل عن العمر الذي هو كبرى النعم، لأن النعم الأخرى تترتب عليها، فحياة الإنسان من أكبر نعم الله عليه لأنه لو لم يكن حيا لما أحس بنعمة من النعم الأخرى ولا بلذة من لذات الحياة ولا بشيء من راحاتها فالحياة جوهرة ثمينة وكل لحظة تمر منها هي محسوبة على العبد إذ لا تعود أبدا، فالأنفاس التي يتنفسها الإنسان هي خطواته إلى الدار الآخرة والأيام التي يقضيها هي مراحل يجتازها في هذه الرحلة، فعليه أن يغتنم فرصة الحياة ليعود بالخير، وعليه أن يكون في كل لحظة من لحظاتها أقرب إلى الله بصالح العمل والتقوى منه في اللحظة التي تقدمتها لأن كل لحظة تدنيه من لقاء الله ـ سبحانه ـ، وفي هذا يقول الشاعر:

ورَجِّ الفتى للخير ما إن رأيته ... على السن خيرا لا يزال يزيد

يرجى الخير للإنسان إذا كان كلما تقدم به العمر وسارت به السنون ازداد من الخير وكان أقرب إلى الصلاح وأبعد من الفساد.

ويسأل العبد عن الشباب سؤالا خاصا بعد السؤال عن الحياة كلها، لما في الشباب من نعمة، لأنه ريعان العمر وربيعه فهو تاج هذه الحياة،

(١) رواه الترمذي (٢٤١٦).

وجدير بالشاب أن يغتنم فرصة شبابه ليزداد من العمل الصالح ما يقربه إلى ربه ويصله به.

والشاب الصالح ليس هو الذي يلهث وراء شهواته ويسعى إلى ملذاته، ضاربا عرض الحائط أوامر ربه ونواهيه، ولا يغرن أحد نفسه فيقول إنه سيجتاز مرحلة الشباب وسيتوب إلى الله بعد اجتيازها وفي العمر فسحة، وفي الحياة، مهلة، إذ لا يدري الإنسان متى يفجؤه ريب المنون، فكم من شاب اخترمه ريب المنون وهو في ريعان شبابه وفي زهرة عمره، فذوى عوده بعدما كان نضيرا، على أن الإنسان إن شب على شيء شاب عليه، فإن شب على الشر وعلى البعد عن الله شاب على ذلك، لأن العادة مستحكمة في حياة المعتاد.

ويسأل العبد عن المال سؤالين، سؤال يتعلق بالكسب وسؤال يتعلق بالإنفاق لأن المال هو مال الله والعبد مؤتمن عليه ومستخلف فيه كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] وقال: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ [النور: ٣٣]، فعلى المستخلَف أن يرعى حكم المستخلِف، فبما أن المال مال الله ليس للإنسان أن يتصرف فيه كما شاء، وكسب المال من أي وجه كان يفضي إلى خطر عظيم، فقد قيل: «من لم يبال من أي باب دخل عليه الدرهم والدينار لم يبال الله به من أي باب أدخله النار»، وفي الحديث: «كل لحم نبت من سحت» وفي رواية: «من حرام» «فالنار أولى به»[1]، وقد بين الله ـ تعالى ـ لنا خطورة التعامل بالحرام في المال، حيث يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) رواه بنحوه الترمذي (٦١٧).

كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ٢٩ - ٣٠]، ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨]، ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠]، ويحذر الله الإنسان من جمع المال من أي طريق كان، حيث يقول:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴾ [الهمزة: ١ - ٩]، والنبي ﷺ يقول: «**القليل من أموال الناس يورث النار**»[١]، ويقول ﷺ: «**من اقتطع حق مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار**، قيل له: يا رسول الله وإن كان شيئا قليلا يسيرا؟ فقال: **وإن كان قضيبا من أراك**»[٢]، وجاء في بعض الروايات عن الرسول ﷺ «**لا يحل لأحد أن يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفسه**»[٣]، ويقول عليه الصلاة والسلام محذرا من الغلول: «**ردوا الخيط والمخيط وإياكم والغلول فإنه عار على أهله يوم القيامة**»[٤]، وجاء أيضاً في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سافرنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر فلم نغنم ذهبا ولا فضة إلا الأموال والمتاع، فأهدى رجل من بني الضبيب يسمى رفاعة إلى رسول الله ﷺ غلاما أسود يسمى مدعما، فوجه رسول الله ﷺ نحو وادي

(١) رواه الربيع ٦٩٠.
(٢) رواه الربيع (٦٦٠) ومسلم (٣٧٠).
(٣) رواه ابن حبان (٥٩٧٨).
(٤) رواه الربيع (٦٩٤).

القرى، فبينما مدعم يحط رحال رسول الله ﷺ إذ جاء سهم غرب فأصابه فقال الناس هنيئا له الجنة، فقال ﷺ: «**لا، والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها من المغانم يوم خيبر لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا**»[(١)]، وهذا يعني أن العبد محاسب على المال فعليه أن يتحرى تقوى الله ـ تعالى ـ في كسبه، بحيث يتجنب في كسبه الربا والغش والخيانة والاختلاس والغرر وكل ما حرمه الله ـ سبحانه ـ، وجاء أيضاً التحذير من إنفاق المال في غير الطرق المشروعة، لأن المال أمانة، فالعبد مسؤول عن إنفاقه وعليه أن يكون إنفاقه قصدا فيما يرضي الله ـ سبحانه ـ لا فيما يسخطه، وقد حذر الحق ـ تبارك وتعالى من الترف، وفضول العيش التي تؤدي إلى نسيان اليوم الآخر، فقد توعد الله ـ تعالى ـ المترفين بكل شر في الدنيا والآخرة في كتابه العزيز عندما ذكر أصحاب الشمال ووعيدهم الشديد وصفهم بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ [الواقعة: ٤٥]، وقال ـ سبحانه ـ مبينا ما ينتظر المترفين من عذاب الدنيا: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ ﴾، وقال: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١ ـ ١٣]، وبين أن شيوع العذاب في الناس منشؤه ترف المترفين وفسادهم إن لم يقبض الناس على أيديهم ويردوهم إلى الحق طائعين أو كارهين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦]، وبين أن تكذيب المرسلين ينشأ عن الترف فقد قال: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤]، وبين أن معارضة المصلحين تأتي من الترف أيضاً، فقد

---

(١) رواه الربيع (٤٧٠) والبخاري (٣٩٩٣).

قال ـ سبحانه ـ: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ ﴾ [هود: ١١٦].

والسؤال الأخير يتعلق بالعلم، لأن العلم إما أن يقود صاحبه إلى طاعة الله ورضوانه وإما أن يقوده إلى سخط الله ومعصيته فالعلم أمانة عند العلماء وعليهم أن يتقوا الله تعالى في أمانتهم وأن يتحروا مرضاته وأن يريدوا به وجهه، فالعلم قد يكون وبالاً على صاحبه إن لم يكن لوجه الله، ففي الحديث عن النبي ﷺ: «**من تعلم العلم ليباهي به العلماء أو ليماري به السفهاء لقي الله وهو خائب من الحسنات**»[1] والله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥] هل المقصود من هذا التعارف هو ما بين الأرحام أم المقصود به التَّعارف بين أصحاب الحقوق لأخذ الحق من الظالم إلى المظلوم؟

التَّعارف يوم القيامة يكون بين الناس بِقدر ما كان بينهم مِن معاملات في هذه الدنيا، ويُنصف الله ـ تعالى ـ للمَظْلوم مِن الظَّالم في ذلك اليَوْم، هَذِه هي الحقيقة التي أَشَارَ إِلَيْهَا القرآن وصَرَّحَت بِها السنَّة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فعدل الله ـ تعالى ـ اقتضى أن يُبْعَثَ النَّاس وأن يَتَعَارَفُوا يوم القيامة وأن يُوفى كُلُّ ذي حق حقه يَوْمَئِذ بِحُكم الله ـ تعالى ـ العادل؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

السائل يسأل عن قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٥-٨٦] وقوله: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى

(١) رواه الربيع (٣٣).

﴿ ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر: ٧٣] وقولـه: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ [الزمر: ٧١] ألا تدل الآيات السابقة على أن المؤمنين يدخلون الجنة مباشرة دون المرور على الصراط وأن الكفار يدخلون جهنم مباشرة أيضاً؟

ليس ذلك نصا في الموضوع، فلا مانع من أن يحشر المؤمنون إلى الرحمٰن وفدا ويُمَرّ بهم على طريق معين، وكذلك سَوْق المجرمين إلى جهنم، ولكن لعدم وجود الدليل القطعي في هذه المسألة لا نقطع فيها بشيء ومن أخذ بظواهر الأحاديث وإن كانت لا تبلغ حد التواتر واطمأن إليها قلبه واعتقد ما فيها من غير قطع لعذر المخالف فإنه لا يعنف والله تعالى أعلم.

هل يخطأ القائل بأن الصراط هو الطريق الذي هو أحد من السيف؟

لا يخطأ من قال ذلك والله أعلم.

ما هو تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١]؟

من سبقت لهم من الله تعالى الحسنى فهم مبعدون عن النار فلا يَرِدونها، ولا يدخلونها ولأجل بعدهم عن النار لا يسمعون حسيسها كما قال ﷻ ﴿ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٢] والله أعلم.

استدل على الصراط بالآية ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمًا مَّقۡضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١] وببكاء عبدالله بن رواحة في غزوة مؤتة وعندما سُئل قال: تذكرت هذه الآية فهل ذلك دليل على الصراط؟

هذه الروايات كلها روايات آحادية لا يجزم بها، والاستظهار الذي يستظهره الصحابي من النص أيضاً لا يقطع به، والله أعلم.

السائل يسأل يقول: يسجل مخ الإنسان كل ما يحدث في حياته من خير وشر فهل نستطيع أن نقول أن عقله يكون هو كتابه الذي يعطى يوم القيامة؟

هذا تأويل بعيد، فإن الله ﷻ بين أن الملائكة يكتبون الأعمال في هذه الدنيا ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ٩ ـ ١٢] فكيف يقال بأن المخ هو السجل الذي يحفظ هذه الأعمال وهو الذي يقدم إليه يوم القيامة ثم إن الله ﷻ بيّن أن الناس متفاوتون فمنهم من يعطى كتابه بيمينه ومنهم من يعطى كتابه بشماله ولا يكون ذلك في العقل لذلك أرى أن هذا تأويل بعيد جداً والله أعلم.

لقد قلتم إن على المسلم أن يسكت عن طبيعة مادة الكتاب الذي يعطى إياه الإنسان يوم القيامة، عندما يذكر الكتاب في القرآن أو غير ذلك من المصادر فإننا نتخيل ونتصور في عقلنا شكل الكتاب وهو على صورته المعروفة حاليا فهل يجوز لنا ذلك أم لا؟

يكفي الإنسان أن يؤمن بأنه سيعطى كتابه أما أن يتخيل شكله هل هو أبيض؟ أو أسود؟ وما هي مادته هل هو من ورق أو من جلد أو هو من شيء آخر؟ فذلك أمر نقف عنه ولا نتجاوزه ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦] والله أعلم.

لقد ذكرتم أن الإنسان إذا أطلق لنظره العنان في النظر إلى الحرام فإن عينيه ستكونان حجة عليه يوم القيامة، والله ﷻ يقول: ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ [الانفطار: ١١] أي ملك عن اليمين وملك عن الشمال يسجلون أعماله في كل ساعة ودقيقة وثانية، فالسؤال هنا هو إذا كان عمل هذا الإنسان عن

عمد منه وقصد ثم تاب إلى الله تعالى توبة نصوحاً، فهل يرى ذلك العمل السيء في كتابه ويحاسب عليه وتشهد عليه عينه؟

لا مانع من أن يراه ليستشعر نعمة الله عليه، وقد غفر الله تعالى له تلك الخطيئة وتقبل منه تلك التوبة، ومَحَا عنه أثر تلك السيئة، وأما الشهادة فإن الملائكة ـ كما قيل ـ ينسيهم الله سبحانه وتعالى هذه الخطايا، ويمحوها من صحائفهم والله أعلم.

في الدنيا لغات متعددة فعلى أي لغة سوف يحشر الناس، وعلى أي لغة سيحاسبون وما هي لغة أهل الجنة؟

الذي تدل عليه الدلائل أنهم سيُحشرون وسُيحاسبون باللغة التي اختارها الله سبحانه وتعالى لأن تكون لغة أهل الجنة، واختارها لأن تكون وعاءً لكلامه الخالد ـ القرآن الكريم ـ وهي اللغة العربية، وإن كان هذا ليس بالقطعي إلّا أن النفس تميل إليه، والله أعلم.

هل في يوم القيامة يُسأل كل والد عن ولده فإنه من المعلوم أن كل إنسان يوم القيامة سيكون في ذلك اليوم بالغا وسيحاسب عن نفسه، فهل سيحاسب الأب عن ولده في ذلك اليوم؟

نعم، يحاسب على تربيته لأولاده، لأنه إن انحرف الولد نتيجة تربية الأب الفاسدة فإنّ ذلك مما يُسأل عنه الأب، فإنّ من سنّ سنّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ سنّة سيّئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، فكل أحد مسؤول عن نتائج أعماله.. فمن كان قدوة صالحة كان ثواب صلاح غيره يعود مثله إليه، وكذلك من كان قدوة سيّئة لغيره فعاقبة انحراف الآخرين يعود ـ أيضاً ـ عقابها عليه بقدر ما يعاقَب أولئك لأنه كان السبب في انحرافهم، والله أعلم.

الأمم كُلها ستمثل أمام الله ﷻ وذلك أمر لا مرية فيه، فما هو مصير الأمم الأخرى غير المسلمة ؟

أوّلا نُريد أن نُبيّن أن كلمة الإسلام لا تَعْنِي هذه الأمة التي بُعِثَ فيها الرسول ﷺ، فأتباع المرسلين السَّابقين الذين لَم يُبَدِّلُوا وَلَم يُحَرِّفوا وَلَم يُغَيِّروا وَلَم يَكْفُرُوا برسول جاء مِن بعد رسولِهم هم مِن المسلمين، لأن الله تعالى حَكَى عن نوح ﷺ أنَّه قال: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢]، وذكر الأنبياء ووصفهم بالإسلام، وذكر الأمم السَّالِفَة التي استقامت على الطريقة ووصفها بالإسلام فالكل مِن أولئك كانوا مسلمين، وهُم ناجون ـ بمشيئة الله ـ ما داموا ملتزمين، أمَّا مَن كَفَر برسالة رسول بعدما كان متبعاً لِرَسُول ففي هذه الحالة يكون من الكفرة الـمُتَوَعَّدِين، إذْ الله ـ تعالى ـ يقول في النبي ﷺ وفيما أنزل عليه: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ [هود: ١٧]، ويقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة: ٦]؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

هل يعتبر انتشار الصحف يوم القيامة من الميزان ؟

على قول أصحابنا بأن الميزان تمييز العمل لا يبعد هذا التأويل، والله أعلم.

اختلف أصحابنا في مسألة الصراط فمنهم من قال هو الطريق المستقيم وهو طريق الحق والصواب، وهو ما عليه جمهور أصحابنا، يقول نور الدين السالمي: ـ

وما الصراط بجسر مثل ما زعموا وما الحساب بعد مثل من ذهلا

واتفق آخرون مع بعض المذاهب الإسلامية بأن الصراط جسر على جهنم

تمر عليه الخلائق بعد الانتهاء من الحساب وينجو أهل الجنة ولا يوفق العاصـــي ولا الكافر في عبوره فيهـــوى به في نار جهنـــم فما هو الرأي المعتمد في المذهب وما هو مدلول قوله تعالى ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧١-٧٢] وذلك عند الذين يرون بأن الصراط هو طريق الإسلام الطريق المستقيم؟

الحمد لله حق حمده والصلاة والســـلام على ســـيدنا محمـــد وعلى آله وصحبه وعلى كل من اهتدى بهديه ورشد برشده أما بعد: ـ

فإن أصحابنا رحمهم الله تعالـــى اختلفوا في الصراط، منهم من قال: بأنه هو الهدى الذي جاء به رســـل الله تعالى إلى خلقه، وهو دين الإســـلام فهو الصراط المستقيم، وهو الحق المبين، وهذا القول هو قول جمهورهم.

واستدلوا لذلك بأن الله سبحانه وتعالى وصف الصراط في القرآن الكريم وصفاً يدل على أنه هو الدين الحنيـــف فقد قال عز من قائل: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣] ويقـــول الله ســـبحانه: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦-٧] هـــذا الصراط قطعـــاً هو صراط معنوي، وهو الحق الذي جاءت به رســـل الله إلى خلقه تعالى، وفسره بعض العلماء بالقرآن لأن القرآن الكريم شامل لهداية الدين، ويدل على ذلك قول رسول الله ﷺ في وصف هذا القرآن الكريم «**ســـتكون من بعدي فتن كقطع الليل المظلم**» قيل له: وما المخلص منها يا رسول الله؟ قال: «كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ومـــن ابتغى الهدى في غيره أضله الله هو حبل الله المتين

ونوره المبين والذكر الحكيم والصراط المستقيم» والله ﷻ يقول أيضاً: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فالصراط المستقيم هو طريق الحق هو دين الله الإسلام، والسبل التي حذر الله تعالى منها هي مسالك الأحاديث التي رويت عن رسول الله ﷺ في وصف الصراط بأنه جسر على متن جهنم يعبره العابرون فمنهم الناجي، ومنهم الهاوي من ذلك الجسر والعياذ بالله في نار الجحيم، حملوا هذه الأحاديث على التمثيل تمثيل شأن هذا الدين الحنيف وذلك أن الإنسان في هذه الحياة يسلك طريق هذا الدين وهو يتخطى حواجز متنوعة من شهواته ورغباته ومن الملابسات المختلفة التي تكتنفه في سيره لترديه والعياذ بالله في مهواة الضلالة، فمن تمسك بحبل الله ﷻ نجا ومرّ مروراً سريعاً إلى جنة النعيم ومن لم يتمسك بحبل الله سقط في مهواة الجحيم والعياذ بالله أي [سقط في الأسباب التي تؤدي إلى النار] ويدل لهذا التأويل الذي أولوا به هذه الأحاديث ما أخرجه الإمام أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تتعوجوا وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه فالصراط الإسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله والداعى من فوق واعظ الله فى قلب كل مسلم» قال ابن كثير بعد ما أورد أسانيد الحديث (وهو إسناد حسن صحيح) فالتمثيل في هذا الحديث الشريف يقرب ذلك التأويل الذي حمل عليه

أصحابنا ما ورد في أحاديث رسول الله ﷺ من وصف الصراط الذي مثله رسول الله ﷺ بأنه جسر على متن جهنم، وذهبت طائفة قليلة من أصحابنا منهم الشيخ إسماعيل في قناطره، والشيخ هود بن محكم الهواري في تفسيره والإمام القطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هيميانه، وجوزه أيضاً في تيسير التفسير إلا أنه قال: لا يجوز أن يحمل عليه قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] ذهب هؤلاء رحمهم الله إلى أن الصراط جسر على متن جهنم كما ذهب سائر أصحاب المذاهب الإسلامية، وليس الخلاف في ذلك خلافاً دينياً[١] وإنما هو خلاف في الفهم والرأي، فأصحابنا القائلون بأن الصراط المقصود في تلك الأحاديث هو الحق الذي جاء به رسل الله تعالى إلى خلقه عَزَّوَجَلَّ يسلمون بصحة تلك الأحاديث وإنما يرون الحمل على هذا المعنى الذي حملوا عليه لأجل أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر الصراط في آيات كثيرة في كتابه العزيز ولم يقصد به فيها إلّا الدين الحنيف، والذين قالوا بخلاف ذلك يسلمون أن المقصود بالصراط في تلك الآيات الدين الحنيف، ولكنهم يرون حمل ما جاء من الأحاديث عن رسول الله ﷺ على ظاهرها لأن الأصل الحمل على الظاهر ويصار إلى التأويل مع القرينة الصارفة عن الحقيقة إلى المجاز، وأصحاب الرأي الأول يقولون في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٧١] بأن الخطاب موجه فيها إلى الكفار لأنهم هم الذين عنوا من قبل وذلك أن هذه الآية سبقها آيات وهي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ۝٦٧ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ۝٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ۝٦٩ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا﴾ [مريم: ٦٦ - ٧٠] وبعد

(١) أي ليس خلافاً يفسقُ المخالفُ فيه بل يعذر في اجتهادهِ ولو أخطأ.

هذا الحديث المسهب عن هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث ويتمردون على الفطرة وجه إليهم الخطاب لأن حقيقتهم صارت مستحضرة في ذهن سامع هذا الخطاب، فوجه إليهم الخطاب بقوله ﷻ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ وهذا يسمى التفاتا في عرف علماء البلاغة وله نكتة عامة وتصحب أحياناً هذه النكتة العامة نكت خاصة فنكتته العامة تطرية الكلام لأن من شأن السامع أن يمل الكلام إذا استمر على أسلوب واحد، ويتجدد نشاط السامع كلما تجدد الأسلوب، والنكت الخاصة متنوعة بحسب المقامات، والنكتة هنا أن بعدما وصف هؤلاء بما وصفوا به وذكروا بما ذكروا به استحضرت حقيقتهم عند السامعين فكانوا جديرين بأن يوجه إليهم الخطاب من قبل والالتفات معهود عند العرب وللقرآن الكريم منه النصيب الأوفر بل جاء في سورة الفاتحة التي هي أم الكتاب والتي تعد من حيث كثرة الكلمات والحروف من قصار السور، فالله ﷻ يقول فيها: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ١ ـ ٥] لقد كان السياق يقتضي أن يقال إياه نعبد وإياه نستعين ولكن عدل عن ذلك إلى هذا الأسلوب أسلوب الخطاب بعد الوصف الغيبي لأن الأذهان تستحضر عظمة هذا الموصف فكان جديراً بأن يوجه إليه الخطاب بهذا الطريق والله تبارك وتعالى أعلم.

ما رأيكم في الدكتور أحمد الكبيسي وهل نصدقه في كل ما يقوله بالنسبة للموت والعذاب والجنة؟

كلام أي أحد كان لا يقبل ولا يرد جزافاً، وإنما يجب عرضه على الكتاب العزيز والثابت من السُّنَّة فما وافقهما قبل وما خالفهما رفض، والله الموفق.

الجنة ونعيمها وأهلها

نرجو أن تحدثنا عن وصف الجنة ووصف النار؟

تحدث القرآن كثيراً عن المصير النهائي الذي ينتظر الناس، فريق في الجنة وفريق في السعير، فالله تعالى يقول: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦ - ٢٧]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٩ - ٩٠]، ويقول عز من قائل: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤]، ويقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٦]، فالمصير إما إلى جنة عالية وإما إلى نار حامية، والجنة سماها الله تعالى بهذا الاسم للإيحاء بما فيها من الظلال، واكتظاظ الأشجار بعضها على بعض فهي حديقة مكتظة الأشجار يتخللها جريان الأنهار، وقد وصف الله تعالى الجنة بما وصفها به من الخير إذ فيها النعيم الدائم، كما قال تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]، وكذلك يصف الله تعالى أهل الجنة بأنهم لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فما من شيء مما يميل إليه الخاطر ويهواه القلب وتأنس إليه النفس إلا وهو موفر في هذه الجنة، وبجانب ذلك فإن الله تعالى كتب لأهلها الخلود، فالحياة التي فيها

حياة غير منصرمة كما أن شباب أهلها شباب لا يبلى وصحة أهلها صحة لا تنقطع وغناهم غنى لا ينفد، ويقول تعالى في وصفها: ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥]، فقد وفر الله تعالى فيها أنهاراً من ماء لا يكدره شيء، فهو ليس كالمياه التي تتكدر وتتعفن وإنما هو أصفى المياه وفيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه، وفيها أنهار من عسل مصفى وفيها أنهار من خمر ليست كخمر الدنيا ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة: ١٩] أي لا يصيب شاربها صداع ولا أذى ولا يؤدي شربها إلى اللغو كما يؤدي شرب خمر هذه الحياة الدنيا، ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور: ٢٣].

هذه الجنة جاءت أوصافها في كتاب الله تعالى متكررة تشويقا للناس إليها وقد وعد الله تعالى بها عباده المتقين الذين يخشونه بالغيب ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ [الرحمٰن: ٤٦-٤٨] والأفنان جمع فنن، والفنن يعني الأغصان الكبيرة، ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ [الرحمٰن: ٤٩-٦٤] يعني الإخضرار الذي بهما يصل إلى حد الدهمة لأن الخضرة إذا كانت بالغة تكاد تظهر كأنها سواد ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمٰن: ٦٥-٧٣]

كما أن نساءها مطهرة، من كل الأرجاس الحسية سواء ما كان منها خاصا بالنساء في هذه الدنيا أو ما كان مشتركا بينهن وبين الرجال وطهرن أيضاً من الأرجاس المعنوية كالغل والحسد والكراهية وأمثال هذه الأشياء مما يكون في الرجال والنساء في هذه الدنيا فهن كما قال الله: ﴿أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقلوب أهل الجنة كقلب رجل واحد فليس هنالك غيرة تؤدي بهم إلى النفرة والشقاق والخلاف والنزاع كالذي يحدث في هذه الدنيا، فقد طهر الله تعالى تلك القلوب كلها من كل رجس معنوي كما طهر الله تعالى أبدان أهل الجنة من كل رجس حسي، وهم فيها خالدون لا ينقطع أمد بقائهم فيها.

وفي المقابل أهل النار يصف الله تعالى ما هم فيه وعليه من العذاب بقوله:

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ١٩ - ٢١]، كما أن وجوههم تغشاها النار، وقد حدثنا الله عن ذلك في قوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥٠ - ٥١]، وجمع الله تعالى لهم في هذه النار كل أنواع العذاب ـ والعياذ بالله ـ، إذا استسقوا سقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم، وما أدراك ما هذا الماء الحميم إنه من عصارة أهل النار أنفسهم ـ والعياذ بالله ـ، ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩] إذا أدني من الأفواه شوى الوجوه من حراراته، وتتقطع منه الأمعاء فهم في ظمأ زائد وفي سغب[١] مستمر وفي عذاب لا ينتهي، يتنوع عذابهم من حال إلى حال

(١) السغب الجوع، قال تعالى: «في يوم ذي مسغبة» أي يوم ذي جوع.

تغشاهم الأفاعي والعقارب ولهم ـ كما أخبر الله ـ مقامع من حديد تقمعهم بها زبانية النار فالعاقل يفكر في المصير الذي يريده لنفسه، ولا شك أن كل من يشفق على نفسه ويحبها لا يريد لها إلا مصير السعادة دون مصير الشقاوة، هذا وطريق الجنة يسلكه الصالحون الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالله تعالى يقول: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥] فلا بد من الجمع بين رسوخ العقيدة وصلاح العمل (الاستقامة)، أما الطريق الآخر ـ والعياذ بالله فهو للذي أعطى نفسه هواها وتمنى على الله الأماني، وقد حذر الله ـ سبحانه ـ هذه الأمة من أن تتعلق بالأماني كما تعلقت به الأمم من قبلها فقال عز من قائل: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٣]، وفي هذا ما يحفز الناس إلى التوبة النصوح من الأعمال السيئة ويحفزهم إلى الأعمال الصالحة لأجل أن يتبوؤوا مقاعد الهناء والسعادة في جنة عرضها السماوات والأرض، فهي ليست بمقدار الأرض، ولا بمقدار المجموعة الشمسية التي تدور حولها الأرض، ولا بمقدار مجرة من هذه المجرات وإنما هي جنة عرضها السماوات والأرض، وما أدراك ما عرض السماوات والأرض، لا يمكن أن يتصور أحد من خلق الله عرض السماوات والأرض فإن ذلك مما يعلمه الله تعالى وحده، وما يكتشف الناس من هذا الكون الذي يدور في الفلك الأعظم، إنما هو زاوية صغيرة، ومع ذلك تقدر هذه الزاوية بعشرات الملايين من السنوات الضوئية، هذه الجنة أعدت للمتقين، ولم تعد للفجار قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ

﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٥]، ويقول الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤ - ١٥]، من هؤلاء المتقون؟ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٦ - ١٧] هؤلاء هم الذين جعل لهم الله تعالى هذه الجنة، فالجنة ليست تدرك بالأماني وإنما تدرك قبل كل شيء بتوفيق الله وفضله ثم بعد ذلك بالجهد الجهيد الذي يبذله العبد في طاعة الله ـ سبحانه ـ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠]، ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨ - ١٩] فلا بد من أن يسعى لها سعيها مع إيمانه ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ - ١٦]، فقد هيأ الله تعالى الجنة لمن أراد حرث الآخرة وسعى سعي الآخرة بحسن العمل والاستقامة على طاعة الله سبحانه وتعالى في السريرة والعلانية، وخشي الله عز وجل ونهى النفس عن الهوى، فعلى العاقل أن يذل نفسه بأن يحملها على طاعة الله ويذللها في سبيله حتى تكون منقادة في كل صغيرة وكبيرة لأمر الله، وأما الأحمق فهو الذي يعطي نفسه هواها ويتمنى

على الله الأماني كما جاء في حديث رسول الله ﷺ «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أعطى نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**»، والله أعلم.

هل أبناء الزنا يكونون عبيداً في الجنة ؟

أبناء الزنا كغيرهم من الناس، لا فرق بينهم وبين غيرهم، فالصالحون منهم لا يعلق بهم شيء من أوزار آبائهم وأمهاتهم ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وغير الصالحين منهم يحاسبون على أعمالهم فقط ولا يحملون أوزار غيرهم، فالصالحون منهم لا يكونون عبيداً ولا أرقاء، بل لهم منزلة عالية عند الله بسبب صلاحهم واستقامتهم وسيتبوّؤون الدرجات العلى في جنته والله أعلم.

السائل يسأل يقول: ذكر أن هناك اتصالاً بين أهل الجنة وأهل النار وأنهم ـ أي أهل الجنة ـ قد يرونهم ويرون العذاب الذي هم فيه، والمعلوم أن في الجنة نعيماً خالداً فكيف يكون التوفيق بين ذلك ؟

طبيعة الناس يوم القيامة تختلف عن طبيعتهم في هذه الحياة الدنيا، فالله سبحانه وتعالى بيّن لنا في كتابه العزيز ما يكون من تقاول بين أهل الجنة وأهل النار، وقد يستعظم ذلك الإنسان ويستكبره لقصور عقله وعدم إدراكه، والمبتكرات التي ابتكرها الناس في هذا الوقت جعلها الله تعالى حجة على عقول أولئك الذين يلحدون في آياته، فقد أصبح الإنسان يرى المشاهد من أماكن شاسعة جداً ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل بجانب رؤيته لتلك المشاهد يسمع الاصوات كأنما يتحدث المتحدثون بها عن قرب، وهذا دليل واضح يقطع شبهة أولئك الذين يحاولون أن يجادلوا في آيات الله.

أما كون أهل الجنة يرون أهل النار فالله تبارك وتعالى بين ذلك في قوله: ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٥٥] ولكن لا ندري، هل الذي يرى المعذبين في النار يحس بمقدار ما يصلونه من العذاب أو لا يحس بذلك؟ فإن علم ذلك إلى الله ﷻ وإنما نحن نؤمن بأنه يطّلع عليهم ويعلم أنهم معذبون، ولعل الله ﷻ يطبع أهل الجنة يومئذ بطبائع مختلفة تجعلهم لا يتأثرون بمثل هذه المشاهد وهو الأقرب والله أعلم.

هل يمكن أن يكون دليل القائلين بأن جنة آدم عليه السلام موجودة في السماء قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة: ٣٦] مخاطباً إبليس عليه اللعنة؟

نعم استدل بذلك من قال بأن الجنة التي أخرج منها آدم هي جنة الخلد، ولعل الذي قال بأنها جنة في أحد الأجرام الفلكية استدل بالآية نفسها غير أن دلالتها على هذا غير قطعية فإن الله ﷻ عبّر بالهبوط عن الانتقال من مكان إلى مكان كما في قوله: ﴿ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا ﴾ [البقرة: ٦١] فلا يفيد قوله: ﴿ ٱهْبِطُواْ ﴾ القطع بأن هذه الجنة كانت في الجهة العلوية.

وهنا لي ملاحظة على كلام السائل حيث نسب الخطاب في الآية الكريمة إلى إبليس فقد رأيت المفسرين قالوا: إن المخاطب بـ﴿ ٱهْبِطُواْ ﴾ آدم وحوّاء وإبليس وأن المراد بالضمير في قوله تعالى: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ آدم وحوّاء وإبليس فآدم وحواء عدوان لإبليس وهو عدو لهما، ومنهم من أضاف إليهم عنصراً رابعاً لم تشر إليه الآية الكريمة من قريب ولا من بعيد وهو الحية تعويلاً على روايات إسرائيلية لم يثبت منها شيء، مفادها أن إبليس عليه لعنة الله عندما أراد ان يغوي آدم عليه السلام حار في الوصول إليه لإغوائه وعرض نفسه على الدواب التي كانت تدخل الجنة أن تحمله

فرفضت موافقته على طلبه حتى عرض ذلك على الحية فوافقت وأدخلته بين أنيابها، ودخلت به إلى الجنة في غفلة من رضوان خازن الجنة ـ هكذا قالوا ـ وبسبب ذلك مسخ الله ﷻ الحية عقوبة لها، وقد كانت لها من قبل قوائم تمشي بها فجعلها تزحف على بطنها وجعلها الله شديدة العداوة للإنسان والإنسان شديد العداوة لها عقوبة لها على فعلتها، وهذا لا دليل عليه، مع أن الآية الكريمة اختتمت بقوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨] ثم وليها قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٩].

وهذا الخطاب لا يمكن أن يكون موجهاً إلى إبليس ولا إلى الحية، لأن الدعوة إلى الهدى والوعد على اتباعه لا نصيب فيهما لإبليس ويستحيل اندراجه في عموم هذا الخطاب بعدما حكم الله ﷻ عليه بالطرد واللعنة والإبعاد من رحمته وعداوته المستمرة لله وأمهله إلى يوم القيامة ؟ وكيف يتصور أن يتبع إبليس الهدى الذي يأتي من قبل الله ليبلو البر والفاجر من عباده ولتترتب على ذلك سعادة السعيد وشقاوة الشقي ؟

والحية أيضاً يتعذر أن تكون مخاطبة بهذا الخطاب لأنها غير مكلفة، وإنما الخطاب في قوله: ﴿ ٱهْبِطُواْ ﴾ لآدم وحوّاء مع ذريتهما، وإنما خوطبا خطاب الجمع لأنهما مشتملان على عناصر هذه الذرية، وقد جعل الله تعالى من طبيعة هذه الذرية أن بعضها لبعض عدو بحسب انقسامهم في السلوك فمن سلك طريق الحق فهو عدو الذي سلك طريق الباطل ومن سلك طريق الباطل عدو للذي سلك طريق الحق هذا بجانب ما يكون من بينهم من التعادي بسبب تجاذبهم وتدافعهم في هذه الحياة.

أما خطاب آدم وحوّاء في سورة طٰه بصيغة التثنية: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢاۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا

يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤] فلأنهما هما المخاطبان أصالة والذرية تبع لهما، ولا يستنكر أن يخاطب المعدوم مع الموجود فإن التكاليف الشرعية التي جاءت في كتاب الله تعالى ما كانت محصورة في الموجودين في وقت نزول الوحي بهذه التكاليف؛ فقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٤٣] لا ينحصر الخطاب فيه في الذين كانوا موجودين أحياء عقلاء في وقت نزول هذه الآية بل هو خطاب مستمر لهم ولمن يأتي من بعدهم إلى أن تقوم الساعة، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، فكل خطاب فيه أمر أو نهي في كتاب الله لا ينحصر في الأمة الموجودة إبان الوحي.

وقد اطلع أحد المشايخ المتنورين على ما ذكرته في التفسير وعلى هذا الوجه الذي ارتأيته واعتمدت عليه وهو أن الخطاب في سورة البقرة لآدم وحوّاء مع ذريتهما، فوجّه إليّ سؤالاً خلاصته بأنه يتعذر أن يكون الخطاب للذرية معهما لأن خطاب المعدوم غير جائز وأنه يترتب على هذا أمور عدة... فأجبته عن هذا بأن نظريات العلماء ومصطلحاتهم يجب أن تكون تبعاً للأدلة وألا تكون الأدلة تابعة لها فما دمنا نقرأ في كتاب الله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ونقرأ: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ونقرأ: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾

ونقرأ النهي عن قتل النفس وعن الزنا ونعلم أن ذلك كله يتوجّه إلى هذه الأمة جميعها حاضرها وغائبها إلى أن تقوم الساعة؛ ولا يمكن لأحد أن يعتذر بحال من الأحوال بدعوى عدم شمول الخطاب له لأنه لم يكن موجوداً إبان نزول الخطاب، فيجب علينا أن نعتقد شمول خطابه التكليفي للجيل الذي عاصر الخطاب ولمن بعده.

على أن آدم وحوّاء مشتملان على عناصر الذريّة، وما يدرينا ما الذي حدث عندما وجّه الله هذا الخطاب إلى آدم وحوّاء فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فما يدرينا أن الله ﷻ أشعر هذه الذرية من خلال هذا الخطاب: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨] بما سيقبلون عليه من التكاليف من خلال وحيه الذي ينزله على رسله، فإن ذلك من الغيب المحتمل، والله تبارك وتعالى على كل شيء قدير ولكن لعدم الدليل على ذلك يجب علينا الوقوف وعدم التكلف في طرح الاحتمالات التي نبرر بها خطاب المعدوم من هذه الناحية، وإنما يكفينا أن نقول: بأن نفس خطاب الأصل يكون خطاباً للفرع، ولا يمتنع أن يخاطب المعدوم بالتبعيّة للموجود.

هذا وأمّا ما قاله كثير من المفسرين: بأن الحية هي التي أعانت إبليس بإدخاله الجنة لإغواء آدم: فهو لا يعدو أن يكون من أساطير الإسرائيليين، ونحن نؤمن بأن تأثيراً من إبليس عدو الله على صفي الله آدم وزوجه أمّنا حوّاء عليهما السلام أدى بهما إلى نسيان عهد الله ومخالفة أمره، لكن لا يلزم أن نبحث عن الوسائل التي اتخذها إبليس لهذا الغرض، ولا ريب أن القوة الشيطانيّة هي قوة روحانيّة شريرة يمكن التأثير بها من بعيد كما أن القوة الملكية قوة روحانية خيّرة، والملك له تأثير في الإلهام وغيره، مع أننا لا نستطيع أن نعرف كيفية اتصاله بالإنسان فيؤثر عليه؟.

وإذا كان الإنسان الآن يجد في الطاقة الروحانية البشرية التي اختفت عن الناس ولم يستطيعوا تفسيرها أمراً عجباً كالتأثير المغناطيسي الذي يستطيع الإنسان من خلاله أن يخاطب إنساناً في الهاتف فينومه كما ذكرت ذلك الصحف، فقد جاء في بعضها: أن من عنده هذه القوة قد يكلّم إنساناً في

الهاتف ويؤثر عليه من خلال المكالمة فينومه تنويماً مغناطيسياً، فكيف بهذه القوة التي أودعها الله ﷻ في الشياطين؟.

وهناك دلائل على أن الناس في القرون الغابرة قد استطاعوا أن يستخدموا هذه الطاقة الروحانية استخداماً غريباً يعجز الموجودون ـ مع تقدمهم في المجال المادي ـ أن يأتوا بمثله، ومن ذلك ما ذكره الله سبحانه بقوله: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل: ٤٠] فبأي قوة جاء بالعرش من مكان بعيد إلى حيث كان سليمان عليه السلام في أقل من طرفة عين؟

لا ريب أن المتبادر أن القوة الروحانية هي التي استخدمها في تحقيق هذا الغرض، وما يدرينا أن يكون ما نشاهده الآن من عجائب البنايات القديمة كالأهرامات وغيرها استخدم فيها نوع من هذه الطاقات، والله أعلم بذلك.

السائل يقول: ألا يكون هناك رد على الاستدلال بأن الجنة مخلوقة بقوله تعالى: ﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٤ - ١٥]، لأن الجنة المذكورة هي جنة آدم عليه السلام.

جنة آدم ليست بالقطع هي جنة المأوى فيحتمل أن تكون إياها وأن تكون جنة أخرى والله أعلم.

نعلم بأن الرجل جزاؤه في الجنة الحور العين، فما جزاء المرأة مقابل ذلك؟

قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧] وهي ولا ريب تستمتع بالنصيب الأوفر من زوجها والله أعلم.

أردنا منك ـ أيضاً ـ أن تشرح الآية القرآنية التي تصف أهل الجنة عندما يدخلون الجنة يقول تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧] هل يكون بين المسلمين الذين يدخلون الجنة غِل؟

قد يبقى في النفس شيءٌ مِن الكَدر لسبب أو لآخر، أو قد يلحق المسلم مِن المسلم شيء مِن الأذى، ويستمر على كدره ذلك بسبب ما لحقه مِن الأذى حتى يَموت، ثم يَتوب ذلك الذي صدر مِنه الأذى بعد ذلك، فيكون مِن أهل الجنة، بل من المحتمل أن يقتل أحد أحدا مِن النَّاس عُدوانا، ولا ريب أن ذلك المقتول يكون في نفسه حرج على هذا القاتل، ولكن إن تاب القاتل وسلم نفسه للقود وماله للدية يكن من أولئك الذين يُبدل الله سيئاتهم حسنات، وعندما يلتقيان يزول ما بينهما مِن الكَدر فالله تعالى يقول: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠]، والله أعلم.

 الشهادة في سبيل الله

وَرَد في بعض الأحادِيث أَنَّ مَن يَمُوت بِسَببِ فِعْلٍ خارجٍ عن إرادَته ـ بِسبَبِ قَدَرٍ سَماوِي كالغَرِيق والحَرِيق والمَبْطُون والذي وَقَصَتْهُ دَابَّتُه بِأَنَّه شَهِيد، فهل يَدخُل مع هؤلاء مَن يَمُوتُون بِسَبَبِ الزلازِلِ والبراكِين وغيْرِها؟

كلُّ أحَد يَكونُ في قَرَارَةِ نفسِه الإيمانُ بِالله واليوم الآخِرِ والعمل الصالِح ويَحرِص على أنْ تَكون كلمةُ الله هِيَ العُلْيَا وكلمةُ الذين كفروا السُّفْلَى فإنَّه إن ماتَ على ذلك فهو شهِيد، والله أعلم.

يقول النبي ﷺ عن مفهوم الموت في سبيل الله ﷻ: «مَن قَاتَل لِتَكُون كَلِمَة الله هِيَ العُلْيَا فهو في سبيل الله»[1] والكثير مِن المسلمين يفهمون الشهادة عَلَى أَنَّها الميتة التي تكون في معركة مع أعدائهم لكن يَحْصُل مِن الأطرَاف الأُخرى في بعض الأحيان أن يَدفعوا المسلم إلى الشَّهَادة مِن غَيْر أَن يَكُون بَيْنَه وَبَيْنهم مُوَاجَهَة، فَهَذَا التَّصَرُّف مَع المسلم وَدَفْعُه إلى الشَّهادة بِهَذِه الطريقة ما حكمه؟ وما تَقُولُون فيه؟

إنّ الله تعالى قَد كَتَب عَلَى عِبَادِه جَمِيعاً أن يَمُوتُوا، وهو وحده الـمُتَفَرِّد بِالبَقَاء ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وَقد حَثَّ سبحانه عِبَادَه عَلَى الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيله وجَعَلَه مِن أَعْظَم القُرُبَات إِلَيْه وَوَعَدَ عَلَى ذلك خير الدنيا والآخرة فالله ـ تعالى ـ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣]، ففي الآخرة يعدهم بِمَغْفِرَة الذُّنُوب وَدُخُول جَنَّة أَعَدَّها الله تعالى لِعِبَاده المؤمنين المتقين وَمَسَاكِن طَيِّبة في جَنَّات عدن، وَمَعَ ذَلِك يَعِدُهُم بِخَيْر الدنيا وهو أن يُمَكِّن لَهُم فِي أَرْضِه، وأن يَمُنَّ عَلَيْهِم بِفَتْح مِن لَدُنْه ونَصر قَرِيب، فذلك كلُّه مِمَّا يَدُل عَلى فَضْل الجِهَاد.

وَحضَّ ﷻ عِبَادَهُ عَلَى الرَّغْبَة في الاستِشْهَاد في سبيله إذْ ذَكَرَ ـ جل شأنه ـ مَا يُشَوِّقُهم إِلى ذَلِك حينما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ

(١) رواه البخاري (١٢٣) ومسلم (٥٠٢٩).

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠].

والشَّهادة في سبيل الله لا تَعني فقط أن يكون الإنسان أمام عَدُوٍّ يُوَاجِهُهُ وَجْهاً لِوَجْه، بَل لَو كَان أَحَد نَذَرَ حَيَاتَه جِهَاداً في سبيل الله وَاغْتَالَه العَدُوُّ من خَلْفِه فإن ذلك مِمَّا يُعَد شَهَادَة في سبيل الله مَا دَامَ مُخْلِصاً لله ـ تعالى ـ نِيَّته قاصداً بِعمله وجِهاده وجهه مُبْتَغياً رِضْوَانه يسعى لأن تكون كَلِمَة الله هِيَ العُلْيَا وكلمة الذين كفروا السُّفْلَى.

على أنَّ مِن كَوْن كلِمَة الله ـ تعالى ـ العُلْيَا أن يُنصَف للنَّاس في هذه الأرض، فإن الله تعالى يُحِب العَدْل بَين عباده، فانتزاع الحقوق المغتصبة بالسَّعْيِ إلى الجِهَاد في سبيل الله ـ تعالى ـ يُعَد من أعْظَم القُرُبَات التي تُقرب إلى الله زُلْفَى، والإنسان لا يَتَحَسَّر لِمَواكب الشهداء التي تَتَوَافَدُ إلى الله ﷻ موكباً إثر مَوْكِب أو شهيداً إثر شَهِيد، وإنَّما الحسْرَة مِمَّا وَصَلَت إلَيْه هذه الأمَّة مِن كَوْنِها أصبحت مُسْتَخْذِية ذليلة مهينة لا تَمْلِك لِنَفْسِها أن تَتَصَرَّف أيَّ تَصَرُّف يَرْتَفِع بِهَا من كَبْوتِها هذه ويَنْهَض بِها مِن عَثَارِهَا، فلذلك يَجِب على الأمَّة أَمَام هَذَا العُدْوَان الغاشِم مِمَّن يُرِيد بِهَا السُّوء ويُرِيد بِهَا الشَّر أن تُحَاسِب نفسها وأن تعرف واجبها وأن تَعْمَل من أجل ما فيه عِزُّها ومَا فيه شرفها في الدنيا والآخرة، والله الموفق.

في الحديث: «مَن قَاتَل لتكون كلمة الله هي العُلْيا فهو في سبيل الله» هناك حديث آخر: «من قاتل دون عرضه وماله فهو شهيد»[١]، هل هذا الحديث استثناء من هذه القاعدة أم تفسير لها؟

(١) رواه الترمذي (١٤٢١) بلفظ (من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد).

لَيْس في ذَلِك اسـتِثْنَاء لأن الإنسـان الذِي يُقَاتِل دُون مَالِه ودون عِرْضِه إنَّما يُقَاتِـل لِتَكُون كَلِمَة الله هـي العُليا وكلمة الذين كفروا السُّـفلى، إذ الله تعالى لا يُرْضِيه أن تُنتهـك حُرُمَات الأعراض والأَمْـوَال ولا أن تُنْتَهَك أيَّ حُرْمَة من حُرُمَات عبَـادِه، فقد جعل الله تعالى لكل أحـد حُرْمة، فَمَن قَاتل لأجل الذَّب عَن حُرْمَة من هذه الحرم فهو مقاتل في سبيل الله ومقاتل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السُّفلى، والله أعلم.

ذكرتُـم الآيــة: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، هل الشـهيد في هذه الحالة ينتقل مباشـرة إلى الجنة بجسده وروحه وتبقى صورته فقط ؟

علينا أن نُـدرك أنَّ حياة البَـرْزَخ هي حياة غيبيـة، وأن نؤمن بِعَالم الغَيْب بِقدر ما وصلْنا إليْه مِن الفَهْم من خلال النُّصوص التي جاءت في كِتَاب الله ـ تعالـى ـ والتي ثبتت عن رسـول الله ﷺ من خلال نصوص الكتاب ومن خـلال نصوص السُّـنة الثابتة الصحيحـة، والآية الكريمة أَخْبرتنا بأن الذين استشـهدوا في سَـبِيل الله هُم أحياء عند ربِّهم يُرْزَقون وأنَّهم فَرِحُون بِمَا آتاهـم الله من فضله، فعلينا أن نؤمن بذلك، أما الزيادة على ذلك فلسنا مكلفين بِها، مع أن هنالك أحاديث جاءت عن النبي ﷺ تدل على أن أرواح الشـهداء تكون في طير خضر تَمْرح في الجنة وتَأكل من ثمار الجنة وهي وإن لم تبلغ مبلغ التَّواتر ولكنها مِمَّا تطمئن النفس إليه في بيـان هذا المعنى فلعل هـذا هو الرزق الذي يشـير إليه القرآن الكريم فـي قوله تعالى: ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ ومع هَـذَا أَيْضاً لا ريب أن جسـد الشـهيد لا ينتقل فوراً إلى الجنة، بل يبقى مدفوناً، ولذلك عندما يَمُوت الشهيد لا بد من أن يُدْفن جَسَـدُه ولا بد مِن أن تُؤَدى له حقوق

الموتى فَهُو لو كان يَنْتقل فور استشهاده إلى الجنة لَما بَقِيت جثته بين الناس، ولكن مَهْمَا كان فإن للشهيد حياة تَخْتَلف عن حياة غيره، من الأموات، والله أعلم.

 البعث والنشور

مِن خلال تأمُّلنا لِكتاب الله ـ تعالى ـ نلاحظ أنَّ الكفار يُكَذِّبُون بالبعث أكثر من تكذيبيهم بالخالق سبحانه.

نعم هُم يعتقدون وُجُودَ الله ولكنهم يُشركون معه آلِهة أخرى، فلذلك يسلُبُونه ﷻ ما هو خاص به وحده، ومن هُنَا يُقيم الله تعالى عليهم الحجج في كتابه فهو يقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

أمَّا بالنِّسبة إلى الـمَعَاد فَهم يتجاهَلُون آيات الله تعالى الكُبرى التي تدل على المعاد، وإنَّما الفطرة دَعَتهم إلى الاعتراف بوجود الله، لأن الإنسان الذي يُنْكِر وجود الله ـ تعالى ـ إنَّما يُكابِر فطرته ويُغالب عقله، إذ كل ما في الكون يدل على وجوده سبحانه، ولذلك قال سبحانه تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] يعني أنَّ كل ما في هذا الكون من أجزاء السماوات والأرض دال عليه سبحانه، فكل ذرة من ذَرات الوجود إنَّما هي كلمة من كلمات الله ناطقة بتَوْحيده ﷻ وبتسبيحه ودالة على وجوده، كما قال الأعرابي عندما سُئل: «بِمَ عرفت ربك؟» فقال: «البَعْرَة تَدُلُّ على البَعِير، وأثر القدم يدل على الـمُثير، فَهَيْكَلٌ عُلْوِيٌ بِهذه اللَّطَافَة، ومركز سُفْلِيٌ بِهذه الكَثَافَة ألا يُدُلان على الصانع الخبير؟!»

وبالنسبة إلى يوم القيامة فإنَّ الله تعالى أقَام عليهم الحجج لأنَّهم لقصور عُقُولِهم استبْعَدوا أن يُبْعث الإنسان بعد أن يَموت وتتحوَّل خلاياه إلى ذرات ترابية مُتَبَعْثِرَة تتلاشـى في هذه الأرض وتغيب فيها، فَرَأَوا من الـمُستَبْعَد أن يَجمع الله سبحانه هذا الشَّتات وينفخ في الإنسـان هذه الرُّوح مرة أخرى، ولذلك ضَرَبَ الله ﷻ لَهم الأمثال وبيَّـن لَهم آياته الدالَّة على أن ذلك ليس عسيراً ولا شاقاً بل هو هَيِّن في حقه جل شـأنه ـ وكل شيء هيِّن في حقِّه ـ وإنَّما هذا أهْوَن من نشـأة الكون الأولى، فقد قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٨٣] فـالله ـ تعالى في هذه الآيـات ضَرب هنا مثـلاً لِهؤلاء الذين يُكابرون في حقيقة البعث ويُمارُون فيه، إذ بَيَّن أن الإنسـان خُلِق من نُطفَة، وهي جزء حَقِير، بلغ فـي حقَارته أنَّه يُنظر بالـمِجْهَـر ولا يَكَاد يُبْصَر، ومع ذلك توجد فيه جميع خصائص البشـرية العامة التي يشـتَرك فيها البَشـر، وتوجَد ـ أيضاً ـ فيها جَميع الخصائص الأسـرية الخاصـة التي تُتَوَارث من أسـرة إلى أسـرة، ولذلك يكون الشَّـبَه حتى إلى جُدُود بعِيدِين بسبب هذه الخصائص المتوارَثة التي تنطوي عليها تلك الخلية.

ثم مع ذلك طوَّر الله تعالى هذا الإنسـان أطوَارا حتى أخرجَه إنساناً بِهذا القَدَر، فجعل هذه الخلية تتولد منها ملاييـن الملايين من الخلايا المتنوعة، ومع ذلك نَفَخَ فيه مِن رُوحِه، وجَعل له السَّمع والبصر والمشاعِر والحواس والعِلْم والقُدْرة... إلخ.

وكل من ذلك دليل على أنَّ الله ﷻ ليس بعزيز عليه أن يُعِيد هذا الإنسان مَرَّة أخرى كما خَلَقه أول مَرَّة.

وبَيَّن ـ سبحانه ـ مع ذلك أنَّ الذي يُحْيي العظام وهي رميم هو الذي أنشأَهَا أوَّل مَرة بِهَذِه الحالة، وأنَّه هو الذي خلق السماوات والأرض، فمن خَلق السماوات والأرض لا يُعْجِزُه أبداً أن يُعِيد خلق الإنسان كما كان أول مرَّة لأن السماوات والأرض لَم تكن موجُودة من قبل وقد أخرجها من العدم بل كل الكون أخْرَجَه الله تعالى من عدم، وإذا كان أخرج هذا الكون المترامي الأطراف كله من العَدَم فكيف بالإنسان فإن لم يكن شيئا مذكورا وقد انتزعه الله من العدم وشرفه بالوجود فجعله سَميعاً بصيراً أَوَلا يقدِر الله تعالى الذي أوجد هذا الكون من عدم على إعادته مرة أخرى؟! بل ذلك أهْوَن والكل في حق الله هَيِّن؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.




الشفاعة الأخروية

من هم المستحقون للشفاعة يوم القيامة ؟

الإيمان باليوم الآخر إنما هو إيمان بالغيب، والإيمان بالغيب لا يتوصل إليه إلا بالنصوص القاطعة التي جاءت في كتاب الله ـ سبحانه ـ أو التي نطق بها الرسول الأمين الذي لا ينطق عن الهوى، وفي هذا المقام نتحدث عما أخبر الله ـ سبحانه ـ به في كتابه العزيز من طبيعة العلاقات بين الناس التي تكون عند البعث، فإن العلاقات والوشائج التي تكون في هذه الدار الدنيا سواء كانت سببية أو نسبية تتقطع يومئذ ولا تبقى علاقة إلا علاقة التقوى بين عباد الله تعالى المتقين، فالله ﷻ يقول في كتابه: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ

﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فلا يستفيد يومئذ أحد من عمل غيره إنما يستفيد من عمله إن عمل صالحا، كما لا يؤاخذ أحد بجريرة غيره، فالله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقد حذر ـ سبحانه ـ جميع الأمم من ذلك اليوم، فقد قال في معرض خطاب أمة الرسول ﷺ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، ووجه الخطاب سبحانه وتعالى إلى المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وخاطب بني إسرائيل فقال عز من قائل: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]، ثم أعاد هذا الخطاب أيضاً فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال سبحانه في وصف هذا اليوم: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٩]، وقال ـ تعالى ـ أيضاً في وصف هذا اليوم وما يلقى فيه العبد من الجزاء: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٩ - ٩٠]، وقال ـ سبحانه ـ في هذا المعنى نفسه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤] هذه الآيات وغيرها مع الأحاديث المروية عن النبي ﷺ تدلنا على أن ذلك اليوم كل أحد فيه رهين عمله، فلا يوفى أحد ذلك اليوم إلا جزاءه، فيجزى الذين عملوا الصالحات بالحسنة، ويجزى الذين عملوا السيئات بالسيئة.

ولا ريب أن قوارع القرآن إنما يستفيد من نذرها أولئك الذين لم يغتروا بأماني الشفاعات، فإنهم باعتقادهم الجزاء على الأعمال يحرصون على التكيف وفق أوامره وزواجره، فلا تخدعهم أنفسهم فيرتكبوا زواجره ويدعوا أوامره، وهذا صريح في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]، فأنت ترى أن الله تعالى وجه نبيه ﷺ إلى إنذار هذا الصنف من الناس لأنهم هم الذين ينتفعون بالنذر، إذ لا يرتجون أن ينجيهم من عذابه ما يمتون به من صلة إلى ولي ولا شفيع، وناط تعالى باعتقادهم هذا ترجية تقواهم.

هذا وإذا جئنا إلى ما يتعلق به الناس من الأماني فإننا نجد كتاب الله سبحانه تجتث آياته هذه الأماني وتقطع حبالها، يقول سبحانه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣] فيحذر سبحانه من التعلق بالأماني التي تعلق أهل الكتاب بها، فليس لأحد أن يغتر بسبب أو بنسب، فإنه لا نسب بين أحد وبين الله ـ تعالى ـ، ولا سبب إلا التقوى، فمن اعتصم بحبل تقوى الله ووصل نفسه به ـ سبحانه ـ من خلال العمل الصالح واجتناب العمل السيء كان عندئذ مقبولا عند الله ـ تعالى ـ، ويوفى جزاءه بدون حساب، أما من فرط في ذلك فلا يلومن إلا نفسه، فقد أعذر الله إليه بهذا الخطاب الذي وجهه إليه في هذه الآيات الكثيرة.

وإذا جئنا إلى باب الشفاعة نجد أن من الآيات ما جاء نافيا للشفاعة نفيا مطلقا، كقول الله ـ سبحانه ـ خطابا للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وكذلك قول الله ـ سبحانه ـ لبني إسرائيل: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ

﴿شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، وكذا قوله ـ سبحانه ـ أيضاً لبني إسرائيل:

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، ونجد في آيات أخرى إثبات الشفاعة مشروطة بشروط، فالله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ويقول عز من قائل:

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فاستثنى في الآية الأولى من ارتضى وفي الآية الأخرى الإذن، وقبل أن نتحدث عن الجمع بين هذه الآيات وما بين الروايات المروية في الشفاعة عن الرسول ﷺ، نلقي الضوء على معنى الشفاعة، فالشفاعة من حيث أصل الدلالة اللغوية هي تعزيز الغير بجعله شفعا بعد أن كان فردا، ثم استعملت في شدِّ أزر الغير بالتوسط له عند آخر ليتقبل حسنته أو يعفو عن سيئته، وهذه الشفاعة تدل على منزلة الشفيع عند المشفوع لديه، وينتفع بها المشفوع له.

وقد تحدث العلامة الكبير السيد رشيد رضا، صاحب المنار في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] من تفسيره المنار حديثا مطولا حول الجمع ما بين هذه الآيات، فقال ما نصه:

«كان اليهود المخاطبون ببيان هذه الحقيقة كغيرهم من أمم الجاهلية وأهل الملل الوثنية، كقدماء المصريين واليونان يقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا، فيتوهمون أنه يمكن تخلص المجرمين من العقاب بفداء يدفع بدلا وجزاء عنه ـ كما يستبدل بعض حكامهم منفعة مالية بعقوبة بدنية ـ أو بشفاعة من بعض المقربين إلى الحاكم يغير بها رأيه ويفسخ إرادته. ولقد

اكتسح الإسلام هذه العقائد وآثارها العملية بالتوحيد الخالص، وأتى بنيانها من القواعد، ولكن المسلمين لم يسلموا منها فقد دخل في الإسلام أقوام يحملون أوزارا مما كانوا عليه من الوثنية، ولم يلقنوا الدين من القرآن ولا كما أرشد القرآن، ولكنهم تقلدوه ممن لا يعرفه حق المعرفة، ولقنوه كما ترشد إليه كتب التقليد من مصطلحات مبتدعة، فكانوا على بقية مما كان عندهم وعلى جهل بالإسلام، وجاء قوم آخرون تعمدوا الإفساد فجعلوا بالتأويل الباطل حقا، والكذب صدقا.

وذكر الأستاذ الإمام هنا بعض العادات المصرية التي لا تزال يعمل بها باسم الدين، وهي من إرث قدماء الوثنيين، كإعطائهم لغاسل الميت شيئا من النقد يسمونه «أجرة المعدية» أي أجرة نقله إلى الجنة. وغير ذلك مما يعملونه للأموات، ولمن يعتقدون فيهم الولاية والقرب من الله، ومثله أكثر تقاليدهم في بناء المقابر واحتفالاتها.

ثم ذكر المكفرات التي يعتقدها اليهود كقربان الإثم، وقربان الخطيئة، وقربان السلامة، والمحرقة والاكتفاء ممن لم يجد القربان بحمامتين يكفر بهما عن ذنبه، وقال: وكانوا يفهمون أن هذه الأشياء تكفر الذنوب بذاتها، والحق أنها عقوبات لا مكفرات فإن من فهم التوراة حق فهمها يعلم أن المكفر الحقيقي هو التوبة والإقلاع عن الذنب، ثم تقديم القربان يكون تربية وعقوبة. وقد أخبرهم الله ـ تعالى ـ في هذه الآية بأن يوم القيامة لا يقبل فيه عدل يفتدي الإنسان به. قال: وكانوا يعتقدون أنهم بانتسابهم للأنبياء لا يدخلون النار أو لا تمسهم إلا أياما معدودة؛ لأن لهم الجاه والتأثير يوم القيامة، ولا يرضون أن يتركوا أبناءهم في العذاب، ثم زادوا على ذلك شفاعة الأحبار لمن ينتسب إليهم. ومتى ضعف الدين يوجد من رؤسائه من يروج هذه العقائد في العامة لما تسوق إليهم من المنافع.

وكذلك كان اليهود حتى جاء الإسلام بهذه الآية وأمثالها فمحا هذه العقيدة ليعلم المؤمنون به أنه لا ينفع الإنسان يوم القيامة إلا مرضاة الله ـ تعالى ـ بالإيمان الخالص والعمل الصالح».

ثم قال: «في القرآن آيات ناطقة بنفي الشفاعة مطلقا، كقوله ـ تعالى ـ في وصف يوم القيامة: ﴿يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وأخرى ناطقة بنفي منفعة الشفاعة، كقوله ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وآيات تفيد النفي بمثل قوله: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فمن الناس من يحكم الثاني بالأول، ومنهم من يرى أنه لا منافاة بينهما فنحتاج إلى حمل أحدهما على الآخر؛ لأن مثل هذا الاستثناء (أي الاستثناء بالإذن والمشيئة) معهود في أسلوب القرآن في مقام النفي القطعي للإشعار بأن ذلك بإذنه ومشيئته ﷻ، كقوله ـ تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦] وقوله: ﴿فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [هود: ١٠٧] فليس في القرآن نص قطعي في وقوع الشفاعة، ولكن ورد الحديث بإثباتها، فما معناها؟

الشفاعة المعروفة عند الناس: هي أن يحمل الشافع المشفوع عنده على فعل أو ترك أمر كان أراد غيره ـ حكم به أم لا ـ فلا تتحقق الشفاعة إلا بترك الإرادة، وفسخها لأجل الشفيع.

فأما الحاكم العادل فإنه لا يقبل الشفاعة إلا إذا تغير علمه بما كان إرادة أو حكم به؛ كأن كان أخطأ ثم عرف الصواب، ورأى أن المصلحة أو العدل في خلاف ما كان يريده أو حكم به.

وأما الحاكم المستبد الظالم فإنه يقبل شفاعة المقربين عنده في الشيء، وهو عالم بأنه ظلم وأن العدل في خلافه، ولكنه يفضل مصلحة ارتباطه

بالشافع المقرب منه على العدالة. وكل من النوعين محال على الله ـ تعالى؛ لأن إرادته ـ تعالى ـ على حسب علمه، وعلمه أزلي لا يتغير». اهـ

وهو كلام جيد تحرر فيه مما استولى على فكر أهل زمانه من معتقدات ورثتها هذه الأمة من الأمم السابقة فألهتها عن النظر في القرآن والاستبصار به في استكشاف الغيب ومعرفة أحوال يوم القيامة، وما أجدر الناس أن يرجعوا إلى القرآن ويستلهموا منه الحقيقة ويستبينوا به الحق، ويدعوا تقليد الآباء الأولين فإنهم لن يغنوا عنهم من الله شيئا.

ثم نقل السيد رشيد رضا رأي شيخه الإمام محمد عبده في الشفاعة فقال: «(قال شيخنا): فما ورد في إثبات الشفاعة يكون على هذا من المتشابهات وفيه يقضي مذهب السلف بالتفويض والتسليم، وأنها مزية يختص الله بها من يشاء يوم القيامة، عبر عنها بهذه العبارة «الشفاعة» ولا نحيط بحقيقتها مع تنزيه الله جل جلاله عن المعروف من معنى الشفاعة في لسان التخاطب العرفي.

وأما مذهب الخلف في التأويل فلنا أن نحمل الشفاعة فيه على أنها دعاء يستجيبه الله ـ تعالى. والأحاديث الواردة في الشفاعة تدل على هذا، ففي رواية الصحيحين وغيرهما أن النبي ﷺ يسجد يوم القيامة ويثني على الله ـ تعالى ـ بثناء يلهمه يومئذ فيقال له: «ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع»[1] وليس في الشفاعة بهذا المعنى أن الله سبحانه يرجع عن إرادة كان أرادها لأجل الشافع وإنما هي إظهار كرامة للشافع بتنفيذ الإرادة الأزلية عقيب دعائه، وليس فيها أيضاً ما يقوي غرور المغرورين الذين

(١) رواه البخاري (٣١٨٢) ومسلم (١٩٣).

يتهاونون بأوامر الدين ونواهيه اعتمادا على شفاعة الشافعين، بل فيه أن الأمر كله لله، وأنه لا ينفع أحدا في الآخرة إلا طاعته ورضاه ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٨-٤٩] و﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]». اهـ

هذا؛ وقد يعترض معترض بأن التوبة نفسها ماحقة للأوزار، مستأصلة للذنوب، فالتائب لا حاجة له إلى أن يشفع له شفيع عند الله، والجواب عن ذلك: بأن التوبة وإن كانت مقبولة عند الله بفضله ـ سبحانه ـ وبمنه، وقد وعد ﷻ أن يقبل توبة التائبين، ولكن ذلك لا يمنع بأن تكون هنالك شفاعة من الرسول ﷺ ومن النبيين والملائكة وأولياء الله تعالى الصديقين لهؤلاء التائبين بأن يتقبل الله تعالى توبتهم ويرفع درجتهم، وقد حكى الله ﷻ في كتابه العزيز عن ملائكته الذين يحملون العرش ومن حوله، أنهم يستغفرون للذين آمنوا، يقولون في استغفارهم ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧] فهم يستغفرون للتائبين، فإن قيل بأن في سورة الشورى إخباراً من الله ـ تعالى ـ عن الملائكة بأنهم يستغفرون لمن في الأرض فالجواب: أن ذلك الإجمال محمول على هذا البيان الذي في سورة غافر، فإجمال القرآن الكريم يحمل على بيانه، وإلا لو حملنا ظاهر ذلك الإجمال على عمومه بأنهم يستغفرون لمن في الأرض لدخل في ذلك الملاحدة والمشركون على اختلاف طوائفهم واليهود والنصارى وغيرهم، وكثير من الناس قالوا بأن الآيتين اللتين خوطب بها بنو إسرائيل للتحذير من مغبة ذلك اليوم، لا يدخل في وعيديهما أحد من هذه الأمة لأن ذلك خطاب اليهود لليهود، وهؤلاء قد عزب عن أذهانهم أن هذا الخطاب وإن كان لليهود ولكن جاء في بيان صفة ذلك اليوم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] هذا شأن ذلك اليوم مع جميع الناس.

ومما يدعو إلى الاستغراب أن نجد عالما كبيرا كالإمام الفخر الرازي يناقض كلامه في هذا فبعد أن سجل الحقيقة التي دل عليها القرآن في هذا بقلمه حيث قال ما نصه: «إن في الآية أعظم تحذير عن المعاصي وأقوى ترغيب في تلافي الإنسان ما يكون منه من المعصية بالتوبة لأنه إذا تصور أنه ليس بعد الموت استدراك ولا شفاعة ولا نصرة ولا فدية علم أنه لا خلاص له إلا بالطاعة فإذا كان لا يأمن كل ساعة من التقصير في العبادة ومن فوت التوبة من حيث إنه لا يقين له في البقاء صار حذراً خائفاً في كل حال والآية وإن كانت في بني إسرائيل فهي في المعنى مخاطبة للكل لأن الوصف الذي ذكر فيها وصف لليوم وذلك يعم كل من يحضر في ذلك اليوم». اهـ

جاء بعد هذا الكلام بصفحات قليلة بما ينقضه إذ ادعى أن ما وصف به هذا اليوم إنما هو خاص بمن عدا الموحدين فجعل الموحدين بمنأى عما تفيده الآية من التحذير وما فيها من الوعيد، فهو خاص ببني إسرائيل، ولم يكتف بذلك بل ضم إليه أن قوله تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] لا تدخل فيه هذه الأمة، فيا سبحان الله!!، كيف لا تدخل فيه هذه الأمة والخطاب موجه فيها إلى المؤمنين فإن نص الآية كلها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وكيف يقال إن ذلك الوعيد الذي في قوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٨] لا تدخل فيه هذه الأمة؟!! فإن كان ذلك لأجل كونه سيق خطابا لبني إسرائيل وهو يعنيهم وحدهم فيلزم ألا يدخل فيه أيضاً الملاحدة، ولا النصارى ولا الوثنيون، ولا غيرهم من طوائف الكفار لأنهم لم يشملهم خطابه.

وأنت تدري أن ما في الآية الكريمة إنما هو وصف وبيان لشأن ذلك اليوم، وكما جاء وصفه بهذا في خطاب الله تعالى لبني إسرائيل جاء مثله في خطاب هذه الأمة في الآية التي قبل آية الكرسي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وفي الآية التي اختتمت بها آيات الربا ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وجاء مثله في خطاب الناس جميعا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣] فلا معنى للقول بأن هذا الخطاب الذي وجه إلى بني إسرائيل هنا وفيه بيان صفة ذلك اليوم يختص ما فيه من التحذير والوعيد ببني إسرائيل وحدهم، بل هو وصف لطبيعة ذلك اليوم وبيان لهوله، فلا يختص التحذير من هوله وسوء المغبة فيه بنوا إسرائيل وحدهم وإنما هو شامل لهم ولمن عداهم.

وذكر صاحب «الانتصاف من الكشاف» أن تنكير اليوم يؤذن بأن هذا الوصف إنما هو خاص ببعض أوقات القيامة فيمتنع قبول الشفاعة فيه وتقبل في سائر الأوقات؛ لأن يومها يمتد نحو خمسين ألف سنة، فلطوله تتباين أحواله بحيث ينتفي الأمر في بعضه ويقع في بعضه الآخر، كما ذكر الله تعالى عدم التساؤل فيه بين الناس في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، مع أنه أثبت التساؤل فيه بين المجرمين أنفسهم في قوله: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، وقد عول على الذي قاله صاحب الانتصاف كثير من المفسرين وغيرهم من المتكلمين، وعدوه حجة قاطعة تستأصل شبهات المعاندين، مع أن هذا الجواب إذا فكرنا فيه وجدناه لا يعدو أن يكون كسراب بقيعة يحسبه الظمآن

ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، فإن الله ـ سبحانه ـ لم يخبرنا بأن القيامة تتعدد أيامها، بل يوم القيامة هو يوم واحد، لا يعقب نهاره ليل، يبدأ ببعث الناس من قبورهم ويستمر إلى استقرار أصحاب السعادة في دار السعادة، وأصحاب الشقاوة في دار الشقاوة، ولو كان يقع في وقت من أوقات ذلك اليوم وفي موقف من مواقفه ما نفاه الله ـ سبحانه ـ من الشفاعة للمصرين المخلدين إلى المعاصي للزم أن يقع كذلك ما نفاه الله ـ سبحانه ـ في هذه الآية نفسها من قبول العدل والفدية والنصرة.

ثم لو كان يقع شيء من هذا في ذلك اليوم لما كان هنالك داع إلى التهويل والتخويف، ذلك لأن كل أحد سيمني نفسه بأنه إن فاتته الشفاعة في موقف سيدركها في موقف آخر يؤذن فيه بالشفاعة وكل من خوفوا هنا بأنهم سيحرمون الشفاعة سيفوزون بها في موقف آخر وسيتخلصون من هذا الحرمان، وأما التساؤل المنفي في سورة المؤمنون فهو غير المثبت في سورة الصافات، ذلك لأن التساؤل المنفي إنما هو تساؤل تواد وتراحم وتعاطف، فلا يسأل يومئذ حميم عن حميمه ولا قريب عن قريبه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧]، ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١١ - ١٤]، وأما التساؤل المثبت فهو تساؤل تلاوم وتدافع بحيث يحاول كل أحد أن يتخلص من المسؤولية ويلقيها على غيره كما يدل عليه نص الآيات، فقد قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٧ - ٢٨] أي: تأتوننا لتغرونا، ﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَـٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: ٢٩ - ٣٤]، فكل فريق يحاول التخلص من المسؤولية

وإلقاءها على الفريق الآخر، كما يتبرأ الشيطان يومئذ من حزبه، وكذلك شياطين الإنس يبرأ يومئذ بعضهم من بعض ويبرأ يومئذ الأقوياء من الضعفاء والضعفاء من الأقوياء، فالضعفاء يحملون الأقوياء المسؤولية لأنهم كانوا السبب في التغرير بهم وفي إضلالهم وإبعادهم عن الحق، فلذلك يشتكون إلى الله ما كان منهم حيث يقولون ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٦٧ – ٦٨]، فالتساؤل المثبت إنما هو تساؤل تلاوم وتدافع وليس في الآية ما يدل على إثبات التساؤل المنفي في الآية الأخرى في موقف من المواقف ينفى تساؤل وفي موقف آخر يثبت التساؤل.

ومن الأدلة التي استدل بها القائلون بأن شفاعة الله ـ سبحانه ـ للتائبين من الذنوب لا للمصرين عليها قول الله ـ سبحانه ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨] والمصر على الكبيرة ظالم لنفسه، فإن الله تعالى سمى المعصية ظلما، فقد قال في القتال في الأشهر الحرم ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التوبة: ٣٦] فجعل القتال فيها ظلما، وحكى ـ سبحانه ـ عن آدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أنهما قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] مع أن المعصية التي صدرت منهما لم تكن كفرا وإنما هي معصية كسائر المعاصي، وحكى ـ سبحانه ـ عن عبده موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي﴾ [القصص: ١٦]، وحكى عَزَّ وَجَلَّ عن عبده يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وقد اعترض على هذا الاستدلال الفخر الرازي بأن الآية لسلب العموم لا لعموم السلب، والمقصود بسلب العموم نفي العموم، أي ليس لجميع الظالمين حميم أو شفيع يطاع، ولا يعني ذلك نفي أن يكون أي ظالم له حميم أو شفيع يطاع، فالنفي لا ينسحب على أي واحد، ويجاب على هذا

الاعتراض: بأن الذي يفهم من الآية الكريمة أنها ليست لسلب العموم وإنما هي لعموم السلب أي عموم النفي، فإن الجموع التي يدخل عليها النفي يراد به نفي أي فرد من الأفراد التي تدل عليها تلك الجموع، ولو كان الأمر كما يقول بأن المقصود هو سلب العموم وليس عموم السلب للزم من ذلك جواز الكون مع بعض الكافرين، لأن الله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [هود: ٤٢]، وهكذا كل نفي أو نهي يدخل على جمع لزم منه أن يراد به البعض لا الجميع، فيلزم من ذلك أن الله ﷻ يحب بعض الظالمين ـ تعالى الله عن ذلك ـ، إلى ما وراء ذلك مما نفي بأمثال هذه الصيغة، على أن الآية الكريمة جاءت وعيدا وتحذيرا، وهذا التحذير لو كان يراد منه نفي العموم لا عموم النفي لجاز لكل أحد أن تسول له نفسه بأنه غير داخل في هذا النفي، فيتعلق بالأمل بأن يكون من الذين لم يشملهم هذا النفي فينتفع بالشفاعة ولو ارتكب ما ارتكب، على أن هذه الشفاعة كل أحد من الناس يتمناها فكلنا نسأل الله ـ سبحانه ـ بأن يجعلنا من أهل الشفاعة المستحقين لها وأن يشفع لنا الرسول يوم القيامة، ولكن لا يجوز لنا أبدا أن نتمنى أو أن نسأل الله بأن نكون من المصرين على كبائر الإثم، فلو كان أمر الشفاعة في الذين يقترفون الكبائر ثم يصرون عليها ثم لا يتوبون منها لكان كل أحد يتمنى أن يكون من هؤلاء، مع أن تمني الإنسان أن يكون من هؤلاء غير جائز.

ومن الأدلة أيضاً قول الله ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، ويتوجه الإيراد الذي توجه إلى الاستدلال السابق والجواب عنه هو نفس الجواب.

ومن الأدلة أن الله ـ سبحانه ـ قال: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، مع أن المصر على قتل النفس المحرمة بغير حق أو على الزنا أوالسرقة أو شرب الخمر أو أكل الربا أو غير ذلك لا يدخل في

الذين يرتضيهم الله ـ سبحانه ـ فإنه يرتضي المتقين لأنه يرتضي التقوى، ويأمر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ ﴾ [النحل: ٩٠] فمادام ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي فهو لا يرتضيها، وقد اعترض على ذلك: بأن المصر على الكبيرة مادام موحدا هو مرتضى، لأن نفس التوحيد الذي هو متلبس به مرتضى عند الله ـ سبحانه ـ، والجواب عن هذا الاعتراض بأنه لو كان التوحيد وحده كافيا لأن يرفع الإنسان إلى مستوى ارتضاء الله ـ سبحانه ـ مع نقض الإنسان لقاعدة التوحيد بالعمل المخالف لها للزم من ذلك أنه لا يطلب من الإنسان إلا أن يوحد فقط من غير أن يلتزم بشيء من الواجبات، مع أن كتاب الله ـ سبحانه ـ صريح في غير هذا، فالله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ [الأحقاف: ١٣] كما استثنى سبحانه من الخسر الذي سجله على عباده ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾، وقد جاء في كتاب الله ـ سبحانه ـ ما يدل على أن المصرين على الذنوب مغضوب عليهم عند الله وملعونون، فالله تعالى يقول: ﴿ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ١٨]، فالظالم واقع في اللعنة إن لم يتب من ذنبه، ويقول تعالى: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ٩٣]، فقاتل النفس لا يمكن أن يكون مرتضى عند الله ـ سبحانه ـ مع كونه متعرضا للعنة الله عز وجل.

وقد جاء في أحاديث الرسول ﷺ ما يؤكد هذا المعنى، فقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام: «لعن الله الربا وآكله ومؤكله وكاتبه وشاهده»[(١)]،

(١) رواه مسلم بلفظ «لعن رسول الله...» رقم (٤١٧٧).

وقال ﷺ: «لعن الله المحلل والحلل له»[١] وفي رواية أخرى: «لعن الله التيس المستعار»[٢].

هذا وقد ثبت أن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام كان يتبرأ كل البراءة من الظالمين الذين يصرون على ظلمهم ولا يقلعون عنه، فمن ذلك ما جاء في حديث الحوض «وليذادنَّ رجال عن حوضي أناديهم ألا هلم ألا هلم، فيقال لي: إنهم قد بدلوا بعدك فأقول فسحقا فسحقا»[٣]، وجاء أيضاً في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «لا ألفين أحدكم يوم القيامة شاء لها ثغاء يناديني: يا رسول الله، فأقول له: لا أملك لك من الأمر شيئا قد بلغتك»[٤]، وجاء أيضاً في الحديث عن النبي ﷺ فيمن أعان أمراء الظلم أنه قال: «**ليس مني ولست منه وأنا خصمه يوم القيامة**»[٥]، ويقول ﷺ في حديث آخر: «ثلاثة أنا خصيمهم يوم القيامة، ومن أكن خصمه فقد خصمته، رجل أخذ بي ثم غدر ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه فلم يوفه أجره»[٦]، كما تبرأ ﷺ من الذي يقتل الذمي الذي أعطي عهد الله وعهد رسوله ﷺ[٧]، وكذا قوله ﷺ: «**أنا بريء ممن تكهن أو تُكهن له أو تطير أو تُطير له**»[٨] إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة، على أن النبي ﷺ قد خاطب فلذة كبده السيدة فاطمة رضي الله تعالى عنها وعمته صفية بنت عبد المطلب رضي الله تعالى عنها بقوله: «يا

(١) رواه أبو داود (٢٠٧٨).
(٢) روى نحوه ابن ماجه (٢٠١١).
(٣) روى نحوه الربيع (٤٣) والبخاري (٢٢٣٨).
(٤) رواه البخاري (٢٩٠٨) ومسلم (٤٨٣٩).
(٥) روى نحوه ابن حبان (٧٢٣).
(٦) رواه البخاري (٢١١٤).
(٧) رواه البخاري (٩٩٥).
(٨) رُوى نحوه في زيادات مسند الربيع (٧٤٧).

صفية عمة محمد ويا فاطمة بنت محمد اشتريا أنفسكما فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً[(١)]» هكذا يخاطب الرسول ﷺ أخص خاصته وأقرب قرابته معلنا لهم أنه لا يغني عنهم من الله شيئا، فكيف يتشبث بعد ذلك أحد بأمل أن النبي ﷺ سيشفع له مع إصراره على كبائر الإثم.

هذا وأما أدلة المثبتين للشفاعة لأصحاب الكبائر فمنها ما حكاه الله تعالى عن عبديه الخليل والمسيح عليهما السلام، إذ حكى الله ـ سبحانه ـ عن عبده الخليل عليه السلام أنه قال تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وحكى ـ سبحانه ـ عن عبده المسيح عليه السلام أنه قال: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، قال الفخر: «هذه شفاعة من النبيين الكريمين، والله ـ سبحانه ـ يستجيب دعاءهما، وقد علمنا أن هذه الشفاعة ليست في التائب وليست في المشرك فهي فيمن ارتكب كبيرة دون الشرك ولم يتب منها، وإذا كان الله ـ سبحانه ـ يشفّع هذين النبيين الكريمين فأحرى أن يشفع ـ سبحانه ـ عبده ورسوله محمدا ﷺ في أمته لعظم منزلته عليه أفضل الصلاة والسلام ولخيرية هذه الأمة»، والجواب عن ذلك: أنا إذا نظرنا في المحكي عن النبيين الكريمين لم نجد فيه ما يدل على أنهما كانا بذلك يشفعان للذين يعنيهم خطابهما عليهما السلام، وإنما ذلك تسليم منهما لأمر الله ـ سبحانه ـ ووقوف عند حدهما، فإن الإنسان وإن ارتقى في أوج الاصطفاء الإلٰهي ليس له أن يتدخل في شؤون الله تعالى، وليس له أن يقول عن الله شيئا من تلقاء نفسه وإنما يفوض الأمر إليه عز وجل يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وإذا أخبر ـ سبحانه ـ بأمر وجب التسليم لما أخبر به، وعدم تجاوز ذلك إلى غيره، ولو قلنا إن هذه شفاعة فللنظر من هو المقصود في كلام الخليل عليه السلام وفي كلام

(١) روى بنحوه البخاري رقم ٤٧٧١.

عيسى عليه السلام؟ إن المعني في كلام الخليل عليه السلام هم الذين عبدوا الأصنام، وسياق الكلام يدل على ذلك فإن الله ـ سبحانه ـ قال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦]، فالسياق إنما هو في عبدة الأصنام فلو استفيد من هذا المحكي في الآية الكريمة عن الخليل عليه السلام أنه بذلك شافع فإن هذه شفاعة يجب أن تكون في عبدة الأصنام، والمحكي عن المسيح عليه السلام إنما هو في الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله، فإن هذا المحكي مسبوق بقول الله ـ سبحانه ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٨]، فلو استفيد من هذا المحكي عن المسيح عليه السلام أنه شفاعة للزم من ذلك أن تكون هذه الشفاعة للذين كانوا يعبدونه من دون الله ـ سبحانه ـ، ولو سلمنا أن هذه شفاعة فمن أين لنا أنها قبلت، وقد حكى الله ـ سبحانه ـ عن إبراهيم عليه السلام أنه استغفر لأبيه ولكن مع ذلك هذا الاستغفار لم يقبل، وقد بين ـ سبحانه ـ سبب هذا الاستغفار في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، فسبب الاستغفار ذلك الموعد الذي وعده إبراهيم عليه السلام أباه في قوله:

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، والإنسان مطالب بأن يفي بوعده، ولذلك فإن الله ـ سبحانه ـ أمرنا أن نقتدي بإبراهيم والذين معه إلا في هذا الأمر، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا

بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾ [الممتحنة: ٤] إلى أن قال ـ سبحانه ـ: ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة: ٤] أي كانت لكم فيهم أسوة حسنة إلا في هذا الدعاء، ليس لكم أن تتأسوا بإبراهيم فيه فتستغفروا للذين كفروا لأن هذا الاستغفار كان منشؤه هو ذلك الوعد الذي وعده الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ أباه.

ومن الأدلة التي عولوا عليها قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء: ٨٦]، وقد أمرنا الله ـ تعالى ـ أن نحيي النبي ﷺ بقولنا: اللهم صل وسلم عليه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فإذن لا بد أن يكون من النبي ﷺ رد، وليس رد النبي ﷺ إلا الدعاء لنا بالرحمة وهذا الدعاء مستجاب.

والجواب: بأن الرد هو أعم من أن يكون دعاء بالرحمة أو دعاء بالهداية، على أن الرحمة تكون رحمة في الدنيا كما تكون رحمة في الآخرة.

ومن الأدلة التي عولوا عليها قول الله ـ سبحانه ـ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٦٤] وذلك أنهم قالوا إن هذه الآية الكريمة في غير التائب، ممن ظلموا أنفسهم وقد وعد الله ـ سبحانه ـ أولئك بالتوبة وبالرحمة.

والجواب: أن الآية الكريمة نفسها تدل على أنهم تابوا، فإن الله ـ سبحانه ـ يقول فيها: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٦٤] واستغفارهم لله، طلبهم المغفرة منه، والاستغفار الذي يعول عليه ويعتد به هو ألا يكون مجرد لقلقة باللسان فحسب بل مع ندم القلب، واستغفر لهم الرسول بناء على استغفارهم، لأنهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ تائبين، فكيف يقال مع ذلك بأن هؤلاء لم يتوبوا.

ومن الأدلة التي عولوا عليها أن الله ـ سبحانه ـ قال في الذين كفروا:

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠] وإذا كانت الشفاعة منفية عن الذين كفروا فهي مثبتة للذين آمنوا.

والجواب: أن هذا استدلال بمفهوم المخالفة، ومفهوم المخالفة اختلف العلماء في كونه حجة في الأمور الفرعية، فكيف يعول عليه في الأمور العقائدية القطعية، مع أن العقيدة ثمرة اليقين، فلا يعول فيها إلا على النص المتواتر دون الظواهر ولو تواترت، ودون الآحاديات ولو كانت نصا، ومع القول بالاستدلال بمفهوم المخالفة في الأمور الفرعية لا في العقائدية القطعية فإن هناك شروطا تشترط، من هذه الشروط: ألا يكون المنطوق واردا مورد الأغلب المعتاد، وألا يكون مسوقا مساق الامتنان، وألا يكون جيء به جوابا لسائل، ولا تعليما لجاهل، فإذا كان هذا الشأن في الفرعيات فكيف يعول على هذا المفهوم في القطعيات.

ومن الأدلة التي عولوا عليها أيضاً قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧]، وذلك أنهم قالوا إن مرتكب الكبيرة مؤمن فهو مستغفر له بموجب هذا النص.

ويجاب عن ذلك: بأن الإيمان المعتد به عند الله ـ سبحانه ـ هو الإيمان الذي يجعل صاحبه إذا ظلم نفسه فارتكب شيئا مما يخالف أمر الله راجع نفسه ورجع عن ذلك، ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]، على أن في الآية نفسها حكاية الاستغفار الذي يستغفرونه للمؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧] فاستغفارهم لِلَّذِينَ تَابُوا لا للذين أصروا، وللذين اتبعوا سبيل الله وليس من اتباع سبيل الله ـ سبحانه ـ أن يصر العبد على معصية الله

متحديا لربه، وما قيل من أن هذه الآية الكريمة جيء فيها بعموم ثم جيء بشيء من أفراد هذا العموم، والإتيان بفرد من أفراد العموم بعد الإتيان بالعموم لا يخصص العموم كما هو معروف عند غالب الأصوليين مردود بأنه ليس هنا تخصيص لعموم وإنما هو حكاية للذي تقوله الملائكة المستغفرة للذين آمنوا.

واستدلوا أيضاً بالروايات المروية عن النبي ﷺ منها قوله ﷺ فيما روي عنه: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»[١] وقوله: «**ما ادخرت شفاعتي إلا لأهل الكبائر من أمتي**»[٢]، والجواب عن هذه الروايات أنها روايات آحادية، وقد ذكرنا غير مرة أن العقيدة تستقى من النصوص المتواتر لا من الروايات الآحادية، ثم بجانب ذلك هذه الروايات محتملة لمعان يمكن بالنظر إلى هذه المعاني أن يجمع ما بينها وبين النصوص القرآنية، وبالجمع ما بينها وبين النصوص لا يحصل أي تناف، بخلاف ما إذا أخذ بظاهرها، فلا تترك النصوص المتواترة القطعية لأجل ظواهر آحادية، ولو كانت نصوصاً آحادية لما كانت تقاوم النصوص المتواترة، فكيف وهي ليست نصوصاً إذ لها احتمال للمعنى الذي يتفق مع تلك النصوص القطعية المتواترة وقد قيل: «الدليل إذا طرقه الاحتمال سقط به الاستدلال»، فقول النبي ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**» أي إذا تابوا يشفع لهم الرسول ﷺ ليقبل توبتهم، وكذلك قوله: «**ما ادخرت شفاعتي إلا لأهل الكبائر من أمتي**» أي ما ادخرتها إلا للتائبين من أهل الكبائر، ولو أخذ بظاهر الحديث لكان فيه إغراء على ارتكاب الكبائر ـ والعياذ بالله وحاشا لرسول الله ﷺ أن يغري الناس على ارتكاب الكبائر، ما كان للرسول ﷺ الذي أرسله الله لينقذ الناس من الضلالة

(١) رواه أبو داود (٤٧٤١).

(٢) رواه أبو يعلى (٢٩٢٨).

ومن الخطأ ومـن مخالفة أوامر الله ليغريهم على هـذه المخالفة، إنما بعث بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، والإغراء على مخالفة أوامر الله ـ سبحانه ـ مخالف لذلك وإنما في هذا ترغيب للذين يقارفون كبائر الإثم أن يتوبوا إلى الله وألا يقنطوا من رحمته ـ سـبحانه ـ فالله عَزَّ وَجَلَّ قد فتح لعباده من فضله عليهم بـاب التوبة فما عليهم إلا أن يلجوا مـن هذا الباب، وهذا نجد له نظيرا في كتاب الله ـ سـبحانه ـ، فإن الله ـ سبحانه ـ يقول لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، ولكن الآيات التالية بينت الذين يغفر لهم في قولـه: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤]، فأمرهم ـ سـبحانه ـ بالإنابة وباتباع أحسـن ما أنزل إليهم: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٥-٥٨] وهنا أذكر كلمات غراء قالها العلامة السـيد رشـيد رضا في «المنار» فيما يتعلق بالذين يسوغون لأنفسهم ارتكاب الموبقات على أمل أن يغفر الله ـ سبحانه ـ لهم، ويشفع لهم النبي ﷺ والصالحون، يقول ما معناه: إن مثل هؤلاء كمثل الذي يتعرض للمخالفات، ويتعرض لإلقاء الشرطة القبض عليه وتقديمه إلى المحاكمة، والحكم عليه بالعقوبة رجاء أن يعفو عنه الأمير أو السلطان، فإن أي أحد لا يشـك في حماقة أمثال هؤلاء لأن هذا الرجاء ليس في موضعه، ثم ذكر بعد ذلك الآيات التي تـدل على الترجية، وبين لمـن هذه الترجية فذكر قـول الله ـ تعالـى ـ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ

يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان: ٧٠-٧١] وذكر قولــه تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢]، وقبل أن يأتي بهذا الكلام ساق كلاما لأســتاذه الإمام محمد عبده في نفس هذا الموضوع مقتضى هذا الكلام أن كثيرا من الناس يعولون على أذكار تقال في الصباح وفي المساء اعتقادا منهم بأن هذه الأذكار تقضي على الذنوب ولا يبقى معها ذنب ويغفلون عن السبب الذي يقضي على الذنوب ويغفرها الله ـ ســبحانه ـ من أجله، وهو التوبة إلى الله التي تســتلزم الإقلاع عن الذنــب وعدم الإصرار عليــه، وذكر أن هؤلاء يسوغون لأنفسهم الكذب ويغفلون عن حكم الله ـ سبحانه ـ في الكاذبين بأن عليهم اللعنة: ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١]، ويرتكبون ما عدا الكذب أيضاً من الكبائر الأخرى بحجة أن هذه الكبائر تتساقط بهذه الأدعية وهذه الأذكار، وهم غافلون عن الســبب الــذي يمحو الله به الخطايا ويبدلها من أجله إلى حســنات وهو التوبة النصوح، فليــس لأحد أن يمني نفسه الأماني وهو مع ذلك يصر على معصية الله عز وجل والله أعلم.

قال تعالــى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم: ٨٥-٨٧]؟

ما معنى العهد في الآية الكريمة؟

العهد هــو جملة التوحيــد وهي شــهادة أن لا إلٰــه إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك ميثاق بين العبد وربه، فالذي يأتي بها معترفاً بلسانه ومعتقداً بقلبه اعتقاداً جازماً أنه لا معبود بحــق إلا الله ومعنى ذلك أنه يعاهد الله سبحانه وتعالى بأن يكون عابدا له، وعبادة الله تعني منتهى الخضوع لأمره والانقياد لحكمه والإذعان لطاعته بفعل أوامره والازدجار عن نواهيه فقد اتخذ هذا عهداً عند الله سبحانه وتعالى فهو حري بالشفاعة والله أعلم.

الذين يقولون بالشفاعة لأهل الكبائر يقولون بأن أهل الكبائر هم أحوج ما يكونون لشفاعة النبي ﷺ بخلاف المؤمنين المتقين، فأولئك تشفع لهم أعمالهم الصالحة فما الجواب؟

جاء في رواية عن النبي ﷺ ما يدل على أنه لا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله وبعمل صالح وبشفاعته، فكل واحد هو بحاجة إلى شفاعة النبي ﷺ، ولو روعيت الحاجة بقدر التلبس لكان المشركون هم أحوج إلى من يشفع لهم، لكن القضية ليست قضية حاجة المشفوع له بسبب إفلاسه من العمل الصالح، ولكن الذي يتوب إلى الله هو بحاجة إلى من يشفع له حتى تقبل توبته، والله تعالى قد حكى عن الملائكة أنهم يقولون ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧] فأنت تراه لم ينقل عنهم أنهم يقولون «فاغفر للذين أصروا»، وإنما حكى عنهم قولهم:

﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [غافر: ٧]؛ فالتائبون هم بحاجة إلى هذه الشفاعة لتقبل توبتهم والله أعلم.

هل الشفاعة التي وعد بها الرسول ﷺ تكون للمؤمنين تخفيفاً لهم من شدة الهول في الموقف يوم القيامة، أم هي لقبول توبة التائبين؟

هي لكلا الأمرين، فإن هناك شفاعة عامة: وفائدتها إنهاء الحساب يوم القيامة بمشيئة الله ﷻ، وهذه هي المقام المحمود الذي يرجوه النبي ﷺ، وهناك شفاعات خاصة في قبول توبة التائبين وزيادة أجورهم، والله أعلم.

قال الشيخ أحمد القطان بأن شفاعة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام تشمل الموحدين في النار فتخرجهم منها إلى الجنة واستدل

بقوله تعالى: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فهل هذا صحيح ؟

من أين للقطان وغيره ما يثبت أن الله أذن بالشفاعة للعصاة مع النصوص القاطعة الدالة على خلاف ذلك فالله تعالى يقول: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨] وقال سبحانه: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وهل المصر على الكبيرة مرتضى عند الله كلاً بل هو ظالم لنفسه وإنما يغفر الله ذنبه ويأذن بالشفاعة له إن تاب قال الله: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢] فهذه شروط المغفرة وقد نص ﷻ على أن يوم القيامة لا تنفع فيه الشفاعات أي لمن لم يتب فقد قال: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقرة: ١٢٣] وحذر المؤمنين من التعلق بأماني الشفاعات عندما قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقال في العصاة: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣] وبين أن عقيدة الخروج من النار هي عقيدة يهودية عندما قال: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٨٠] واتبع ذلك بيان مصير العصاة حيث قال: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨١] فليت شعري هل للقطان وغيره عهد عند الله أن يخرج أحداً من النار بشفاعة الشافعين بعد هذه الزواجر من كتاب الله عن التعلق بهذه الأماني، والله أعلم.

هل لأهل كبائر الذنوب شفاعة في الآخرة إذا هم ماتوا على ذلك ؟

أفيد السائل وغيره بأن القرآن الكريم ينص في آيات كثيرة على أن كل من عمل صالحاً جوزي بما عمل، ومن عمل سيئاً جوزي بما عمل، وقد

حذر الله سبحانه وتعالى هــذه الأمة من الاغترار بالأماني فقد قــال عز من قائل: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣] وفي ذكر أماني أهــل الكتاب مع أماني هذه الأمة إشــارة إلى أن بعــض أفراد هذه الأمة ســوف يغترون كمــا اغتر أهل الكتاب وســوف يتعلقون بالأماني كما تعلقوا راجيــن الله سبحانه وتعالى أن يغفر لهم ذنوبهم بمجرد انتمائهم إلــى هذا الدين الحنيف وتصديقهــم بالنبي ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ.

وفي ذكر أماني أهل الكتاب مــع أماني هذه الأمة تحذير لهذه الأمة عن مسلك أهل الكتاب ليأخذ كل واحد حذره وليعمل جهده في طاعة الله سبحانه وتعالى .

وقد جاءت آيــات كثيرة تؤيد ما جــاءت به هذه الآية مــن أن كل أحد سوف يجازى بعمله من ذلك قوله سبحانه وتعالى في ســورة النمل ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٩-٩٠] وقوله سبحانه في سورة القصص: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص: ٨٤].

وهذه نصوص صريحة لا تقبل الجــدل أن الله سبحانه وتعالى يجزي كل أحد بعمله خيراً كان أو شراً.

وقد بين سبحانه وتعالى أنه يغفر ذنوب التائبين لا ذنوب المصرين فقد قال: عز من قائل في ســورة طه: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢] وبين سبحانه وتعالى إنه يغفر ســيئات الذين يجتنبون الكبائــر أي يغفر صغائرهم دون كبائرهم ولا يغفر الصغيــرة إلا مع اجتناب الكبائر ـ شــريطة عدم الإصرار عليهــا ـ وذلــك فــي قولــه: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ

سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١] وإذا أدرك الإنسان ذلك فهم معنى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فيغفر الشرك لمن يشاء أما بالتوبة والإقلاع عن الكبائر والرجوع إلى الله ﷻ، وأما باجتناب الكبائر مع صدور بعض الصغائر من غير قصد الإصرار عليها ومن غير الاستمرار على ارتكابها. وهذا هو المقصود بقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فقد بين سبحانه في آيات أخرى من يشاء لهم المغفرة وهم الذين يجتنبون الكبائر ولا يصرون على الصغائر، ونص الحق سبحانه على أن مغفرته إنما هي للأوابين وذلك في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥] وتقديم المعمول يدل على الحصر وعليه فمعنى الآية أنه يغفر للأوابين وحدهم دون المصرين، والأوابون هم التوابون الذين يرجعون إلى الله عند مقارفة كل معصية ليلا أو نهارا سرا أو علانية.

وكما أنه ﷻ حذر من أماني الغفران وبين أن كل أحد سوف يجزى بما كسب، حذر أيضاً من أماني الشفاعة، وقد وجه هذا التحذير إلى هذه الأمة، فقد قال مخاطباً المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقال سبحانه مخاطباً بني إسرائيل: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] وفي هذا أيضاً تحذير لهذه الأمة ولغيرها من التعلق بأماني شفاعات الأنبياء وغيرهم بالتخلص من عذاب يوم القيامة، وقد بين سبحانه الذين يستحقون شفاعة الأنبياء وغيرهم في قوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فالشفاعة ينالها الرضي دون غيره، وإن كان الرضي يستحق دخول الجنة فقد يجعل الله الشفاعة أيضاً من ضمن الأسباب التي تؤدي إلى دخوله الجنة فقد يجعل الله الشفاعة سببا لقبول توبة العاصي أما المصرون على الكبائر فلا شفاعة لهم بهذه النصوص القاطعة. والله أعلم.



الكفر والنفاق

الكفر وأقسامه

مَن يُبْدِي في مَقَالاتِـه وكِتَابَاتِهِ أنَّه لا يُصلِّي أو أنـه لا يُؤْمِن بالله كيف يَتَعامَل معه المسلم؟ وما نَظْرة الإسلام إليه أصلاً؟

القضية تَتَعَلَّق بأمرين: ترك الصلاة، وعدم الإيـمان بِوُجُود الله.

أمَّا ترك الصلاة فلا ريب أنَّ تَارِكَها كافر، ولكن أيُّ كفر هو؟ هل هو كُفر مِلَّة بحيث يَخرج مِن مِلَّة الإسلام أو كفر نعمة؟ الحديث دَلَّ على كفر تارك الصلاة عندما قال ـ عليه أفضل الصلاة والسـلام ـ: «ليس بَيْنَ العبد والكفر إلا تركـه الصلاة»[1]، وفي روايـة: «بين العبد والكُفْر تـرك الصلاة»[2]، وفي الحديث الآخر: «العهد الـذي بَيْنَنَا وبينَهُم الصلاة فَمَـن تَرَكَها فَقد كَفَر»[3]، لكن هل هو كُفر مِلَّة أو هو كُفْر نعمة؟

ذهب فريق مِن العلمـاء إلى أنَّه كُفر مِلَّة وأن تـارك الصلاة خارج من مِلَّة الإسلام. ولكن فَرِيقاً آخر يرى التمييز بين تركها استحلالاً وتركها انْتِهَاكا، فإن تَرَكَها اسـتحلالاً وذلك بأن يكون مُنْكِراً لِوُجُوبِها جَاحِداً لفَرْضِيَّتِهَا فإنه يكون خارجاً من مِلَّة الإسـلام وحُكمه حكـم المرتَدِّين إن كان من قبـل على مِلَّة الإسلام، وإن تَرَكَها انْتِهَاكاً بِحيث يَدِين بِفَرْضِيَّتِها أي يعتقد اعتقاداً جازماً بأنَّها فريضة ويعتَقِد في قَرَارَة نفسـه بأنَّه مُخَالِف لأمر الله وأنَّـه ضَال بِهَذه المخالَفَة عندما يَدَعُ الصلاة فهـذا كفرُهُ كفر نعمة وليس كُفر مِلَّة، فهو غير خارج مِن مِلَّة الإسـلام إذ لَم يَجْحَد شـيئاً مِمَّا عُلِم من الدين بالضرورة، وإنَّما كفر نعمة الله

(١) رواه الإمام الربيع (٣٠٣).

(٢) رواه البيهقي في السنن (٦٢٨٨).

(٣) رواه الترمذي (٢٥٤٥) والنسائي (٤٥٩).

تعالى بإعْرَاضه عن هذا الواجب المقدَّس الذي فرضه الله سبحانه وهذا القول هو الذي نَعْتَمِده.

أمَّا بالنظر إلى مَن جَحَد وُجود الله فهذا بَلَغَ مِن السُّخْف ومن الضلال ومن العَمَى مبلغاً عظيما، لأنَّه يَجْحَدُ ما يَدُلُّ وُجودُه هو على وجودِه، فهو يَجْحَد وُجُود الله مع أنَّ وجودَه هو شَاهِد على وجود الله، بل كل خَلِيَّة من خلايا جسمه وما هو أَدَقُّ منها مِن تراكيبها العَجِيبَة كُلٌّ مِن ذلك نَاطِق بِلِسَان حَالِه يُعْلِنُ افْتِقَارَه إلى واجب الوُجُود لِذَاتِه، إذ لا يُمْكِن بِحَال من الأحوال أن يَخْرُج شيءٌ من العدم إلى الوُجُود إلا بِمُخْرِج، فالله تعالى يتجلَّى وجوده في كل ذرة مِن ذَرَّات الكون، وفي كل خَلِيَّة مِن خلايا الإنسان، بل فيما هو أَدَقُّ مِن الخلايا مِن جُسَيْمَات ومِمَّا هو أدقُّ مِن هذه الجسَيْمَات، فكُلٌّ مِن ذلك شاهِد على وُجود الله، فكيف مع ذلك يَجْحَد هذا الإنسان خَالِقَهُ العظيم سبحانه؟!

وقد سَمعت أحد الدُّعَاة يقول في خطابه لله ـ تعالى ـ ووصفه إيَّاه: «عَرَفَك المؤمن ولَم يَرَك، وجَحَدَك الكافر وَوُجُوده ناطق بِوُجُودِك، كيف تَخْفَى والشمس بعض آيَاتِك؟! أم كَيف تُدْرَك والروح بعض أسرارِك؟!»، فعلى الإنسان أن يُفَكِّر في نفسه، هل هو خَلَق نفسه؟ وهل أَخْرَجَ نفسه من العدم إلى الوجود؟ وهل طَوَّرَ نفسه عندما كان خَلِيَّة واحدة مَهِينَة حَقِيرَة لا تَكَاد تُبْصَر حتى بِأَشِعَّة المِجهر مِن طَوْر إلى طَوْر حتى تكوَّنَت منه ملايين الملايين مِن الخلايا؟ هل هو نفسه الذي طَوَّرَ نفسه في هذه الأَطْوَار فَوَهَبَ نفسه السمع والبصر والقوة ودَرَّجَ نفسه في مَدَارج أَطْوَار هذه الحياة حتى وصل إلى ما وصل إليه؟ كل ذلك شاهد على وُجود الله تعالى، فمَن أَنْكَر وُجُوده لم يكن كافراً مُشْرِكاً بالله فحسب، بل يَتَجَاوَز ذلك إلى ما هو

أَعْمَقُ من الشرك وهو الإلْحَاد لأنَّه أَنكر أهمَّ ما يتوقَّف عليه الإيمان، بل أنْكَر معرفة الله تعالى وأنْكَرَ وُجُودَ ذاته سبحانه وذلك أَعظم ما يتوقَّفُ عليه الإيمان إذ الإيمان بكل شيء إنَّما هو موقوف على الإيمان بالله تعالى، والله المستعان.

ما حكم تكفير تَارك الصلاة؟

دلت الأحاديث عن النبي ﷺ على كُفْرِ تَارك الصلاة، فهو عليه الصلاة والسلام يقول: «العَهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تَرَكَها فقد كفر» ويقول عليه الصلاة والسلام: «ليس بين العبد والكفر إلا تركه الصلاة» وفي رواية أخرى: «بين العبد والكفر تَركُهُ الصلاة» إلى غير ذلك مِن الروايات، ولكن هل هو كفر نعمة أو كفر مِلَّة؟ الذي نأخذ به ونعوّل عليه أنه إن كان لَم يَجْحَد الصلاة وإنَّما تركها تَهَاوناً فَكُفره كفر نعمة وليس كفر مِلّة، بِحيث لا يُخرَج مِن مِلَّة المسلمين ويَبقَى التوارث بينه وبينهم، ولا تَحرُم عليه امرأته، وإن كان لا ينبغي للمرأة المسلمة الـمُصلِّية المحافظة على دينها أن تكون حَلِيلَة لتارك الصلاة كيفما كان الأمر، ولكن مع ذلك لا نقول بأنَّها تَحرم عليه، وإنَّما يُطالَب بالاستقامة والمحافظة على الصلاة، وإن مات فهو يُدفَن في مقابِر المسلمين ويصلَّى عليه ـ على القول الراجح ـ عَملاً بِحديث النبي ﷺ: «الصلاة على موتى أهل القبلة المقِرِّين بالله ورسوله واجبة فمن تَرَكها فقد كفر»[1] والحديث الآخر أيضاً: «الصلاة جائزة خلف كل بر وفاجِر، وصلوا على كل بر وفاجر»[2]، فلا يُحرَم من حقوق موتى المسلمين وغيرهم، ولكن مع ذلك هو مرتكِبٌ كُفر نعمة لأنه كفر نعمة الله بِتَركه الصلاة.

---

(١) رواه الإمام الربيع (٧٧٧).

(٢) رواه الإمام الربيع (٧٧٦).

بينما تاركها جُحُوداً يكون كافراً كُفر مِلَّة، فيُحكم عليه بأنه مرتد عن الإسلام.. ويُطبَّق عليه حد الردة ولا يدفن في مقابر المسلمين ولا يستحق شيئاً من حقوق موتى المسلمين ولا يكون بينه وبين المسلمين توارث، والله أعلم.

ما الفرق بين الفسوق وكفر النعمة ؟

نحن لا نفرق بينهما، ولذلك لا نقول كما تقول المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين، فالمعتزلة يخصون كافر النعمة باسم الفاسق، مع أن الفسوق في الحقيقة قد يطلق على جميع المخالفات الشرعية حتى على القضايا العقدية التي تفضي إلى الشرك، فالفسوق في اللغة هو بمعنى الخروج، يقال فسقت الرطبة إذا خرجت، ويقال فسق عن الطريق إذا حاد عنه، ففسق كجار بمعنى خرج كما قال الشاعر:

فواسقاً عن قصدها جوائرا

والآيات الكريمة تدل على التساوي ما بين الفسوق وكفر النعمة، فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، فإذاً الفسوق وكفر النعمة سيان لا فرق بينهما، نعم الكفر قد يطلق على كفر النعمة وكفر الشرك، والفسوق قد يطلق على المخالفة العملية، ويطلق على المخالفة العقدية التي تفضي إلى الشرك، كفسوق المنافقين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]، والله أعلم.

هل من يكفر كفر النعمة تحرم على المسلمين غيبته والتجسس عليه ؟

تحرم غيبة البر الصالح التقي دون غيره، أما التجسس فيحرم التجسس

على كل أحد، فقد قــال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، فمنع أن يغتاب بعضنا بعضا ولكن قال في التجسس:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]، فمنع مطلق التجســس حتى على المشــرك، إلا أن هناك فرقاً بين المجاهر بمعصيته وبين من يرتكب معصية خاصة بنفســه لا يضر بها أحداً من الناس ولا يجاهر بها، فهذا الأخير قد أســدل على نفســه ستراً فلا ينبغي أن يهتك ستره إلا إذا كانت هناك مضرة على الأمة من بقاء حاله مســتورا، فلا مانع أن يذكر بعمله في هذه الحالة لأجل الحذر من كيده واتقائه، لا لأجل التلذذ بذكر مساوئ الناس، لأن التلذذ بذلك حرام، والله أعلم.

قال رســول الله ﷺ: «العهد الــذي بيننا وبينهم الصلاة فمــن تركها فقد كفر»[1] إلى من يعود الضمير في «بينهم»؟

إلى الناس ـ وإن كانوا غيــر مذكورين ـ، فمن تــرك الصلاة من الناس فقد كفر كفر نعمة إن كان غير مســتحل لتركها، وكفر شرك إن كان مستحلاً لتركها، والله أعلم.

فــي قولــه تعالــى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، هل هو كفر مِلَّة، أم هو كفر دون كفر؟

إن كان رَادّاً لحكم الله وذلك بأنْ يعتقد أنَّ مــا أنزله الله ـ تعالى ـ باطل وأنَّ ما كان مِن شِــرعة الطاغوت هو الحق، ففي هذه الحالة يكون رَادّاً لنص قطعي، ويكــون كفره كفر ملة، وبِهــذا يَخرج مِن مِلَّةِ الإســلام، أما إن كان يرتكب المخالفة مع إيمانه بأنَّ ما أنزله الله تعالى هو الحق وأنَّ ما خالفه هو الباطل ففي هذه الحالة يكون كفره كفر نعمة؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

(١) رواه النسائي (٣٢٩) وابن ماجه (١٠٦٩).

هناك كلمات يظهر أنها كلمات كفر، وقد جاءت نتيجة عدم فهم المسلمين لعقيدتهم الإسلامية، فمثلاً البعض يقول: «لا حول الله»، ولا يكملها، والبعض يسمي الشبشب وهي النعل المعروفة ببعض الصفات، يسميها «زنّوبة»، ويقول البعض إن هذا اسم يهودي، والبعض يقول راعي السباق، فراعِنا التي وردت في القرآن ربما ينطبق عليها هذا الكلام، فهل من نصيحة تقدمونها لهؤلاء؟

على الناس أن يتقوا الله ـ تعالى ـ في عباراتهم، فلا يتحدثوا عن الله إلا بما فيه تعظيم لله وتقديس وتنزيه له بحسب ما أذن به الله ﷻ من غير أن ينحرفوا عن ذلك، ولْيلزموا ما أُمِروا أن يقولوه، فهم عليهم أن يقولوا لا إلٰه إلا الله، لا أن يقولوا لا إلٰه؛ لأن كلمة لا إلٰه هي كلمة إلحاد تعني نفي الألوهية ـ تعالى الله عن ذلك ـ، وكذلك عليهم أن يقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله، لا أن يقولوا لا حول ويسكتوا، أو يقولوا لا حول الله، ومثل هذه الكلمات كفر وأيّ كفر، وكذلك سائر الكلمات الكفرية التي لا يعذر قائلها وإن كان جاهلا، فعليهم أن يتقوا الله وأن يقولوا قولا سديدا.

وكذلك الحال في الكلمات التي ربما تثير شكوكاً في معانيها أو يترتب عليها شيء من المفاسد، فعلى المسلمين جميعاً أن يتقوا الله وألا يقولوها، فإنّ سدّ الذرائع باب من أبواب الشريعة الإسلامية، جاء به القرآن الكريم، وجاءت به السُّنَّة النبوية على صاحبها ـ أفضل الصلاة والسلام ـ، والله ـ تعالى ـ المستعان.

امرأة زوجها يسكر ولا يصلي ولا يصوم، كيف يكون موقفها معه؟

مِمّا يُؤسَف له أنَّ كثيراً مِن الناس وكثيراً مِن الأسر لا يُقيمون وزناً للدِّين كما ينبغي في قضية العلاقات الاجتماعية، ولذلك عندما يأتيهم خاطب يريد

الارتباط بِموليتهم لا يبالون بدينه، فلا يسألون عن عبادته، ولا عن أمانته، ولا عن صدقه، ولا عن أخلاقه، إنَّما يُعنون بِجانب المال وأصالة المحتد والمنصب وترف هذه الحياة الدنيا، وهذا مِما يُنافي ما يوجهنا إليه القرآن الكريم، وما توجهنا إليه السُّنَّة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم، فإنَّ الله تعالى يُبين لنا أنَّ معيار التفاضل بين الناس إنَّما هو الدين فقد قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ [الحجرات: ١٣]، والنَّبِي ﷺ عندما ذكر ما تُنكح مِن أجله المرأة قال: «فاظفر بذات الدين تربت يداك»[(١)]. وقال: «إذا أتاكم مَن ترضون دينه وخلقه فزوجوه»[(٢)]. وهذا كله مِما يدل على أنَّ الدين هو المحور الذي يجب أن يَرتكز عليه اهتمام جميع الناس في العلاقات الاجتماعية وفي غيرها.

هذا ومِن المعلوم أنَّ تارك الصلاة لا نَصيب له في الإسلام، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ ﴾ [التوبة: ٥]، ويقول أيضاً: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١]، فجعل تَميز المسلم واستحقاقه حقوق الإسلام إنَّما هو بتوبته مِما كان عليه مِن قبل إن كان على مِلَّة الجاهلية مع إقامه للصلاة وإيتائه للزكاة.

وهذا ما تدل عليه أحاديث النبي ﷺ أيضاً ـ، فالنبي ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ يقول كما في حديث ابن عمر عند الشيخين وغيرهما: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأَنِّي رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مِنِّي دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابُهم على الله»[(٣)].

(١) رواه البخاري (٤٧٠٠).
(٢) رواه الترمذي (١٠٠٤).
(٣) رواه البخاري (٢٤) ومسلم (٢٩).

فالصـــلاة لها مكانة عظيمـــة، ولذلك نـــرى دائماً أنَّها تتصـــدر الأعمال عندما تذكر في القرآن الكريم، فـــالله تعالى يقول: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢-٣]، ويقـــول ســـبحانه: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٢-٣]، ويقول جل شأنه: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [لقمان: ٣-٤] وكذلـــك الحال في أحاديث الرســـول ﷺ إذ نجد أنَّ الصلاة هي التي تتصدر الأعمال الصالحة وذلك في أحاديث كثيرة لسنا الآن بصدد استعراضها، فلذلك كان مِن الضرورة بِمكان أن يُسأل عن المرء أوَّل ما يُسأل عن صلاته، هل هو مُحافظ عليها؟ وهل هو قائم بِحقها؟.

ومَن ترك الصلاة لا نصيب له في الإســـلام كما قلنا، ففي الحديث عن النبي ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فَمَن تركها فقد كفر»(١)، ويقول ـ عليه أفضل الصلاة والســـلام ـ: «ليس بين العبد والكفر إلا ترك الصلاة»(٢)؛ فالصلاة هي أهم الأعمال التي يجب أن تراعى في هذا الجانب.

وتارك الصلاة لا يَخلو إما أن يكون تـــاركاً لها مع إنكاره إياها، وفي هذه الحالة يكون في عـــداد المرتدين، ولا يجوز أن تبقى هـــذه المرأة عنده لحظة واحدة، لأنَّ زواجه بِها زواج فاســـد ذلك لأنَّه لا يجوز إنكاح المشركين، فالله تعالـــى يقـــول: ﴿ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وعليها أن تخرج مِن بيتـــه وأن لا تبقى عنده، وهكذا الحكـــم إن أنكر علم مِـــن الدين بالضـــرورة كأن يُنكر اليوم الآخـــر أو يُنكر

(١) رواه النسائي (٣٢٩) وابن ماجه (١٠٦٩).
(٢) رواه الإمام الربيع (٣٠٣).

صفة مِن صفات الله ـ تعالى ـ التي نص عليها القرآن الكريم، أو يُنكر الزكاة المشروعة، أو يُنكر شيئاً مِن أحكام الله ـ تعالى ـ التي نص عليها القرآن الكريم أو نصت عليها سُنةٌ متواترة عن النبي عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم.

أما إن كان لا يُنكر وجوب الصلاة ويدين لله ـ تعالى ـ بوجوبِها ولكنَّه مع ذلك مُتهاون بِها فإنه يكون كافراً كفر نعمة، ولا خير في بقائها عنده، ولكن لا نقول بأنَّه يَحرم عليها أن تبقى عنده، وإن كان مِن الأفضل للمرأة المسلمة أن لا تبقى مع تارك الصلاة.

ومهما يكن فإنَّنا نوصي النساء أن لا يرضين بالارتباط إلا بِمن يُرتضى دينه وخلقه، ونوصي أولياء أمورهن أن لا يرضوا بربط مصير مولياتِهم إلا بِمصير مَن يرتضى دينه وخلقه؛ والله ـ تعالى ـ ولي التوفيق.

ما هي أقسام النفاق؟

ينقسم النفاق إلى قسمين لأنه إما أن يكون نفاق عقيدة، وإما أن يكون نفاق عمل، فنفاق العقيدة هو أن يُبطن عقيدة الكفر في حنايا ضميره وبين طوايا نفسه ويُظهر عقيدة الإسلام، وهذا الذي كان عليه معظم المنافقين في عهد النبي عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، ومما يدل على ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١] وكذلك قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨].

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]؛ وأما النفاق العملي فهو ما دل عليه الحديث الشريف: «ثلاث

من كن فيه فهو منافق...»[١] وفي رواية: «أربــع...»[٢] إلى آخره؛ والنفاق العقَدي هو وإن كان في حقيقته كفرا بالله سـبحانه وإشراكا من حيث الطوية التي ينطوي عليها هذا المنافق إلا أنه تجرى عليه جميع أحكام المسلمين في الظاهر. والله أعلم.

هل يعتبر خُلْف الوعد لسبب طارئ من علامات النفاق؟

أمــا إذا كان فيما لا يملك الإنســان دفعه فــلا يعد من علامــات النفاق، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، والله أعلم.

هل يستباح دم المنافق إن كان ينقل أخبار المسلمين إلى أعدائهم كما قال الإمام جابر حين سئل عن أفضل الجهاد فقال: قتل خردلة؟

إن ثبت ذلك عليه، ولم تكــن هناك ريبة فدمه يبــاح، لأنه يكون في هذه الحالة محارباً للمســلمين بتآمره عليهم وخدمة أعدائهم ضدهم ولو لم يحمل عليهم السلاح، والله أعلم.

لماذا خص الرسول ﷺ حذيفة بن اليمان بأسماء من عرف من المنافقين؟

هذا الأمر يعود إلى الرســول ﷺ نفســه، فهــو يصطفي مــن أصحابه لما يصطفيه له من أمره، ولا دخل لنا في ذلك، والله أعلم.

كيف يجمع بين حديث: «أذيعوا بخبر الفاســق»[٣] وفعل الرســول ﷺ في المنافقين؟

كان ســتر الرســول ﷺ لأعيان المنافقين وعدم البوح بأســمائهم لحكمة، وذلك حتــى يبقى هذا الحكم ســارياً فــي المنافقين من بعــده ـ عليه أفضل

(١) رواه البخاري (٣٢) ومسلم (٨٩) بلفظ «آية المنافق ثلاث...».
(٢) رواه البخاري (٣٣) ومسلم (٨٨).
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة بلفظ «اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس».

الصلاة والسـلام ـ فلو ظهروا للناس فلربما كانت هناك عداوات ظاهرة ما بين المسلمين وبينهم، ولربما أفضى الأمر إلى ما هو أكبر من ذلك، والله أعلم.

إذا كان جزاء المنافق نفاقاً عقدياً هو أنه في الدرك الأسـفل من النار، فما جزاء المنافق نفاقاً عملياً؟

هو بحسـب ما عمل، فالنار والعياذ بالله دركات، فإن تاب إلى الله قبل الله توبته، وإن لم يتب إلى الله باء بسـوء المصيـر ـ والعياذ بالله ـ ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣]، ولكـن هـذا الجزاء إنما هو بقدر العمل والله أعلم.

هل تجتمع صفة النفاق العقدي والعملي؟

نعم تجتمع، فقد يكون منافقاً نفاقاً عقدياً ومع ذلك يخل بالأعمال الواجبة عليه، والله أعلم.

هل يقال للذي خطب على خطبة أخيه منافق؟ وما هي توبته؟

هذا نفاق عملي وليس نفاقاً عقدياً، وتوبته أن يترك السبيل لذلك الخاطب الأول، والله أعلم.

ما حكم معاملة المنافق نفاقاً عملياً؟

إن ثبت ذلك عليه فهو في براءة المسلمين إلا أن يتوب والله أعلم.

الشرك وأحكامه

هل يطلق على من أنكر وجود الله عز وجل ـ كالملاحدة ـ أنه كافر كفر شرك أو لفظة مشرك فإن كان كذلك فما وجهه مع أنه لا يؤمن أصلاً بوجوده سبحانه وتعالى؟

الشرك ينقسم ـ كما قال العلماء ـ إلى قسمين: شرك جحود وشرك مساواة:

فشرك الجحود يشمل إنكار وجود الله، فمن جحد وجود الله ﷻ فقد أشرك بالله من حيث إنه سـوى الله ﷻ وهو الواجب الوجود بغيره مما هو ليس بموجود، وكذلك من جحـد صفة من صفـات الله، كأن يجحد كـون الله ﷻ عليماً، أو يجحد كونه قديراً، أو كونه خالقاً، أو كونه رازقاً، أو أي صفة من صفاته سبحانه سواءً كانت هذه الصفات فعلية أو ذاتية، وكذلك من جحد رسولاً من رسل الله، أو جحد كتاباً من كتب الله، أو جحد حكماً مـن أحكام الله، كأن يجحد حكم الخمر، فيدعي أن الخمر حلال، أو يجحـد حكم الزنا، فيدعي أن الزنا حلال، أو يجحد حكم الربا فيدعي أن الربا حـلال، أو يجحد أي حكم من نحو هذه الأحكام فهو مشرك شـرك جحود، وكذلك إنكار أي شيء مما أخبر الله تعالى به، كإنكار ملائكته سـبحانه أو إنكار اليوم الآخر أو شيء منه، كإنكار مجازاة المؤمنين بالجنة، ومجازاة المشركين بالنار، فإن ذلك كله يعد جحداً بما أخبر الله تعالى به، فهو أيضاً من شرك الجحود.

وأما **شرك المساواة** فهو من حيث التسوية بين الله تعالى وبين غيره، وذلك كأن يجعل المشرك لله تعالى نداً، فيعبد غير الله مع الله، فإن هذا الشرك هو شرك مساواة إذ سوى الله بغيره وسوى غير الله به، وكذلك لو اعتقد أن غير الله تعالى خالق، أو رازق، أو باعث للأموات، أو أن لله ﷻ مـن يعينه على أعماله، كأن يعينه على خلقه أو على بسـط الرزق أو على بعث الناس يوم القيامة وهكذا، والتحقيـق أن كل واحد من النوعيـن يمكن أن يؤول إلى النـوع الآخر، وأما حكمهما فهو متحد بالإجماع فلا فارق بينهما هذا النوع وذاك، والله أعلم.

مَن يَرَى أن هَذِه الكَوَارِث هِي مِن نَسْـجِ الطبيعة منفصلة عن إرادة الله، هَلْ يُؤَثِّر مِثْل هَذَا عَلَى عَقِيدَتِه وإسلامه ؟

الذي لا يُؤْمن بِأن هَذَا الكَوْنَ مُدَبَّر مِن قِبل الله تعالى فإن إسـلامه يَتَلَاشَى

مَعَ هَذا الـمُعْتَقَد إذ الله ـ تعالى ـ وَحْدَهُ هُوَ الذِي يُدَبِّر الكَوْن، والآيات القرآنية تَدُل عَلَى أنَّ القرآن الكريم يصل إلى جَمِيع الظَّوَاهِر الكَوْنِيَة بِأَمْر الله تعالى يقول: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٤]، فالذي يَتَعامَى عَن هَذِه الحقائق، وَيعزو ما يَجْرِي في هَذَا الكَوْن إلى أُمُورٍ طَبِيعية مَفْصُولَة عَن إرادة الله تعالى وتَقْدِيرِه وتَدْبِيره مَعْنى ذلك أَنَّهُ جَعَل مَعَ الله شَرِيكاً فِي تَدْبِير هَذَا الكَوْن، أو أَنَّه جَحَدَ وُجُودَ الله وجَعَلَ غَيْر الله تعالى هُو الذِي يُدَبِّر هَذَا الكَوْن، والله المستعان.

فيمن شك لفترة مؤقتة في إحدى صفات الله الذاتية واعتقد بعكسها تعالى الله عن ذلك هل يخرجه ذلك من الإسلام؟

نعم، إن شك الإنسان في الله هل عالم أو لا؟ فإن شكه هذا يخرجه من الإسلام أو اعتقد أن الله تعالى جاهل أو عاجز أو ميت أو بخيل أو لئيم ـ تعالى الله عن ذلك كله ـ فإنه يخرج بأي شيء من ذلك من ملة الإسلام والله أعلم.



الولاية والبراءة

الولاية والبراءة

إن الناس لا زالوا يتساءلون عن الأصل الذي عول عليه أصحابنا رحمهم الله في قولهم بوجوب البراءة من مرتكب الكبيرة ـ إن لم يتب منها ـ وإن كان من جملة الموحدين، وعدم استغفارهم له وترحمهم عليه، ولربما جعل بعض الناس هذا مما يعاب به المذهب، فقد انتقد أكثر من واحد ما ذكرتموه في كتابكم «الحق الدامغ» عن أبي حمزة الشاري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «الناس منا ونحن منهم إلا مشركاً بالله عابد وثن، أو كافرا من أهل الكتاب، أو إماماً جائرا» حيث قالوا: كيف يقرن الإمام الجائر بالمشرك عابد الوثن، والكافر من أهل الكتاب، مع أن الإمام الجائر من أهل التوحيد، والمشرك والكتابي خارجان عن ملة الإسلام، فكيف يُلَزُّ معهما في قرن فيتبرأ منه كما تبرئ منهما؟! أولا يكفي أن يتبرأ من الكبيرة وحدها من غير البراءة من مرتكبها؟ وبما أن هذا الأمر التبس على كثير من الناس رأينا من الضرورة بيانه، ليكون الناس على بينة من أمرهم وبصيرة من دينهم، لذلك نرجو الإجابة عن ذلك بما يشفي الغليل؟

الحمد لله الذي يحتكم إلى كتابه في كل شقاق، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جعل الله هديه مصدر الألفة والوفاق، وعلى آله وصحبه أئمة الهدى، وعلى كل من اتبع نهجهم فاتقى مسالك الردى.

أما بعد/ فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعةٌ وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، واعلم أن أصحابنا رحمهم الله لم يذهبوا إلى ما ذهبوا إليه اعتباطاً، ولم يدينوا بما دانوا به عن هوى، وإنما عولوا فيما قالوه ودانوا به على بينة

من كتاب ربهم، وهدي من سنة نبيهم، عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام، ومن عابهم فيما قالوه ودانوا به من هذا فقد عاب القرآن وعاب السُّنَّة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وحسبك من أمرين أحلاهما مُرّ، فإن هؤلاء إما أن يكونوا جاهلين بحكم الله وبهدي رسوله ﷺ، فهم يقولون على الله ما لا يعلمون، وكفى به إثما مبينا، فإن الله قرن ذلك بالإشراك به في قوله:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] وذكر أن ذلك من أمر الشيطان حيث قال:

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٩]

وإما أن يكونوا متعمدين مكابرة الحق، ومغالطة الدليل فيصدق عليهم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦] فهم على كلا الحالين لا يخرجون عن قول الشاعر:

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

ذلك لأن الله سبحانه أخبر في كتابه الكريم أنه لا يرضى عن الفساق، حيث قال في الذين استأذنوا النبي ﷺ في التخلف عن الجهاد وهم أغنياء، رضىً منهم بأن يكونوا مع الخوالف:

﴿ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٦]

والآية عامة لكل فاسق وإن نزلت لسبب خاص، فإنه لا عبرة بخصوص السبب مع عموم اللفظ، ولحكمة يعلمها الله كانت العبارة على خلاف مقتضى الأصل حيث إن حكم هؤلاء لم يسلط على ضمير يرجع إليهم وإنما جرى على اسم ظاهر مع إمكان أن يقول مع إمكان أن يقول: «فإن

الله لا يرضى عنهم» ولكن بدلاً من ذلك قال: ﴿ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٦] للإشعار بأن فسوقهم هو علة هذا الحكم، فإن الحكم على المشتق يؤذن بأن أصل ذلك الاشتقاق علة لذلك الحكم، فحيثما وجد الفسوق كان هذا حكم من تلبس به، والفسق يصدق لغة وشرعاً على كل خارج عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، فإنه لغة بمعنى الخروج، ولذلك يقال في الرطبة إذا خرجت عن بقية الرطب فاسقة، وقد دل القرآن على فسق مرتكب الكبيرة فقد قال تعالى في أكل ما لم يذكر اسم الله عليه ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام: ١٢١] وقال في الذين يرمون المحصنات:

﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ [الحجرات: ١١] ومعنى هذا أن الله تعالى لا يرضى عن أي فاسق ما دام مصراً على فسوقه، غير مقلع عن غيه، وإذا كان الله لا يرضى عنه كما أخبر بنفسه، فكيف يتولى في الدين مع أن الولاية هي الحب في الله تعالى؟!.

ومما يدل على وجوب البراءة منه قوله تعالى في المؤمنين: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ [الحجرات: ٧] ثم بين أن هذا هو الرشد حيث حصر الراشدين في هذا الصنف من الناس بقوله: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧] وليس من المقبول عقلاً ولا شرعاً أن يكره أحدٌ الكفر والفسوق والعصيان ثم لا يكره الكفار والفساق والعصاة، فإن كراهة الفعل تقتضي كراهة فاعله، وحبه يقتضي حب فاعله، فعدم كراهة هؤلاء، تعني عدم كراهة ما يصدر منهم من الكفر والفسوق والعصيان، وهذا يتنافى مع الرشد والإيمان.

وإن من أقوى الأدلة وأقطعها للسان كل مشاقق في هذا قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥-٤٦] فهذا نوح عليه السلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله صابراً على أذاهم، محتملاً كل عنت وشقاق لأجل دعوة ربه، يتلطف في هداية قومه بها فيجهر بها تارة ويسر بها أخرى، وظل على ذلك حتى قيل ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] فأيس من رشدهم ودعا الله أن يستأصلهم لقطع دابر كفرهم واستئصال شأفة شقاقهم، فحمل أهله ومن آمن معه على السفينة، ورفض ابنه الركوب معهم مؤثرا الإيواء إلى جبل يعصمه من الماء، فكان من المغرقين، وقد تلطف نوح عليه السلام في خطابه لربه بشأنه، فلم يزد على قوله:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] فجاء ردُّ ربنا سبحانه وتعالى مسكتا للسانه عن أي قول في هذا إلّا التسليم لأمر الله، إذ قال له الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] مع أنه ابنه بشهادة وحي الله تعالى وعلل هذا الحكم بقوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ ومعنى ذلك أنّ علة منعه من هذا القول ما صدر عن ابنه من عمله غير الصَّالح، وهو الذي أوبقه فكان مع الهالكين، ولتأثير هذا العمل عليه، وإحاطته به لأنه لم يتب منه حتى مات كان كأنه هو ذات العمل غير الصَّالح فأخبر عنه بنفس العمل في قراءة الجمهور برفع «عملٌ»، على أنه خبر (إن) ونعته (بغير) المضاف إلى (صالح)، وقرأ الكسائي ـ وهو أحد القراء السبعة المعتمدين ـ (عَمِل غيرَ صالح) بكسر ميم «عَمِلَ» وفتح لامه على أنه فعل ماضٍ فاعله ضمير يعود إلى ابن نوح و«غيرَ» مفتوح الراء لأنه مفعوله فهو منصوب به وقد قرأ بها أربعة من الصحابة وهم علي وعائشة

وابن عباس وأنس ﵃، وروتها عائشة وأم سلمة ﵄ عن النبي ﷺ، وهي أدل على تعليل منع نوح ﵇ مما قاله فيه لربه بما عمله ابنه من العمل غير الصالح، فكيف يسوغ مع هذا أن يدعى لفاجر ـ يغدو ويروح على معاصي الله الموبقة ـ بالرحمة والمغفرة؟

فإن قيل: بأن ابن نوح ﵇ لم يؤمن برسالة أبيه، بل كان كافراً بها، فلذلك منع نوح أن يتولاه، أو يدعو له، فلا يقاس عليه من أسلم وآمن بما جاءت به الرسل، ولكنه فسق بارتكابه الكبائر.

قلنا: ليس في القرآن ما يشير قط أنه كان جاحداً لرسالة أبيه، أو صاداً عن الإيمان بها، وإنما قصارى أمره المذكور أنه كان في معزل عن أبيه ومن معه عندما ركبوا في السفينة، وأن نوحاً ﵇ ناداه بأن يركب معهم، وأن لا يكون مع الكافرين بهلاكه معهم، فاعتذر إليه بأنه سيأوي إلى جبل يعصمه من الماء، فكانت هذه معصية منه استحق بها الهلاك، واستحق بها براءة أبيه والمؤمنين منه، بل مما يتبادر أن نوحاً ﵇ لو علم منه أنه مكذب برسالته لما دعاه إلى الركوب معه، كيف وقد أخبر أنه لن يؤمن من قومه إلَّا من قد آمن، على أنه مهما يكن من أمره فإن هذا الحكم إنما نيط بعمله غير الصالح، وهو دليل على أن من كان كذلك فلا تحق له الولاية في الدين وإنما تجب البراءة منه، ومما يستبعد جداً أن يذكر ـ في مقام الرد على أبيه وتبصيره بأنه ليس من أهله ـ أدنى جرائمه ـ وهو عمله غير الصالح ـ ويسكت عما هو أشد وهو جحوده لرسالة أبيه وكفره بالله تعالى لو كان ذلك هو سبب وجوب براءته منه.

هذا والقراءتان في الآية الكريمة دالتان على أن براءة نوح ﵇ منه التي أوجبها الله عليه بقوله: ﴿لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ ـ مع كونه ابنه والابن من

أقرب الأهلين إلى أبيه لأنه بضعة منه ـ إنما هي معللة بما عمله من غير الصالحات، أما قراءة الكسائي فهي واضحة في ذلك، وأمَّا قراءة الجمهور فهي لا تدل إلا على ذلك، وإنما فيها مبالغة في وصفه بالعمل غير الصالح.

ومثل هذا التركيب في الكلام إن تبع جملة تتضمن حكما أو مسألة لا يفيد إلا تعليل ذلك الحكم أو تلك المسألة بما دلت عليه (إن) وما وليها ومن استقرأ ما جاء من ذلك في القرآن وجد من الشواهد على هذا ما يتجاوز الإحصاء، من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] تعليل لقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] فإن قوله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ وقوله تعالى فيما يحكيه عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨] فإن قولهما: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تعليل لقولهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ وقولهما: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليل لقولهما:

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ وقولهما: ﴿مَن إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] تعليل لقولهما: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] فإن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ وقوله:

﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] فإن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تعليل لقوله: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨] فإن قوله ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ

مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ١٦٨] تعليل لقوله: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ ﴾ وقوله: ﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ فإن قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣]تعليل لقوله: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ ﴾ وقوله: ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ فإن قوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ ﴾ وقوله ﴿ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ فإن قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ تعليل لقوله:

﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ ومثل ذلك قوله: ﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥] وقوله: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨] وقوله: ﴿ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [آل عمران: ٢٦] وقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [آل عمران: ٣٨] وقوله: ﴿ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١١٩] وقوله: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ [آل عمران: ١٥٥] وقوله ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١] وقوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴾ [النساء: ٢] وقوله ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦] وقوله: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ٢٤] وقوله: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴾ [النساء: ٣٤] وقوله: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ [النساء: ٣٥] وقوله: ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ

﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١] وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤] وقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣] وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩] وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢] وقوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] فإن وما بعدها في هذه الآيات كلها تعليل لما سبقها من حكم تضمنته الجملة التي قبلها ونحو هذا في الآيات الكثيرة التي لم أذكرها.

وقد أدرك هذا السر في التعبير فرسان البيان فوظفوه في كلامهم كما أدركه رادة فن البلاغة فأوسعوه بحثاً، قال إمام البلاغة عبدالقاهر الجرجاني في كتابه «دلائل الإعجاز»: «روي عن الأصمعي أنه قال: كنت أسير مع أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر، وكانا يأتيان بشاراً فيسلمان عليه بغاية الإعظام ثم يقولان: يا أبا معاذ ما أحدثت؟ فيخبرهما وينشدهما، ويسألان ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الزوال ثم ينصرفان، وأتياه يوماً فقالا له: ما هذه القصيدة التي أحدثتها في مسلم بن قتيبة؟ قال: هي التي بلغتكم. قالوا بلغنا أنك كثرت فيها من الغريب، قال: نعم بلغني أن مسلم بن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف. قالوا: فأنشدناها يا أبا معاذ: فأنشدهما:

بكـرا صاحبـيَّ قبـل الهجير إن ذاك النجـاح فـي التبكيـر

حتى فرغ منها، فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذ مكان (إن ذاك النجاح

في التبكير) «بكرا فالنجاح في التبكير» كان أحسن فقال بشار: إنما بنيتها أعرابية وحشية فقلت: «إن ذاك النجاح في التبكير».

كما تقول الأعراب البدويون، ولو قلت «بكرا فالنجاح» كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذاك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة. قال: فقام خلف فقبل بين عينه. وقال الجرجاني على أثر هذه القصة: فهل كان هذا القول من خلف والنقد على بشار إلا للطف المعنى في ذلك وخفائه؟ ثم قال: «واعلم أن من شأن «إن» إذا جاءت على هذه الوجه أن تغنى غناء الفاء العاطفة مثلا، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجيبا، فأنت ترى الكلام بها مستأنفا غير مستأنف، مقطوعاً موصولاً معاً، أفلا ترى أنك لو أسقطت «إن» من قوله: «إن ذاك النجاح في التبكير» لم تر الكلام يلتئم ولو رأيت الجملة الثانية تتصل بالأولى ولا تكون منها بسبيل حتى تجئ بالفاء فتقول:

بكرا صاحبي قبل الهجير فذاك النجاح في التبكير

ومثله قول بعض العرب:

فغنها وهي لك الفداء إن غناء الأبل الحداء

فانظر إلى قوله: «إن غناء الإبل الحداء» وإلى ملاءمته الكلام قبله وحسن تشبثه به ثم انظر إذا تركت «إن» وقلت: فغنها وهي لك الفداء غناء الإبل الحداء. كيف تكون الصورة؟ وكيف ينبو أحد الكلامين عن الآخر؟ وكيف يشئم هذا ويعرق ذاك حتى لا تجد حيلة في ائتلافها حتى تجتلب لها الفاء فتقول فغنها وهي لك الفداء فغناء الإبل الحداء؟» اهـ.

وبهذا يتبين لك ما وضحته من إفادة قوله تعالى: إنه عمل غير صالح تعليل الحكم الذي سبقه في قوله: «إنه ليس من أهلك» ذلك لأن إسقاط

«إن» من مثل هذا التركيب لا يؤدي إلَّا إلى تنافر الكلامين وتفكك الجملتين حتى يفقد الكلام انسجامه ولا يعوض «إن» في مثل هذا إلَّا الفاء الدالة على السببية مع ما يكون في ذلك من انحطاط التعبير عن ذروته كما قال بشار وأنت تدري ما بين السببية والتعليل من التآخي والتوأمة.

فإن قيل: إذا سلم لهذا كله فلا يسلم أن هذا الحكم مشروع لنا فإن هذا الخطاب إنما خوطب به رسولٌ آخر غير الرسول الذي تعبدنا بشرعه، وشرع من قبلنا ليس بشرع لنا.

قلت: كلا، بل هذه من الأصول الثابتة التي تشترك فيها جميع شرائع الأنبياء، وهي مما تضمنه أمر الله لنبيه عليه أفضل الصلاة والسلام بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام: ٩٠] فإن التوحيد والأخلاق لا يطرأ عليهما النسخ، والغيرة على دين الله والغضب له تعالى من قواعد الدين التي لا تتزعزع في أي شرع وهذا ما أكده قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ ﴾ [المجادلة: ٢٢] ومحادة الله كما تكون بالقول والاعتقاد تكون بالعمل والسلوك فتندرج فيها كبائر الأثم إذا أصر عليها صاحبها كيف وقد قال الله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٦] ويعضد هذا موقف نبينا عليه الصلاة والسلام من أصحاب الكبائر فإنه إن لم يكن صريحاً في البراءة منهم فليس يصح في الأذهان شيء، وقد أمرنا الله بالتأسي به في قوله: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٢١] وهاكم صوراً من مواقفه عليه الصلاة والسلام من أهل الكبائر.

١ ـ روى الربيع في مسنده الصحيح عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**ألا ومن غشنا فليس منا ومن لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا فليس منا**» وقد أخرج الجماعة إلا البخاري والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ مر برجل يبيع طعاماً فأدخل يده فيه فإذا هو مبلول فقال: «من غشنا فليس منا» وفي رواية لمسلم «**من غش فليس مني**».

٢ ـ أخرج الشيخان والترمذي والنسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية**».

٣ ـ روى البخاري وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» وحمل التغني هنا على الاستغناء كما نص عليه الجوهري والهروي من اللغويين وأطال في الانتصار له القرطبي في تفسيره، ذلك لأن تفعل واستفعل يترادفان، كتكبر واستكبر.

٤ ـ روى أبو داود عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من خبب امرأة على زوجها أو عبداً على سيده**».

٥ ـ روى مسلم عن عبدالرحمٰن بن يزيد وأبي بردة بن أبي موسى قالا: أغمي على أبي موسى، وأقبلت امرأته أم عبدالله تصيح برنة قالا: ثم أفاق، قال: ألم تعلمي ـ وكان يحدثها ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا بريء ممن حلق وسلق وخرق**».

ورواه مسلم أيضاً عن عياض الأشعري عن امرأة أبي موسى عن أبي موسى، وعن صفوان بن محرز عن أبي موسى، وعن ربعي بن خراش عن

أبي موسى، غير أن في حديث عياض «ليس منا» ولم يقل «بريء» ومؤدى اللفظين واحد.

ورواه أبو داود عن يزيد بن أوس قال: دخلت على أبي موسى وهو ثقيل، فذهبت امرأته لتبكي أو تهم به فقال لها أبو موسى: أما سمعت ما قال رسول الله ﷺ فقالت: بلى، فسكتت فلما مات أبو موسى قال يزيد: لقيت المرأة فقلت لها: ما قول أبي موسى لك: أما سمعت قول رسول الله ﷺ ثم سكت؟ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من حلق ومن سلق ومن خرق**» وهذا هو لفظ عياض الأشعري عند مسلم.

٦ ـ روى أحمد قال: حدثنا الوليد بن ثعلبة الطائي عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من حلف بالأمانة، ومن خبب على امرئ زوجته أو مملوكه فليس منا**».

٧ ـ روى مسلم عن أياس بن سلمة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**من سلَّ علينا السيف فليس منا**» وأخرجه من طريق أبي موسى بلفظ «**من حمل علينا السلاح فليس منا**» ومن طريق أبي هريرة بلفظ: «**من حمل علينا السلاح فليس منا ومن غشنا فليس منا**».

٨ ـ أخرج الطبراني في كبيره عن ابن الزبير عن النبي ﷺ قال: «**ليس منا من حمل علينا السلاح**».

٩ ـ روى البيهقي في الآداب عن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية**».

١٠ ـ أخرج الطبراني في كبيره عن عمران بن حصين ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له ـ أظنه قال ـ أو سحر أو سحر له**».

١١ ـ أخرج الحاكم في مستدركه عن ابن عباس ﵄ عن رسول الله ﷺ قال: «**ليس منا من انتهب أو سلب أو أشار بالسلب**» قال: وهذا حديث صحيح ولم يخرجاه.

١٢ ـ روى الطبراني في كبيره عن ابن عباس قال: شكا رجل إلى النبي ﷺ العزوبة فقال: ألا أختصي؟ فقال: «لا، ليس منا من خصى أو اختصى ولكن صم ووفر شعر جسدك».

١٣ ـ روى أبو يعلى من طريق ابن عباس ﵄ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**ليس منا من أجلب على الخيل يوم الرهان وليس منا من خبب عبدا على سيده، وليس منا من أفسد امرأة على زوجها**».

١٤ ـ في مسند الشهاب للقضاعي بإسناده إلى عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله وهم يرون ريح القتار من الجيران ويرونهم يكسون ولا يكسون**».

١٥ ـ روى أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليس منا من تشبه بالرجال من النساء ولا من تشبه بالنساء من الرجال**» وفي إسناده رجل مجهول ولكن متنه صحيح لاعتضاده بالأدلة الصحيحة.

١٦ ـ روى الترمذي من طريق أنس ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا**».

١٧ ـ روى أيضاً عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس منا من تشبه بغيرنا، لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع وتسليم النصارى الإشارة بالأكف**» وهو وإن أعل بابن لهيعة وما قيل في روايات عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده فإن معناه صحيح لاعتضاده بالقرآن الكريم والأحاديث الصحيحة.

وأمثال هذه الروايات كثيرة وهي جميعاً تدل على براءة النبي ﷺ ممن فعل كبيرة، فأي ريبة تبقى من موقف أصحابنا من المصرين على الكبائر المجاهرين بانتهاك حرم الله تعالى؟!.

أما أولئك الذين عابوا أبا حمزة الشاري ﵀ بسبب براءته من الإمام الجائر وإلحاقه إياه بالمشرك عابد الوثن والكافر من أهل الكتاب في البراءة منه فإن عيبهم إياه لا يدل إلا على جهلهم بالإسلام، لما ران على قلوبهم من ممارسة الظلم، واستولى عليهم من حب الظالمين الذين مقتهم الله ورسوله والمؤمنون، فقد بلغت بهم ألفتهم للظلم أن كانت ولاية الظالم وتأييدهم إياه وتبكيتهم لمن خالفه وبراءتهم ممن فارقه جزءاً من عقيدتهم التي بها يدينون، مع أن الله تعالى توعد بالنار على مجرد الركون إلى الذين ظلموا في قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣] والركون هو ميل النفس كما فسره ابن عباس ﵄، وفسره السدي وابن زيد بالمداهنة، وقال سفيان في معنى «ولا تركنوا» لا تدنوا إلى الذين ظلموا، وقال أبو العالية: «لا ترضوا أعمالهم»

ومنهم من قال: «لا تجالسوهم» وهذه التفاسير وإن اختلفت ألفاظها فإن معناها واحد، لأنها تؤدي إلى غاية واحدة، وهي مجانبة أهل الظلم، وكراهة ما يصدر عنهم، وليت شعري أيكون مباينا لهم من امتلأ قلبه غيرة عليهم حتى استنكر البراءة منهم، وعدها من معالم الضلال؟!.

فإن قيل: بأن الظلم في الآية لا يصدق على فعل أئمة الجور، وإنما هو الإشراك بالله.

قلت: هذه أدهى وأمر، فإن حصر الظلم في الإشراك بالله وهم ناشئ عما تشبعت به هذه النفوس من حب الجور والفساد، وقد أدى ذلك إلى انقلاب موازينها حتى رأت البطش بالناس وغمطهم حقوقهم وسلبهم كرامتهم الإنسانية لا ينطبق عليه وعيد الظلم، وكذلك انحراف الأخلاق، والخروج عن سواء الصراط في السلوك والمعاملات، وهذا مما أدى إلى الاستهانة بكبائر الأثم والفحشاء، على أن خير ما يبين مجملات القرآن نصوص القرآن التفصيلية، وكم فيها مما يدل على أن الظلم لا ينحصر في الإشراك، وإنما يصدق على ظلم العبد نفسه بعصيانه وظلمه لغيره بسلبه حقه الشرعي.

ومن ذلك أن الله تعالى حكى عن آدم وحواء عليهما السلام أنهما:

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] وقال عن يونس عليه السلام ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وحكى عن موسى عليه السلام أنه قال بعدما قتل القبطي ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى ﴾ [القصص: ١٦].

ولا يدعي أحد من ذوي العقول أن هؤلاء أرادوا الاعتراف بالإشراك فإنهم لو أرادوا ذلك لكانوا في قولهم كاذبين فإن من المعلوم قطعاً أنهم

لم يشـــركوا بالله طرفة عين فآدم وحواء ما كانا بأكلهما من الشجرة مشركين، ويونس لم يشرك بالله بذهابه عن قومه مغاضباً، وموسى ما كان بقتله القبطي مشـــركا، وإنما أرادوا الاعتراف بالخطيئة وقد ســـموها ظلما، فعلم أن الظلم ينطبق على الخطايا جميعاً، ويؤكده أن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦] ومن المعلوم أن المراد بالظلم هنا القتال في الأشهر الحرم وهو ليس بشرك قطعاً.

وقال تعالـــى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١] ومـــن المعلوم أنه لا يعد شـــيء مما ذكر هنا شركا وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ [الطلاق: ١] والآية خطاب لأمة الإســـلام في شـــخص نبيها ﷺ ولا تعنى الشرك بحال.

ومما يدل علـــى أن وصف الذين ظلموا في الآيـــة الكريمة يصدق على غير المشركين أنها مسبوقة بقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢] إذ لا يخفى على ذي بصيرة أن الأمر بالاســـتقامة في الآية يعنى الاســـتقامة على الدين بفعل أوامره وترك نواهيه والتزام حدوده كما قال الزمخشـــري: «فاستقم اســـتقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادة الحق غير عادل عنها» وقال ابن عطية: «أمر بالاســـتقامة وهو عليها وهو أمر بالـــدوام والثبوت والخطاب للرســـول وأصحابه الذين تابوا من الكفر ولسائر الأمة فالمعنى وأمرت مخاطبة تعظيم» وقد اقترن ذلك

بالنهي عن الطغيان والمراد به العصيان كما فسره ابن زيد بقوله: «لا تعصوا ربكم» وقال الزمخشري: «لا تخرجوا عن حدود الله» وأتبع ذلك بقوله: «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا» ليفيد أنهم ـ كما أمروا بالاستقامة وعدم الطغيان ـ مأمورون بمفارقة الذين لم يستقيموا على منهاج الحق فظلموا أنفسهم بالوقوع في معاصي الله والإصرار عليها، وذلك بتحذيرهم من مجرد الركون إليهم ووعيدهم بالنار إن لم يمتثلوا.

فإن جادل في هذا مجادل زاعماً أن الآية لا تنطبق على غير المشركين بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

فجوابه أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لا يدل بحال من الأحوال على انحصار الظلم في الشرك وإنما قصارى ما يدل عليه أن الشرك هو أعظم الظلم، ولا خلاف في هذا فإن كل عاقل يدرك أن أقبح الظلم وأشنعه وأسوأه وأرداه أن يجعل العبد لله تعالى شريكاً مع أنه الذي خلقه فسواه وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ولكن أين الدليل في هذا على أن ما دون الشرك لا يعد ظلما ولا ينطبق عليه الوعيد على الظلم؟ بل الآية نفسها دليل على أن ما دون الشرك من ضروب الشرِّ يكون ظلما أيضاً، فإن الشر دركات كما أن الخير درجات، وما مثل ذلك إلا كمثل قوله:

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] فإنه يدل على أن من الرقاب المملوكة التي يجري فيها العتق رقابا غير مؤمنة ولكن لا يجزي عتقها في كفارات القتل، ومثله قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦] فإنه يدل على أن من السحر ما هو دون ما جاؤوا به وإلّا فما فائدة وصفه بأنه عظيم؟!.

وبهذا يتبين لك أن محاولة رد كل ظلم إلى الشـرك ليست هي إلا فراراً من الواضح إلى المشكل ومن البصيرة إلى العمى، ناهيك بالأدلة الصريحة الواضحة الدالة على أن ما دون الشـرك يصدق عليه وصف الظلم أيضاً وقد مضى ذكر بعضها وكفى.

أما قوله تعالـى: ﴿ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] فإنا إن سـلمنا إفادتها الحصر ـ لا نسـلم أن الكفر فيها هو كفر الشرك، فإن الكفر كفران «كفر شرك»: وهو المخرج من ملة الإسلام، الذي يترتب عليه عدم التوارث، وعدم جواز تزويج من اتصف به بمسلمة، وعدم دفنه في مقابر المسلمين، وعـدم مواراته على الطريقة الإسـلامية، «وكفر نعمـة»: وهو لا يخرج من اتصف به من الملة، ولا يترتب عليه حرمانه من حقوق المسلمين في حياته ولا في مماته إلا الولاية التي هي اصطفـاء موقوف على الوفاء بالواجبات واجتنـاب المحظـورات، ذلك لأن أصل الكفـر التغطية كما قـال تعالى: ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ [الحديد: ٢٠] أي الزراع لأنهـم يغطون البذر بالتراب، وقال الشاعر:

يعلـو طريقـة متنهـا متواتراً في ليلـة كفر النجـوم غمامها

وقال آخر:

ألقـت ذُكاء يمينهـا فـي كافـر

وذُكاء ـ بضم الذال ـ الشـمس، وإلقاؤها يمينها فـي كافر غروبها لأنها تحتجب وراء الأفق السـاتر لهـا، وقد دلَّ على هذا النوع مـن الكفر دلائل كثيرة من القرآن الكريم، وأحاديث الرسـول ﷺ، فمما دلَّ عليه في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] فالمراد بمن كفر هنا من ترك الحج مع استطاعته،

وهو ليس بمشرك إجماعاً إن لم يجحد فرضيته، وقوله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] مع أن الحاكم بغير ما أنزل الله لا يخرج من ملة الإسلام إن كان مقرا بحكمه سبحانه، وقوله:

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣] وقوله في سليمان بن داود عليهما السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠] وأما الأحاديث فهي كثيرة يطول بها المقام، وقد ذكرت جانباً منها في الجزء الثاني من جواهر التفسير فراجعه، وهو في مصطلح أهل الحديث كفر دون كفر وبذلك ترجم له البخاري في صحيحه، وأفرد له مسلم في صحيحه خمسة أبواب وقد نص عليه عدد كبير من أهل الحديث ومحققي المفسرين والفقهاء وسائر علماء الأمة.

هذا وقد نص على أن المراد بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. كفار النعم السيد العلامة محمد رشيد رضا في تفسيره المنار، وهو الحق لأن التحذير من التهاون والتفريط في الإنفاق موجه في صدر الآية إلى الذين آمنوا وذلك قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ثم قال: ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فدل ذلك على أن المراد بالكافرين الذين لا ينفقون مما رزقهم الله وإلّا ذهب الترابط والانسجام بين أول الآية وآخرها، على أنا لو سلمنا لمن قال بخلاف هذا فإن مثل هذا التركيب وإن كان أصله دليلاً على الحصر قد يكون لقصد التأكيد والمبالغة في الوصف كما يقال: «الرجل زيد» مع أن وصف الرجولة لا ينحصر فيه وقد يكون هذا حتى مع وجود «إنما» المفيدة

للحصر كما في قول النبي ﷺ: «**إنما الربا في النسيئة**»[١] مع نهيه عن بيع أصناف مخصوصة بجنسها متفاضلة ولو مع القبض.

وبهذا تدرك أنه لم يبق متعلق لمن حصر الظلم في الشرك، وأي ظلم بعد الإشراك بالله أسوأ من ظلم من استرعاه الله رعية فلم يرعها بنصحه ولم يحطها بعدله، وإذا كان النبي ﷺ تبرأ ممن غش في سلعة يبيعها بإظهار جيدها وإخفاء رديئها حيث قال: «**من غش فليس مني**» **أو** «**من غشنا فليس منا**»[٢] فما بالك بمن غش الأمة بأسرها بجوره وظلمه؟! أوليس من كان كذلك أولى بالبراءة والمقت؟ بلى ولكن أكثر الناس لا يعلمون فلذلك يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق.

على أن في أحاديث الرسول ﷺ ما يدل على فداحة ظلم الإمام الجائر، ففي صحيح البخاري من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أنه قال لعبيد الله بن زياد إني محدثك حديثا سمعته من رسول الله ﷺ سمعت النبي ﷺ يقول: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة**»[٣] وفي لفظ «**ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة**»[٤] ورواه مسلم بألفاظ مختلفة ففي بعض الروايات: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة» وفي بعضها «لا يسترعي الله رعية يموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة» وفي أخرى: «ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلَّا لم يدخل معهم الجنة»[٥].

(١) رواه مسلم (١٥٩٦)
(٢) رواه مسلم (١٤٦).
(٣) رواه البخاري (٦٦١٧).
(٤) رواه مسلم (٢٠٣).
(٥) رواه مسلم (٣٨١).

فإن قيل: سلمنا لذلك كله فما باله يقرن بالمشرك عابد الوثن والكافر من أهل الكتاب مع أنه قد باينهما بإسلامه، أما تكون لإسلامه حرمة تمنع من لزِّه معهما في قرن؟

قلت: إنه هو الذي لز بنفسه في قرنهما، إذ رضي لنفسه مصيرهما وهو الحرمان من رحمة الله تعالى والعياذ بالله، كما أخبر النبي ﷺ ـ ولا يعني ذلك إخراجه من ملة الإسلام إن لم ينكر ما علم من الدين بالضرورة ـ فرب ذي كبيرة يقرن بالمشرك وهو لا يعد في المشركين، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٦٩] حيث قرن قاتل النفس بغير حق والزاني بمن أشرك بالله في الوعيد، ونحوه قول النبي ﷺ: «مدمن الخمر كعابد وثن» رواه ابن ماجه وابن أبي شيبة من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

على أن المدمن والزاني والقاتل ـ وإن قبحت كبائرهم وانتشر في الأرض فسادهم ـ هم دون الإمام الجائر فإنه ـ بما آتاه الله من نفوذ ومنحه من قوة وسلطان ـ هو أساس كل فساد في الأرض عندما يغوى ويؤثر الضلال على الهدى والجور على العدل، وهو سبب كل انحراف عن الإسلام، ومصدر كل بلاء على الأمة، لأن انحرافه يتبعه انحراف من لا يحصى من الناس، وضلاله هو منشأ انقلاب موازين الأمور ومعايير الأعمال حتى يرى الناس الحق باطلاً والباطل حقاً والصلاح فساداً والفساد صلاحاً والعلم جهلاً والجهل علما فتكون الحياة كلها عفونة ونتنا، وذلك ما أنكره أبو حمزة رحمه الله بلسانه ويده.

هذا ولم يكن أصحابنا وحدهم الذين قالوا بالبراءة من أصحاب الكبائر فإن في غيرهم من علماء الأمة من تنبه لهذا كما نجد هذا فيما قاله الفخر

الرازي في «المحصــول» في معرض حديثه عن الإيمــان وبيانه للتنافي بين الإيمان والفســوق وقد اســتدل لذلك بثمانية أوجه نقتصر منها على الثالث والرابع.

فقد قال: «الثالــث: قوله تعالــى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور: ٦٢] إلى آخر الآية ثم إن الله تعالى أمر الرســول ﷺ في آخر هذه الآية أن يستغفر لهم، والفاســق لا يستغفر له الرســول حال كونه فاسقاً بل يلعنه ويذمه فدل على أنه غير مؤمن.

الرابع: أن قاطع الطريق يخزى يوم القيامة والمؤمن لا يخزى يوم القيامة فقاطع الطريق ليس بمؤمن، أما الأول فلأن الله يدخله النار يوم القيامة، وكل من كان كذلــك فقد أخزى، أما الأول فلقوله تعالــى في وصفهم: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

وأمــا الثاني فلقوله تعالــى حكاية عنهــم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢] ولم يكذبهم فــدل على صدقهم فيــه، إنما قلنا إن المؤمن لا يخــزى يوم القيامة لقولــه تعالــى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨] اهـ. وأقره على هذا الاصفهاني في شــرحه المسمى «الكاشف عن المحصول».

وأنت ترى كيف نص على أن النبي ﷺ لا يســتغفر للفاســق حال كونه فاسقا بل يلعنه ويذمه وما اللعن والذم إلا عين البراءة.

هذا ومما يجب أن لا يفوتنا ذكره أن البراءة من صاحب الكبيرة لا تعني بحال إخراجه من ملة الإســلام، ولا حرمانه من حقوق المســلمين، ما عدا الولاية في الدين إلى أن يتوب، فهو معصوم الدم، لا يستباح قتله إلا بإحدى

ثلاث، وهي: الـردة عن الإسـلام، أو الزنى بعد الإحصـان، أو قتل النفس المحرمة بغير حق، وهو معصوم المال فلا يستـباح مالـه؛ وإن زنى أو قتل من أجل مراعاة حرمة التوحيد، ولا يمنع التناكـح والتوارث بينه وبين أهل الإسلام، ويبادل السلام، ويشـمت إذا عطس، ويدفن إن مات في مقابر أهل التوحيد، ويوارى بطريقة المسلمين، وإنما تبقى البراءة منه إن لم يتب، فرضا لازماً، أداء لحـق الله تعالى، وحفاظاً على نظام الديـن، وغيرة على حرمات الحق، وتمييزاً بين البررة والفجرة.

وهنا أمسك عنان طرف البيان بعد هذا السبح الموفق في ميدان العرفان سائلاً الله تعالى أن يلهمني وجميع المسلمين الحق ويوفقنا لاتباعه، ويجنبنا الباطل ومزالقه إنه على كل شـيء قدير وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هناك مَن يرى إشكالا في هذا الأمر مِن حَيث إنَّ الإنسان المسلم مُطَالَب بأن يكون مُتَوَلِّيا لأولياء الله مُتَبَرِّئا مِن أَعْدَاء الله، فَكَيف يُكِنُّ في نفسـه بَرَاءة تِجَاهَ مَن يعصي أو لا يُسْـلِم أصلا وفي نفـس الوقت هو يُظْهِر له الود أو يظهر له حُسـن المعاملة أليس ذلك نوعاً مِن النفاق وهو يُجَانِب الخلُق أصلا؟

ليس هذا نِفَاقاً بل هو خُلُق، فالنبي ﷺ كان يَبَـشُّ في وُجُوه أُنَاس ومع ذلك كان يُدْرِك ما يَنْطَوُونَ عليه من الشـر وما يَكِيدُون لـه مِن الكَيْد، فهو يَكْرَهُهُم ويُبْغِضُهم لأجل ما يَنْطَوُون عليه من الكَيْد ولكنه يُعَامِلهم المعاملة الحسـنة، ولننظر كيف كان يُعَامِل المنافقين مع ما كانـوا يَنْطَوُون عليه مِن النِّفَـاق ويُضْمِرُونَه له مـن الحِقد ويُكِنُّـون له من عداوة، ومـع ذلك كان يُعَاملهم المعاملة الطيِّبَة الرَّقِيقَة اللطيفة، وقد استأذن عليه رجل وهُوَ في بيت

عائشة رضي الله عنها فقال: «بِئْسَ أَخُو العشيرة هُو»[1] فلما جاء بَشَّ في وَجْهِه فَتَعَجَّبَت مِن ذلك عائشة فأخبرها بأنَّه أُمِرَ أَنْ يُخَالِقَ الناس بالخلُق الحسن، وهذا لا يُنَافِي ما في القلب مِن التَبَرُّؤ مِن أعداء الدين الذين يُصِرُّون على معاصي الله واتِّبَاع الهوى والرُّكُون إلى الباطل والله أعلم.

من الناس مَن يكون بَراً في تعامله ومنهم مَن يكون فاجراً، فعنِ عائشة أنَّ رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: «اِئْذَنُوا له فَلَبِئْسَ رجل العشيرة»، فلما دَخَل عليه ألان له القول فقالت عائشة: «يا رسول الله قلت الذي قلت ثُم أَلَنْتَ له القول»، كيف يُمكن للمسلم أن يسْتفيد من هذا الضياء في تعامله مع من يكون عَاصِيا ومَحِلُّهُ أن يُكْرَه؟

قضية البراءة من الـمُصِرّ على مُحَادةِ الله ورسوله، بإِتْيَان الكَبَائِر، والإِعْرَاض عن أَمْرِ الله، والصُّدُودِ عن حُكمه هي شيء والخُلُقُ شيءٌ آخر، فالخلق يَعْنِي أن يُقَابِلَ الإنسان النَّاس جَميعاً باللُّطف وبالمعاملة الحسنة.

وكثيرٌ مِن الناس لا يدركون هذا، بل يَظُنُّون أنَّ من البِر والتقوى والإحسان والزُّهْد في الدنيا والرَّغْبَة في الآخرة أن يُقَابَل الـمُسِيءُ بِالغِلْظَة والشِّدة والفَظَاظَة وبِعُبُوسِ الوجه واكْفِهْرَارِه، وهذا إن دَلَّ على شيء فإنَّما يدُلُّ على الجهل، وهؤلاء جَهَلَة بالإسلام ومحاسنه، ومَهْمَا يكن من وجوب البراءة من أهل الكبائر فإنه يُؤمَر الإنسان أن يتلَطَّف بالناس كيفما كانت أحوالَهم؛ إذ اللُّطْف هو الذي يُقَرِّب البعيد ويُدْنِيه، وهو الذي يؤدِّي إلى انتزاع السَّخَائِم والأحقاد مِن الصُّدُور، وهو الذي

---

(١) رواه البخاري (٥٥٧٢).

يؤدِّي إلى قَبُول المَوعظة، كيف ونحن نرى القرآن الكريم يأمر بالتلَطُّفِ في المعاملة والموعظة في الدعوة إلى الله سبحانه، فالله تعالى يقول: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]، ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤] والحق تعالى أيضاً يأمرنا في مُجَادَلَة أهل الكتاب أن نُجَادِلَهم بالتي هي أحسن إلا في حال ظلمهم: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فهكذا يُعَلِّمُنا الله تعالى أسلوب الحوار والمجادلة مع الناس، فمعنَى ذلك أنَّ الإنسان مُطالَب أن يُعامِلَ الناس بالرِّفق، وهَبْ أَن هذا الشخص الذي دَخل عليك عدو لَدُود عَنِيف يُضْمِرُ لك الحقد ويُكِنُّ لك البَغْضاء وهو صَادٌّ عن سبيل الله مُعْرِضٌ عن أمره ولكن لا يعنِي ذلك أن تُقابِلَه بِعُبُوسِ الوجه واكْفِهْرَارِه وأنت مُقطِّبُ الجَبين غير لاوٍ على شيءٍ مِن حَدِيثِه أو مِن تَعَامُلِهِ معك، وإنَّما مُقَابَلَتك إياه بالتي هي أحسن يُمكن أن تُحَوِّلَه من الشر إلى الخير، فكم مِن ناسٍ تَحوَّلُوا في عهد الرسول ﷺ مِن البغضاء إلى المودة ومن الضلال إلى الهدى ومن الفساد إلى الصلاح ومن الصُّدُود إلى القَبُول، هذا كله إنَّما كان بِحُسن المعاملة التي كانت من الرسول ﷺ للناس، والله أعلم.

هل يدعو المسلم لأحد أبويه إن كان أحدهما مهملاً في أداء فرائض الله تعالى بقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤].

ينوى بذلك الصالح منهما دون الطالح، والله أعلم.

سماحة الشيخ.. هل يدعى لغير المتولى بدعاء كان قد حصل له في حياته وذلك مثل رجل توفي وهو في الوقوف[١] أو البراءة، وكان في حياته قد رحمه الله تعالى بالصحة والعافية، أو صانه الله عن السجود للصنم قبل إسلامه وبعده، أو نصره الله في معركة ما. فهل يجوز أن يقال لهذا الرجل بعد وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، أو نصره الله، وذلك باعتبار ما كان في حال حياته؟

إن أريد به الخبر لا الدعاء فنعم مع أمن اللبس، والله أعلم.

ما قولكم في رجل عاشر امرأة ذات مال وحسب، وكانت العشرة على زنى، وهي زوجة لرجل آخر ثم مات زوجها، وبعد انتهاء عدتها تزوجها بمهر ووليّ وصداقين وظلت في عصمته سنين طويلة، وتولى مالها وأكل غلته وباع بعضه، ثم ماتت المرأة وورثها وبعض مالها في يده وبعضه انتقل عنه، ما تقولون في حكم هذا الرجل هل هو في حكم الولاية أم البراءة أم الوقوف؟ وماذا يلزمه إن أراد أن يتوب؟ وهو لا يعرف ما أخذه من غلة الأموال والعقارات؟

إن اعترف بصنيعه هذا، أو شهد على زناه أو اعترافه به أربعة شهود فهو في البراءة قطعاً، وتجب عليه التوبة إلى الله من صنيعه كله، وعليه أن يحتاط في رد قيمة ما أكله من مالها إلى ورثتها، والله أعلم.

قال شخص لآخر إن فلاناً عندي في البراءة، فقال له إنه وليي فما يلزم كل واحد؟

على القائل أن يتوب، فإن لم يتب فليتبرأ منه المتولي لذلك الشخص إن كانت ولايته له مبنية على أساس شرعي، والله أعلم.

---

(١) أيّ ليس في الولاية لعدم ظهور صلاحه ولا في البراءة لعدم ظهور فسقه.

هل تجب البراءة ممن يتعامل بالربا ومن يستمع للأغاني إذا كان مصراً على الاستماع وكذلك المسبل؟

كل كبيرة توجب البراءة ممن أصر عليها والله أعلم.

هل تجب البراءة ممن يشاهد ويستمع إلى المسلسلات والتمثيليات والأغاني والموسيقى كما هو الآن؟

البراءة من المصر، فمن أصر على مشاهدة أو سماع ما هو حرام بيّن الحرمة فالبراءة واجبة منه بعد إقامة الحجة عليه، والله أعلم.

هل الضعيف مطالب بولاية الأشخاص؟

الضعيف[1] تكفيه ولاية الجملة وبراءة الجملة، إلاّ فيمن شاعت ولايته أو براءته بين الأمة وقامت حجتها عليه، والله أعلم.

هل تجب البراءة ممن يدخن أو يعبث بلحيته. وهل فرق بين حلقها كلها أو تقصيرها؟

المدخن وحالق اللحية، بل ومقصرها مرتكبون للكبائر، وكل من ارتكب كبيرة فحكمه البراءة إن لم يتب، والله أعلم.

قال شخص لشخص آخر وليك عندي في الوقوف.. هل يتبرأ من القائل؟

لا يتسرع إلى البراءة ما لم يتأكد موجبه، ولعله لم يثبت عنده موجب الولاية فلذلك لم يتوله، والله أعلم.

---

(١) الضعيف هو من لم يكن يملك من العلم الشرعي ما يميز به موجبات هذه الأحكام.

بالنسبة للقائلين من أصحابنا بأن الضعيف تكفيه ولاية الجملة وبراءة الجملة كما في «الشمس الشارقة»، هل يكون على هذا القول أن كل من يرونه من أهل الصلاح أو من أهل الطلاح يكون في الوقوف؟ وهل ترون ـ شيخنا ـ هذا الرأي؟

أمّا من اشتهر بالصلاح والتقوى عند الخاص والعام فتجب ولايته على الضعيف الذي بلغته هذه الشهرة ووعاها، وكذلك من اشتهر بالفساد أو رآه بنفسه يرتكب ما علمت حرمته بالضرورة، كشرب الخمر وقتل النفس المحرمة بغير حق، أو ترك ما علم بالضرورة وجوبه من غير شبهة كالصلاة والصيام، وإنما يتوقف فيما بين ذلك، والله أعلم.

كيف يمكن الجمع بين مبدأ الولاية والبراءة وما جاء في حديث «لا تصحب إلّا تقياً.. إلخ»[1] الحديث، وبين وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واختيار الأساليب الحسنة لدعوة الآخرين، والتي قد تسوق المرء إلى المجاملة والمصاحبة؟

البراءة من الفاسق لا تنافي معاملته بالحسنى لأجل التأثير عليه، للإقلاع عن غيه والثوب إلى رشده، فالله تعالى يقول: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ [البقرة: ٨٣]، وقد كان ﷺ يظهر البشاشة حتى في وجوه اليهود، أمّا البراءة فهي اعتقاد بغض الفاسق وإلى الله تعالى جزاء فسقه وفجوره، والله أعلم.

كيف العمل في وقتنا الحالي حول مسألة الولاية والبراءة؟

يعمل فيها مثل ما كان معمولاً به من قبل عند السلف، فإن أحكامهما لم تتبدل والله أعلم.

---

(١) رواه أبو داود (٤١٩٢) بلفظ (لا تصاحب إلاّ مؤمنا... الخ)..

ما حكم مشاهدة مباريات الكرة، مع العلم بأن المشاهد لا يقصد النظر إلى عورات اللاعبين وإنما يقصد التسلية بمشاهدة المباراة؟ وما مدى صحة حديث «لعن الله الناظر والمنظور إليه»[١]؟ وهل ينطبق هذا الحديث على مشاهدة مباريات كرة القدم ـ إن كان الحديث صحيحاً؟ ـ مع رجاء توضيح معنى اللعن هنا. وإن كان الحكم في السؤال السابق بالحرمة، فهل تجب البراءة من مشاهد مباريات الكرة؟

إن كان المتبارون كاشفين لسوآتهم الواجب عليهم سترها فلا يحل النظر إليهم، ولو كان الناظر ما قصد إلّا التسلي، فإن التسلي بغير الجائز غير جائز، وفي المباحات والمندوبات ما يكفي لتسلية أرباب العقول المبصرة، والحديث صحيح، واللعن هو الطرد من رحمة الله، ومن أصر على معصية الله فلا ريب أنه من أهل البراءة، والله أعلم.

كيف تكون تحية المقابر حيث إن فيها المتولى وغير المتولى؟

تحيّا المقابر بما حياها به النبي ﷺ، إذ قال «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين ... إلخ**»[٢] وينوى بها المؤمنين دون غيرهم إن كانوا أخلاطاً والله أعلم.

ما مصير الإنسان الذي كفر كفر نعمة؟

الذي كفر كفر نعمة يعامل في الدنيا معاملة هذه الأمة في كل شيء إلا في الاصطفاء والولاية، فلا يُصطفى بسبب خروجه عن طاعة الله سبحانه وتعالى، وإصراره على معصيته، فلا يستحق ولاية المسلمين له، أما الولاية العامة التي هي الترابط فيما بين الأمة بالتعاون فيما بينهم والتآزر فلا بأس بها،

---

(١) رواه البيهقي (١٣٣٤٤).
(٢) رواه الإمام الربيع (٤٣) ومسلم (٣٦٧).

ولكن الولاية الاصطفائية التي يترتب عليها الدعاء له والرضا عنه وغير ذلك من الأحكام التي هي ليست إلا للبر التقي الرضي فلا تكون لهذا الذي ارتكب عملاً يكفر به كفر نعمة، وأما من حيث إقامة الأحكام الرادعة فإنه يردع بقدر عمله الذي عمله، فإن كان عمله هذا يوجب عليه حداً فإنه يقام عليه الحد، مع عدم وجود الشبهة التي تدرأ عنه الحد، أما مع الشبهة فإن الشبهات تدرأ الحدود، كما جاء ذلك في الحديث.

وأما في الآخرة فهو إن مات مصراً على ذلك فهو من الفجار، وقد بين الله تعالى مصير الفجار حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٣-١٦] هذا هو المصير الأخروي الذي أخبر الله تعالى عنه، وقال تعالى ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، وقال سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، وقال عز من قائل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، فهذا هو مصيره الذي ينتظره في الدار الآخرة، والله أعلم.

سائل يسأل عن الحب في الله وما جاء في الرواية عن الإمام جابر بن زيد مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فهل هذه الرواية صحيحة وعلى تقدير

صحتها هل التلفظ أو الإفصاح بِحب المرء امرأة في الله خاص بأمهات المؤمنين، أو للمرء أن يفصح لأي امرأة بِهذا الشعور؟

أما مِن حيث الرِّاوية فهي مذكورة في آثار أهل العلم وهي مِمَّا أضَافَه الإمام أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مسند الإمام الربيع بن حبيب من رواية أبي سفيان بن الرحيل رحِمه الله، ولكنها لَم يتَّصِل سَنَدُها ومع ذلك ليس بِمُسْتَبْعَد أن يقول الإمام أبو الشعثاء جابر بن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأُم المِؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا بأنه يُحِبُّها في الله أو أنَّه يُحِبُّها ثُم يَلُوم نفسه، لأنَّه مِن المعلوم أنَّ هَذا الحب لَن يكون إلا في الله فيُصَرِّح بأنَّ حُبَّه إياها إنَّما هُو في الله.

وثانياً لا يُمْنَع المسلم أن يصَرِّح لِمسلمة أنه يُحبها في الله ولا تُمنع المسلمة أن تصرح لِمسلم أنها تُحبه في الله، ذلك لأن المودة بين المؤمنين والمؤمنات مشتركة، فالمودة هي تَجسيد للولاية التي تَجب بين المؤمنين والمؤمنات، والله تعالى بَيَّن أن هذه الولاية ليست خاصة بين المؤمنين وحدهم أو بين المؤمنات وحدهن بل قال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١]، فالتواد في الله مشروع بين هؤلاء جميعا من المؤمنين والمؤمنات الذين التزموا أوامر الله، وانقادوا لِحكمه، وأَذْعَنُوا لطاعته، ووقفوا عند حدوده، فصاروا يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، ونَحن نُوَالِي كل رجل مُتَّصِف بِهذه الصفات ونُوَالي كل امرأة مُتَّصِفَة بِهذه الصفات، فلا يُمْنَع أن نُصَرِّح للرجل المؤمن بأننا نُحِبه في الله، وأن نُصَرِّح للمرأة المؤمنة بأنَّنَا نُحبُّها في الله؛ مع صفاء النفوس وانتفاء الريب، والله ـ تعالى ـ أعلم.

بعض النصارى الذين أسلموا يدعون لآبائهم بالجنة ويحتجون بآية مِن القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

أولاً علينا أن ندرك معاني القرآن الكريم، وأن نقف عند حدود الله تعالى.. فالله سبحانه نص في مواضع متعددة أن الذين لم يسلموا ليس لهم نصيب مِن رحمته تعالى فقد قال سبحانه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال عزَّ مِن قائل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، وقال: «﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧] إلى غير ذلك مِن الآيات الكثيرة التي نصت على وعيد هؤلاء.

أما قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، فالمفسرون اختلفوا في المراد بهذه الآية الكريمة، هل المراد بها الذين كانوا مَوجودين أثناء نزولها، وعليه فقيل معنى الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ هم اليهود، ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ﴾ بعد كفره فتخلى عمّا كان عليه وتحول إلى الهدى فرسخ في نفسه الإيمان ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ومعنى ذلك أنه اتبع الحق واستمسك بالهدى وأعرض عن الباطل الذي كان عليه.

أو أن المراد بـ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذه الأمة، أمة النبي، ووصفُهم بأنَّهم

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ إنَّما هو وصف تَغليبي، وإلا فوصف الإيمان يصدق على كل مَن كان مستمسكا بِحبل الله، ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا ﴾ هم أمَّة موسى، ﴿ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ هم أمة عيسى، ﴿ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ هم على حسب ما اختلف فيهم، ولأهل العلم فيهم كلام كثير: منهم مَن قال بأنَّهم الحَنِيفِيُّونَ، ومنهم مَن قال هم غيرهم، ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ أي مَن كان مستمسكا بالإيمان بالله واليوم الآخر ومتبعا لشريعته التي جاءت من عند الله تبارك وتعالى من غير تفريط فيها ومن غير أن يكذب رسالة من رسالات الله ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ومعنى ذلك أنهم كانوا على ما هم عليه قبل أن تأتي الرسالة الخاتمة التي بعث بها الرسول، وبعد مجيء هذه الرسالة الخاتمة لا يسع أحدا إلا اتباعها؟؛ فهؤلاء ليسوا على شيء من الحقيقة عندما يدعون لآبائهم الذين أخلدوا إلى الكفر فعليهم أن يدركوا معاني القرآن، والقرآن الكريم لا يؤخذ بعضه ويترك بعضه، إنما يؤخذ به جميعا، ومتشابه القرآن يرد إلى محكمه؛ والله تعالى أعلم.

مَن كان الحكم فيه بالبراءة لِتَخَلُّفه عن الجماعة وتركه الجمعة كما نعتقد وكما بينتم حفظكم الله ورعاكم، إن كان الحكم عليه هكذا في الحياة فما البال عند الممات، خصوصاً إن كان كالأب أو الجد فكيف يكون الدعاء له والتَّرَحُّم عليه وطلب المغفرة له مِن الله وما هو الواجب على ذُرِّيَتِه نَحْوَه؟

مَن كَان مُجَاهِراً وُمُعَانِداً في تركه الجماعة ـ كما هو شأن كثير مِن الناس ـ فحكم البراءة يُطَبَّق عليه، ولا ريب أن موقف علمائنا في هذا واضح وظاهر وهو أنه لا يُدعَى لَه بِخَيْر الآخرة، ودليلهم على ذلك قول الله تعالى في ابن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ [هود: ٤٦]، فقد قَرَأَ الكسائي وهو مِن القراء السَّبْعَة وَقِرَاءَتُه مشهورة (عَمِل)، وهذه القراءة قرأ بِها أربعة مِن الصحابة

ـ رضوان الله تعالى عليهم، وهي تدل على أن العمل غير الصالح هو الذي يُوجِب البَرَاءَة وَيَمْنَع مِن الدُّعاء، كيف ونوح عليه السلام لَمْ يَزِد على قوله: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [هود: ٤٥] فَرَدَّ الله ـ تعالى ـ عليه بقوله:

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود: ٤٦]، وَعَلَّل ذلك بقوله ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾، والله ـ تعالى ـ أعلم.

هل يجوز قول كلمة «بالتوفيق» لمن يجاهر بالمعصية، وهل يجوز الدعاء على من يتحدى بالمعاصي وربما يلحق ضرره بالصالحين قولاً أو فعلاً، أم يترك وشأنه، والخالق يمهل ولا يهمل؟

إن أريد بذلك الدعاء له بالتوفيق للتوبة وعمل الخير ففي ذلك خلاف والراجح الجواز، ولا مانع من الدعاء على من أضر بالإسلام أو المسلمين والله أعلم.

 موالاة الكفار والتشبه بهم

مات شخص من أهل الكتاب وكان معروفاً بمستوى كبير جداً، وكانت له أعمال خيرية، وبعد موته أصبح حديث عامة الناس حتى منا نحن المسلمين، وعندما أعلمناهم بأنه لا يجوز الترحم لميت من أهل الكفر زعموا بأنه من أهل الكتاب، وأن له من الأجر ما يدخله الجنة ونحن نوالي ذلك الميت، فبماذا نرد على هؤلاء المفتونين؟

الرد عليهم بما أنزل الله في كتابه، فقد قال ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقال: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ

ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، وحذر سبحانه من موالاة اليهود والنصارى حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، والله تعالى المستعان وهو ولي التوفيق.

لقد ذكرتم في حديثكم عن أوضاعِ المجتمع الغربي المعاصر، وما يعانيه من تفسخ وغيره .... إلخ. وأصبحت هذه الأوضاع التي يعاني منها المجتمع الغَرْبِي تغزو المجتمع العَرَبِي والإسلامي، فما هو الحل في نظركم للحيلولة دون انتشارها، والرجوع إلى المجتمع الإسلامي النظيف الذي كان في عهد الرسول ﷺ، وفي عهد الصحابة والتابعين؟

الحلُّ ميسر، فهو يكمن في الإيمان، فإذا وجد الإيمان وُجد الخير كله، وإذا فقد الإيمان فقد الخير كله، والإيمان ليس دعوى، ولكنه ما وقر في القلب وصدقه العمل. فأين الإيمان الذي يدل عليه قول الله سبحانه وتعالى:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] فكيف بموادة الذين حادوا الله ورسوله من الأبعدين الذين هم ليسوا بآباء ولا أبناء ولا إخوان ولا عشيرة، ولا لنا صلة بهم؟؟، والإيمان ينبهنا على خطورة اتباع مسالك القوم الكافرين. فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ١ - ٢]

فهذه الآيات فيها تحذيـــر تلو تحذير عن موالاة القـــوم الكافرين، وبيان لما ينطوون عليه، فـــإن جميع الكافرين ينطوون على حب أن يكفر المســـلمون ككفرهـــم فيكونوا مثلهم في الكفـــر ﴿ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ تلـــك حالة جميع الكافرين، فنحن إن ترســـمنا خطواتهم، واتبعنا آثارهم، واقتفينا طريقهم فيما يأتون وفيما يتركون، أصبحنا مثلهم ـ والعياذ بالله ـ.

كما حذرنا الله ســـبحانه في ســـورة المائدة من موالاة اليهود والنصارى، وبيّن لنا أن هذه المـــوالاة ـ والعياذ بالله ـ هي مفتاح باب الردة ـ والعياذ بالله تعالى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١] ثم بيّن أن هذه الموالاة ناشـــئة عن مرض نفســـاني حيث قـــال: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ ﴾ [المائدة: ٥٢] إلى أن قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤] فأتى بالتحذير من الرّدة في ســـياق التحذير من موالاة الكفـــار، وفي هذا ما يدل على أن هذه الموالاة ـ والعياذ بالله ـ هي سبيل الارتداد عن دين الله ﷻ نسأل الله العافية والسلامة، ثم بيّن بعد ذلك من تجب على المؤمن موالاتهم فقال: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥ ـ ٥٦]، فالمـــوالاة يجب أن تكون لله بطاعته واتباع أوامره، وحـــب الطائعين له، وكراهةِ الذين ينبذون أوامره، ويُعرِضُون ويصدُون عن ســـبيله، وإيثار طاعة الله تعالى على كل طاعة، وإيثار طاعته تعالى على هوى الأنفس وعلى هوى الناس، وكذلك يجب أن تكـــون الموالاة لرســـوله، وذلك بحب الرســـول ﷺ محبة تمتلك شـــعاب النفس وتســـيطر على التفكير والســـلوك، حتى يغدو المؤمن يتبع الرســـول ﷺ في كل ما يأتيه وما يذره قال تعالـــى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] ثم تكون للذين آمنوا ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥].

ومما يؤسف له أن الناس الآن أصبحوا يدعون الإيمان والواقع يكذبهم، لأنهم تركوا الاقتداء بالرسول ﷺ وأخذوا يقتدون بأنذال الغرب، فالنبي ﷺ يأمرنا بأوامر، والبروتوكول الغربي يأتي بأوامر معاكسة فيتّبع البروتوكول الغربي ويخالف أمر الرسول ﷺ، فالنبي ﷺ يقول: «**ليأكل أحدكم بيمينه وليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله**»[1].

ونجد الناس ـ الآن ـ لا سيما أولئك الذين يريدون أن يظهروا أنفسهم بمظهر التقدم والمدنية والرقي تجد أحدهم يمسك الكأس بيساره ويشرب بشماله، ويمسك الشوكة بيساره والسكين بيمينه فيأكل بشماله كما يأكل الشيطان بشماله ويشرب بشماله مخالفة لأمر الرسول ﷺ، وإمعاناً في اتباع السادة الغربيين، والنبي ﷺ يقول «**أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى**»[2]، ولكن الناس يخالفون ذلك فلم تعد للحية عندهم قيمة، وليت شعري من أين جاءنا حلق اللحية؟ إنما جاءنا من أنذال الغرب، فعندما كنا أقوياء كنا نؤثر، ولكن لما ضعفنا صرنا نتأثر ولا نؤثر.

لقد اعترف الغربيون ـ أنفسهم ـ أن المسلمين عندما كانوا أقوياء أثروا حتى على الأخلاق وعلى العادات وعلى نفس مقومات الدين في المجتمع الغربي، حيث صدرت مراسيم في الغرب تنص على اعتبار التماثيل مظهراً من مظاهر الوثنية المنبوذة وذلك في القرن الثالث الهجري، والآن تجد في

(١) رواه مسلم (٣٧٦٤).
(٢) رواه البخاري (٥٤٤٢) ومسلم (٣٨٠).

بلاد الإسـلام تعظم التماثيل، فعندما تدخل في بيت المسلم تجد التفنن في إعداد التماثيل، مخالفةً لأمر الله ولأمر رسـوله ﷺ، وعندما كان المسـلمون أقوياء وكانوا يحكمون الأندلس كان شباب الأسبان وفتياتهم الذين يحاولون جهدهم أن يظهروا أنفسـهم بمظهر التمدن والرقي كانـوا يُطّعمون كلامهم بكلمات عربية، من أمثال السلام عليكم، وعليكم السلام، ومع السلامة، أما الآن فالذي يريد أن يظهر نفسه أنه متحضر أو متمدن يقول: (ok، yes، hello) ومثل هذه الكلمـات التي يلتقطونها من أفواه الغربييـن تقليداً لهم وإعجاباً بشـأنهم، وما هذا إلّا دليل على الهزيمة النفسـية التي أصابت المسـلمين، فلذلك يأتي التأثر شيئاً فشيئاً، بحيث يكون أولاً في الأمور الشّكلية ثم تليها القضايا الجوهرية.

على أن التـذرع بأن ما يأتونه من الأمور الشـكلية أدى إلى نقض كثير من أساسـيات الدين فكثير من النـاس عندما تقول لهم عن أمر فيه تشـبه بأعداء الإسلام يقولون هذا أمر شـكلي، فحجاب المرأة عندهم أمر شكلي ولا داعي للبسه لأن (العبرة بما في القلب). هكذا يقول كثير من المفتونين، مكذبين قوله ﷻ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فـالله ﷻ أنزل على النبي ﷺ هذا الأمر ليأمر نساءه بالستر والصون، وهن أمهات المؤمنين، وأعف النساء أجمعيـن وأرفعهن منزلـة وأعلاهن قـدراً، وقد كن في وسـط المهاجرين والأنصار، وفي بيئة يتنزل فيها الوحي على خير النبيين وخاتم المرسـلين ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسـليم ـ، فهل نسـاء اليوم أعف وأشرف من أمهات المؤمنيـن؟ وهل رجال اليوم أعف وأشـرف وأطهر من المهاجرين والأنصار، الذين كانوا بجنب النبي ﷺ يتلقون عنه التعليمات والتوجيهات، ويتلون القرآن غضاً طرياً؟

وإذا قيل لهم عن اللحية قالوا هذه قضية شكلية وهكذا، في حين أنه عندما كان المسلمون يعضّون بالنواجذ على تعاليم دينهم ما كانوا يفرطون في جزئية من جزئيات الإسلام، وقد ربى النبي ﷺ هذه الأمة على مخالفة القوم الكافرين في كل شيء، حتى في الأمور العادية، فقد كان النبي ﷺ وأصحابه في حالة دفن ميت وكانوا وقوفاً، فمر عليهم يهودي فقال: هكذا تصنع أحبارنا، فقعد النبي ﷺ وأمر أصحابه بالقعود مخالفة لطريقة اليهود[١]. وهنا كلمات من ذهب قالها أحد رجال الفكر الإسلامي وهو الشاعر الإسلامي محمد إقبال، وهي مما ينبغي أن تحفظ ويجب أن تطبق يقول فيها: ـ

«إن المسلم لم يُخلق ليندفع مع التيار، ويساير الركب البشري حيث اتجه وسار، بل خُلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية، ويفرض على البشرية اتجاهه، ويملي عليها إرادته، لأنه صاحب الرسالة وصاحب الحق اليقين، فهو المسؤول عن العالم وسيره واتجاهه، فليس مقامه مقام التقليد والاتباع وإنما مقامه مقامُ الإمامة والقيادة مقام الإرشاد والتوجيه، مقام الآمر الناهي، وإذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة لم يكن له أن يخضعَ ويضعَ أوزارَه ويسالم الدهر، بل عليه أن يثور عليه وينازله، ويظل في صراع معه وعراك حتى يقضي الله في أمره، إن الخضوعَ والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام، أما المؤمن القوي فهو نفسه قضاء الله الغالب، وقدره الذي لا يرد».

وبسبب الهزيمة النفسية التي أصابت المسلمين أصبحت العلاقات باردة ما بين الآباء والأمهات وأولادهم، وكذلك ما بين الأقربين، وأصبحت

---

(١) رواه أبو داود (٣٧٨) والترمذي (١٠٣٦).

الصلات متقطعة ما بين الجيران، وأنا أذكــر كلاماً جاء في كتاب «حياتي» لأســتاذ الأدب الشــهير أحمد أمين. ذكر أنه كان يعيش في حي صغير من أحياء القاهرة يتكون من ثلاثين بيتاً، وكان يحيطُ به ســورٌ، وعلى الســورِ بابٌ، وكان الوضع الاجتماعي في ذلك الحــي متفاوتا فقد كان الناس في تلك الحارة منقســمين إلى ثلاث طبقات: طَبقة عليــا وهي تتمثل في بيت واحد، كان فيه شــيخٌ من الترك، وطَبقة وســطى تتمثل في تســعة بيوت، والطبقة الدنيا تتمثل في عشــرين بيتــا، ويقول: بالرغم مــن ذلك الفارق الطبقي، فإن أصحابَ ذلك الحي كانوا يعيشــون كأسرة واحدة، فإذا مَرِضَ طفل في أقصى الحي عرف عنه جميع الحي، وذهب كل أحد إلى عيادته، هذا يحمــل دواء والآخر يحمل هدية، ثم قال بعد ذلك: ولقد شــاء الله أن يمتد بي العمر حتى رأيت الناس يعيشــون في شــقق متجاورة في عمارة واحدة، ولا يعرف بعضهم بعضا.

وهذا الذي وقعنــا فيه الآن ـ خصوصــاً في العواصــم ـ فأصبح الناس لا يعرف بعضهم بعضا، ولا يؤدي بعضهم حق بعض. فلا يُؤَدَى حقُ الجوار ولا حق الأرحام، إذ أصبحت الصلات بين الجيــران والأقارب باردة تقليداً للحياة الغربية والله المستعان.

شاع عندنا تســمية المرأة «نصرى» فهل هذا من باب فعلان فعلى، فعليه ففي هذه التسمية كراهة لما قد تفضي به من التشبه بالنصارى؟

لا لبس في ذلك، إذ ليس من القياس أن يقــال في الأنثى من النصارى نصرى، فهذا اللبس غير حاصل، وبناءً على عدم حصول اللبس فلا مانع من هذه التســمية، ويعلم قطعاً أن منشأ هذه التســمية ليس هو التشبه بالنصارى والله أعلم.

الكثير مِن الشباب المسلم يُقلِّد غيره في اللباس، ويتخذهُم قدوة، فيحاول أن يُلغِيَ لباسه الذي اعتاده والذي اعتاد عليه أهل مُجتمعه، فما هي نصيحتك لهم؟

هذا أمرٌ يُؤسَف له كثيرا، وهذا إن دَلَّ على شيء فإنَّمَا يدُل على الموالاة العمياء التي حذَّر الله تعالى مِنْهَا، إذ الـمُوَالاة وإن كانت في أعماق النفس إلا أنَّها تظهر على سطح الحياة من خلال تصرُّف الإنسان، فتتَجسَّد في مُحاوَلَة تقليده للذي يُوَالِيه ويُكْبِرُه، ونَحن نرى أنَّ الله تعالى حذَّر المسلمين من أن تذوب شخصيتهم في تقليد غيرهم، وأن يكونوا تَبَعاً لهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١] ثم قال: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٢ - ٥٣].

ثم بعد ذلك حَذَّر من الارتداد، وفي هذا التحذير ما يُشْعِر بأنَّ هذه الموالاة عندما يَنْجَرُّ المسلم وراءها شيئا فشيئا لا تقف به عند حد، حتى تصل به إلى الانسلاخ من الإسلام تَماما يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤] ثم يقول: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥] فيُبَيِّن وجوب حصر المؤمن ولايته في ربه ونبيِّه وفي المؤمنين، وليس له أن يُوَالِي الآخرين، ثُم يُبيِّن كيف تكون العاقبة إذا اهْتَمَّ المسلم بِمُوالاة ربه ونبيِّه وبِموالاته إخوانه المؤمنين إذ يقول: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ

ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦] وقد كان النبي ﷺ في هذا الأمر حَسَّاساً جدا، ولذلك كان يترك الأمر الذي يَفعله من أجل مُخالفته لأولئك الذين يَخشى أن يتأثَّر المسلمون بعاداتِهم وأخلاقهم وما أَلِفُوه مِن الأُمُور، فالنبي ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ كان واقفاً في حالة دَفْنِ ميت، وكان أصحابه وُقُوفاً معه فَمَرَّ بِهِم يهودي وقال: «هكذا تصنع أحْبَارُنا» فقعد النبي ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، وأَمَر أصحابه بالقُعُود، حتى لا يتأثَّروا بعادات اليهود، فما لِهَذا المسلم وهو يَنْجَرُّ وراء ما عند الآخرين، بِحيث يلبَسُ لَبُوسَهُم، ويتحدَّث بِحَدِيثِهم؟!.. هذا إن دَلَّ على شيء فإنَّما يدل على الهزيمة النفسية التي لَحقت هؤلاء الناس.

ولا ريب أنَّ الضعيف دائما يُحاول أن يقلِّد الأقوى، فعندما كان المسلمون أقوياء وكانت سَطْوَتُهم تُرْجِف الأرض في ذلك الوقت كان الآخرون يُحاولون أن يُقَلِّدُوهم، ويرون في هذا التقليد مظهراً من مظاهر المدنية والتقدم، فَلِذَلك كان شبابُهم يُقَلِّدُون المسلمين، وكانت فتياتُهُم تُقلِّد المسلمات، وهذا مِمَّا عُهَد في التاريخ كثيرا، فعندما كانت الأندلس عربية مسلمة كَان القُوطُ النصارى من حول الأندلس والذين يتَعَايَشُون مع المسلمين يَحرِصُون على تقليد المسلمين، فعندما يَلْقَى الشاب زميله يقول له: «السلام عليكم» أو نَحو هذا الكلام، وعندما يُوَدِّعُهُ يقول له: «في أَمَان الله» أو «مع السلامة» أو «في حفظ الله» ولو كان هو لا يَعِي مَعْنَى هذه الكلمات، ولنَنْظر الآن كيف انْقَلَبت الأمور رأسا على عَقِب، فالمسلم الآن عندما يُريد أن يُظهِر نفسه بِمظهر المتقدِّم ومَظهَر المدنية لا بد مِن أن يُطَعِّم كلامه بالكلمات الأجنبية فيقول مثلا: (ok، yes، hello) وهذا يدُل على مدى ما أصاب هذه النفوس من الهزيمة النفسية، فلا بد من تربية النفوس على الاعْتِدَاد بالقِيَم والأخلاق والعقيدة والمواريث الفكرية التاريخية من غير تَفْرِيطٍ في شيء مِنْ ذلك فهذا الذي يرتَفع بِهَذه النفوس وإلا ظلت هَامِدَة ذَلِيلَة خَانِعَة خاضعة لِهَؤُلاء الكافرين والله أعلم.

هل يصح الحكم على شخص بأنه من أهل النار أو أنه من أهل الجنة بناءً على ولايته أو البراءة منه، وما معنى قول الرسول ﷺ: «ويل للمتألين من أمتي»[١] أي الذين يحكمون على الله بقولهم فلان في الجنة وفلان في النار وهل لهذه المسألة علاقة ببعض الأحاديث التي ذكر ﷺ فيها بعض الأشخاص بأنهم من أهل النار وبعضهم الذين بشرهم بالجنة، فضلاً منك ببيان الجواب وكشف المستراب، والله هو العزيز الوهاب؟

لا يحكم في أحد بعينه أنه من أهل الجنة أو أنه من أهل النار، مهما كانت حالته في البر أو الفجور، إلّا إن كان ولياً بالحقيقة، أو عدواً بالحقيقة، وولاية الحقيقة وعداوة الحقيقة لا تثبتان إلا فيمن نص عليه القرآن أو حديث متواتر عن النبي ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ بأنه من أهل الجنة أو أنه من أهل النار، أو أنه سعيد عند الله أو أنه شقي عنده، أو أنه وليّ له أو عدو له، ولا يكفي أن يرد بذلك حديث آحادي، لأن حجة الآحادي ظنية، كما لا يكفي أن يرد الثناء على أحد أو ذم لأحد ولو في رواية متواترة عن النبي ﷺ، لأن النبي ﷺ يتولى ويتبرأ بحكم الظاهر، حسب ما ينكشف له من سيرة المرء إلّا فيمن أوحي إليه فيه بعينه، بدليل حديث الحوض الذي جاء فيه «وليذادن عن حوضي رجال أعرفهم ويعرفونني، فأقول: أصحابي أصحابي، فيقال لي: إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك»[٢]، هذا وبدون ولاية الحقيقة أو براءة الحقيقة بطريقهما الشرعي يكون الحكم لأحد أو عليه أنه من أهل الجنة أو النار تألياً على الله ـ والعياذ بالله ـ والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري في «التاريخ» عن جعفر العبدي مرسلًا.

(٢) رواه الإمام الربيع (٤٣) والبخاري (٢١٩٤).



الإسرائيليات

وَرَدَ في كِتَـاب «العَرَائِس» أَنَّ حَوَّاء غَرَّرَت بـآدَم ونتيجة لذلك تَحَمَّلَت خطيئة، وَهَذِهِ الخطِيئَة تسبَّبَت في أن تُبْتَلَى المرْأَة بالحيْض؟

هذه مِن الإسْـرَائيلِيَّات، ومِما يُؤْسَفُ لَه أنه أثبتها كثيرٌ مِن المفسِّرين في تفاسيرهم ونقَلُوهَا على أنَّها مسلَّمَة مع مناقضتها لدلالة الكتاب العزيز نفسه، فالله تعالى لم يذكر في كتابه الكريم بأنَّ آدم دُفِـع مِن قِبل حَواء أو غـرِّرَ به مِن قِبَلها وإنَّما قال: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١]، وفي أكثر آيات الكتاب ذُكْرُ آدم وحده، وفي بعضِها ذُكِرَ مع زَوجه وحُمِّلا معـاً تَبِعَة خَطِئِهِمَا، وهذا مِمَّا يدُلُّ على أنَّ الخطأ كان مِنهما مَعاً ولَم يكن بتأثيرها عليه.

أما كَوْنُ المرأة تُفْرِزُ هذا الدَّم الطبيعي في كل شهر فذلك مِن مَصْلَحَة جِسـمها، لأنَّ حكمة الله تعالى اقتضت أن تكون في الأجسـام إفْرَازَات، وجسـم المرأة مُتَمَيِّز بهذه الرُّطُوبة الزائدة المتمثلة فـي هذا الدم الذي يَتَخَثَّر ويُؤَدِّي إلى الضَّرَر بِجِسْمِها فاقْتَضَت حكمته تعالى أن تُفْرِز المرأة هذا الدَّم في هذه الدَّوْرَة لتتخلص من ضررها، كما أنَّ جِسـم كُلِّ وَاحدٍ مِن الرجـل والمرأة يُفرِز إفرازات طبِيعِيَّة أخـرى، فهذه مِن طبيعة الحياة ولا يُقال بأنَّ ذلك بسبب ارتكاب خطيئة، ثم لو كانت هذه خطيئة فمَا هوَ وِزْرُ بَنَات جِنْسِهَا مِن ذُرِّيتها إلى أن تقوم الساعة؟! فهذا لا يجوز التعويل عليه وإنَّما جاء ذلك في التوراة في سفر التكوين، فقد ذكر فيه أنَّ إبلِيس غَرَّرَ بِحوَّاء بواسطة الحية، ثم إنَّ حوَّاء بدوْرِها غَرَّرت بآدم وبعدها أكَلَت مِن الشـجرة وأَعْطَت رَجُلَها ليأكل مِنها، وفي هذه التوراة مِن العَظَائِم ما تَشِـيب منه الوِلْدَان، فلا يَجوز التَّعْوِيل علـى ذلك ولا يَجوز اعتقاد مثل هذه المعتقَدَات مـا دَامَت لَم تَثْبُت بِصِحَّة النقل مـن كلام الله تعالى أو كلام المعصوم ﷺ، والله أعلم.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]، **فما معنى الدابة وما وصفها؟**

هذه الآية نُؤمِن بِها كما جَاءَت، ولا نَدرِي هل ظهرت هذه الدَّابة لأنَّ الدَّابَّة وصف يصدق على كل ما يَدُبُّ على الأرض، فالإنسان دَابَّة لأنَّه يَدُبُّ على الأرض، والحيوان دَابَّة لأنَّه يَدُبُّ على الأرض، حتى هذه الآلات التي تَدُبُّ دَبِيباً على الأرض هي دَوَاب لأنَّها تَدُبُّ عَلَيْهَا، فلا نَدْرِي حقيقة هذه الدَّابَّة؟ نعم وَرَدَ في بعض الروايات وَصفُها ولكن هذه الروايات فِيها رِيبَة لأنَّ مِمَّا وَرَد فيها أنَّ هذه الدَّابَّة تكون عندها عَصَا موسى وخَاتَم سُليمان، ومَا يُدْرِينَا أنَّ هذه مِن الإسرائِيلِيَّات التي يُريد مِن خِلالِها بَنو إسرائيل أن يُرَوِّجوا لأفكارهم، لأنَّهم يزْعُمون أنَّ النبِيَّيْنِ الكرِيمَيْن مِن أنبيائهم، وليس الأمر كما يقُولون، وهم وإن كَانوا مِن أنبياء بني إسرائيل إلا أنَّ المؤمنين أَحَقُّ بِهم كما قال النبي ﷺ: «نَحن أَوْلَى مِنهم بِمُوسى بن عِمْرَان»[1]، وإن كان انْتِسَابُهما إليهم مِن حيث النَّسَب فإنَّنَا مَعاشِر المؤمنين أَوْلى بِهؤلاء النَّبِيِّين غير أنَّ لِهؤلاء دَسَائِس، فلعل هذه مِن دَسَائسهم؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

---

(١) رواه البخاري (١٨٦٥).


سلطنة عمان
وزارة الأوقاف والشؤون الدينية


الإنسانيات

حقيقة الشياطين

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤] هل كان إبليس من الملائكة ؟

دخل إبليس في خطاب الملائكة لوجوده بينهم، وإلا فقد أَخبر الله عنه أنه من الجن[١]، وبتعبده مع الملائكة خوطب بخطابهم، لأنه دخل فيهم ضمناً، والله أعلم.

جاء في القرآن الكريم بأن الشيطان قد خلقه الله تعالى من نار، وتوعده الله بأن يعذبه فيها، فكيف يُعذب بالنار وهو قد خلق منها ؟

روي أن أحد الملاحدة الذين يكذبون بالقرآن قال مثل هذا القول: كيف يعذب بالنار من خلق من نار. فأخذ أحد العلماء حفنة من التراب ورماها في عينيه، فقال: كيف ذلك ؟ فقال: أنت مخلوق من التراب وتألمت من التراب. فإذن الذي خلق من نار يتألم من النار والله أعلم.

هل يجوز للإنسان أن يدعو الله أن يهدي شيطانه ؟

لا، فإن الشيطان لا يهتدي، وإن اهتدى فما هو بشيطان، والله أعلم.

هل قرين النبي ﷺ أسلم فعلاً، أو معنى الحديث أن الرسول ﷺ يسلم من شره فلا يأمره إلا بخير، وهل مسألة القرين هذه وإسلامه لكل إنسان أم هي خاصية للرسول ﷺ ؟

القرين ليس خاصاً بالنبي ﷺ، ولكن قرينه أسلم دون سائر القرناء كما جاء في الروايات[٢] والله أعلم.

(١) ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [سورة الكهف: ٥٠].

(٢) رواه مسلم (٥٠٣٤).

الصحابة ومكانتهم

ما موقف المسلم من صحابة رسول الله ﷺ، وهل يجوز الاعتماد في هذه القضية[١] على قوله تعالى:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]؟

لم نكلف البحث عما مضى، وإنما علينا أن نصلح الحاضر ونبدأ بأنفسنا، وعجلة الأيام لا تعود إلى الوراء، فلا يمكن استدراك ما فات وإصلاح ما فسد، فما لنا وللاشتغال بالماضي عن الحاضر

فما مضى قبلك لو بساعة فدعه ليس البحث عنه طاعة[٢]

والله أعلم.

أحكام البغاة

إذا تعاون البغاة الموحدون مع المشركين لحرب المسلمين، فاختلطت أموال البغاة بأموال المشركين وغنمها المسلمون ولم يعرفوها لأيهم فما حكم هذه الأموال؟

ما وجد في يد الموحد فلا يجوز أخذه من أول الأمر، وما وجد في يد المشرك فيحل غنمه، وما كان مجهولاً فالأصل فيه أنه مجهول الأرباب، ومجهول الأرباب يصرف إلى فقراء المسلمين، أو يعود إلى بيت مال المسلمين، والله أعلم.

---

(١) يراد من السؤال عما وقع من الفتن والاختلاف في زمنهم.

(٢) كشف الحقيقة. لمن جهل الطريقة للإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الإشاعة

شَاعَ في الأيام الأخيرة تبادُل رسائِل عبر الجوَّال ونَصُّها: يقول الرسول ﷺ: «أنا النُّور ومن تبعنِي فلن يعيش في الظـلام» ودَمَجُوا مَعها جُملة أخرى: «أرسِلْهَا وستَرى السرور»، فهل هناك حديث بالنص السابق؟

هذا شـيءٌ لم أطَّلِع عليه، ولا يجوز للإنسـان أن يتقوَّل على الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسـلام ـ فيَنْسِـبَ إليه ما لم يقُلـه، لأن الكذب على النبي ﷺ أمرٌ عظيم، وليس هو كالكذب على غيره مِن الناس، وإنَّما هو يأتي بعد الكَذِب على الله تبارك وتعالى، فلذلك يَجب على الإنسان أن يَحْتَرِز من أن يُسْنِد إلى النبي عليه الصلاة والسلام ما لَم يَقُلْه، والله أعلم.



أثر المعاصي والتوبة منها

مَن نَقَل مَسألَةً وأخطأ في النَّقل، كيف تكون تَوْبَتُه؟

إذا نَقَلَ مسـألةً وأخطأ فهَذا الخطأ إمَّا أن يكون زلَّة لسان وإما أن يكون سببُه الجهل.

فإن كان سـببُه الجهل فلا ريب أن خَطَأه خطأٌ كبير، ذلك لأنَّ الإنسـان ليس له أن يقول بدُون علم، فالله تعالى قَرَن ذلك بالشرك عندما قال:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]،

وبَيَّن أن ذلك من أمر الشيطان عندما قال:

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٩]، وجاء في مسـنَد الإمام الربيع بن حبيب من طريق جابر بن زيد أنَّ النبِي ﷺ

قال: «من أفتى مسألة أو فسَّر رُؤيَا بغَير علم كان كمن خَرَّ من السماء إلى الأرض فصادَفَ بئراً لا قَعْرَ لَها ولو أنَّه وَافَق الحق»[(١)]، هذا لأن التقوُّل على الله ـ تعالى ـ فيه خطورة كبيرة، والله ـ تعالى ـ يقول:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وأمَّا إن كان هذا الخطأ زَلَّة لسان وذلك بأنْ يُريد أن يُفتِي بحق فتَزِل لسانه وتقول غير الحق ففي هذه الحالة هو معذُور، ولكن إن تنَبَّه فعليه أن يُبَيِّن لِمَن سَمعه، وأمَّا إذا لَم يتبيَّن له ذلك واستمر في غفلته فَهو غير مأخُوذٍ بِمَا قال، لأنَّ هذه زَلة لسان من دُون أن يَقْصِدَ بقلبه أن ينطق بِذَلك.

والجاهل عليه أن يتوب إلى الله تعالى مِمَّا يقوله بغير علم، وأن يُبيِّن للناس بأنه كان على جهل، وأنَّ مَا قاله غير حق وأنَّ الحق في خلاف ذلك، وعليه أن يُبَصِّر من تأثَّر بِكَلامه أو من أخطأ بِسَبب خطئه، والله أعلم.

النَّبِي ﷺ لَم يكن لَعَّاناً ولا فَحَّاشاً، فما مَعنَى أنْ نَجِد بعض الأحاديث التي يَرِد فيها لَعن النبِي لِبَعض الناس نظراً لِوقوعهم في شيء من المعاصي كالرِّبا والتبَرُّج ونَحو ذلك ؟

إنَّ رسول الله ﷺ بعثه الله بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، وكلمة الكُفر ـ كما هو معلوم ـ تَشْمَل الكُفر الـمِلِّي الـمُخْرِج مِن مِلة الإسلام وهو الكفر الأَكبَر الذي يُعَبَّر عنه بالشرك وتشمل ـ أيضاً ـ كُفْر النِّعْمة، فالنَّبِي ﷺ كما جَاء داعياً إلى الطاعات والاستقامة عليها واتِّبَاعِهَا جاء أيضاً مُحذِّراً مِن مَعَاصِي الله سُبحانه، لأنَّ جُرْأَة العاصِي هي جُرْأَة عظيمة عندمَا يُصِرُّ على

(١) رواه الربيع (٣٥).

معصيتــه، إذ يعصي بذلك الله الـذي خلقه وأَخرَجَه من العــدم إلى الوُجُود وأفاض عليه نِعَمَهُ ظاهرة وباطنة ويَسَّــر له سبيل هذه الحياة ومَهَّد له وُجودَه فيها، وجَعَل نظام الكون وطَبِيعَتَه مُتَوَائِمَيْنِ مع فِطْرَته التي فَطَره عليها، فإقْدَامُ الإنسان على هذه المعصية عن إصرارٍ وقصد مع نَهْيِهِ تعالى له وتوعُّدِهِ على ذلك ليس بالأمر الـهَيِّن، فلذلك لعن النبي ﷺ الذين أصَرُّوا على الـمُجَاهَرة بالمعصية وأصــرُّوا على الإعراض عَن أَمْــرِ الله تعالى وأَخْلَـدُوا إلى هوى نفوســهم، والله تعالى وَعَدَ البررة وتوعد الفجرة حيــث قال في كتابه: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٦]، فالنبِــي ﷺ عندمــا يَلْعَــن ـ مثــلاً ـ أَكَلة الرِّبَا أو النِّســاء الـمُتَبَرِّجَــات أو الـمُحَلِّلَ والـمُحَلَّلَ له أو من أَحْدَث في الإســلام حَدَثاً أو آوَى مُحْدِثــاً إنَّما كُلُّ ذلك لأجــل أن يكون الناس علــى مَعرفةٍ بهول الأمر ويخشــوا الله ويتقوه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فالإنسان دُعِيَ إلى الخير وحذِّر من الشر، وقد بَيّن الله ـ سبحانه ـ أنَّ وَعده ووَعِيده نافذان إذ قال:

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ﴾ [يونس: ٦٤]، وقال: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٨ - ٢٩] فلذلــك كان مِــنَ الضرورة بِمَكان أن يكون الإنســان في هذه الحياة حَـذِراً من الانزلاق في مهاوي هوى النفس وشهواتها.

ومَهْمَا يَكُن مِن حسْــنِ ظَنِّ الإنسان الـمُسْـلِم بالله إلا أنَّ ذلك لا يَدْعُوهُ إلى التَّهاون أو التجروء على الله تعالى، فقد بَيَّن ســبحانه لِمَن تكون مَغْفِرَته حيث قال:

﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢] كمــا أنــه تعالى حصر مغفرته في الأوابين عندما قال:

﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٢٥].

ذلك لأن تقديم المعمول على عامله يؤذن بالحصر، فالآية دليل على أن المغفرة إنما تكون للأوابين لا المصرين، والأواب هو كثير الأوبة إلى الله بالتوبة إليه مما يقع فيه من الخطايا، لذلك دَعَا الله ـ سبحانه ـ أصحاب الكَبَائِر الذين أَسْرَفُوا على أنفسهم بارتكابِهم الـمُوبقَات وبِفِعْلِهِم مَحارم الله ـ سبحانه ـ إلى أن يُسَارِعُوا إلى التَّوبة إذ يقول سبحانه: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٨].

ولا ريب أنَّ في الحياة جَوَاذِب ودَوَافِع تَجْذِبُ الإنسان إلى الشَّر وتدفعه عن الخير، ولكن مَعَ ذلك عَلَيْهِ أن يَصْبِر وأن يُصَابِر في استمساكه بِأَمْر الله تعالى، وقد بيّن الله ـ سبحانه ـ أنَّ الدنيا تَجْذِب الإنسان إليها وتُغْرِيهِ بِبَهْرَجَتِهَا وزَخْرَفَتِهَا وزِينَتِها وبِمَا أَوْدَع الله في طبيعَتها مِمَّا يَمِيل إليه الإنسان عادة، ولكن مع ذلك بَيَّن ـ سبحانه ـ أنَّ الآخرة في مُقَابِل هذه الدنيا إذ يقول تعالى:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ۝١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ١٩]،

ويقول تعالى أيضاً:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦]، ويقول تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، ويقول: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

ولا ريب أنَّ الإنسان الذي يتهالَك على معاصِي الله ويُعطِي نفسه هواها ولا يُنَهْنِهُهَا عن الشر إنَّما آثَر الحَيَاة الدُّنيا على الآخرة، ونَجد أنَّ الله حكم على الجنس البشري بالخسران إلا من استثناهم وذلك عندما قال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، فالإنسان مُطالَب أن يَحْرِص على هذه الأُمُور الأربعة وهي الإيمان الراسخ في النفس الذي يتَغَلْغَلُ في أَعْماق القلب ويُحرِّك أَوْتَار النَّفْس ويُثِيرُ مشاعرها وأحاسِيسَها ويُحَرِّك جَوارِحَهَا لأعمال الخير والعَمَل، الذي يُتَرْجِم الإيمان، فالإيمان ليس دَعْوَى يدَّعِيها الإنسان: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، وهذا العمل لا بد - أيضاً - من أن يُحَاط بِسِيَاج، وذلك أنَّ الله - تعالى - قال: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ فالتَّواصِي بالحق مِدْعَاة لاستمرار الإنسان على العمل الصالِح، لأنَّ الـمُجتمَع من حوله يُعِينه على الأعمال الصالِحَة إذ يُوصِيهِ بها، وكذلك التَّواصِي بالصبر إذ بُعْدُ الإنسان عن مَعَاصِي الله وحَمْلُهُ

نَفسَــه على طاعة الله يَسْــتَوْجِبَان الصَّبر على الـمَكَارِه، لأنَّ النفس مَيَّالَة إلى المعاصي غير رَاغِبَة في الطاعة، ولَكن بِمَا أنَّ إيمان الإنســان يَجْعَلُه مُسْتَعْلِيّاً على رَغَبَات نفســه فإنَّه لا بد مع هــذا الإيـمَان ومَعَ هَــذَا العَمَل أن يكون هُنَالك تواصٍ بالصبر بِجَانب التواصِي بالحق، والله أعلم.

شخص كان يفعل المعاصي وكلما ارتكب المعصية تاب وهكذا استمر يفعل المعصية ثم يتوب ثم إنَّه طلب مِن ربــه ألّا يقبل منه توبة إن هو عاد إلى تلك المعصية ثم عاد مرات ثم تاب بعد ذلك توبة نصوحا ولَم يرجع، هل تقبل توبة هذا؟

هذا رجل أَحْمَق، ولو كان فيه شيء مِن العقل لَما سأل الله ـ تعالى ـ هذا الســؤال، وكان جديراً به أن يســأل الله تعالى بأن يوفقه للتوبة النَّصوح التي يُقلع فيها عن كل غَيٍّ، ويزدجر فيها عن كل معصية، ويســتقيم فيها عن كل اعوجاج، هكذا كان الواجب عليه، ولَم يكن حرياً به أن يســأل الله ـ تعالى ـ بأنَّه إن عاد إلى تِلْكُــم المعصية أن لا يقبل منه توبة، ما باله تبلغ به الحماقة إلى هذا القدر.

والتوبــة مَقبولة مِن كل عاصٍ مهما كان عصيانــه إن نصح في توبته لله ســبحانه، وذلك بأن يتوب توبة صادقــة مِن أعماق نفســه ويلتزم بكل ما تســتوجبه التوبة، فالله ﷻ بَيّن أنَّ مَغفرته للتائبين حيــث قال تعالى ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وبسط فضله لعباده حيث دعاهم إلى أنْ يتوبوا مِن معاصيهم ولو أغرقوا في هذه المعاصي، وأســرفوا على أنفســهم في ارتكابِها، وأَوْعَوا جُيُوبِهم مِن الموبقات مــا أَوْعَوا، فالله تعالى مع ذلك كله فتــح لَهم أبواب التوبة ودعاهــم إليها، ورحب بِهم إن تابوا عندما قال:

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٣ – ٥٨]،

فالعبد يؤمر بأن يتوب إلى الله تعالى توبة نصوحا، وأن يُسارع في هذه التوبة، وألا يتلكأ عنها مهما كانت خطاياه، وإن تاب توبة صادقة نصوحاً فإنَّ الله يقبل توبته.

هذا؛ وبهذه المناسبة أرى أن نذكر هنا أركان التوبة التي لا بد منها، فالتائب يؤمر بأشياء:

أولاً: أن يندم، إذ التوبة الندم، فإن مَن لَم يندم فليس بتائب، فالندم هو الركن الأعظم مِن أركان التوبة، وذلك بأن يتمنى أن لو استقبل مِن أمره ما استدبر حتى لا يقع فيما وقع فيه.

ثانياً: أن يقلع عن المعصية، فإنَّ مَن كان مُصراً على معصيته مرتكباً لَها ليس بتائب.

ثالثاً: أن يعقد العزم على عدم العودة إليها كما لا تعود الألبان إلى ضروعها التي خرجت منها.

رابعاً: أن يستغفر الله تعالى لأنَّ الله أمر بالاستغفار، فالله تعالى حَضَّ على الاستغفار في مواضع عديدة مِن كتابه الكريم وذلك مِمَّا يدل على وجوب الاستغفار، كيف وقد قرن الله بالاستغفار الخير كله، وتوعد على تركه

العقاب، فقد قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]، وحكى عن نوح عليه السلام أنه قال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، وعن هود عليه السلام أنه قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، وعن صالح عليه السلام أنه قال: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١] وعن شعيب عليه السلام أنه قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، وهو دليل على أنه من أركان التوبة التي لا بد منها على الصحيح.

وما يقوله أغلب المفسرين والفقهاء ـ من أن الاستغفار باللسان غير واجب على العاصي وإنما يكفي منه الندم بجانب أركان التوبة الأخرى، وأن الأمر بالاستغفار في هذه الآيات هو عين الأمر بالتوبة التي هي الندم ـ ليس بشيء، لأن الاستغفار هنا ذكر مقرونا بالتوبة فقد عطفت عليه بـ «ثم» في أربع آيات من سورة هود، والعطف يدل على التغاير بين المعطوف والمعطوف عليه، وهو هنا من باب عطف الكل على الجزء، فلا تغني التوبة دونه والحكمة من مشروعيته ـ وإن كان الله يعلم ما في طوايا النفوس ـ أن الإستغفار تذلل وانكسار من العبد واعتراف بالخطيئة، وذلك هو اللائق بمقام التوبة وحال التائبين، على أن الاستغفار المطلوب ليس هو كَلِماً يردده اللسان مع فراغ البال منه، وإنما يجب أن يكون ترجمة عما وقر في القلب واستقر في النفس من الندم على الوقوع في المعصية وعقد العزم على عدم العودة إليها مع تصديق الجوارح لذلك بالإقلاع عنها، وبدون ذلك لا تكون له قيمة.

فإن تاب الإنسان هذه التوبة فيما بينه وبين ربه فإنَّ توبته مقبولة، أما إذا كان ذنبه فيما بينه وبين عباد الله بِحيث ظلم الناس فيما يتعلق بأموالِهم أو بدمائهم أو بأعراضهم فلا بد مِن أن يتخلص فيما بينه وبينهم؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

مَن أراد أن يكفّر عن سيئاته بصيام شهرين مُتتابعين، هل تكفيه التوبة؟ وما القول في صيامه؟

التوبة في الأصل تتوقف على أركانِها: فالركن الأول الندم وهو أهم أركانها.

والركن الثاني الإقلاع عن المعصية، فإنَّ مَن استمر على المعصية فهو ليس بتائب.

والركن الثالث هو عقد العزم على عدم العودة إلى المعصية.

والركن الرابع طلب المغفرة مِن الله تبارك وتعالى.

وهذه الأركان لا بد مِنها حتى تكون التوبة صحيحة مقبولة؛ ومع هذا لا بد مِن النظر في المعصية التي وقع فِيها الإنسان، فإن كانت هذه المعصية أَخْذَ مال بغير حق مِن أحد، أو سَفك دم، أو انتهاك عرض أو نَحو ذلك مِمَّا يتعلق بالناس فلا بد مِن التخلص إليهم.

فإنَّ الذنب ذنبان: ذَنب بين العبد وربه مَن تاب مِنه كان كمن لا ذنب له، وذنب بين العبد وصاحبه لا توبة مِنه حتى يرد المظالِم إلى أَهلها.

وإن كان ذلك فِيما بينه وبين ربه فيُنظر هل هو ترك واجب أو فعل مَحظور، فإن كان فعل مَحظور وليس فيه حق لأحد فعليه أن يتوب بينه وبين ربه وكفى.

وإن كان تركاً لواجب كأن يكون تاركاً للصلاة أو للصيام فعليه مع التوبة أن يقضي هذا الفرض الذي تركه.

وإن كانت هنالك كفارة فعليه أن يكفر ككفارة الصيام المشروعة، وككفارات الأَيْمان، والظهار وقتل الخطأ، وإن كان الأصل في قتل الخطأ أنَّه غير مُؤاخذ به فِيما بينه وبين ربه لكنَّ الله تعالى فرض بِجانب الدِّيَة كفارة لأجل حماية النُّفوس وصَون الدِّماء ليحذر الناس الإهمال لئلا يُؤدي إِهمالُهم إلى سفك شيء مِن دماء الناس وإزهاق شيء مِن أَرواحهم.

أما إلزامه أن يكفّر بصيام شهرين مِن أجل أي معصية كانت فهذا لا أساس له في الشرع وإن رآه بعض علمائنا ولعلهم قالوه قياسا على وجوب كفارة الظهار الذي أخبر الله عنه أنه منكر من القول وزور، فحكموا على كل منكر وزورٍ بهذا الحكم نفسه قياسا، وأنتم تدرون أن القياس لا بد فيه من مراعاة أن يكون المقيس فيه العلة التي أوجبت الحكم في المقيس عليه، والحكم في الظهار ليست له علة ظاهرة يسري حكمها حيث وجدت، والله ـ تعالى ـ أعلم.

ما صِحَّة القَوْل إنَّ بعض المعاصي تُعَجّل عُقُوبَتُها في الدنيا؟ وهل على ذلِكَ دَلِيل؟

كم مِن مَعاصِيَ تُعَجَّلُ عُقوبَاتُها في الدنيا، فالله تعالى يذكر الأُمَم التي بَادَتْ وهَلَكَتْ وكانتْ عاقِبَتُها مُرَّة وذكر أنَّ ذلِكَ كان بِسَبَبِ مَعاصِيها، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦]، فنرى هنا أنَّه ينص على أن سبب الهلاك هو الذنوب.

كذلك يُبيِّنُ لنا تعالى أنّ العقوبات العامّة التي تُصِيب الأُمَم وتُصِيب الشعوب سَبَبها فسادِ الـمُتْرَفِين وانْحِرافِهِم عن جادَّةِ الحق وسُكُوتِ الآخَرِين عنهم يَقولَ الله سبحانه تعالى:

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

فالتَّرَف سَبَب لِمِثْلِ هذه الأمور، لأنه يَدفَعُ بِالإنسانِ إلى مَعصيةِ الله وعدمِ الـمُبَالاةِ بِأوامِرِه ونَوَاهِيه، ويقول:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٤]، ويقول: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١ ـ ١٣] فهذا كلُّه مِمَّا يَدُل على أنَّ التَّرَف يُؤدِّي ـ والعياذ بالله ـ إلى البَطَر وارتِكابِ مَعاصِي الله وعدمِ المبالاة بِحُرُمات الله وأوامِرِه ونواهِيه، ومما يؤيد هذا قوله ـ سبحانه:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨]، فبيَّن أنَّ البَطَر يُؤدِّي إلى هذه الغايَةِ السيّئة، وهي الهلاك والعياذ بالله، والله أعلم.

تُصَاب البلاد بِجَدْبٍ ومَحْلٍ شديد فما هو الخلاص؟ وكيف يتضرَّع الناس إلى ربِّهم؟ وماذا يصنعون حتى يأتيهم الغيث؟

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يُغِيثَ العباد والبلاد، وكُل ما أصاب الناس فبما كسبت أيديهم قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، فعلينا أن نَتُوب إلى الله ونستغفره، لأن

الاستغفار سبب للغيث فالله تعالى حكى عن نوح قوله: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح: ١٠-١٢]، فالناس مُطالَبون بأن يستغفروا الله، على أن يكون هذا الاستغفار ليس مُجرَّد لَقْلَقَة باللسان وإنَّما هو استغفار نَابع من القلب بحيث يكون معه ندم على المعاصي وإقلاع عنها وعقد العزم على عدم العودة إليها، ففي هذه الحالة يغيث الله تعالى عباده ويَرْحَمُهم ويلطف بِهم ويرفع عنهم الشدائد، هذا مع التصدُّق على الفقراء والمساكين بِجانب دفع الزكاة الواجبة، فإنَّ مَنْعَ الزكاة هو الذي أدَّى إلى حبس القَطر ففي الحديث عن النبي ﷺ: «وما مَنَعُوا زكاة أموالِهم إلا حُبِسَ عنهم القَطَر، ولولا البهائم لَم يُمْطَروا»[1].

ومِمَّا يؤسَف له أن الناس منعوا حقوق الله وحقوق الناس الواجبة في أموالِهم، وهم يريدون مع ذلك من الله ـ تعالى ـ أن يُسْبِغَ عليهم نعمه مع كفرانهم، ولا يقومون بواجب طاعة المنعِم جل جلاله، ولا يحرصون على التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر.

والله تعالى أَنْذَرنا شر المعاصي في كتابه الكريم وقَصَّ علينا أنباء الأمم التي قبلنا حيث قال:

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦]، وقال:

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٠٤٢).

ثم قال بعده ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴾ [الإسراء: ١٧]، فعلى الناس جميعاً ـ ونحن معهم ـ أن يتقوا الله وأن يُخْلِصوا عبادتهم له وأن يتوبوا إليه توبة نصوحاً، ونسأل الله أن يتقبَّل توبتنا وإنابتنا، والله أعلم.

ما هي آثار مَعصية الفرد على الأمّة؟

أمَّا إن أمسكت الأمة بيده وأمَرَته بالمعروف ونَهَته عن المنكر فإن هذه المعصية أثرها ينعكس على نفسه ولا يُصيب الأمة منها شيء، وكذلك إن كانت معصية خفية لم تطلع عليها الأمة.

أما إن جاهر بالمعصية ولَم تنكر الأمة عليه فمن أَبْصَر ذلك واطَّلَع عليه وكان قادراً على الإنكار وتَمادى في ترك الإنكار فهو مسئول عن هذه المعصية وشريك لِهَذا العاصي لأنَّ الله تعالى يقول:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩]، ويقول جل شأنه:

﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

فمن لَم يأمر بالمعروف ويَنْهَ عن المنكر مع ظهور المنكر وقدرته على تغييره يكون شريكاً لصاحب المنكر وعقاب الله تعالى يشمَل الجميع كما وقع لبني إسرائيل؛ والله ـ تعالى ـ المستعان.

يَظن البعض أنَّ إصابته بمرض الإيدز يعني أنَّ باب التوبة قد أغلق عنه لأنَّه أصبح في عداد مَن ينتظر الموت، فما قولكم في ذلك؟

إنَّ الموت هو مُنتظر بالنسبة إلى كل حَيٍّ، فما مِن حَيٍّ إلا وبين يديه وأمام ناظريه الموت، لأنَّ الله ـ تعالى ـ حَكم به على جَميع العباد، فقد قال عَزَّ مِن قائل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال سبحانه لِخير خلقه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، فكون الإنسان مُنتظراً للموت لا يعني ذلك أنَّ باب التوبة مغلق في وجهه، بل باب التوبة مفتوح إلى أن يصل إلى حد الغرغرة كما يدل على ذلك حديث الرسول ﷺ: «إنَّ الله ليقبل توبة العبد ما لَم يغرغر»[1]، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

نعم الإنسان مأمور أن يبادر إلى التوبة عندما يقع في أي معصية، ولا يؤخر التوبة مِن حال إلى حال، لأنَّ الآجال صَوَارِم لِحبال الآمال، فالإنسان قد يتأمل أنَّه سَيتوب بعد حين، ويرخي لنفسه العنان لتُقارف المعاصي وتقع فيما تقع فيه مِن مَحظورات الله تعالى وإذا بالأجل المحتوم يَجتث هذا الأمل مِن أساسه ويأتي على حياة الإنسان؛ هذا بِجانب كون المعصية عندما يستمر عليها الإنسان ويردفها بأخواتِها يكون على قلبه الرَّان، كما يدل على ذلك حديث النبي ﷺ الذي أخرجه الإمام أَحمد وأصحاب السنن وابن جرير وآخرون مِن طريق أبِي هريرة رضي الله عنه أنَّه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ قال: «إنَّ العبد إذا أَذنب الذَّنب نُكتت في قلبه نُكتة سَوداء، فإنْ هو

(١) رواه الترمذي (٣٤٦٠).

نَزَع وتَاب واستغفر صُقِل، وإنْ هو عَاد زَادت حَتى تَملأَ قَلبه فَذلكم الرَّان»، ثم تَلا الآية الكريمة: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

ونحن نرى أنَّ الله تعالى عندما بَيَّن توبته للتائبين ذكر أنَّ التوبة إنَّما هي لِمن يتوب مِن قريب، وذلك لأنَّ الذي يتوب مِن قريب يُعاجل الأجل بتوبته قبل أنْ يَفجأه الأجل ويَحول بينه وبينها هذا من ناحية، ومِن ناحية أُخرى فإن الإنسان عندما يتوب فإنَّه يُنظّف نفسه ويتخلص مِن أَسْرِ المعصية لأنَّ المعصية عندما تتراكم على القلب يَصدأ هذا القلب ويكون مِن الصعب بعد ذلك أنْ يَنجلي فيعود كما كان أَوَّل مرة، ولذلك قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، فذكر السوء بصيغة الإفراد، وذكر أنَّ التوبة تأتِي مِن قَريب أي قبل أنْ يَصدأ القلب حتى تَرِين عليه المعصية، وفي مُقابل ذلك قال:

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [النساء: ١٨]، بصيغة الجمع، ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨]، وذلك لأنَّ استرسال الإنسان في أعماله القبيحة يَجعله أسيراً لَها.

والقلب هو أَهَمُّ شيء بالنسبة إلى الإنسان لأنَّه ملاكه، فالله عز وجل في كتابه العزيز بَيَّن أنَّ الفوز يوم القيامة إنَّما هو لِمن جاء بقلب سليم، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، كما أنَّه - سبحانه - وعد أيضاً بالجنة مَن جاء بقلب مُنيب ومعنى الإنابة الرجوع إلى الله، وذلك بأن يرجع إلى الله إذا ما قَارَفَ أي معصية فلا يستمر عليها، ولكن هذا لا يعني أنَّ مَعصية مِن المعاصي كيف ما كان عظمها تَحول بين العبد وبين التوبة إنْ أراد التوبة بإخلاص النية وصفاء الطوية فالله جل شأنه يقول:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٦]، فالإنسان مأمور بأن يُبادر قبل أن يُفجع بنفسه ويُفجأ بِرَيبِ المنون ينتزع نفسه منه، والله أعلم.

مَن يعتقد مُضاعفة الذنب في نَهار رمضان دون ليله، هل يؤثر مثل هذا الاعتقاد على صحة صيامه؟

هذا خطأ لا يؤدي إلى انتقاض صومه، ولكن يَجب عليه أن يَحتاط لنفسه، وأن يَمتنع مِن الوقوع في معاصي الله في ليله وفي نَهاره، لأنَّ لرمضان حُرمات سواء في الليل أو في النهار، وبقدر ما تكون حُرمة الزمان والمكان يُضاعف الثواب ويُضاعف العقاب، فمن أصاب سيئة في حرم الله الآمن ـ مثلاً ـ ضوعف وزره، ومَن أَتى بِحسنة هنالك ضوعف أجره، وكذلك بالنسبة إلى الزمان لأنَّ لِمزية الزمان تأثيراً في مُضاعفة الأجور وفي مُضاعفة الأوزار، فهذا الاعتقاد خطأ، ولكن لا يُؤاخذ به بِحيث يقال بأنَّ صومه باطل، والله أعلم.

بعض الأشخاص في لحظة احتضارهم يحضر أهاليهم شخصاً من الصالحين يقرئه التوبة، فهل هذا مقبول في حكم الإسلام؟ وإذا كان مقبولاً فهل تقبل توبة المرء في تلك الساعة؟

جاء في الحديث عن النبي ﷺ «يقبل الله توبة العبد ما لم يغرغر»، فإذا حصلت الغرغرة حينئذ يغلق ـ والعياذ بالله ـ باب التوبة، نسأل الله تعالى حسن الخاتمة ونعوذ به من سوء الخاتمة، ولا يشترط في التوبة أن يُتوبَ

العاصي أحد أو أن يكون من يتوبه من الصالحين وإنما يكفيه أن يتوب بينه وبين ربه، إذ ليس بين الله ﷻ وبين عبده واسطة. فالإنسان ـ من فضل الله ﷻ عليه ـ فتح له باب الاتصال بربه، والذي يرتكب السيئة ويأتي المنكرات إذا توجه إلى الله ﷻ بقلب خاشع، وسأل الله تعالى أن يغفر له، وعقد العزم على ألا يعود إلى المعصية كما لا تعود الألبان إلى ضروعها فلا ريب أن الله يقبل توبته..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] ولا تتوقف التوبة على واسطة بين العبد التائب وربه، والله أعلم.

هل يوجد فارق بين التوبة والاستغفار، وإذا كان فما حقيقة التوبة؟

الاستغفار هو طلب المغفرة فهو جزء من التوبة، ولا يكون وحده التوبة، فالتوبة هي الإقلاع والاستغفار والندم وعقد العزم على عدم العودة إلى المعصية. والله أعلم.

ما هي نصيحتكم لرجل يقترف المعاصي وهو يعلم أنها معاص، وعند اقترافه معصية من المعاصي يتوب منها، مع العزم على عدم العودة لكنه يرجع ثانية ويقع في الذنب؟

يقبل الله تعالى توبة عبده ـ كما جاء في الحديث ـ ما لم يغرغر، ولكن على أن يعقد العزم على عدم العودة، وعندما تنزع نفسه إلى الشر مرة أخرى فليحاول أن يصدها عنه، وليستعن على ذلك باستحضار الموت وغصته، والقبر ووحشته، والموقف يوم القيامة وهوله، ونعيم الجنة وعقاب النار ـ والعياذ بالله من النار ـ، فإن ذلك مما يعين الإنسان على كبح جماح النفس وعدم استرسالها في شهواتها المهلكة ورغباتها المردية والله أعلم.

هل للاســـتغفار صيغة معينه أم تكفي النية بالقلب، ونرجو توضيح نقطة ترديد الناس للأذكار، خصوصاً وقد سمعنا أن بعض هذه الأذكار مكتوبة من بعض الناس، وقد يأخذونها كغرض من الأغراض التي لا يعلمها إلا الله فما قولكم في ذلك؟

الاســـتغفار لا ينحصر في صيغة معينة، وإن كان قد ورد في الأحاديث عن النبي ﷺ بعض الصيغ نحو: أستغفر الله العظيم الذي لا إلٰه إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه من كل ذنب وجاء أيضاً أن ســـيد الاســـتغفار هو: «اللهم أنت ربـــي لا إلٰه إلّا أنت خلقتنـــي وأنا عبدك وأنا على عهـــدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شـــر ما صنعت أبوء بنعمتك عليَّ وأبوء بك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلّا أنت»، لكن لا يعني ذلك أن هذه الصيغة وحدها يقتصر عليها المســـتغفر. هذا وقد جاء فـــي الحديث عن النبي ﷺ: «أحدث لكل ســـيئة توبة الســـر بالســـر والعلانية بالعلانيـــة»[1]، فمن كانت معصيته سرية فتوبته أيضاً منها سرية، وقد يكون استغفاره بقلبه عند بعضهم ولو لم ينطق لســـانه بذلك مجزياً له، إذا عقد العزم على عدم العودة، وكان قلبه ضارعاً إلى الله ﷻ بأن يغفر له. ولكن ينبغـــي أن يترجم هذا الذي في قرارة نفســـه بنطقه، وإذا كانت المعصية ظاهرة بحيـــث يعلم الناس بها فإن عليه أن يجهر بتوبتـــه، كما جهر بمعصيتـــه، ليمحو تلك الصـــورة القاتمة الســـوداء التي انطبعت في أذهان الناس عنه، إلى صورة معاكسة لها، صورة مشـــرقة بيضاء، وهذا لأن الناس متعبدون بولايته إن استقام على الحق قولاً وعملاً ومتعبدون بالبراءة منه إن انحرف إلى الباطل قولاً أو عملاً ولا يحل له أن يبيح البراءة من نفسه:

(١) المعجم الكبير (٣٧٤).

ومن يبح براءة من نفسه فهالك وهو حرٍ بخسه.

وأما الأذكار فإنها مطلوبة على كل حال فذكر الله تعالى حياة للقلوب من مواتها ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. ويقول تعالى:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]. ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] ويقول أيضاً:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، فينبغي للإنسان أن يذكر الله على أي حال، ولا يقتصر في ذكر الله سبحانه وتعالى على صيغ معينة، وإنما أفضل الصيغ ما جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى، وما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم كالإتيان بالباقيات الصالحات والاستغفار، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ففي كل من ذلك خير كبير، والأهم من ذلك أن يكون المقصود بهذا الذكر تزكية النفس، وتطهيرها من أرجاس المعصية، حتى تكون خاشعة لله تعالى تخشاه سبحانه وتعالى وتتقيه، وتتجنب نواهيه وتسارع إلى أوامره والله أعلم.

التائب من أخذ الربا ماذا يفعل بالزيادة التي تدرها أمواله، هل يتركها للبنك مع العلم إنه قد يستغلها في أعمال مضادة للإسلام، مثل بناء الكنائس، أم أنه يتصرف بها وذلك يكون مضاداً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في معنى الحديث «أيُ لحم نبت من سُحت فالنار أولى به»[1] ؟

المرء مأمور أن يكون دائما في معاملاته متقياً لله سبحانه وتعالى، ومن تقوى الله عز وجل أن يختار عندما يريد أن يستودع أمانة التقي العفيف، فقد قيل: «كفى بالمرء

(١) الحاكم (٧١٦٣)، الترمذي (٥٥٨).

خيانة أن يكون أميناً لخائن أو يكون أمينه خائنا»، والمقصود بالخيانة مخالفة أوامر الله، فمما يجب على الإنسان ألا يستودع نقوده حيث تستغل في الربا، ويتصرف فيها بمعصية الله سبحانه، بل عليه أن يختار لها المستودع الأمين غير المخالف لأمر الله ﷻ، ويعني ذلك ألا يودع نقوده المؤسسات التي تتعامل بالربا أو التي تشجع على المنكر، والتي تستغل هذه الأمانة في محاربة الدين، فما للإنسان وتركه نقوده في البنوك التي تتعامل بالربا؟ سواءً كان يأخذ مما تدره هذه النقود من الزيادة في هذه المعاملة، أو لا يأخذ من ذلك شيئاً، فما دام هو منهياً عن التعاون على معصية الله سبحانه، فالأخذ من هذه النقود يعني مقارفة منه للربا ورضى به، والله ﷻ يقول:

﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، فليس للإنسان أن يأخذ شيئا من الزيادة فإن وقعت هذه الزيادة في يده فعليه أن يدفعها إلى فقراء المسلمين تخلصاً لا تصدقاً فإن الصدقة لا تكون إلّا من المال الطيب كما جاء في الحدث «لا يقبل الله صدقة من غلول»[1] والله أعلم.

هل التوبة لمرتكب الكبيرة تامة الأركان حتى إذا لم يطبق الحد الشرعي، وهل يكون طاهراً لو تاب التوبة الصدوق، استنادا إلى حادثة ماعز والغامدية عندما أتوا النبي ﷺ ليطهرهم؟

فتح الله سبحانه باب التوبة بدون اشتراط إقامة حد، وذلك من فضل الله ﷻ على عباده، والنبي ﷺ كان يحرص كل الحرص على أن يتوب الإنسان بينه وبين ربه، من غير أن يعرض نفسه لإقامة الحد عليه، فقد قال ﷺ: «من أصاب منكم شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله فإن

(١) رواه مسلم (٣٢٩).

من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله»[١]، فمن ستر نفسه بستر ربه وأخلص التوبة إليه كان الله به رؤوفاً رحيماً ومن أبى إلّا أن يهتك ستره ويفشي أمره فلا بد من إقامة حد الله تعالى عليه لأن القائم بالأمر متعبد بإقامة حدود الله حَال استيفاء جميع الشرائط، ومع ذلك فلو جاء إلى الحاكم معترفاً بما يوجب الحد عليه فإن الحاكم يؤمر أن يردده كما ردد النبي ﷺ ماعزا، لعله يتوب بينه وبين ربه، فإن من شأن المؤمن الرحمة، والنبي ﷺ هو في قمة الإيمان فكان أكثر الناس رحمة وأعظمهم شفقة، وليس من الرحمة في شيء أن يحب أحد لغيره ما يكرهه لنفسه ـ وإن كان في إقامة حدود الله ﷻ أيضاً رحمة بالعباد ـ، غير أن التائب الذي اقترف ما يوجب الحد إذا تاب بينه وبين ربه فقد أمن شره، ولذلك كان من شأن أئمة المسلمين إذا جاءهم أحد يطلب منهم أن يقيموا عليه الحد الشرعي ألا يتسارعوا إلى ذلك من أول مرة حتى يتتبعوا أمره ويتكرر اعترافه بما يوجب الحد الشرعي، فالتوبة مقبولة ولو لم يقم الحد الشرعي على التائب، والله أعلم.

رجل زنا وأراد أن يتوب إلى الله ماذا يفعل في هذا الزمن الرديء الذي لا تطبق فيه الحدود؟

التوبة لا تتوقف على إقامة الحد على التائب، ومن تاب بينه وبين ربه قبل الله منه توبته، والنبي ﷺ أرشد إلى ذلك بقوله: «من أصاب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله، فإن من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله»[٢] والله أعلم.

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٣٠٤٨).

(٢) رواه الحاكم (٨/٣٣٠).

جاءنا أحد المشـايخ من الجزيرة العربية فقال لنـا: إن المرأة التي زنت ولديها ابن الزنى توبتها أن تجلد ثمانين جلدة، فما قولكم؟

يقبل الله توبة التائـب وإن لم يقم عليه الحد، إذ الحدّ ليس شـرطاً في صحة التوبة، وحد الزاني والزانية ليس ثمانين جلدة وإنما هو مائة جلدة إن كانا بكرين، وإن كانا محصنين فالرجـم، ولا فرق في ذلك بين أن ينتج عن الزنى حمل أو لا والله أعلم.

رجل بعد عزمه على التوبة والنية بعـدم العودة لارتكاب المعاصي، ظلت المرأة التي ساعدته على الفواحش تلاحقه باتصالاتها وتهديده بافتعال المشاكل له ولزوجته وأولاده، بل ووعدت بأن تتعدى محيط أسـرته إلى العمل بحجة حبها الشـديد له وعدم تحمل بعده عنها، وأنها عانت الكثير من المشاكل لأجله، وأنه خانها بزواجه من غيرها، مع العلم بأنها متزوجة ولديها أولاد، وقـد نصحها وأوضح لها بأنه تاب إلى الله عز وجل وأنه عليها التوبة مثله، فـردت عليه بأن الله سبحانه وتعالى لن يغفر له لأنه تسـبب في إيذائها وأولادها وإيـذاء الكثير من الناس، ولأنها الآن تعاني من الكثير من المشـاكل ورجوعـه إليها يحل لها تلك المشاكل.

ماذا يجب عليـه أن يفعل لتكون توبته خالصـة لله عز وجل؟ وماذا عليه ليصلح من خطئه تجـاه تلك المـرأة؟ وهو يعلـم أن رجوعه إليها معصية لله عز وجل؟

يجب عليه أن يبتعد عـن تلك المرأة مهما كلفه ذلـك، ولا يلتفت إلى إغراءاتها وتهديداتها، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] والله ولي التوفيق.

كيف يتوب من ارتكب كبيرة الزنى مع كثير من الزانيات مرات لا تحصى وفترة طويلة من عمره؟ وهل يجب عليه شيء من الكفارات؟ وهل يجب عليه الجهر بتوبته؟

الزاني يتوب إلى الله ﷻ بإخلاص التوبة له، والله يقبل توبته ويغفر حوبته، فإنه القائل:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۝٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]، وفي الحديث الذي رواه الإمام الربيع عن أبي عبيدة عن جماعة من الصحابة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «الذنب ذنبان، ذنب بين العبد وربه وذنب بين العبد وصاحبه، فالذنب الذي بين العبد وربه من تاب منه كان كمن لا ذنب له، والذنب الذي بين العبد وصاحبه لا توبة منه حتى يرد المظالم»[1] وعليه فإن كان زنى بنساء عاقلات بالغات حرائر مختارات فعليه التوبة وكفى، وإن كان زنى بمجنونة أو صبية أو أمة أو مكرهة فعليه مع التوبة العقر كله في كل مرة، وهو نصف عشر دية الثيب وعشر دية البكر، وإن كان زناه معلوماً فعليه إعلان التوبة، وإلا تاب سراً، والله أعلم.

كيف يتوب من ارتكب كبيرة قوم لوط مع كثير من الرجال مرات لا تحصى فترة طويلة من عمره، فهل يجب عليه شيء من الكفارات؟ وهل يجب عليه الجهر بتوبته؟

توبته كتوبة الزاني سواءً بسواء، إلا في العقر فإنه كعقر الثيب سواءً كان المأتي صغيرا أو كبيرا والله أعلم.

---

(١) رواه الربيع (٦٩١).

شخص عمل عمل قوم لوط لسنوات عديدة وأراد التوبة، فهل عليه كفارة مغلظة واحدة عند التوبة ؟ أم بقدر عدد الذين عمل فيهم هذه الفاحشة ؟

القول بوجوب الكفارة على من ارتكب كبيرة إنما هو رأي لأهل المغرب من أصحابنا، والمشارقة لا يأخذون بذلك، لأن الكفارات كالحدود لا تثبت إلّا بالنصوص، ولم يأمر النبي ﷺ تائباً بالتكفيـــر إلّا في مواضع خاصة منه كالفطر في رمضان، والله أعلم.

رجل كثيـــر الذنـــوب والمعاصي، ولكن يحـــج ويعتمـــر ويفعل الخير ومواظب على الصلاة، ولكن يمارس عمل قـــوم لوط ويتوب ثم يرجع عدة مرات، ولكن الآن تاب توبة يعلـــم الله أنها صادقة، فما قولكم فيما مضى عليه والله من وراء القصد ؟

إن تاب إلى الله قبل توبته، ولكن إن كان مارس اللواط مع صبي أو مجنون أو مملوك أو مكره فعليه لمن مارس معه مهر الثيب من النساء، والله أعلم.

رجل بلغ مبلغ الرجال في ســـن الرابعة عشر، وقام بنكح الدواب وعمل قوم لوط، ولكنه بعدما بلغ العشـــرين من العمر تـــاب توبة نصوحة ولم يعمل من هذه الخبائث شـــيئاً، فماذا عليه الآن بعد التوبة والاســـتغفار والندم ؟

عليه التوبة إلـــى الله ﷻ، وعليه ضمان تلك الحيوانـــات التي فجر بها لأربابها، فإن لم يعرفهم فلفقراء المســـلمين، وعليـــه إن كان الذين لاط بهم صبياناً أو مجانين أو مماليك أو أكرههم على ذلك ولم يكونوا راضين به أن يدفع إلى كل من هؤلاء العقر، وهو مهر الثيب، ويقدر بنصف عشـــر ديتها، والله أعلم.

ما قولكم في شخص ذكر شخصاً آخر به عيب ما أو ارتكب كبيرة في غيبته؟

تلك غيبة، ولا تجوز في حق المسلم، إلّا إن جاهر بمعصية الله والله أعلم.

هل يجب على من ظلم أحداً بغيبة أو بهتان أو قذف وقد علم المظلوم بذلك ما يلي: ـ

أ ـ أن يبين خطأه في حق المظلوم عند كل من سمعه ينطق به ويصححه ويعلن توبته منه؟

ب ـ أن يبين للمظلوم خطأه في حقه على وجه التفصيل، أي ما قاله فيه حرفياً دون نقصان ويعلن توبته عنده ويطلب منه العفو والصفح؟

١ ـ على من ظلم أحداً في عرضه بغيبة أو نحوها أن يدرأ آثار هذا الاغتياب وهذا الظلم، سواءً علم المظلوم بذلك أو لم يعلم، وذلك بأن يبين للناس الذين سمعوا منه أن ما سمعوه ليس من الصحة في شيء وأنه كان إفكا، وأن عليهم أن يصححوا الصورة التي تصوروها خطأ عن المظلوم من جراء هذا الظلم، والله أعلم.

٢ ـ عليه أن يستبرئ المظلوم وأن يجعله في حل، وقيل: لا يلزمه ذلك إن لم يعلم به، وإنما يستغفر له إن كان من أهل الولاية، وإلّا دعا له بأن يوفقه الله للتوبة وحسن العمل، والله أعلم.

لقد سمعت أن أحداً إذا سرق حبة تمر فإن الله سبحانه وتعالى لن يعطيه ثواباً لمدة أربعين يوماً، حتى إذا تصدق بماله أو إذا صام شهراً كاملاً؟ هل هذا الكلام صحيح أم لا؟

إن تاب ورد المسروق إلى أهله تقبل الله منه أعماله وتاب عليه، والله أعلم.

إذا حَلَفَ رجلٌ حَلْفَ يمين غموس من أجل أخذ أموال الناس ظلماً ليس له حق فيها، هل يقبل الله صلاته وصيامه وحجه، وماذا عليه أن يفعل ؟

﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧]، فإن تاب واتقى ورد المظالم إلى أهلها قبل الله منه، وإلا فلا، والله أعلم.

ما قولكم عن رجل شـــهد شـــهادة زور وبعد فترة راجع نفسه لأنه شهد شهادة زور ؟

عليه التوبة إلى الله ﷻ، وعليه ضمان ما أتلفته شهادته من حقوق العباد، إلا إن أبرأوه مما لهم عليه من حق بسبب ذلك، والله أعلم.

امــرأة توفي ولدها وقــد حزنت عليه حزناً شــديداً، وأخــذت تزور قبره أســبوعياً، وامتنعت عن الطيب وعن لبس الثوب الجديد منذ وفاة ولدها حتى الآن، بل إنها امتنعت عن ذلك حتى في العيد الماضي وعقدت العزم على فعل الشيء نفســه في عيد الأضحى، هذا على الرغم من تدخل عدد من أفراد أســرتها بمن فيهم زوجها لمحاولة إقناعها بالعدول عن رأيها ـ لا ســيما أثناء العيد ـ، وبينوا لها عدم جواز ذلك وذكروا لها ما ورد في الأثر عن الصحابيات ـ رضوان الله عليهــن ـ من تطيبهن بعد مضي ثلاثة أيام من وفاة أقاربهن من غير أزواجهن لا رغبة في الطيب بل امتثالاً لأمر الله تعالى واتباعاً لهدي نبيه محمد ﷺ، إلا أنها وللأســف الشديد رفضت ذلك كله وضربت بكلامهم عرض الحائط واستمرت في عنادها.

فما قولكــم في كل ما فعلته هــذه المرأة، وماذا يجب علــى أقاربها أن يفعلوا تجاهها، لا سيما أفراد أسرتها وبشكل أخص زوجها ؟

هي على خطأ في ذلك، وتجب عليها التوبة منه، والله أعلم.

ما الحكم في رجل كان في صغره (أي قبل بلوغه سن التكليف) يدخل بيوت الناس دون إذن منهم، ودون علم منهم، فيأخذ ما راق له من الأدوات والأشياء والثمار وغيرها، ويتلف ويحطم ما راق له كذلك، وهو لا يعلم في ذلك أيّ حرمة إذ كان لا يعرف شيئاً من الأحكام الشرعية، ثم لما بلغ سن التكليف سلك طريق الاستقامة بعد الانحراف، وأراد أن يتوب إلى ربه من جميع ذنوبه، ولم يبق في حوزته شيء من تلك الأشياء التي أخذها من أولئك الناس، فكيف تكون توبته؟ وكيف يتخلص من تبعاته؟ أهو مطالب بالغرم وتعويض ما أخذه من أولئك الناس، أم أن حكمه يكون كحكم المستحل لأنه لم يأخذ ما أخذ حين أخذ إلا وهو لا يعرف شيئاً عن الحلال والحرام ولم يكن في سن التكليف؟

قال العلماء: إن على الصبي ضمان ما أكله في بطنه أو انتهكه بفرجه، وعليه فإن على هذا الرجل أن يتخلص إلى أصحاب هذه الحقوق مما أصابه في أموالهم إبان صباه، فإن جَهِلهم وجهل ورثتهم ـ إن كانوا قد ماتوا ـ فليتخلص بدفع ما لهم من الضمان إلى فقراء المسلمين، ففي ذلك مخلص له من المال الذي جهل ربه، وإن حاللهم فرضوا بذلك سقط عنه الضمان، وليس حكم ذلك كحكم الاستحلال[1]، لأن المستحل لا بد من أن يكون متأولاً[2]، والله أعلم.

كيف يتوب العبد إلى ربه؟ وما شُرُوط التوبة حتى تقبَل عند الله تعالى؟

إنَّ مِن فَضل الله تعالى على عِباده أنَّه لَم يَجعل الصِّلَة بينه وبينهم تنقطِع بِمُجرَّد وُقُوع الإنسان في الزلَّة، بل لِهَذا الإنسان طريقٌ يرجِع من خلالِها إلى

(١) هو اعتقاد أن ما يفعله حلٌ له.

(٢) المتأول: هو من تمسك بدليل على فعله وإن كان ذلك الدليل لا يصح.

ربَّه سبحانه، وذلك عندما يُراجِع نفسه ويثُوب إلى رُشدِه، ويَلومُ نَفْسَه على ما قَارفَت وارْتَكَبت، وتلك هي طريق التَّوبة النَّصُوح التي جُعلت طُهْرَة للمُذنِبين مِمَّا وَقعُوا فيه مِن الآثام، والحق ـ سبحانه ـ بَيّن أنَّ المعاصِي كُلَّها تُغفر بِهذه التوبة، وقد دَعَا عباده إليها وحثَّهُم عليها، ورغَّبَهم فيها، وبيَّن سبحانه أنَّه لا يَحُول بينهم وبين وُقُوعهم في أيِّ معصية كانت، وذلك أنَّه ـ تعالى ـ قال: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٨].

فَهُنا يَدعو الله سبحانه عِباده إلى أن يُقلِعوا عن المعاصي مَهما كانت هذه المعاصي، فإنَّها ولو كَبُرت وعَظُمت فالله ـ تعالى ـ أعظم منها وأجلُّ وأكبر.

عَظِيــم الذَّنب يَغفِـرُه العظيم ... ويَحلُـمُ عــن مُنَاوِئِـه الحليم

فالله أعظم مِن كل عظيم، ولذلك لا يعظُمُ عنـده ذنب أن يَغفِره إذا جاء صاحبه تائبا إلى ربه سبحانه، والله أعلم.

ولكن كيف تكون هذه التَّوبة؟ ومتَى تكون؟

إنَّ العبـد يُؤمر أن يتوب إلـى الله توبةً عاجلـة، لأنَّ للمعصية أثرا على النفس الإنسـانية، وهذا الأثر خطيـرٌ جدا، وقد دَلَّ عليـه حديث أبي هريرة الذي رواه الإمام أحمد وأصحاب السُّنَن وغيرهم مِن طريقه عن النبي ﷺ أنَّه قال: «إنَّ العَبـد إذا أذْنَب الذَّنب نُكِتَـت في قَلْبِه نُكْتَةٌ سـوداء، فإنْ هو نَزَع

وتاب واستغفر صُقِل، وإنْ هو عاد عَادَت حتى تَملأ قلبه فذلكم الرَّان» ثم تلا قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] فالرَّأن هو أثر المعصية الذي يُغَطِّي على القلب حتى يَطْمِسَ نُوره، ويُكَدِّر صَفْوه، ويُحوِّل بَياضه إلى سواد، وضياءه إلى ظُلمة، وأثر هذا الرَّأن أثرٌ خطيرٌ جدا، ومِن هنا نَجِد أنَّ الله ـ تعالى ـ يُبيِّن أنَّ توبته إنَّما هي للذين يتعجَّلُونَها لا للذين يُصِرُّون على ما هم عليه ويُسَوِّفون التوبة مِن حال إلى حال، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧].

فالله جعل التوبة هُنا كأنَّما هي حق واجب عليه ـ سبحانه ـ مع أنَّه ـ تعالى ـ لا يَجب عليه شيء، ولكن بِما أنَّ وَعدَه مُنْجَز وأنَّه تعالى وَعَد قبُول هذه التوبة صار ذلك بِمَثَابَة حُكْمِ الحق الذي لا بُد مِن الوفاء به، وبيَّن تعالى أنَّ هذه التَّوبة للذين يعملون السوء فَذكَر السوء بِصِيغة الإفراد ثم قَيَّد عَمَل هذا السُّوء بِقَوله: ﴿ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ [النساء: ١٧] ومعنَى ذلك أنَّ الإنسان يأتي هذا السوء وهو ليس مُعَانِدا لربِّه، ومُكابِرا له، ومُتحدِّيا له، فإنَّ من يتحدَّ الله يَخْذُلْه الله سبحانه، فباب التَّوبة وإن كان مفتوحا للجميع إلا أن التحدِّي يؤدِّي بالعبد إلى الخذلان ـ والعياذ بالله ـ إلا قليلا مِمَّن كَتب الله لَهم النجاة بعد الوقوع في هذه الورطة العظيمة، ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧] فهؤلاء الذين يتوب الله عليهم يأتُون السوء بِجَهالة، ثم بعد ذلك يتُوبُون مِن قريب بِحيث لا يستمِرون على ارتكاب المعصية.

والمعصية إن اسْتَحْكَمَت في نفس صاحبها تَحكَّمَت في هَوَاه، وصرَّفَت إرادته، ومَلَكت عليه أمره، وكان أسيرها ـ والعياذ بالله ـ، واسْتِئْسَارُ الإنسان للمعصية يؤدِّي به إلى مَخاطر كثيرة، على أنَّ قلب الإنسان مَثَلُه كَمَثَل الثَّوب، فالثَّوب يتأثَّر بأيِّ دَنَسٍ مِن الأَدْنَاس ولكن إن تعجَّل صاحِبُه بِتَنظيفِه

زَالَ أَثرُ ذلك الدَّنس، وإن تَركه مُهْمَلا وتَرَاكَمَت عليه هذه الأَدْنَاس صَار من الصعب جدا أن تزُول آثارها عنه، ومَثَلُ قلب الإنسان ـ أيضاً ـ كَمَثل المرآة، فعندما تَصْدَأ وتُهمَل يَتَراكم عليها الصَّدَأ، ويكون مِن الصعب أن يُزال أثر هذا الصدأ، فلذلك كان الذي يتعجَّل تنظيف نفسه وتصْفِية مِرْآة قلْبِه بالتَّوبة النَّصوح حَرِيّا بأن يُوَفِّقه الله ـ تعالى ـ وأن يتوب عليه، وأن يُصلِح شأنه، وأن يُبْدِلَه بالمعصية توبة، وبالفجور بِرّا، وبالخذلان توفيقا.

أمَّا الذي يُخْلِد إلى هواه، ويُصِر على معصيته، فهو ينطبق عليه ما في الآية الثانية وهي قوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [النساء: ١٨] فإنَّ السيئات هنا ذُكِرت بِصِيغَة الجمع لا بِصِيغَة الإفْرَاد بِخِلاف السوء في الآية السابقة؛ لأنَّ هذه السيئات تَتَراكم على نفس الإنسان سيئة بعد سيئة، وتتراكم آثارها فَتَطْمِسُ نور القلب، وتَأْسِرُ هواه حتى يكون الإنسان متصرفاً بِمُوجِب ما تُمْلِيه عليه هذه السيئات ويُمْلِيه شيطانُها.

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨] فالتوبة ليست لأولئك الذين يُسَوِّفُون مِن حال إلى حال، ويُصِرُّون على المعصية، حتى إذا حَضَر أحدهم الموت حَاول أن يتخلَّص وأنَّى له ذلك والله قد فتح له باب التوبة فيما مضى ولكنه أعرض ونأى بجانبه؟ فإذا حَضَر الموت كانت التوبة عندئذ توبة مَغلوبٍ على أمره غير مُختار، والتوبة إنَّما هي توبة مَن يستطيع أن يُصِرَّ على المعصية، ولكنَّه يُؤْثِر رضا الله ـ تعالى ـ على هَوَى نفسه، فيتراجع عن هذا الهوى، ويعُود إلى رُشْدِه، ويَسْتَمْسِك بِحَبْل ربِّه، ويستمر على تقوى الله، ثم أتبع قوله:

﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

كلمة «كفار» هُنا ـ كما حقَّقها المفسّر الكبير السيد محمد رشيد رضا في تفسيره الـمَنَار ـ هي بِمَعنَى كُفْرِ النعمة لِتَشْمَل المصرِّين على المعاصي مِن الطائفتَيْنِ جَميعا، طائفة الكُفار كُفرا مِلّيّا والكفار كفر نِعمة، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٨].

فمِن هنا كان من الضرورة بِمكان أن يُسارِع الإنسان إلى التَّوبة.

وحقيقة التوبة تَرْتَكِز على أربعة أركان: ـ

أَوَّلُها الندم، فإنَّ الندم هو أساس التوبة فإن مَن لَم يندم لَم يتب، والنَّدَم هو أنْ يَتَمَنَّى الإنسان أَنْ لَوْ استقبل مِن أمره ما اسْتَدْبَر حتى لا يَقع في تلك المعصية التي وقع فيها، ويَتمنَّىٰ أن لو أَمْكَنه بأيِّ وجه من الوجوه أن يتفَادَى ما وقع منه من المعصية، ولكن بِما أنَّ ذلك أمر فَات ولا يُمكِنه تَفَادِيه، فإنه يحرص على تفاديه في المستقبل ويندم عليه نَدَما شديدا.

ثانيها الإقلاع عن المعصية، فمَن كان مُصِرا على معصيتِه ليس هو مِن التائبين قط، والله ـ تعالى ـ وَصَف المتقين بِقَولِه: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ثالثها هو أن يكون في قَرَارة نفسه عازماً على ألا يعُودَ إلى معصيته التي ارتكبها كما لا تَعود الأَلْبَان إلى ضُرُوعِهَا، بِحيث ينوي أنَّه تائب إلى ربه توبة نصوحا، وأنَّه مُقْلِعٌ عن كل معصية وَقَعت منه، مع عزمه على عدم العودة إلى شيء مِن هذه المعاصي.

رابعها هو الاستغفار، والاستغفار وإنْ قال مَن قال مِن أهل العلم بأنَّه لا يلزم فإنَّ الآيات القرآنية صريحة في وجوبه، فالله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [نوح: ١٠ ـ ١١] وهذه وإن كانت دعوة مِن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَومه إلا أنَّ مِثلَ هذه الأمور لا تَختلف فيها

شرائع الأنبياء، فلا يُمكن أن يُقَال فيها بأنَّها منسوخة، إذ إن مَا كان مِن علاقة بين العبد وربِّه لا تأتي الشرائع لِتَنْسَخ شيئا منه،، وكذلك حكى الله ـ تعالى ـ مِثْل ذلك عن هود وصالح وشعيب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ونَجد ذلك أيضاً فيما يَذْكُره الله ـ تعالى ـ من أمر التوبة في عهد النبي ﷺ حيث قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] فالله ـ تعالى ـ نَاطَ التوبة والرحْمَة بالاستغفار، بل أمر به وتوعد على تركه في قوله:

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

وكذلك الحديث الشريف دَلَّ ـ أيضاً ـ على الاستغفار، وذلك في قوله ﷺ «...فإنْ هو نَزَع وتاب واستغفر صُقِلَ قلبه...»[١]، فإن صَقْلُ القلب مَنُوطٌ بالتوبة والاستغفار، ونَجد في الحديث عن النبي ﷺ أنَّه يقول: «إنَّه لَيُغانُ على قلبِي فأستغفِرِ الله في اليوم مِئة مرة»[٢] وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُحْصُون عليه استغفاره في الجلسة الواحِدة نَحو سبعين مرة أو نَحو مئة مرة[٣]، وإذا كان الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ وقد غفر الله له ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر يَحرِص على الاستغفار إلى هذا الحدّ فكَيف بأمثالنا؟! مَا بَالُنَا لا نستغفر الله ـ تعالى ـ مِن خَطَايَانَا؟! على أنَّ الاستغفار طَلَب المغفرة وطَلَب المغفرة هو دَاخِل في صَمِيم التَّوبة؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

(١) رواه أحمد (٧٦١١) وابن ماجه (٤٢٣٤).
(٢) رواه مسلم (٤٨٧٠).
(٣) رواه الترمذي (٣٣٥٦) وأبو داود (١٢٥٩).

ما حكم مَن عَصَى الله ـ تعالى ـ بِجَهالة، أي أنَّه لا يعلم أنَّ فِعله هذا حرام أو لا يَعلم أنَّ فِعله يترتَّب عليه مِن الأحكام كذا وكذا، والآن عَلِمَ ذلك وأراد التوبة بعد النَّدَم؟

نعم تَجب التوبة على مَن وقع في مَحَارِمِ الله سواء كان ذلك بِعلمٍ أو كان بِجهل، إذ الجهل ليس عُذرا للجاهل، ولو كان الجهل عُذرا لصاحبه لَكَان أَوْلَى بالتكريم مِن العِلم، لأنَّه مَنَاطُ السلامة ومَعْقِدُ النجاة، ولكن أبَى الله ـ تعالى ـ ذلك، والله قد أرسل رُسُله وأنزل كُتُبه لِيَهلك من هَلَك عن بَيِّنَة، ويَحيَا من حَيِيَ عن بَيِّنَة، والإنسان مأمور أن لا يُقْدِم على شيء إلا بِبَيِّنة مِن أمره وبصيرة من ربِّه، حتى يكون في طريق السلامة ويتجنَّب الوقوع في المهَاوِي والمزَالِق، وقَد قَال ـ تعالى ـ في هذا: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] ولذلك يَجب على الإنسان أن يتَعلَّم حُكم الشيء الذي لا يعرف حُكْمَه قبل أن يُقْدِم عليه لِئَلا يتوَرَّط، ومَن وقع في شيءٍ من مَحارم الله ـ سبحانه ـ فإنَّ عليه التوبة مِن ذلك.

فإن كان ما وقع فيه أمراً خاصاً بينه وبين ربِّه فإنَّ عليه التوبة فقط وهي تَمحُو الخطايا، ومَن تاب مِن معصية بَيْنَه وبين ربِّه كان كَمَن لا ذنب له كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام الربيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي عبيدة قال: سَمعت جَماعة مِن الصحابة يروُون عن النبي ﷺ أنَّه قال: «الذَّنب ذنبان: ذنب بين العبد ورَبِّه، وذنب بين العبد وصاحِبِه، فالذنب الذي بين العبد وربِّه مَن تاب منه كان كَمَن لا ذنب له، والذنب الذي بين العبد وصاحِبِه لا توبة مِنه حتى يرُدَّ المظالِم»[1]، إلا أنَّ هنالك حقوقا ـ أيضاً ـ فيما بينه وبين الله قد تكون واجِبة، منها الكفارات فلا بد مِن أدائها، لأنَّ مِنها ما نَصَّ عليه القرآن الكريم،

(١) رواه الربيع (٦٩١).

ومنها ما نصَّ عليه حديث الرسـول ﷺ، فَلَو حَنِثَ في يَمِينـه أو وَقَع فيما يُوجِب الكفارة المغلَّظة، كأن يُجامع في حال صيامه أو يفطِر بأكل أو شرب في حال صيـام رمضان عَمدا مِن غير عذرٍ شـرعِي، ففي هـذه الحالة عليه الكفارة بِنَصِّ حديث الرسـول ﷺ، وكذلك نَجد ـ أيضاً ـ أنَّ على الـمُظَاهِر وقاتل الخطأ كَفارة بِنَصِّ القرآن الكريم، والكفارة لا بُد منها لأنَّها أمرٌ فَرَضَه الله، وكذلك لا بد له مِن قضاء صَوْمِه وقضاء مـا ضَيَّع مِن فُرُوضِه، أمَّا فِيما عَدَا ذلك فإنَّ توبتَه بينه وبين ربِّه تَمحو خطيئته، فلا يبقى لِهذه الخطيئة أثر بِحيث يكون كأنَّه لَم يقع في معصية قط.

أمَّا إن كانت هنالك حقوقٌ للعباد، فإنَّ هذه الحقوق لا بُدَّ مِن الوفاء بِهَا، فإن كان هذا التائب سَـرَق مِن أحدٍ مِن الناس مَالَه، أو اغتَصَبَهُ، أو وَقَع في معصيةٍ أَدَّت إلى انتهاك عِـرْض، فلا بُدَّ مِن أداء الحق إلـى صاحِبِه، إلا إن تَنَازَل له صاحِب الحق عن حقِّه، فهنا يكون ذلـك عَفْوا منه، والله ـ تعالى ـ يتَقَبَّل منه، والله أعلم.

كيف يفعل الإنسان اذا نسي العهد الذي بينه وبين ربه فوقع في الذنوب والمعاصي ؟

النسيان غير بِدْعٍ بالنسبة إلى الإنسان؛ لأنَّ آدم نسي، ولقد أجاد مَن قال:

فإنْ نَسِـيتُ عُهودا مِنكَ سَالِفَة فاغْفِـر فأوَّل نَـاسٍ أَوَّل النَّاس

فأوَّل نَاسٍ هـو آدم الذي هو أوَّل الناس، والله بيَّـن الفرق ما بين منهج المتقين ومنهـج غيرهم، فَمَنهج المتقين هو منهـج التَّراجُع والادكَار، إذ الله ـ تعالى ـ يقـول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فالمتقي إذا مسّه طائف مِن الشيطان سواءً اسْتزَلَّه حتى أخرجَه عن سـواءِ الصراط، أو أنَّه كان في مُحاوَلته لإخراجه عن سَواءِ

الصراط، يتذَّكِــر فيَرجع مِن أوَّل الأمر، أو يرجِع بعدما ينحرِف شــيئا قليلا، ويثُوبُ إلى رُشْدِه.

إلا أنَّ هنالك فرقا ما بين الإصرار وما بيــن الادكار والتوبة، فالمصِرُّون إنَّما يقْتَدُون بِإبليس لَعَنه الله، فإبليس هو إمــام المصرِّين، لأنَّه أَصَر على ما انْطَوَى عليه مِن خُبث وسُــوء سريرة وسوء نِيَّة، فلذلك استحقَّ اللَّعنة والطرد مِن عند الله، بينما الذين يتوبون إلى الله ويتراجعون هم يَقتَدُون بِصَفِيِّ الله آدم الذي هو إمام التائبين، لأنَّ آدم أوَّل مَن تاب، فآدم وحوَّاء عليهما السلام قالا:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]

فاعترفا بِخَطِيئَتهما وذَنْبِهما، وطلبَا مِن الله ـ تعالى ـ العفو، ونِعمة الله ـ تعالى ـ على عباده وفَضْلُه الواســع يَقْتَضِيــان أن يعفُوَ عنهم، لأنَّــه عَفُوٌّ كريم يُحب العفو، فلذلــك يعفو عن التائبين، وهكذا شَــأن الإنســان الذي يَخشــى الله ـ تعالى ـ عندما تَــزِلُّ قَدَمه، وينحرِف عن الجادَّة ســرعان ما يَتَراجع ويرجع إلى منهج الحق، وهذا يعنِي أنَّ باب التوبة مفتوح ولا يُســد إلا عندما تكون التوبة توبــة اضطرار، وذلك فــي موضعين: الموضع الأول في حَالِ شُــعُور الإنســان بانتهاء أَمَدِهِ في هذه الحياة، وقِيَام قيامَتِه، وذلك بِوُصول رُوحه إلى الحلقوم، ففي ذلك الوقت لا يُنَفَّس للإنسان في التوبة، قال الله تعالى:

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨] والموضــع الثانِــي أن تقُــوم قِيامة الدنيا ويرَى الإنســان علامات انتهائها، وذلك إنَّما يتحقَّق بِتَبَدُّل نِظام هذا الكون، فالشمس عادتها أن تطلع مِن المشرق، وتغرب في جهة الغرب، فإذا انقلب الأمر فطلعت من جهة المغرب أُغْلِق باب التوبة، لأنَّ هــذا الأمر يدُلُّ على انتهاء الدنيا، فتوبة التائبين في ذلك الوقت إنَّما هي توبة اضطرار وليست توبة اختيار.

ولأجل هذا كله يُؤْمَر الإنسان أن يُسارع إلى التوبة في جَميع أحواله، وأن يُجَدِّد لِكُل معصية توبة، السِّر بالسِّر، والعلانية بالعلانية، لأنَّ الإنسان عندما يَزِلُّ وينحرِف عن الحق لا بُد من أن يُنْزَل منْزِلَته التي أنزل نفسه فيها، وَرَفْعه عن هذه المنْزِلة إنَّما يكون بِرُجوعه إلى الله، فلذلك كان لِزَاما عليه أن يُعْلِن هذه التوبة إن كانت معصيته بارِزَة ظاهرة حتى يُرْفَع عن المنْزِلة التي أنزل نفسه فيها، وهي منزلة الخِسَّة والدَّناءة بِحيث يكون في عداد الفُساق العصاة الخارجين عن أمر الله، والله أعلم.

هل الله يغفِر كل الذنوب عندما يَتُوب إليه عبده؟

نعم هذا مِمَّا نَصَّ عليه الحق ـ تعالى ـ إذ قَال: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] فهذا النَّص الصريح من الله ـ تعالى ـ يدل على أنَّ الذنوب كُلها يغفرها الله ـ تعالى ـ للتائبين، فكيف نُضَيِّق ما وسَّعه الله؟! إنَّ الله ـ تعالى ـ هو التواب الرحيم وحِلمُه وفضله وكَرَمه كُلٌّ مِن ذلك يقتضي أن يكون سبحانه غفورا لِكل ذنب عندما يتوب إليه التائب، والله أعلم.

هل يَجوز أن يَحلِف الإنسان على التوبة.. يقول: «أقسم بالله أنَّني أتوب عن كذا»؟

التوبة لا تَحتاج إلى تأكيد بِقَسَم، لأنَّ التوبة إنشاء والإنشاء لا يحتاج إلى تأكيد إنما الذي يَحتاج إلى تأكيدٍ هو الخبر، فالعبد عِندما يتوب يُنْشِئ التوبة، ولا يُخْبِر عنها، إذ قول الإنسان: «أستغفر الله ـ تعالى ـ وأتوب إليه» ليس هُوَ إخبارا عن طَلَبه المغفرة وعن توبته، وإنَّما هو إنشاء لِهذا الطلب نفسه، وإنشاء لِهذه التوبة، ولكن لو وَقع ذلك لا يُقَال بأنَّه عصى بِهَذا القسم، والله أعلم.

رجل أراد أن يتوب إلى الله مِن معصيتِه، فهل يلزَمُه أن يذهب إلى عالِم مُعيَّن ليتُوب أمامه أو لِيُلَقِّنَه التوبة ؟

لا كَهَنُوتيَّة في الإسلام، إنَّما الإسلام يفتح الباب بين العبد وربِّه مِن غير أن يكون هنالك واسطة مِن الخلق، فليس هنالك واسطة بين الله ـ تعالى ـ وبيْن عباده إن أرادوا التوبة، وإنَّما يُؤمَر الإنسان أن يُعْلِن توبَتَه إن كان أعْلَنَ معصِيته، أمَّا إن كان اسْتَتَر بِسِتْرِ الله، وارتكَب مَعصِيتَه من غير أن يطَّلِع عليها الناس، فكذلك تكون توبَتُه ـ أيضاً ـ سِرا بينه وبين ربِّه، ولذلك جاء في الرواية: «أَحْدِث لِكُل معصية توبة السِّر بالسِّر والعلانيَّة بالعلانيَّة»[1]، والنبي يقول: «مَن أصاب شيئا مِن هذه القاذورات فَلْيَسْتَتِر بِسِتر الله فإنَّ من يُبْدِ لَنا صفحتَه نُقِم عليه كتاب الله»[2]؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

قال الله تعالى ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ [الرعد: ٢٢]، وقال الرسول: «وأَتْبِع السيئة الحسنة»[3]، وقال ﷺ: «مَن قال إثر صلاته: «سبحان الله والحمد لله» حُطَّت خطَايَاه وإن كانت مثل زَبَدِ البحر»[4] في ضوء هذه الآية وآيات أخرى وهذه الأحاديث ما الفرق بين المعصية والسيئة والذَّنب والخطيئة والإثْم ؟

الإثْم والذنب والخطيئة والمعصية والسيئة كَلِمات متقاربة، السيئة سُمِّيت سيِّئة، لأنَّها تَسُوء صاحبها عندما يلقَى جزاءها، وهي ـ أيضاً ـ تَسُوؤُه إن تَاب إلى الله ـ تعالى ـ واستغفَره، لأنَّه يُحس بالندم تِجاهها، وأمَّا كَوْنُهَا خطيئة

(١) المعجم الكبير (٣٧٤).
(٢) رواه الحاكم (٨/٣٣٠).
(٣) رواه الترمذي (١٩١٠).
(٤) رواه الربيع (٥٠٧).

فلأنَّها خطأ، ولا يعنِي هذا أنَّها لا تكــون عَمْدا، وإنما الخطأ هو الخروج عن نَهجِ الصَّواب، وتُسمى المعصية خِطأ، وهذا هو الشائع فيها، وهي معصية لأنَّ فاعلهـا خالَف أمر ربه، فَعَصَاه فيمـا أمره بِهِ مِن طاعته، وفيمـا نَهَاهُ عنه من معصيتــه، بِحيث ترك الطاعة وارتكــب المعصية، فكان بذلــك عاصِيا لِربِّه، وسُــمِّي الإِثْم إثْما والذنب ذنبا لِما يترتَّب على ذلك مِن اســتحقاق العِقَاب، وكُلٌّ مِن ذلك يُطْلَق على الصغير، ويُطْلَق على الكبير، فالسيئَة قد تُطلَق على الصغيرة عندما تكون هنالك قرينة تدُلُّ على هذا، ومن ذلك قوله:

﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾ [النساء: ٣١]، فقولــه: ﴿ نُكَفِّرۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾ [النساء: ٣١] يعنــي الصَّغَائِــر؛ لأنَّ ذلك مَشْــرُوطٌ باجتنــاب الكبائر، فهذه الســيئة هنا إنَّما هي الصغيرة، وكذلك الخطايا المشَــارُ إليها في الحديث إنَّما هي الصغائر، وقد تُطْلَق السيئَة على الكبِيرة كما في قول الله تبارك وتعالى:

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨١]...

وكذلك قــول الله: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٩ - ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [القصص: ٨٤]، وقولــه: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ففي كل هذه الآيات السيئة هنا بِمَعنى الذنب الكبير.

وكذلك نَجد ما يدُل على أنَّ المعصية تُطلَق ـ أيضاً ـ على الذَّنب الكبير، كما في قــول الله تعالــى: ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ

أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣]، وكذلك قوله: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: ١٤]، إلى غير ذلك من الأدِلة الكثيرة، وهذا يعنِي أنَّ القرائِن هي التي تُشخِّص المراد، هل المراد بالمعصية الذَّنب الكبير؛ أو المراد بها الذَّنب الصغير؟

ولا مُشَاحَّةَ في الاصطلاح، ولذلك فإنَّ الإنسان إنْ وَجَد آية أو حديثا فيه إطْلاق شيءٍ من هذه الألفاظ على معنَى عليه أن لا يكون مُسْتَدِلا بذلك في سائر الأدِلَّة على إطلاق نفس هذا اللَّفظ فيها على نفس المعنَى الذي هو في الآية التي استدَلَّ بِهَا؛ لأنَّ القرائن هي التي تُشخِّص المراد في كل موضع والله ـ تعالى ـ أعلم.

رَجُل تاب إلى الله ثم أراد أن يرجع المظالم إلى أهلها، لكنه وجد أحد الذين يُؤدي إليهم مظالمهم قد توفي، فماذا يصنع في هذه الحالة؟

الحق ينتقل إلى الورثة، فبِموت مَن لـه الحق يَنتقل حَقه إلى ورثته؛ لأنَّ حُكمه أي ذلك الحق حُكم التركة، فعليه أنْ يُسلم إليهم ما كان لموروثهم، أمَّا إنْ تَعذر عليه الوصول إلى وَرثته بأن كانُوا غَير مَعروفين، ولَم يُمكن إيصال ذلك الحق إليهم بسبب جهلهم، فإنَّ ذلك يصبح مالا مَجهولا ربه، وكل مال جُهل ربه ففقراء المسلمين أولى به؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

هناك مَن يُهوِّن مِن ظاهرة رُجوع المسلمين بعد قضاء رمضان الكريم إلى المنكرات والمفاسد ويُؤكد بأنَّها ظاهرة طبيعية لا تُثير القلق ويقول هذا الرجل بأن هناك نصوصا نبوية تدفع الناس إلى ـ مثل ـ هذا السلوك فالنبي ﷺ يقول: «إنْ لَم تُذنبوا لأتى الله بقوم يذنبون ثم

يتوبون ثم يغفر لهم»[(١)]، فهل هـــذا الحديث صحيح وهل هذا الكلام مِن الصحة بِمكان؟

هذا الحديث ليس فيه تَشــجيع قَط على إتيان المعصية، وإنَّما هو دليل على أنَّ الحق ســبحانه يَقبل تَوبة التَّائبين، فهو يحثنا علــى عدم اليَأس مِن رحمة الله، بل يتقي المؤمن دائما مُتشــبثا بأذيال فضل الله ـ سبحانه ـ راجيا رحمته مع خشــيته مِن عذابه؛ وليس معنى ذلك أن يكون الإنســان مُطمئناً لا يَخشــى عذاب الله فإنه مَهما فعل مِن برّ وفعل مِن إحسان عليه أن يكون خائفاً مِن الله، وبدون الخوف مِن الله لا يستقيم عَمل الإنسان قط، فالله تعالى يقــول: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠]، ويقــول ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [قٓ: ٤٥].

ويقول تبارك وتعالــى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يسٓ: ٦ - ١١]، فخشية الله تعالى لا بد منها، كما أنَّ الرجاء لا بد مِنه، ولا بد ـ أيضاً ـ للإنسان مِن أن يُوازن بين الخوف والرجاء.

وليس معنى هذا أن يَسترسل في المعصية بل يؤمر أن يخشى الله تعالى وهو يُؤدي طاعــة الله فضلاً عن تجنبــه مَعصية الله كيــف والله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، فهم يفعلون ما يفعلون مِن الخير، ويدفعون مــا يدفعون مِن الفضل، ويقدمون ما يقدمون مِن الأعمال الصالحة ولَكنَّهم مع ذلك قُلوبُهم وجلة أنَّهم إلى رَبِّهم راجعون،

(١) رواه مسلم (٤٩٣٦).

ولذلك عندما سألت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول الله ﷺ عن المؤمن أَيَخشى الله عندما يأتي المعصية؟ أَجابَها بأنَّه يَخشى الله وهو يأتي الطاعة بدليل هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

هَذا ولا ريب أنَّ صيام شهر رمضان إنَّما شُرع مِن أجل التقوى فالله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] أي لتتقوا. فالغاية مِن الصيام إنَّما هي تقوى الله، كما أنَّها الغاية مِن أي عبادة مِن العبادات، وهذه الغاية لا تتحقق للإنسان إلا عندما يُؤدي الصيام على النَّحو الشرعي، ذلك لأنَّ الصيام الشرعي يُعود الإنسان الانضباط في حركاته وسَكناته وأعماله وخَواطر نفسه وجميع تصرفاته وحركات جسمه، والنبي ﷺ يقول كما جاء في مُسند الإمام الربيع مِن رواية ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ولا صوم إلا بالكف عن مَحارم الله»[(١)]، وكذلك جاء في الصحيحين مِن رِواية أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ قال: «مَن لَم يدع قول الزُّور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[(٢)]، وهذا الكلام خَرج مَخرج التهديد لأولئك الذين ليس لهم نصيب مِن صيامهم إلا أن يدعوا الطعام والشراب وهم مع ذلك يقعون في معاصي الله غير مُتحرجين ولا مُبالين، فالإنسان إذاً يتعود في الشهر الكريم على الانضباط بأوامر الله ويحرص على المسارعة إلى طاعة الله وإلى تَوَقِّي مَعصيته سبحانه بحيث يتجنب الوقوع في أي مَعصية مِن المعاصي، وعندما يفرّط في هذه المكاسب بعدما ينتهي الشهر الكريم بحيث يَرتَمي في حِضن الشيطان الرجيم مُسترسلاً في مَعصية الحق سبحانه، مُتابعاً لهوى نفسه، مُعرضاً عن التذكير الذي جاء

(١) رواه الربيع (٩١).
(٢) رواه البخاري (١٧٧٠).

في كتاب الله وجاء في سُنَّة رسول الله ﷺ يكون في عمله خاسرا، وأي خسران أعظم مِن هذا الخسران حيث حرص على الصيام على النَّحو الشرعي في شهر رمضان ومع ذلك لَم يُحرز مَكاسب هذا الصيام حتى يكون في جميع عامه مُتقيداً بِقيود الحق مُنضبطاً بِضوابط الشرع.

ولا ريب أنَّ الإنسان تَقع مِنه الـهَفَوَات والزَّلات، ولكن مَن هو المؤمن التقي؟ نَحن نَجد أنَّ الله سبحانه وعد الجنَّة المتقين ولَم يَعدها الفجار.. فالله تعالى يقول: ﴿ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٠ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠-٣١]، ويقول:

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ويقول تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣].

والمتقون وصفوا بصفات بيّنها لنا كتاب الله فالله تعالى أخبرنا أنَّ التقوى عَقيدة في النَّفس تُسيطر وتُهيمن عليها، وتَتغلغل في أعماق مَشاعرها، ثم تنعكس هذه العقيدة في تَصرفات الإنسان وأعماله حتى تَكون هذه التصرفات والأعمال ترجمة لهذه العقيدة فالله تعالى يقول:

﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٢-٤]

ويقول سبحانه عندما ذكر البر: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ

وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]،

كذلك يقول الله تعالى:

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧]، ثم نجد أنَّ الله ـ تعالى يقول أيضاً:

﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٥]، فَهم وإنْ وَقعوا في المعصية يَتراجعون ويتوبون إلى الله ويَندمون على معصيتهم، كذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فهم سُرعان ما يَذّكرون ويَعودون إلى الله ويَنقلبون عن المعصية إلى الطاعة تَاركين الهفوات التي وقعوا فيها.

فشأن المتقي أن يكون حَريصاً على أن لا يسترسل في هواه، فلو وقع في مَعصية سُرعان ما يتوب إلى الله، ولا يَستلذ المعصية ويَستمرئها ويَستمر عليها إنَّما يتراجع عنها ويَرى أنَّ سَعادته في تَركها، والذي يَستمرئ المعصية ولا يُبالي بِها هو المصر على مَعصية الله تعالى.

فَوقوع المعصية مِن شأن الإنسان، وليس ذلك بِغَريب عليه لأنَّه جُبل على النسيان وعلى الضعف، وتيَّارات كثيرة تُؤثر عليه ولكنَّ الله مِن فضله

فَتح له باب التوبة، وهي لا تكون إلا بتراجع الإنسان ونَدمه على ما فرط، ولا يعني ذلك أن يستمرئ المعصية ويستمر عليها فإنَّ هذا مِما يَتنافى كُل التنافي مع ما يَتصف به المتقون، بل ذلك مِما يَتنافى مع الإيمان الذي هو رَكيزة التقوى، وهو رَكيزة النَّجاة فإنَّ الله تعالى قال في المؤمنين:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، فهؤلاء هم المؤمنون الذين تَوجل قُلوبُهم مِن هيبة الله تعالى ومِن خَشيته لا يُمكن أن يستمروا على مَعصيته، والله أعلم.

أَنا شخص لَم أكن مُهْتَماً بالدِّين كثيراً، فكنت أقوم بعبادتي على أساس التقليد دون التحري، وفي بعض الأحيان أهمل فيها، وأنا الآن أتثبت في أموري، وتبت إجمالاً عما بدا مني سابقاً ما علمته ومَا لَم أَعْلَمْه، سائلاً الشَّرع عما ارتبت فيه سابقاً، دائناً بالتوبة عما لَم أعلمه لو علمته، هل يكفي لي هذا أم يَجب عليّ أن أتتبع أبواب الفقه بِفُرُوعها لَعَلَّنِي أَلْتَقِي بِما اقترفته سابقا مع ما في ذلك من الصعوبة والحرج؟

هذه المعاصي إمَّا أن تكون فيها حقوق للبشر، وإمَّا أن تكون حقوقاً لله تبارك وتعالى، فمَا كان مِن حق الله ﷻ فإن الله أولى بالعفو، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام الربيع مِن طَرِيق أبي عبيدة أنَّه قال: سَمِعت ناساً من الصحابة يروون عن النبي ﷺ أنَّه قال: «الذَّنب ذنبان، ذَنْب بَين العَبد وَرَبِّه، وَذَنب بين العبد وصاحبه، فالذنب الذي بين العبد وَرَبِّه مَن تَاب مِنْه كان كمن لا ذنب له، والذنب الذي بين العبد وصاحبه فلا توبة منه حتى يَرُدَّ المظالم»[1]،

(١) رواه الربيع (٦٩١).

وما كان من حق للبشـــر فلا بد مِن أن يَسْـــأَل عنه حَتى يَتَخَلَّصَ من تبعته لئلا تكون هنالك مَظْلَمَة يَجْهَلُهَا، فــإن كان يَحفظ قَضِيَة بعينها ولا يعرف حُكم الله فيها فعليه أن يَتَثَبَّت مِن الحكم لَعَل عليه تبعة من ذلك.

وأيضاً فإن حقوق الله تعالى لا بد مِن أدَائها، فإنه إن كان قارف أموراً فإنَّه إن تاب منها تقبل الله توبَتَه، ولكن هنالك أمور لا بد مِن مُرَاعَاتِها منها أنَّه إن تَرَك الصيام فعليه قضاؤه مع الكفارة الواجبة، وكذلك إن تَرَك الصلاة فلا بد مِن القضـــاء، وكذلك إن كانـــت هنالك أيْمَـــان حنث فيها فلا بـــد مِن أداء كفاراتها، وَسَائر الكفارات الواجبة، والله ـ تعالى ـ أعلم.

أحكام التقية

شاب أسـلم وعمره خمس عشرة سـنة، والأبناء في هولندا لا يكتسبون حريتهم إلا بعد ثمانية عشر سـنة، والابن في هذه الحالة ـ أو الشاب ـ يواجه مشـكلة مع أهله، فعندما يريد أن يسمع القرآن الكريم يرفضون، وعندما يريد أن يأكل الحلال يرفضـون، ويؤكلونه لحم الخنزير، كيف يتعامل معهم في هذا العمر؟

عليه أن يتقي الله تعالى حســب اســتطاعته، وعلى المسلمين هنالك أن يوجــدوا له المأوى والكنف بقدر الاســتطاعة، ولا يكلفــون ما لا يطيقون، فعليه أن يَخرج في بعض الأحيان ـ ولا بد مِن أن يجد فرصة للخروج ـ إلى المراكز الإسلامية أو إلى جماعة المسلمين الموجودين هناك مِن أجل اللقاء بِهم والارتباط بِهم وتنفس هواء الحرية في كنفهم، والله تعالى يفتح له:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] والله أعلم.

إذا أكَّلوه لحم الخنزير رغما عنه؟

عليه أن يتجنب ذلك قدر استطاعته، وإن أكَّلوه فعليه أن يقيء إن قدر على ذلك، والله أعلم.

في بعض الأحيان المسلم في غير البلدان المسلمة قد يتعرَّض لضغوط مُعَيَّنَة ويُطلَب منه أن يتخَلَّى عن بعض مبادئه مُقَابِل أن يتحصَّل على شيء مادي أو خدمات معَيَّنَة، هنا هل يُعَد هذا مِن الإكراه؟

لا، هَذَا لا عبرة به لأنَّه مِن شأن المسلم أن يُوَطِّن نفسه لِجميع الشدائد والتحدِّيات، فإن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٣]، فلا بد للمؤمن أن يمر بِمراحل صعبة وَوَعْرَة، وقد مَرَّ بِها الرسول ﷺ ومَرَّ بِها النبِيُّون، ومر بِها الصالِحون من أوائل هذه الأمة، ولكن مع ذلك وَطَّنُوا أنفسهم للشدائد، وهذا مِما يدُل على أنّ المؤمن يَحرص على مبادئه ويتمَسَّك بِها، ويكون قابضاً على دينه ولو كان قَبْضُهُ على دينه صعباً عليه كقَبْضِهِ عَلَى الجمر، والله أعلم.

ما هو الإكراه الذي يُسمَح معه للمُسلم أن يتخَلَّى عن شيء من هذه المبادئ؟

هو أن يَخشى القتل أو نَحوه فإنَّه لَه أن يَتَكَلَّم بالكلام الذي يُرْضِي خصمه، أما الأفعال فمِن العلماء من يقول لا تَقِيَّة في الأفعال، ومنهم من يُبِيح التقية في الأفعال فيما لا يَضُر بالغير ولا يُؤَدي إلى هَدْمِ الأخلاق، فليس لامرأة ـ مثلاً ـ أن تَرْضَى إذا أُكْرِهَت على الزنى بِها بأن تُمَكِّنَ الزَّانِي من أن يَزْنِيَ بِها، كذلك إذا أُجْبِر أحد أن يقتل أحداً ليس له أن يقتله بِحال

مِن الأحوال، أما أَخْذُ مال الغير إن أُجْبِر على ذلك وإلا كان مُعرَّضاً للقتل ونَحوه ففي هذه الحالة أُبيح له أن يأخذ من مال الغير أو أن يُتْلِفَه على أن يَضْمَنَه مِن ماله، والله أعلم.

ما نصيحتكم للمسلمين الذين يتعرَّضُون لشيء من هذا الإكراه للتَخلِّي عن مبادئهم سواء كانوا رجالاً أو نساء؟ وما هي الطريقة المثلى التي يتعاملون بِها مع هذه الظروف؟

المسلم ـ كما قلتُ ـ شديد التمسك بالإسلام، لا يفرِّط في إسلامه مهما كانت الظروف ومهما كانت الصعوبات والتحدِّيات، والابتلاء مِن سُنَّة الله تعالى في خَلْقِه، والمؤمنون في سَالِفِ العصور مروا بظروف صعبة، ونَجد في كتاب الله تعالى ما يدُل على أن رسل الله تعالى الذين هم أرسخ الناس قدَماً في الإيمان وأقواهم عزيمة شَارَفُوا اليأس مِنْ هَوْلِ ما لَحِقَهُم، فالله ـ تعالى ـ يقول:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩ - ١١١]،

فهؤلاء الرُسُل مع رُسُوخ إيمانِهم وقوة عَزِيمَتِهم وشدة شَكِيمَتِهِم وصل بهم الأمر إلى أن شارِفوا اليأس لِهول ما لقَوا وعندئذ تداركتهم رحْمَة الله وأحاط بِهم لُطفه سبحانه وتَنَزَّلت عليهم أفضاله فنصرهم على عدوهم، وهكذا المؤمنون في كل وقت عندما تَشْتَد بِهم الشدائد وتضيق بهم الحلَقات

ويَجِدُون من أعدائهم ما يَجِـدُون من التحدِّيات فإن ذلك يُبشِّـر بأن يكون المنقلب إلى خير وسعادة ونصر وتأييد مِن قِبَل الله، والله أعلم.

هل الصلاة أو الزكاة ـ مثلاً ـ تتعرض لشيء من الخطر بسبب الخصومة؟

﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].. الله ـ تعالى ـ يتقبَّل مِن المتقِين، وهذا مِمَّا يتنافى مع التقوى، والله أعلم.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأَمر بالمعـروف والنَّهي عـن المنكر فريضة على كل مُسـلم، فما هو المقصود بالمعروف؟ وما هو المقصود بالمنكر؟

إنَّ الله ـ سـبحانه وتعالى ـ خلق الإنسان خلقاً سَويا، وشرّفه وفضّله على غيره تفضيلا، وكرّمه تكريـماً إذ مَنَّ عليه بِمـا لَم يَمُنَّ به على غيره، وجعله الله ـ سُبحانه ـ مَناط تكليفه.

وقد شُـرّف هذا الإنسـان بِهذه التكاليـف الربانية التي يَنُـوء بأوزارها ويتحمل تَبعاتِها، فـإنْ هو قام بواجبها كان ذلك سـبباً لسـعادته، وإن كان بِخلاف ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه.

فالله تعالى يقول: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إنَّ حمل هذه الأمانة أمر ليس هو بالأمر الـهَيِّن، والإنسـان بطبعه مَيَّال إلى رَاحة نفسه في حاضره ولو كان ذلك على حسـاب رَاحته في مُستقبله، وهو مَيّال إلى إيتَاءِ نفسـه رَغبَاتِها ولو كان ذلك على حساب سعادته، لذلك كان بِحاجة إلى أن يأمر بالمعروف ويأتَمر به، أي هو بحاجة إلى أن يُؤمر به

ويأمر به، وأن ينهى عن المنكر وأن ينتهي عنه. ومعنى ذلك أن يكون ناهياً عن المنكر وأن يكون هو نفسه منتهيا عنه سواء كان ذلك بسبب نهيه عنه من الغير أو بباعث خشيته من الله وتفكيره في عاقبة أمره.

فلذلك نَجد في كتاب الله ـ سبحانه ـ أنَّ الله ـ سبحانه ـ بَيَّن صفات أولئك الذين استثناهم مِن الخسران الذي حكم به على الجنس البشري عندما قال سبحانه: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ [العصر: ١ ـ ٣]، فالتواصي بالحق هو التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، وذلك مِمَّا يَشُدُّ المؤمن إلى المؤمن، فالمؤمنون والمؤمنات لا بد مِن أن يكون بينهم رباط وتواصل، وهذا التواصل لا يَتِم إلا مِن خلال التواصي بالحق الذي هو أمر بالمعروف ونَهي عن المنكر كما نَجد ذلك واضحاً في قوله تعالى:

﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٧١]، ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وليس معنى هذا أنَّ الـمُطالب بِهذا بعض الناس دُون بعض، وإنَّما الكل مُطالبون بذلك، فالمؤمنون والمؤمنات جَميعاً مُطالبون بأن يكونوا يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

فالمعروف معروف، والمنكر منكر، ذلك لأن المعروف تطمئن إليه النفس، ويسكن إليه القلب، فهو ما وافق حكم الله ـ تعالى ـ المُنزّل، ووافق سنة نبيه المرسل، وإنما سمي معروفا نظراً إلى هذه الطمأنينة التي تحصل

بفعله في نفس الفاعل وفي نفوس الآخرين عندما يرون غيرهم يفعله، فتعم ممارسته فئات الناس، فإن هذه الممارسة تفيض الطمأنينة على الجميع. بينما المنكر تأباه الفطر السليمة، وتنكره الطبائع المستقيمة، فلذلك كان منكراً بسبب هذا النكران له من قِبل الطبائع والفطر، فجدير به أن يُنكر على الناس، وأن لا يُقر فلذلك سمي منكراً.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للسلامة في الدنيا والسعادة في العقبى، والله ـ تعالى ـ المستعان.

إذا كان الأمر بالمعروف واجباً والنهي عن المنكر كذلك، فهل هما واجبان على الشخص التقي بحيث لا يصح للمرابي أن ينهى عن الربا وكذلك للزاني أن ينهى عن الزنا وكذلك لتارك الصلاة أن يأمر بالصلاة؟

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على الكل، سواءً كان الإنسان فاعلاً لما به يأمر وتاركاً لما عنه ينهى أو كان بعكس ذلك، إذ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كوجوب الصلاة والصيام والزكاة والحج وسائر العبادات، ولكن مع هذا كله فإن الإنسان يطالب بأن يكون هو بنفسه من أهل المعروف، فكيف يأمر بالمعروف من لم يكن من أهله؟! وكيف ينهى عن المنكر من كان متلبساً به؟!.

لذلك نجد في كتاب الله ﷻ النعي على أولئك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، فأمرهم إياهم بالبر إنما هو نصيحة، وأولى بالنصيحة نفس الإنسان، فمن لم ينصح نفسه كيف ينصح غيره، لذلك قال ﷻ خطاباً لبني إسرائيل: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]، وهذا التقريع ليس هو على الأمر بالبر وإنما هو على ترك الائتمار ونسيان هؤلاء أنفسهم مما يأمرون به غيرهم من الخير.

ومن المعلوم أن فعل الإنسان للخير مدعاة لائتمار الناس عندما يأمرهم بهذا الخير، وكذلك تركه للشر هو مدعاة لأن يترك الناس الشر عندما ينهاهم عنه، أما عندما يكون بخلاف ذلك فإن الواقع يكون عكس هذا، فأولئك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم إنما يجرون التهم لا إلى أنفسهم فحسب بل إلى نفس الأوامر التي يأمرون بها والنواهي التي ينهون عنها وإلى نفس المبادئ التي ترتبط بها هذه الأوامر والنواهي كما يقول بعض عمالقة الفكر الإسلامي: «إن الكلمة لتخرج ميتة وتصل هامدة مهما تكن طنّانة رنّانة إذا هي لم تخرج من قلب يؤمن بها، ولن يكون الإنسان مؤمناً بما يقول حتى يستحيل هو ترجمة حية لما يقول وتصويراً واقعياً لما ينطق، حينئذ تخرج الكلمة كلها دفعة حياة؛ لأنها تستمد قوتها من واقعها لا من طنينها، وجمالها من حقيقتها لا من بريقه».

ونحن نرى أن السلف الصالح استطاعوا أن يتغلبوا على الصعاب، وأن يتحدوا جميع المشكلات، وأن يتجاوزوا جميع العقبات عندما كانوا على هذا النحو. فالسلف الصالح عندما دعوا إلى الحق وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر لم تكن لهم وسائل إعلام كالوسائل الموجودة في وقتنا هذا، إذ لم تكن عندهم وسيلة بث مباشر أو غير مباشر، ولم تكن عندهم وسيلة اتصال عبر هاتف أو عبر شبكات المعلومات أو غيرها بالناس، وإنما كانت الكلمة وحدها تخرج من أعماق القلوب فتتغلغل في أعماق القلوب، ولا تقف حتى تحوّل الناس من واقع إلى واقع آخر بسبب عمق تأثيرها؛ لأن الذي قالها هو بنفسه متأثر بها، فعندما يقول الإنسان الحق ويعمل به يكون عمله أكثر دعوة إلى هذا الحق من قوله، ويكون لعمله تأثير أبلغ من التأثير الذي يكون لقوله، فلذلك كان جديراً بمن تحمل أمانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون هو مثالاً في الائتمار لما به يأمر وفي الانتهاء عما عنه ينهى.

هذا مع أن الذي يرتكب المنكرات ويترك العمل بالمعروف غير معذور بتركه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أنه غير معذور بفعله المنكر وتركه المعروف، بل هو مطالب بالفرضين جميعاً، مطالب بفرض أن يأتمر بالمعروف وأن يأمر به، ومطالب بفرض أن ينتهي عن المنكر وأن ينهى عنه، فهو مطالب بكلا الأمرين بالأمر والائتمار، وبالنهي والانتهاء، والله تعالى أعلم.

قد يكون هناك غموض عند البعض في تحديد مفهوم المنكر خاصة في المسائل الظنية أو في المسائل التي يكون فيها خلاف بين العلماء، فبعض العلماء يعدها منكراً والبعض يعدها أمراً مباحاً كاستخدام آلات اللهو أو الفنون في بعض الأحيان أو تغطية المرأة وجهها أو حتى قيادتها للسيارة، فهناك من يقوم بإنكار هذا المنكر بحيث يعتبره منكراً صارخاً، وهناك من لا يقوم بهذا، ففي هذه الحالة كيف يتصرف المسلم؟

يجب على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يرتّب الأولويات، فيُقدّم أولاً المُجمع عليه قبل المختلف فيه، وما كانت مفسدته أكبر على ما كانت مفسدته أصغر، ويُقدّم ما كانت مفسدته أعم على ما كانت مفسدته أخص.

فلا ريب أن الإنسان مطالب أن ينهى عن كل المنكرات، ولكن المنكرات تتفاوت بقدر تفاوت آثارها واختلاف أحوالها، وكذلك أيضاً المعروف يتفاوت، فالإنسان عندما يأتي إلى قوم لا يعرفون من أمر العقيدة شيئا، ولا يفرقون بين الحق والباطل، ولا يميزون بين الخرافة والحقيقة؛ يجب أولاً أن يصحح المفاهيم عندهم؛ لأن تصحيح المفاهيم هو الذي يؤدي إلى زوال غبش التصور، ويؤدي أيضاً إلى الاستقامة على الحق بعد

فهمه وإدراكــه، ولذلك كانت دعوات المرسـلين جميعاً تبــدأ ببيان توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قبل كل شــيء، فما من رسول من رســل الله عَزَّ وَجَلَّ إلا وكان داعياً إلى توحيد الله، كما يقول ـ سبحانه ـ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] فما من نبي أرســله الله إلا وكان داعياً إلى عبادة الله ـ تعالــى ـ واجتناب الطاغوت قبل كل شــيء، والنبي ﷺ إنما دعا قبل كل شيء إلى تصحيح العقيدة، فلما تبلورت واتضحت معالمها وظهرت للناس براهينها وتحطمت الحواجز النفســية التي كانت تحول دون الاقتناع بها أخذ يدعوهم شيئاً فشيئاً إلى جزئيات الدين وأسس الأخلاق والاستقامة على ما تقتضيه العقيدة في الفعل والترك، وهكذا تدرج بهم في مدارج الخير حتى قضى على كل ما كانوا متلبسين به من فساد، وهكذا يجب على الدعاة مراعــاة الأولويــات، فالداعيــة كالطبيب الــذي يعالج كبريــات العلل قبل صغرياتها.

ثم إن المســائل المختلف فيها أيضاً تتفاوت فــي ترتيب أولوياتها؛ لأن الأقوال تتفاوت قوة وضعفــا ورجحاناً وخفة، فبعض الأقــوال تدعمها أدلة واضحة قوية، فما كان مدعوماً بالدليل هو مما ينبغي أن يُعول عليه أكثر مما كان غيــر مدعوم بالدليل، إذ الأقــوال وإن جلت منزلــة قائلها لا تتعدى أن تكون دعاوى فاقــدة للبينات إن لم تعضدها الأدلــة، فهكذا يجب أن يكون التركيز على ما دل عليه الدليل قبل أن يكون التركيز على أشــياء جانبية لم يتبين دليلها. ثم الأدلة أيضاً تتفاوت، فمــا كان دليله قطعياً يختلف عما كان دليلــه ظنيــاً، إذ ما كان دليلــه قطعياً ليس هــو مكاناً للخــلاف، فلا يجوز الاختلاف فيه، وكيف يختلف فيما دل عليه دليل قطعي.

فمثل هذه الأشياء يجب أن يكون الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر متفطنين لها وواضعين كل شيء منها في موضعه، والله أعلم.

هل تذهبون من خلال هذا إلى وجوب العلم والفقه لدى الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر؟

لا ريب أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكون مع الجهل، حتى وإن كان الجاهل غير معذور عنهما فعليه أن يتعلم الحكم فيهما، فإن العامي لا يطالب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا فيما يعلمه، فإن هناك أشياء يشترك في معرفة حكمها الخواص والعوام، فالعامي يعلم أن الخمر حرام، فلما كان هو عالماً بحرمة الخمر فهو في هذه الحالة بمنزلة العالم الرباني الفقيه المتضلع المحقق لأنه قامت عليه حجة الله بأن الخمر حرام، فلا يسوغ له أن يسكت عن شاربها ويقره على ذلك، وكذلك العامي يعلم أن الزنا حرام كالعالم، فلا يعذر في تغيير هذا المنكر إن ثبت عنده بحجة، والعامي يعلم أن السرقة حرام، فلا يحل له إقرار السرقة والسكوت عنها، والعامي يعلم أن قتل النفس المحرمة بغير حق حرام، فعليه أن يغير ذلك مع القدرة على التغيير ولا يقره، فكل ما كانت الحجة قائمة عليه بحكمه ولا لبس عنده في حرمته فإنه مطالب بأن ينكر على من مارسه، وأن يأمره بالحق فيه... وهكذا، ولكن لا يعني هذا أن يقتحم الجاهل لجة هذا الأمر بغير علم فيقدم على تعاطي حكمه مع جهله به بحيث يقول إن هذا حلال وهذا حرام، فإن ذلك غير جائز بحال، فالله ـ تبارك وتعالى ـ شدد في هذا تشديداً بالغاً حيث قال:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، وبيّن ﷻ أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد من أن يكونا على بصيرة حيث قال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وأشار ﷻ إلى ضرورة التفقه في دين الله بالنسبة إلى من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، وذلك

في قوله ـ سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فقد ناط الله سبحانه وتعالى الإنذار هنا بالتفقه في دين الله، والإنذار هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو الدعوة إلى الله عز وجل والله أعلم.

قد يتصور شخص أنَّه إذا نصح شخصاً آخر ستترتب على تلك النصيحة فتنة وخصام، ففي هذه الحالة هل يلزمه النُّصح؟

إن كان ذلك سَادِراً في غَيِّه مُسترسلاً في ضلاله مُسارعاً إلى هواه فمن الواجب النُّصح مهما كانت خُصومته فإنَّ الله تعالى يَحكي عن لُقمان عليه السلام أنَّه قال في وصيته لابنه ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧] فالصبر على ما يُصيبه بسبب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر واجب بدليل هذا الأمر.

والله تعالى بيَّن أنَّ ضَريبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يُصيب الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر مِن أذى، وقد وقع ذلك في الأنبياء مِن قبل فإنَّ الله تعالى يقول مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ثم يقول:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٩ ـ ١١٠].

فالمرسلون الذين هم أرسخ الناس إيماناً يَصل بِهم الأمر إلى مُشارفة اليَأس لِهول ما يَلقون بسبب دعوتِهم الناس إلى الخير وأمرهم بالمعروف

ونَهيهم عن المنكر، ولكن مع هذا يلزم الداعية أن يتحين الفرص لقيامه بهذه المهمة، فعندما تكون الظروف غير مواتية بحيث يؤدي تغييره المنكر إلى منكر أفظع وأشنع وأبلغ ضره وأعم شره يؤمر بالانتظار حتى تتاح له الفرصة ويتهيأ له الأمر، فالنبي ﷺ كان يغدو ويروح بمكة المكرمة وأصنام المشركين حول الكعبة ـ بيت الله المحرم ـ فلم يقم إلى تحطيمها وإنما صبر إلى أن آتت دعوته ثمارها، فقام عبدتها بتحطيمها بأيديهم بعدما تخلوا عن الشرك بالله، ودليل ذلك في القرآن قوله تعالى:

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

مع أن سبها نوع من تغيير عبادتها، ولكن لما كان ذلك يؤدي إلى أمر أشنع وأفظع منعه الله تعالى، والله أعلم.

في مَرَاتب تَغيير المُنكر في حديث النبي ﷺ: «من رأى مِنكُم مُنكَراً فَلْيُغَيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لَم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[(١)]، التَّغيير بالقلب كيف يكون تغيير للمنكر مع أن هذا الأمر يَبْقى في خَاصَّة الإنسان؟

لا ريب أن النَّاس متفاوتون في هذه الحياة بِمَا آتاهم الله ـ تعالى ـ من قُدُرَات وَمَلَكَات وما آتاهم مِن طَاقات مُتَنَوِّعة، فإن كان الإنسان ذا سُلْطَة فهو قادر على تَغيير المُنكر بيده وفي هذه الحَالَة يكون لِزَاماً عليه أن يُغَيِّر بيده وَلا يكفي أن يَغَيَّره بِما دُون ذلك.

إلا إن كان مِن المُمكن أن يَتَغَيَّر بِمُجَرَّد الدَّعوة باللِّسان فإنه لا يُنتقل إلى استعمال اليَد إلا بَعد استعمال اللِّسان لأن الأصل أن يَحْرِص المسلم

(١) رواه مسلم (٧٠).

على الإتيان بِالأسهل فالأسهل، فمن كان يَرْدَعُه القول لا يُعْدَل إلى رَدْعِه باليَد، فربَّما كان جاهلاً أو غافلاً، ومع ذلك ـ أيضاً ـ ليس من ظَهَر منه الـمُنكر مِن بِدَاية الأمر كَمَن تكرر منه، فالذي يَتَكَرَّر منه يُغلَظُ عليه القول لعناده وإصراره، أما مَن ظَهَر منه أول فإن الواجب أن يُنَبَّه ويُقَال له بأن هَذَا مُنكَر، وهذه هِي الدَّعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، كما قال تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]،

ويقول سبحانه: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤] أمَّا الذي يَتَصَامَم وَيَتَعَامَى وَيَتَعَالَى ويُصر على فعله ويستَكْبِر استكباراً فإنه يُغْلَظ له في القَوْل، وإن كان من بين الذين شاهدوا المنكر من هو من الذين آتَاهم الله تعالى التَّمكين والاستخلاف في الأرض بحيث كان قادرا على تَغْيِير هَذَا الـمُنكَر باليَد فإن عليه تغييره، أمَّا من لَم يَكُن قادراً على ذلك ولا على الجهر بالإنكار بالقول فإنه يجب عليه أن ينكره في باطنه بحيث يمتعض منه ومن فاعله، ويتمنى أن تكون له قدرة على الإنكار بما هو أكثر من ذلك، وهذا أمر تقتضيه الفطرة إذ من شأن المؤمن أن يضيق صدره مما يراه من المنكرات، وهو لازم لكراهة الكفر والفسوق والعصيان، فإن انشرَاح الصدر ممن رأى المنكر يُعد مُشَارَكة لفاعله الصَّادر من صاحب الـمُنكَر، فإن من انشَرَح صدره عندما يرى الـمُنكَر لا يُؤمَنُ منه أن يألف المنكر حتى يرتكبه بنفسه، ولكن إن تغيَّر قلبه وامتغض منه فإن أثر ذلك يعود أولا بالخير على نفسه، لأنه بتغييره إياه في قرارة ضميره يعوده النفرة من المنكرات والتقزز منها وعدم الانسجام مع مرتكبيها، ثم مع ذلك يكون مؤديا فريضة لازمة فيما بَيْنَه وبين الله تعالى، وهو مُنتهى مَا يَقْدِر على تَنْفِيذِه من مُقْتَضَيَات إيمَانِه بالله تعالى وباليَوم

الآخر فلذلك عُدَّ هذا مِن تَغْيير الـمُنكر، كما عدَّ من لوازم الإيمان، ولكن لما كان ذلك أقل درجات التغيير كان هو أضعف الإيمان، والله أعلم.

هل يُمْكِنُ للشَّخص أن يستَعِين بالـمَبَادِئ التِي جاء بِها القرآن دُون أن يَجعله في مُقدِّمَة كلامه بِحيث قد يَذكُر الآية عَقِبَ ما يُقنِع من يحاوره بِمَسألة ما ويَرَى فِيهِ أنَّه اقتنع على ضَوْءِ الإعجازات العِلْمية أو أيُّ أَثَر للقرآن ؟

الذي لا يَقْتَنِع بِنَصٍّ قُرآني ظَاهِرٍ صريح ليس هو مِن الإسلام في شيء، فينبغي أن تُعالَجَ عَقِيدَته وأن يُجَرَّ إلى الإسلام بالدعوة والإقناع وإقامة الحجة، والله أعلم.

هَل الأمر بالـمَعرُوف والنَّهي عن الـمُنكر مَخصُوص بالعُلماء فقط بِحيث يسقُط عن بَقِيَّة الناس ؟

الأمر بالـمَعرُوف والنَّهي عن الـمُنكر فرضٌ واجبٌ على الجميع حُكَّاماً ومَحْكُومِين رِجالاً ونِساءً عُلماءً وعَوَام فإنهما مِمَّا يَجِب على الكُل، فالله تعالى قال:

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

فَنَرَى أنَّه عندما وَصَفَ الـمُؤْمِنين والـمُؤمِنات بِمَا وصفهم به بدَأ بالأمر بالـمَعرُوف والنَّهي عن الـمُنكر قبل إقَامِ الصلاة، مع أنَّ إقام الصلاة فرضٌ واجبٌ على القَوِي والضعيف والـحَاكِم والـمَحْكُوم والرجل والمرأة والعالِم والجاهِل فالكُلّ يَجب عليهم أن يُقِيمُوا الصلاة وأن يُؤتُوا الزكاة، وكذلك

طاعة الله ورسوله وَاجِبَة على الجميع، فكذلك الأمر بالـمَعرُوف والنَّهي عن الـمُنكر، اللذان صُدِّرَ القول بهما قَبْل ذِكْرِ إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

ثُم إنَّ الله تعالى يُبَيِّن أنَّ مِيزَة الأمة إنَّما هي الأمر بالـمَعرُوف والنَّهي عن الـمُنكر فإذا تَخَلَّت عن ذلك تَخَلَّت عن مِيزَتِهَا وخِصِّيصَتِهَا، وذلك عندما قال سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فقد صَدَّر بِذِكْرِ الأمر بالـمَعرُوف والنَّهي عن الـمُنكر حتى قبل ذِكْر الإيمان، ويقول تَعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وقوله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] أَيْ كُونُوا أُمَّة هذا شأنُهَا فإن «مِنْ» هُنَا لَيْسَت للتَّبْعِيض وإنَّمَا هي للبَيَان أيْ كونوا أُمَّة شأْنُها أن تأمر بالمعروف وأن تَنهى عن المنكر.

فالكُلُّ مُطَالَب بأن يَقُومَ بِهَذَا الفرض وحسبنا أنَّ الله تعالى جَعَل هَذه صِفة المؤمنين والمؤمنات: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١] وهذه الـمُوَالاة لا تَتِمّ إلا بالأَمْرِ بالـمَعْرُوف والنَّهْي عن الـمُنْكَر وإقام الصلاة وإيتَاء الزَّكاة وطَاعَة الله ورسوله، والله أعلم.

هل الـمَصلَحة باعثٌ للحُكم أو أنَّهَا غَايَة؟

إنَّ الله سبحانه لا يُسأَل عمَّا يَفعَل، فهو الـمُتصرِّف في خلقه حسب مشيئَتِه، يَشْرَعُ لَهم ما شاء من الأحكام، ويَمنعهم مِمَّا يشاء ويُبِيح لهم ما يشاء ويَفْرِض عليهم ما يشاء، له الحكم الـمُطلَق في الخلق، فله الحكم والأمر: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠]، وأفعاله سبحانه قد اختلف العلماء فيها هل يُمكن أن تُعلَّل أو لا تُعلَّل:

فالذين قالوا بأنَّها لا تُعلَّل نظروا إلى أنَّ العِلة هي منشَأُ الأمر، ولَمَّا كانت كذلك فلا يُمكن أن تكون أفعال الله تعالى ناشِئَةً من شيءٍ له أيّ تأثير عليه سبحانه، لأن جميع أفعاله إنَّما هي باختياره.

أمَّا الذين قالوا بأنَّها تُعلَّل فإنَّهم نظروا إلى ورود كثيرٍ من النصوص الدالة على الربط بين أحكامه ـ تعالى ـ وأفعاله وبين بيان أسباب لها تنزل منزلة العلة مع اعتقاد أن هذه العلل ليست مؤثِّرة في نفس الفعل، بل هي سبب لِأَن جعل الله تعالى الحكم أو الفعل وِفْقَ هذا الأمر الذي أراده أن يكون مبنيا على ذلك السبب أو تلك العلة باختياره.

فَلَو قُلنا بأنَّ أفعاله لَهَا بَواعث فمعنَى ذلك أنَّ هذه البَواعِث مؤثِّرة في أفعاله، ولا يُمكن أن يكون هنالك باعث مؤثِّر على فعل الله تعالى.

أمَّا إن قلنا إن غاية هذا الأمر كذا فلا ريب أنَّها تتحقَّقُ بسبب ذلك الأَمر، ولَمَّا كانت تتحقَّقُ من الأمر فإنَّ غاية مشروعيَّة الأحكام التي شرعها الله ـ سبحانه ـ تَحقيقُ مصالِح العباد فضلاً من الله ـ تعالى ـ ونعمة، ولا يرتاب أنَّ العبادات تُحقق غايات لها أثر كبير في حياة الناس النفسية والاجتماعية، وقد بيَّن الله تعالى ما تُحقِّقه من الغايات في كثيرٍ من الآيات كقوله سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فقوله: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ أيْ كُتب عليكم الصيام من أجل تَحقيق هذه الغاية وهي أن تتقوا الله تعالى، وكذلك قوله:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فإنَّ الغاية من إقامة الصلاة أنَّها ناهية عن الفحشاء والمنكر، وكذلك يقول تعالى في الزكاة:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، فالغاية من الزكاة الطهارة والتَّزْكية الحاصلة للنفوس بسببها، فهذه الأعمال المشرُوعة إنَّما شُرِعت مَقرُونَة بِهذه الغايات التي أَرَادها الله وهي تَحقيق المصالِح للعباد سواءً علمنا هذه المصالِح أو لَم نَعْلمها، إذ لا يلْزَم أن تكون المصالِح معلومة وإنما علينا أن نُسلِّم لأمرِ الله، وأن نُدرك أنَّه جل وعلا لا يأمُرُنا إلا بِمَا فيه مصلحتُنَا، ولا ينهانا إلا عمَّا فيه مفسدَتُنَا، وإنَّمَا مصلحتنا في الاستسلام لأمرِ الله والانقياد لِحُكْمِه والإذْعَان لطاعته؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

ما ضوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما هي حدوده في هذا العصر؟

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يَختلف حكمهما بين عصر وآخر، فأولياء الأمور مطالبون بأن يأمروا بالمعروف وأن ينهوا عن المنكر بِما جعل الله ـ تعالى ـ بأيديهم مِن السلطان والنفوذ، ولذلك قرن الله ـ تعالى ـ بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة حيث قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١]، ووَضَّح ذلك حديث النبي ﷺ عندما قال: «مَن رأى مِنكم منكرا فليغيره بيده فإن لَم يستطع فبلسانه فإنْ لَم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[١]، فالذي مُكِّن له يأمر بيده والذي لَم يُمَكّن له يأمر بلسانه بقدر مستطاعه، فإن تَعَذر فعليه أن يغيِّر المنكر بقلبه وأن يأمر بالمعروف بقلبه إن لَم يستطع ذلك بيده ولا بلسَانه.

(١) رواه مسلم (٧٠).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة جَميع المؤمنين إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ [التوبة: ٧١] ثم وصفهم بعد ذلك بقوله: ﴿ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [التوبة: ٧١] فقدّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومعنى ذلك أنَّ مِن خصائص الإيمان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكذلك نَجد أنَّ الله تعالى نَعَى على بني إسرائيل وبيّن أنّهم استحقوا اللَّعن بسبب تركهم تغيير المنكر عندما قال عَزَّ مِن قائل:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩]، كما نَجِد أنَّ الله تعالى في كتابه يَحكي عن لُقمان قوله لابنه:

﴿ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ [لقمان: ١٧] فهذا كله مِمَّا يدل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولكن مهما يكن مِن أمر فإنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالرِّفق وباللطف وبالإقناع مِمَّا يَجب على الدَّاعية ألا يَغفل عنه، فإنّهما بِهذه الوسائل أجدى نفعا وأعمق أثرا، فالله تعالى يقول:

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]، ويقول تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]، ثم أتبع ذلك قوله:

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

فالإنسان عندما يدفع بالتي هي أحسن ويُقنع مَن يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر لا ريب أنَّه يكون لِوَصِيته ولنصحه ولدعوته ولتذكيره أَبْلَغُ الأثر في نفس المدعوين، وكثير مِن الدعاة ينفّرون الناس بأساليبهم الجافة وباستعمال القسوة في دَعوتِهم إلى الخير، مع أن مهما يَكن فإنَّ اللين أجدى نفعاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحسبنا أنَّ الله تعالى أرشد إلى ذلك صَفْوَتَهُ مِن خلقه، فعندما أرسل موسى وهارون إلى فرعون مع قسوته قال: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤]،

وقد علم الله أنَّه لا يَتَذَكَّر ولا يَخشى، ولكن القول اللين هو مَئِنَّةُ التذكر والخشية فلذلك بعث في نفوسهم رجاء تذكره وخشيته بقوله:

﴿ لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ أي قولا له ذلك وأنتما ترجوان أن يتذكر أو يَخشى، فهذا الأسلوب مِمَّا ينبغي للناس جَميعاً ألا يَعْزُبَ عَنهم، والله أعلم.

يَقول النبي ﷺ: «مَن رأى منكم منكَرا فليغيره بِيَدِه فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه»[١] ما فائدة تغيير المنكر بالقلب بالنسبة للمسلِم؟ ومتى يكون ذلك؟

يكون ذلك ـ كما قال النبي ﷺ ـ حينما يتعذر التغيير باليد أو باللسان: «مَن رأى منكم منكَرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه..»، أي إن عجز وخشي على جسمه أو عرضه أو شرفه لو أنه جهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخشي الفتنة من ذلك، كتألب الناس

(١) رواه مسلم (٧٠).

عليه تألباً يؤجج ضـرام الأحقاد بينه وبينهم فإنه في هـذه الحالة يعدل إلى التغيير بالقلب.

وفائدة التغيير بالقلب ألا يكون آلفاً للمنكر، لأنه لو لم يغيره بقلبه لكان آلفاً له، وعندما يألفه لا يعود عنده منكراً بل يكون معروفا، لأن المعروف هو الذي تعرفه النفوس وتألفه، ويجب أن تكون المنكرات كما سماها الله تعالى منكرات، لا تؤلف ولا تتقبل من قبل النفوس.

بل من لم يغير المنكر بقلبه فإنه يكون متقبلاً له ولذلك كان ملعوناً كما قال الله تعالى:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩]، والله أعلم.

أحياناً في رسـائل الهاتف النقال يُكلَّف الإنسان بأن تَتَضَمَّن الرسالة بأن «صَلِّ على النبي ﷺ كذا عدداً مِن الصلوات وأرسِلْها إلى كذا عدد ـ أو نَحوها مِن العبارات ـ أمانة في عُنُقِك» فهل مثل هذه الرسالة تكون حَمَالَة على الـمُتَلَقِّي؟

ما معنى الصلاة على الرسول عليه السلام؟ ولأيِّ غرض مِن الأغراض؟ إن كانت لأجل تعظيم الرسول ﷺ فلا يَلْزَم أن يكون ذلك بواسطة الهواتف النقالة، وإن كان لِغـرض مِن الأغراض الأخـرى كأن تكون هنالك خُرَافَـة بِحَيث يَتَصَوَّر بعض الناس أنَّ مَنْ صلى على النبي عليه الصلاة والسلام مقدار كـذا حَصَلَ لَه مِن الفائدة أو الربح مقدار كذا أو نَجح في مَسْـعَاه أو نَحْوِ ذلك فهذه مِن الأمور التي يَجب أن لا يُرَوَّجَ لَها، لأن الدين لا يقترن بالأوهام، والدعوة إلى الإسـلام لا تكون

بالترويج للخرافة وإنَّما تكون بالصدق وكلمة الحــق، والداعية إلى الله يَجب عليه أن يكون موضوعياً، جاداً فيما يقول، صادقاً في كل ما يُبَلِّغ، حتى لا يُعْثَر عليه أنَّه كَذَب قط، فإن الكذب يؤدي إلى أن يَهْزَأَ الناس به ويسخَرُوا حتى مِن دعوته ولا يَثِقُوا بشيء مِما يَصْدُرُ عنه، والله أعلم.

الآية الكريمة: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قدّمت الأمر بالمعروف والنهــي عن المنكر على الإيمــان بالله، مع أن الإيمان بالله مقدم، فلا بد أن يكــون الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر مؤمناً، لأنه إذا لــم يكن مؤمناً بــالله ﷻ، فأمره بالمعــروف ونهيه عن المنكر لا يجديان شيئاً ؟

إن تقديــم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علــى الإيمان بالله تعالى لأمرين:

أولهما: أن الإيمان بالله ﷻ أمر مُشــترك بين جميع الأمم، فكل أمة من الأمم بعث إليها نبي واتبعت ذلك النبــي إنما كانت تؤمن بالله ﷻ، فما من أمة بُعــث إليها نبي وصدقــت ذلك النبــي إلا كانت مؤمنة بــه وإلا كانت مقطوعة عن الوصل بحبــل ذلك النبي، بينما الأمــر بالمعروف والنهي عن المنكر ليســت الأمم فيهما على قدر واحد، وإن من خصوصيات هذه الأمة أن يكون كل فرد من أفرادها مطالبا بهذا الحق كمطالبته بأن يؤمن بالله، وهذا لا يعني أن الأولين ما كانوا يأمرون بالمعــروف وينهون عن المنكر، ولكن قيامهم بذلك يرجع إلى عموم الأمة أما هذه الأمة فكل فرد من أفرادها عليه أن يوطن نفسه بالقيام بذلك في محيطه الذي يعيش فيه ويتحرك في أنحائه، لذلك كانت هذه الأمة مميزة بهذا كما هو واضح في قوله تعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقد دل على وجوبهما على أفراد الأمة قوله ﷻ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] فإن «من» هنا ليست للتبعيض وإنما هي للبيان، ومعنى ذلك كونوا أمة هذا شأنها، ويؤكد هذه الدلالة اختتام الآية الكريمة بقوله:

﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] حيث حصر الفلاح في هؤلاء بتعريف المسند والمسند إليه وتوسيط ضمير الفصل بينهما، وكل فرد من هذه الأمة مطالب بأن يكون من أتباع النبي ﷺ، وسبيله ﷺ وسبيل أتباعه مرسومة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فالدعوة إلى الله ﷻ أمر بُعث به النبي ﷺ وخُوطب به كل واحد من أتباعه، وقد قال الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»، فكلُ واحد مطالب بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المُنكر حسب ما يستطيع، وليس لأحد أن يتخلى عن هذا الواجب، ويبدأ الإنسان في ذلك بنفسه فيأمرها بالمعروف وينهاها عن المنكر، ثم يثني بعد ذلك بأقرب الأقربين إليه، وهم أولاده وأهله في بيته يدعوهم إلى الخير ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، لهذا كله قُدِّم ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان، لأنهما الأمران اللذان تميزت بهما هذه الأمة عن غيرها من الأمم بحيث كان جميع وحدانها مطالبين بهما.

ثانيهما: أن الإيمان قد رسخَ في قلوب المؤمنين وهم يعرفون أهميته، فهم جميعا يُدركون أن جميع الأعمال سواءً كانت بدنية أو مالية، لا تُعدُّ

شـيئاً إن لم تكن مبنية على الإيمان وناشئة عنه، إذ كل الأعمال التي يعملها الإنســان إنما مِلاكها الإيمان بالله وبملائكته وبكتبه وبرســله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، ولا ريب أن جمهور الناس يُدركون ذلك فيعرفون قيمة الإيمان ولكنهــم لا يدركون أن الأمــر بالمعروف والنهي عــن المنكر من ضرورات دينهم التي هم مطالبون بها، فلذلك نُبهوا على هذا بتقديمهما في الذكر لأجل تأكيد الاهتمام بهمــا، ونحو هذا قول الله ﷻ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ [النساء: ١١] وقولــه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ [النساء: ١٢] وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، فقــد قدمــت الوصية على الدين فــي الذكر أربع مرات لأن الناس يهتمون بقضاء الدين بدافع مــن ضميرهم وقد لا يهتمون بإنفاذ الوصية، فقدمت الوصية هنا فــي الذكر لأجل تأكيد الاهتمام بها، لئلا يتساهل فيها الناس، فالفرائض لا تُقسم ولا تُوزع بين الورثة إلا من بعد أخذ الدائن حقه، ومن بعد إنفاذ وصيــة الميت، ثم يأتي بعد ذلك حق الورثة في اقتســام التركة، لأن التركة تكون قبل هذا مشــغولة بديــن الدائنين وبوصية الميت، وأصحاب الدين لهــم الأولوية في دينهم، وكذلك الميت نفســه له الأولويةُ فيما أوصى به، إذا لم تتجاوز الوصية القدر المشروع، والله أعلم.

هل يجوز مقاطعة المرأة أو الرجل الزانيين أو التاركين للصلاة؟

تجوز مقاطعة مرتكب الكبيرة من أجل ردعه عن كبيرته، والله أعلم.

هل يَجب على الإنســان أن يأمر بالمعروف وأن ينْهَــى عن المنكر مَن يعصي الله؟ اذا كانت معصيته أمراً مختلفاً فيه؟

جاء في الحديث عن النبِي ﷺ: «مَــن رأى منكم مُنْكرا فليُغيِّرْهُ بِيَده فإن

لَم يستطع فَبِلِسَانِه فإن لَم يستطع فَبِقَلْبِه وذلك أَضْعَف الإيمَان»[1]، والله تعالى أَمَر هذه الأمة أن تكون أُمة أمرٍ بالمَعروف ونَهيٍ عن المنكر وذلك عِنْدما قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذا والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأمر الذي لا خِلاف فيه هو واجبٌ على أيِّ أحدٍ إن كان قادِراً، وإن لَم يستطع أن يُغيِّر بيَده فليُغيِّر بِلِسانه، وإن لَم يستطع أن يُغيِّر بِلِسانه فلْيُغيِّر بِقَلبه، فإنَّ ذلك واجبٌ على الناس جميعا وإلا كانوا شركاء في المنكر وكانوا كما قال الله ـ تعالى ـ في بنِي إسرائيل:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩].

وبَيَّن سبحانه عَاقِبَة الأمر والنَّهي وعاقِبَة ارتكاب المَحارِم عندما قال سبحانه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣ ـ ١٦٥]، فكانت عاقِبَة تـرْكِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنَّ أُخِذُوا بِعذابٍ بَئِيسٍ وهو يَشْمَلُ الفريقَيْن جَمِيعا من ارتكب المنكر ومن لم ينه عنه.

(١) رواه مسلم (٧٠).

وأمَّا ما كان مُخْتَلَفا فيه فإن كانت المسألة مسألة رأي، ولَم يكن هذا الاختلاف في أمرٍ مِن أمور الدِّين، وكان الذي ارتكب ماهو مَمْنُوعٌ في رأيِ الـمُبْصِر له ـ أو في رَأي الحاضر عندَه ـ يَرَى أنَّ ذلك غير مَمنُوع في اجْتِهَاد هذا المرتكب بِنَفسه أو في اجتهاد من يُقلِّدُه إن كان من أهل التقليد، فإنَّه في هذه الحالة يسوغ لمن رآه أن يتْركَه وشَأْنَه فإنه لا حَرَجَ عليه في ذلك؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

لكن كيف يَعرف الـمُقلِّد أنَّها مِن مسائل الدِّين أو مِن مسائل الرأي؟

يستطيع أن يسْأَل أهل العلم عن هذه الـمسائل ويُمَيِّزَ بَيْنَها، والله أعلم.

أنا من ولاة أمور مُجْتَمع انتشرت فيه بعض البِدَع المخالفة للسنَّة وهي مِن المسائل الفرعية في الدين، هل يَجوز لِي التَّدرج في اجتثاث تلك البِدع، وأثناء ذلكم التَّدرج أتبع بعض الأقوال المرجوحة كَيْ لا أنفِّرَهم حَتى نتخلص مِن تِلكم البِدَع؟

الدَّاعية عليه أن يكون كالطبيب، والدَّعْوَة إنَّما هي بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتِي هي أحسن، والإنسان عله أن ينظر فإن بَعض البِدَع تكون بدعا خطيرة جدا ربَّمَا تُزَلْزِل العقيدة وتُؤَثِّرُ عليها، وبعضها هي أهون مِن ذلك، فلينظر الإنسان في ذلك فإن كان يَتَمكَّن مِن قطع دابر البِدعة بسرعة فعليه ألّا يتردد في ذلك، وإن كان لا يتمكن فإنّ الله تعالى لَم يُكَلِّفه عسيرا، وإنَّما كَلَّفَه يَسِيراً يقول الله ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ويقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [الطلاق: ٧]، فعليه أن يَسعَى في دفع البدع بقدر مستطاعه مَع مُرَاعَاة الحكمة في ذلك؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

المذاهب الإسلامية

إنني لا أشك في جهودكم في سبيل تَحقيق الوحدة الإسلامية ولَكِن ما هو شَكل الوِحْدَة التي مِن الممكن أن تَجْمَع المسلمين على اختلاف مذاهِبِهم، أي هل يتَّفِق الجميع على مَذهب واحد؟ وهذا من المستحيلات، أم أنَّ هذه الوحدة لا يُشْتَرط فيها أن يَجتمع الجميع على مذهب واحد، وإذا كان لا يُشترط ذلك فكيف يُمكن أن يتَّحِدَ اثنان والأول يتَبَرَّأ مِن الثاني والعكس بسبب اختلافهم في بعض الأصول، أم أن البَرَاءَة لا تَتَنَافَى مع الوِحْدة، والسؤال: كيف نُوَفِّق بين البَرَاءَة والوِحْدَة في نفس الوقت؟

إنَّ الأمَّة الإسلامية بِيَدِهَا ما يَجْمَع شَمْلَهَا ويَنْتَزِع خِلافَهَا ويُمْلِي عليها الوِفَاق والانسجام فيما بينها، فكِتَاب الله داعيها إلى الوحدة.

ومن فَضْلِ الله ـ تعالى ـ على هذه الأمَّة أنَّها لَم تَختلف في كتاب ربِّها قط، فإنَّها مُجْمِعَة عليه من أوَّلِه إلى آخره أنَّه كلام الله، وأنَّه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حَميد، وهذا مِما يُسهِّل الوحدة فيما بينها، لأن الله ـ سبحانه ـ جعل لَها مَخلصاً من الخلاف والشقاق عندما تعود إلى هذا الكتاب العزيز، وتعود إلى الثابت المتَّفَق عليه مِن السنَّة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فقد قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

فالأمَّة مُطَالَبَة أن لا تَتَعَصَّبَ لآراء عُلَمَائِها، وأن لا تَجْعَل هذه الآراء فوق كتاب الله وفَوْقَ كلام رسول الله، وقد أَجَادَ الإمام السالمي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عندما قال:

ولا تُنَاظِر بكتاب الله	ولا كلام المصطفى الأوَّاه
مَعْنَاه لا تجعل له نَظِيرا	ولو يكون عالِماً خَبِيرا

ومع هذا التوجُّه إلى الأخذ بالكتاب العزيز وتَحْكِيمِه في كل جزئية وفي كل كُلِّية، والأخذ بِما ثَبت من سنَّة النبي ﷺ بلا خِلاف عنه يزول الشقاق بين الأمة، فبِإمكان هذه الأمة أن تُرَاجع نفسها فيما عندها من التَّصَوُّرَات إذ لا عصمة إلا للأنبياء وحدهم، فمهما يكن للإنسان قَدْرُهُ وعلمه وشأنه ورِفْعَتُه هو عُرضة للخطأ إلا الذين عَصَمَهم الله تعالى وهم النبِيُّون، فهم لا ينطقون إلا بالحق.

فالاحتكام يَجب أن يكون إلى هذين الأصلين الثابتين اللذَيْنِ لا شك فيهما وهما كتاب الله وإلى الـمُتَوَاتر من سُنَّة رسول الله ﷺ في القضايا الأصولية العَقَدِية، ويَجوز الأخذ بالآحادي بل يؤمر بالأَخْذِ به في الفروع إن ثبت عن النبي ﷺ ولكن مِنْ غير قطع عذر من لم يأخذ به إن كان تركه له غير مبني على اتباع الهوى والإعراض عن هديه عليه الصلاة والسلام.

ونَحن نَرَى أنَّ هُنَاكَ قَوَاسِم مشتركة تَجمع بين الأمة، فالقضايا الخلافية لَو قِيسَت إلى بالـمُتَّفَق عليه لَوَجَدْنَاهَا قَليلة جداً.

فلو جِئنا إلى أركان الإسلام الخمسة لوجدنا أنه لا خلاف فيها بَيْنَ الأمّة، إذ لا خلاف في شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن مُحمداً رسول الله، ولا خلاف في إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج بيت الله الحرام من استطاع إليه سبيلا.

وكذلك إذا جِئْنَا إلى أَرْكَان الإيمان فإنَّ الأمَّة مُتَّفِقَة على خَمسة أركان بلا خِلاف، وإن اختلفت بعض الاختلاف في الركن السادس.

فبالنسبة إلى الإيمان بالله لا خِلاف بينها فيه، فإن الكُل يُؤمِن بأن الله تعالى هو الذي خَلَقَ الخلق وأنَّه الأوَّل والآخر والظاهر والباطن، وأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنَّه تعالى هو الذي يُبْدِئ ويُعِيد، وهو

الذي يفعل في خلقه ما يريد، له الملك وله الحمد، لا أَوَّل لأَوَّلِيَّتِه ولا آخر لآخِرِيَّتِه.

كذلك إذا جئنا إلى الإيـمان بِملائكته وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر نَجِد أنَّ هذه الأركان لا خِلاف بَيْن الأمة فيها.

نعم هناك بعض الاختلاف في جزئيات تَتَعَلَّق بتفسِـــيرِ الأمور التي تعود إلى الإيـمان بالله، وذلك كالإختلاف في تفسير صِفات الله تعالى، وكذلك إذا جئنا إلى الـمَعَاد قد يكون هنالك بعض الاختلاف في جزئيات تتعلّق بالوعد أو بالوَعِيد لا في أصل الوعد والوعيد.

كذلك ـ أيضـــاً ـ إذا نظرنا إلى الإيـمَان بالكُتُب فـــإنَّ الجميع مُجْمِعُون على كُتُــب الله بأنَّها حَق مِن عند الله، وَأنَّ الذي بَقــي منها لَم تصل إليه يَدُ التَّحْرِيف والتَّبْدِيل هو القرآن الكريم، فهو من ألفه إلى يائه، من أول الفاتِحة إلى آخر الناس كلام الله ـ ســبحانه ـ الــذي لا يأتيه الباطل مــن بين يديه ولا مِنْ خَلْفِه.

وكذلك بالنســـبة إلى الرســـل، فالكُل مؤمنون بعِصْمَة الرســـل وفضلهم وقدرهم وعُلُوِّ شأنِهم، ومؤمنون بالرُّسُل المنصوص عليهم، وبأنَّ وراء هؤلاء المنصوص عليهم رُسُلاً أيضاً لَم يُنَصَّ عليهم، نؤمن بِهم إجْمالاً.

كذلك إذا جئنا إلى اتِّبَاع الرســـول الخاتم ﷺ فالكُل مؤمن بوجوب اتباعه وأنه هو إمام الأمة الذي يَجِب أن تَتَّبِعَه في كل تَصَرُّف من تصرُّفاته إلا ما دَلَّ الدليل على خُصُوصِيته به فضلاً عن أوامره التي يأمر بِها الأُمَّة، فلا مَجال لِمخالَفَة أمره: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أمَّا الركن السادس وهو الإيمان بقضاء الله وقَدَره فهناك بعض الاختلاف الذي وَقَعَت فيه الأمة فيما يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الرُّكن، هل يَجب الإيمان بقضاء الله وقَدَره في كل ما يَجري مِن تَصَرُّفَات الإنسان وأفعاله الاختيارية، أو أنَّ هذه الأفعال لا ترجع إلى قضاء الله وقدره وإنَّما ترجع إلى إرادة الإنسان، فمعتقدنا ومعتقد جمهور الأمة أن الإنسان لا يستقل وحده بإيجاد أفعاله وإنما له منها جانب الكسب أما خلقها فمن الله تعالى، وذهب فريق إلى أن فعل الإنسان لا يعود إلى قضاءالله وقدره وأنه مستقل بإيجاده من غير أن تتدخل إرادة الله في ذلك، وهو الذي قالته المعتزلة وتابعهم عليه الشيعة الزيدية والإمامية.

أما الأركان الخمسة الأخرى فهي مُتَّفَقٌ عليها ما بين الأمة من حيث كُلِّيَاتها، وإنَّما الاختلاف في بعض جزئياتِها.

فلما كان الأمر كذلك فمِن السَّهل أن تَلْتَقِي هذه الأمة على هذه الكُلِّيات ومن السَّهل أن تُنَاقَش الجزئيات التي وَقَع فيها الاختلاف على ضوء كتاب الله والثابت مِن سُنَّة رسول الله ﷺ.

وعندما تلتقي الأمة على هذين الأصْلَيْن، وتستَمِد منهما تصوراتِها لا يكون هنالك خلاف فيما بينها.

ومع هذا كله فإن هذه الأمة تَجْمَعُها قِبْلة واحدة في صلاتِها، وهي التي يَحُجُّون إليها جَميعاً، فلا خِلاف في مناسك الحج والمشاعِر المقدَّسَة التي يَجِب على الأمَّة أن تُحَافِظ على قُدسِيَّتِها، وهو مما يقرب الشقة بينها، وإنَّمَا وُجِدَت عُقَد نفسية هي التي بَاعَدَت الشقة بين هذه الأمة وفصلت بعضها عن بعض.

على أنه مهما كان مِن الاختلاف فإن الأصل الذي يجب أن تلتقي عليه

الأمة جميعا وأن يكون نظر بعضهم إلى بعض مبنيا عليه هو كما قال الإمام السالمي:

ونَحــن لا نُطالــب العبــادَ	فــوق شــهادَتَيْهِم اعتقــادا
فمــن أتــى بالجملتَيْــنِ قلنا	إخوانــنا وبالحقــوق قمنا
إلا إذا مَــا أَظْهَــرُوا ضَــلالا	واعتقــدوا فــي دِينِهِــم مُحَالا
قُمنــا نُبَيِّــنَ الصــواب لَهــمُ	ونَحْسِــبَن ذلــك مــن حقهــمُ
فمــا رأيتــه مــن التحريــر	في كتــب التوحيــد والتقرير
حَــلُّ مســائلِ وردُّ شُــبَهٍ	جاء بِهــا مَــن ضَــلَّ للمُنْتَبِهِ
قُمْنَــا نَرُدهــا ونُبْــدِي الحقــا	بِجهْدِنَــا كي لا يضِــل الخلقا
لو سَــكَتُوا عنَّا سَــكَتْنَا عنهم	ونَــكْتَفِــي منهم بأن يُسَــلِّمُوا

فهذا الأصل لو أَخَذَ به جَميع المسلمين في الأرض وجعلوا كُل مَن أتى بالشــهادتَيْن مِمن تَجــب له حقوق الأُخُــوَّة الإســلامية إلا إذا نَقَض هاتَيْن الشهادتَيْن بإنكار ما عُلِمَ مِن الدِّين بالضرورة سواءً كان متأوِّلاً أو غير متأوِّل في إنكاره لذلك لو أخذت الأمة بهذا لكان مِن السَّهل الوفاق فيما بينها.

ومهما يكن هنالك مِن مواقف تتعلّق بالخلاف في تِلكم الأمور التي أشــرنا إليها فإننا نقول بأنَّ هــذه المواقــف لا تَتَنَافَى مــع الدَّعوة إلى التَّسَامح، وبَسْــطِ هذه القضايا الخلافية على بِسَاطِ البحث والمناقشة مِن غَيْرِ تَشَــنُّج ولا انفعال، وإنَّما يَجب أن تكون النِّيــات خالصة، والطَّوَايَا صافية، والقلوب طاهرة، والعمل خالصاً لله تعالــى لا يُرَاد به إلا وجهه، ويســعى الكل إلى جَمْعِ الشــمل ورَأْبِ الصَّدْع ولَمِّ الشَّعْث وجَمع هذا الشَّــتَات تَحت مِظَلَّة القرآن ومِظَلَّة السُّــنَّة النبوية علــى صاحبها أفضل الصلاة والسلام، والله أعلم.

هل حصلت مناقشـات ومناظـرات بين المعتزلة والجهمية بشـأن خلق الفعل والكسب للإنسان؟

حصلت مناظرات كثيرة بين هذه الفرق وهي مدونة في الكتب، والله أعلم.

من هم المعتزلة ؟ وما هي سبب مخالفتهم للجمهور حول مسألة التكليف؟

المعتزلة: هم طائفة من هـذه الأمة، بدؤا فيما بـدؤوا فيه بالخوض في مسـألة القدر، وقد وقع ذلك عندما وقع الحريق في الكعبة الشـريفة فالتهم بعضاً منها، وذلك عندما رماها الحجـاج بالمنجنيق في حربه مع ابن الزبير فاختلف الناس، هل كان احتراق بيت الله الحرام بقدر من الله أو بدون ذلك، وأخذت هذه الفكرة تتنامى وتنتشـر في بعض أوساط الناس حتى تبلور هذا المذهـب الكلامي على يد واصل بـن عطاء الذي كان أحـد تلامذة الإمام التابعي الكبير الحسن البصري، فأنكر الحسن البصري ذلك عليه وعلى من معه فاعتزلوا مجلسه وسائر المجالس الأخرى فسموا معتزلة بسبب ذلك، ثم أخذوا بعد ذلك يعتنون بالأساليب الفلسفية التي شاعت عند فلاسفة اليونان، من خلال الكتب الفلسـفية التي تُرجمت إلى العربيـة وكانت تحتوي على مصطلحات المناطقة عند اليونان، فأمعنوا من خلال تلك الكتب في دراسـةِ الفلسفة، واشـتغلوا بها اشـتغالاً كبيراً، وكان لهم جهد كبير ـ لا ينكر ـ في الدفاع عن عقيدة الإسـلام من هجمات الفلاسـفة، ولكنهم تأثروا بالمنطق الأرسـطي كثيراً، فأمعنوا في تحكيـم العقل، ورجحوا جانبـه على جانب الشـرع، ولذلك كانت مدرستهم هي المدرسـة العقلية في الأمة الإسلامية، لأنها أعطـت العقل فوق ما يحتمل، فهم أفرطوا من هـذه الناحية، كما فرط أناس آخرون أيضـاً عندما لم يحاولوا أن يسـتخدموا العقل في فهم مقاصد النصوص الشرعية، خصوصاً في مسائل العقيدة. فإن الله تبارك وتعالى خاطب

العقلاء بهذا القرآن الكريم، فالعقل وسيلة لاستلهام كثير من الحقائق، وفهم كثير من مقاصد الشرع في خطابه، والله أعلم.

لقد قلت بأن المدرسة الإصلاحية جاءت في مصر لمحاربة البدع والخرافات، وكان الزعيم هو جمال الدين الأفغاني ومع سفره تبنى ذلك محمد عبده، فهل كان جمال الدين هو أساس فكرة محاربة البدع والخرافات، أم أنها فكرة محمد بن عبد الوهاب التي انتقلت إلى مصر؟

الذي أقوله الآن أنَّ جمال الدين الأفغاني هو شخصية غامضة. لأنني كنت أعتقد بأن هذا الرجل مصلح ـ وهو أرسى دعائم مدرسة الإصلاح، ولا يُشك في أنه قام بدور إصلاحي عندما كان في مصر ـ لكن تصرفاته كانت تصرفات غريبة من نوعها ـ وذلك بعدما خرج من مصر ـ، لأنه أحياناً ـ حسب ما قرأت في تاريخه الذي كتب بأقلام الأفغان أنفسهم ـ يريد أن يرتبط بالإنجليز لمحاربة الروس القياصرة، وتارة يتصرف خلاف ذلك ـ عندما ييأس من جدوى ذلك ـ أي يسعى للإرتباط بالروس من أجل محاربة الإنجليز، فتبين بذلك أنه كان متذبذباً غير مستقر على فكر معين، وعلى منهاج معين، أما بالنسبة إلى الفكرة الوهابية، فما أظن أنها في عهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وصلت إلى مصر، والوهابية وإن كانوا هم ضد تعظيم المقابر وتقديسها وتقديم النذور والقرابين إليها، ولكن هذه الدعوة غير خاصة بهم وإنما جاء بها الإسلام من أول الأمر ونادى بها المصلحون قبل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولكن كثيراً ما يبعدون عن الإسلام بوقوعهم تحت تأثير الخرافات التي يعيشون في أجوائها والأوهام التي تسيطر على أذهانهم، فيذهبون لطلب الشفاء من قبر أو من عين أو من الأشجار والأحجار، وإلا فالمسلمون من أول الأمر كلهم يحاربون هذه الفكرة على أن الدعوة الوهابية

تلبست بكثير من الضلال كاستباحة دماء المسلمين وأموالهم[١]، وتبني عقيدة التشببية التي هي من صميم الفكر اليهودي، والله أعلم.

---

(١) قامت الحركة الوهابية في نجد وسط الجزيرة العربية في أواخر القرن الثاني عشر الهجري على يد محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود حيث تحالفا لنشر «الدعوة الوهابية» وقد شنت هذه الدعوة سلسلة من الحروب كانوا يسمونها الغزوات فيها القتل والغنم لأموال المسلمين فتقسم على أنها أخماس الجهاد وغنائمه!!.
قال المؤرخ السعودي عثمان بن بشر في كتابه الشهير «عنوان المجد في تاريخ نجد» في الجزء الأول في الصفحة ١٢١ و ١٢٢:
(ثم دخلت السنة السادسة عشر بعد المائتين والألف) وفيها سار سعود بالجيوش المنصورة والخيل والعتاق المشهورة من جميع حاضر نجد وباديها والجنوب والحجاز وتهامة وغير ذلك وقصد أرض كربلاء ونازل أهل بلد الحسين. وذلك في ذي القعدة فحشد عليها المسلمون وتسوروا جدرانها ودخلوها عنوة وقتلوا غالب أهلها في الأسواق والبيوت، وهدموا القبة الموضوعة بزعم من اعتقد فيها على قبر الحسين. وأخذوا ما في القبة وما حولها وأخذوا النصيبة التي وضعوها على القبر وكانت مرصوفة بالزمرد والياقين والجواهر وأخذوا جميع ما وجدوا في البلد من أنواع الأموال والسلاح واللباس والفرش والذهب والفضة والمصاحف الثمينة وغير ذلك ما يعجز عنه الحصر ولم يلبثوا فيها إلا ضحوة وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الأموال وقتل من أهلها قريب ألفي رجل.
ثم أن سعود ارتحل منها على الماء المعروف بالأبيض المعروف فجمع الغنائم وعزل أخماسها وقسم باقيها في المسلمين غنيمة للراجل سهم وللفارس سهمان ثم ارتحل قافلاً إلى وطنه.
ثم في الصفحة ١٢٣:
وسار هادي بن قرملة ومعه جيش من قحطان وسار إليه غير ذلك من عتيبة وغيرهم فاجتمعت تلك الجموع عند عثمان فساروا إلى الطائف وفيها غالب الشريف وقد تحصن فيها وتأهب وأستعد لحربهم فنازله تلك الجموع فيها فالقى الله في قلبه الرعب وانهزم إلى مكة وترك الطائف فدخله عثمان ومن معه من الجموع وفتحه الله لهم عنوة بغير قتال وقتلوا من أهله في الأسواق والبيوت نحو مائتين «واخذوا من الأموال من البلد اثماناً وامتاعاً وسلاحاً وقماشاً وشيئاً من الجواهر والسلع المثمنة ما لا يحيط به الحصر ولا يدركه العدو ضبط عثمان البلد وسلمت له جميع نواحيه وبواديه وجمعوا الأخماس وبعثوها لعبد العزيز فقرر ولاية عثمان للطائف واستعمله أميراً عليها وعلى الحجاز. =

فَتَاة علــى مَذهَبٍ تزوَّجَت من شــاب على مذهبٍ آخــر، فَهل اختلاف الـمَذاهب هنا يُؤثِّر على الزواج ؟ وما الحكم ؟

الأصل في أهل التوحيد الذين يَدِينُون لله تعالى بالوحدانية ولِمُحمد ﷺ بالرســالة ويؤمنون بالقرآن وبأصول الإيـمان والإســلام ولا يُنْكِرون ما عُلِمَ مِن الدِّيــن بالضرورة أنَّ الزواج بينهم زواج صحيــح، وإنَّما لا بد مِن رِعَايَة جانبٍ واحد وهو ضــرورة أن لا يكون هنالك ما يُخْشَــى مِــن حيْث الفِقْه الأُسَرِي فيما يتعلَّق بالمرأة نفســها، فقد يكون فِقه الأسرة في مذهبِ الزوج أنَّه لــو طلَّقها حتى ألف مرة لا تَخــرُج مِن عصمته، وله أن يُعاشــرها حتى يُطَلِّقَها عالِــمٌ يرجع إليه في أمر دِينِه، بينما المعــروف عند جُمهور الأمة أنَّ المرأة إن طَلَّقَها زوجها فطلاقها واقع، وفي هذه الحالة لا يَحِل له أن يُبَاشِرَها حتى يتزوَّجَها مِن جديد، إن خَرَجَت عدَّتُها، أو يُراجعها مراجعة شرعية، فَبِناءً على ذلك ومِن حيث إنَّ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الثابتة عن النبي تدُلُّ على أنَّ المرأة بِمُجــرَّد تطليق الرجل إيَّاهَا تُصبِح حَراما عليه لا تَحِلُّ له إلا بِرَجْعَة شرعية أو بِعَقْدٍ جديد فيما بعد، فإنَّه ولا ريب ينبغِي الاحتياط في ذلك لِئَلا يُؤدِّي الأمرُ إلى اختلاط الأوراق فإنَّ هذه قَضية حَسَّاسَةٌ جِدّاً؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

= انتهى كلامه.

فانظر إلى هذه الدماء كيف تســفك وإلــى هذه الأموال كيف تنتهب فلــم تحجزهم كلمة التوحيد لا إله إلا الله ولم تشفع فكانت هذه المآســي في جزيرة العرب راح ضحيتها من أهل المذاهب الأربعة ومن المذاهب الأخرى ولله الأمر من قبل ومن بعد.

راجع/عنوان المجد في تاريخ نجد تأليف العلامة المحقق/ عثمان بن بشر النجدي الحنبلي.

الناشر: مكتبة الرياض الحديثة ـ المملكة العربية السعودية.

هل الإباضية فرقة من الخوارج؟

الخوارج هم طائفة من الأمة أفرطت في المبدأ والتطبيق فحكمت بالكفر المخرج من الملة على كل عاص وكفَّرتْ كل من لم يوافقها على هذا الحكم فأشهرت السيف في وجوه المسلمين واستباحت سبي ذراريهم وغنم أموالهم كما استباحت سفك دمائهم وذلك أبعد ما يكون عن مبدأ الإباضية وسلوكهم أما من حيث المبدأ فهذا الذي يقوله أحد أئمتهم ـ وهو أبو حمزة المختار بن عوف السليمي العماني المشهور بأبي حمزة الشاري الذي استشهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أواخر عهود بني أمية ـ قال: الناس منا ونحن منهم إلا ثلاثة مشركاً بالله عابد وثن أو كافراً من أهل الكتاب أو إماماً جائراً[١].

ويقول أحد أئمتهم المتأخرين ـ وهو الإمام نور الدين عبدالله بن حميد السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفى عام ١٣٣٢هـ.

ونحن لا نطالب العبادا فوق شهادتيهم اعتقادا
فمن أتى بالجملتين قلنا إخواننا وبالحقوق قمنا.. إلخ[٢]

وأما من حيث التطبيق فإنهم لم يقدموا على سفك دم أحد من الأمة إلّا أن يبغى في الأرض فساداً ولم تُجْدِ فيه موعظة ولم يثمر فيه نصح وفي هذه الحالة لا يقدمون على إيذاء أحدٍ من أهله أو ذريته ولا إلى أخذ شيء من ماله والشواهد في التأريخ على ذلك قائمة فأين هذا السلوك من سلوك الخوارج في حروبهم مع الآخرين؟ بل أينه من سلوك سائر الطوائف في حروبها مع بعضها البعض ومع الإباضية الذين هم أعف الناس عن أموال الناس في السلم والحرب؟ وقد تبرأ الإباضية قديماً وحديثاً من صنيع الخوارج وعدوه

(١) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي؛ ج٣ ص٢٩٦ دار مكتبة الهلال.
(٢) كشف الحقيقة.

مخالفاً لمنهج الإسلام وهدي النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وأصحابه المهديين ـ رضي الله عنهم أجمعين كما هو واضح في نصوص أئمتهم المتقدمين والمتأخرين فيما دون منها في سير المسلمين وفي سائر الكتب.

وبالجملة فليس بين الإباضية والخوارج جامع إلّا إنكار التحكيم مع ما كان من الإباضية من الوقوف في وجه الظلم وإنكاره على الظالمين وهو لا يسوغ بحال حشرهم في زمرة الخوارج والله أعلم.

ما هي مصادرهم العقدية والفقهية؟

يعتمد الإباضية في عقيدتهم وفي فقههم على الكتاب والسُّنَّة والإجماع ويعولون في الفقه أيضاً على القياس والاستحسان وفي هذا يقول الإمام نور الدين السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

والأصل للفقه كتاب الباري إجماع بعد سنة المختار
والاجتهاد عند هذي منعاً وهالك من كان فيها مبدعاً[1]

وإنما يفرقون بين العقيدة والفقه فلا يأخذون في العقيدة إلا بالقواطع ولذلك فإنهم لا يعولون فيها على الروايات الآحادية والمجملات غير واضحة المعاني بخلاف مسلكهم في الفقه فإنهم يجيزون فيه الاستنباط ويقبلون فيه الآحادي، ومن ثم أجازوا فيه القياس والاستحسان مع فقدان النص هذا ولا يفوتني أن أذكر لكم أنهم لا يهملون الجانب العقلي في استلهام معاني النصوص ولا يعني ذلك أنهم يحكمون العقل كالمعتزلة ولكنهم يستبصرون به في درك المقاصد فهم وسط بين أصحاب المدرسة العقلية كالمعتزلة وبين أسارى الألفاظ كالحشوية والظاهرية، والله أعلم.

(١) المشارق: ج ١ ص ١٧٤ ـ ١٧٨.

هل الإباضية مذهب سني ؟

إن كان المراد بالسني النسبة إلى سنة النبي ﷺ فنعم وألف نعم ولا يوجد على ظهر الأرض من هو أكثر تمسكاً من الإباضية بسنة النبي ﷺ وأشد تفانياً في إحيائها كما لا يوجد من هو أكثر التزاماً منهم بكتاب الله وبهدي السلف الصالح من الصحابة والتابعين ولعلك من خلال ممارستك لهم تعرف ذلك بما تلمسه فيهم من صدق وأمانة وتقوى وورع، هذا من حيث عمومهم ولا ينافي ذلك أن يوجد فيهم شواذ غير ملتزمين.

وإن كان المراد بالسُّنَّة شيئاً آخر فلا ينبغي الحكم فيه إلّا بعد تصوره فقد شاع في أوساط بني أمية قبل عمر بن العزيز رضي الله عنه أن لعن الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه سنة وكان ينشأ عليها الصغير ويموت عليها الكبير حتى أماتها عمر وكان أول من دعاه إلى إماتتها الوفد الإباضي الذي تكون من جعفر بن السماك العبدي وسالم بن ذكوان الهلالي وحتات بن كاتب وحيان الأعرج وأبي الحر علي بن الحصين والمعتمر بن عمارة فمثل هذه السُّنَّة يبرأ الإباضية إلى لله منها ولا يرضون أن ينسبوا إليها إذ لم يكونوا منها في قبيل ولا دبير.

هذا وأما ما شاع في أوساط حيكم من أن الإباضية فرقة ضالة وأنهم من الخوارج وأن جابر بن زيد زيف غير موجود في التأريخ فمنشؤه أمران الجهل والتعصب وهما داء الأمة العضال ومحنتها الكبرى، فالهدى والضلال لا يقاسان بأقوال البشر وإنما يميز بينهما بموازين الحق التي أنزلها الله في كتابه وبينها رسوله ﷺ وقد أمرنا الله عزّ وجلّ بالاحتكام إليهما عند التنازع والاختلاف حيث قال ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] وما أبردها على كبدي وكبد

كل إباضي وكل منصف من الأمة أن يحتكم الإباضية وخصومهم إلى الكتاب العزيز والسُّنَّة الصحيحة الثابتة ليتبين المبطل من المحق ويتميز المخطئ من المصيب وقد طالبت بهذا أحد[١] الذين تسرعوا إلى الحكم على الإباضية بالضلال والكفر فما كان من قبله إلّا الرفض والإعراض وهو إن دلّ على شيء فإنما يدل على الإفلاس من الحجة والعجز عن المناظرة.

ودعوى أن جابر بن زيد رضي الله عنه لا وجود له في التأريخ لا تدل إلّا على جهل فاضح وحماقة مخزية فإن جابراً أشهر من نار على علم وناهيك أن معظم أئمة الحديث أخرجوا رواياته ومن بينهم البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة والنسائي والطبراني والدارقطني وقد ترجم له في كتب الرجال ومن بين الذين ترجموا له النووي في التهذيب وابن حجر في تهذيب التهذيب وابن سعد في الطبقات وغير هؤلاء كثير والكل مجمعون على أنه في مقدمة التابعين رواية ودراية وثقة وضبطاً وقد نص على إباضيته كثير منهم يحيى بن معين كما في تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر وأرجو أن تصلك مع هذه الرسالة مجموعة من الكتب والأشرطة سترى فيها الحق رأي العين إن شاء الله، والله أعلم.

قال الدكتور فهد الرومي في كتابه «اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر» ج ١، ص ٣٥٥: «إذا كان الإباضية يعدون من الكبائر الإصرار على ترك السُّنَّة كإحفاء الشارب وجعل طرف العمامة تحت الحلق بلا استخفاف بهذه السُّنَّة يعدون هذا كفر نفاق (ومرجعه تفسير هميان الزادج ج ١، ص ٢١) ثم يحكمون على من كفر كفر نفاق أن الله لا يغفر له، وأنه خالد في النار، ولا يشفع له أبداً، فإن هذا وحده كافٍ على بطلان مذهبهم وانحراف

(١) قد طالب سماحة الشيخ بهذا ابن باز مفتي الديار السعودية السابق إلا أنه رفض ذلك متعللًا بأن في ذلك إشاعة للبدعة وقد رد عليه سماحته في شريط متداول بين الخاص والعام.

عقيدتهم لأن «الله سبحانه أرحم مما يزعمون وهو الرحمٰن الرحيم» اهـ. وللأستاذ الرومي وقفات ووقفات مع الإباضية في كتابه.

نرجو أن توضح الحق في هذه المسألة، ومدى صحة ما استند إليه صاحب الهميان في أن وضع طرف العمامة تحت الحلق من السُّنَّة؟

الظاهر أن الرومي هذا ما أراد بكلامه هذا بحث الحقيقة وتمحيصها، وإنما كل همّه توجيه الطعن على أهل الحق والاستقامة، وإلا فقد أخرج الجماعة إلا البخاري والترمذي عن ابن مسعود ﵁ أنه قال: «ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم» مع ثبوت قول النبي ﷺ «كل ضلالة في النار»[(١)] فهل هذا يعني أن ابن مسعود باطل المذهب منحرف العقيدة؟ أو أنه يرد هذه الروايات؟. وجمهور أصحابنا لا يشددون في ترك التلحي بالعمامة إلا مع قصد مخالفة السُّنَّة فقد روي عن النبي ﷺ «أنه أمر بالتلحي ونهى عن الاقتعاط» والمراد بالاقتعاط ترك التلحي، وليس أصحابنا وحدهم المتشددين فيه، فهذا ابن رسلان من علماء الشافعية يثبت في شرح السنن أن التلحي صار شعار الصالحين المتمسكين بالسُّنَّة، وذكر أن العمامة المقعطة هي عمامة إبليس وقيل عمامة أهل الذمة. وقال أبو بكر الطرطوشي: اقتعاط العمائم هو التعميم دون حنك، وهو بدعة منكرة، وقد شاعت في بلاد الإسلام. هذا مع أن في الحديث الصحيح «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»[(٢)]. فماذا يقول الرومي في كلام الطرطوشي هذا؟ أو أنه يعده من الإباضية؟

ومثله قول ابن حبيب في كتاب الواضحة: إن ترك الالتحاء من بقايا عمائم قوم لوط. وكان طاوس ومجاهد ـ وهما من التابعين ـ يقولان: إن

(١) رواه النسائي (١٥٦٠).
(٢) رواه النسائي (١٥٦٠).

الاقتعاط عمامة الشيطان. وأقوال العلماء في هذا كثيرة، وقد نقل كثيراً منها العلامة الشوكاني في نيل الأوطار ج ٢، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ ط مكتبة الكليات الأزهرية. فراجع كلامه.

وإن كان هؤلاء العلماء يرون أن الاقتعاط من أعمال إبليس أو قوم لوط أو أهل الذمة فهل معنى هذا أنهم يجيزون التساهل فيه مع وجوب مخالفة كل من أولئك ؟.

هذا، وإذا عدنا إلى نصوص علماء المذاهب الأربعة في التكفير وجدنا كثيراً منهم يتسرعون إلى التكفير في المسائل الفرعية الخلافية، كالذي ذكره السيوطي في شرحه على عقود الجمان، من أنه أنشد أحد علماء المالكية قول أحد الشافعية:

مات ابن موسى وهو بحر كامل فهناكم جمع الملائكة مشترك
يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك

فرد عليه المالكي: هكذا كفر عندنا. بناءً على تحريم المالكية الاقتباس من القرآن، ومما لا شك فيه أن المسألة مسألة رأي لا يسوغ فيها التكفير ولا التضليل، وأصحابنا رحمهم الله لتحرزهم يقولون:

قولنا في الفروع صواب يحتمل الخطأ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب.

وما قول الرومي الذي رمى به أهل الحق إلا نفثة مصدور، ولكنها لن تنفس شيئاً عن صدر مليء بالحقد الدفين والبغضاء المتأصلة للحق وأهله، فقد تعامى عن هذه الحقائق كلها مع وضوحها كالشمس في رابعة النهار، لأن حقده طمس بصيرته، ومن أجل ذلك رأى أن الحق محصور في الفرقة الحشوية المجسمة التي استقت عقائدها من ضلالات اليهود بشهادة أحد أبنائها وهو ابن الجوزي الحنبلي في «درء شبه التشبيه بأكف التنزيه».

وبالجملة فإن ما يقوله الرومي هـذا وأضرابه في أهل الحق لا يعدو أن يكون كما قال الشاعر:

فإنـا ومـا تلقي لنـا مـن هجائنا لكالبحر مهما يلق في البحر يغرق

والله ولي التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أحكام أصحاب الملل الأخرى

ما حكم استيراد العمال المشركين إلى السلطنة وكفالتهم؟

استيراد المشركين إلى بلاد الإسـلام من عوامل تقوية الشرك وإضعاف الإسـلام ـ ولا سـيما الجزيرة العربية ـ التي هي مهد الإسلام، وحرمه، فإن النبي ﷺ أوصى بإخراج اليهود والنصارى منها حتى لا يبقى فيها إلّا مسلم[1]، فجلب المشـركين إليها منافٍ لهذه التوجيهات النبوية ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، والله أعلم.

في القرآن الكريم آيات خاصة باليهـود ومكرهم وكيفية التعامل معهم، ولكننا نرى في هذه الأيام المسـلمين يقيمون علاقات مع اليهود، برغم دوام احتلال بيت المقدس وتقتيلهم للمسلمين في فلسطين. أرجو بيان العلاقة التي يمكن أن تقوم بين المسلمين واليهود، والأسس التي تقوم عليها، ومتى قامت هذه العلاقة فما الحكم في ذلك؟

اليهود أهـل مكر وخبـث ومكيدة، دلّ علـى ذلك القـرآن، وترجمته التجارب، وليس الوفاء من شـيمتهم ولا الصدق من ديدنهم، وما وصل إليه

(١) لحديث النبي «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» رواه البخاري ٣١٦٨.

المسلمون اليوم من الانحطاط والهوان حتى مدوا إليهم أيديهم ناتج عن ضعف الإيمان وانهيار القوة، بسبب التفكك وتقطع الأواصر بينهم، لغلبة الأهواء عليهم، ولم يغلبوا من قلة ولكنهم كما جاء الحديث «غثاء كغثاء السيل»[1]، ولن ينتشلهم من هذا الضياع إلاّ تقوية إيمانهم ورجوعهم إلى دينهم وإخلاصهم لربهم، وبذلك تتحد كلمتهم ويرأب صدعهم وتقوى شوكتهم، فيتمكنون من استرداد مجدهم الضائع ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠]، والله أعلم.

ما نسمعه الآن ومنذ أمد غير بعيد أن اليهود يريدون هدم المسجد الأقصى وبناء هيكل سليمان مكانه. هل هذا صحيح؟ فإذا كان كذلك لماذا بقي المسلمون مكتوفي الأيدي ولم يحركوا ساكناً؟

ليس ذلك ببعيد، فإن اليهود لا يؤمن شرهم ولا يرتجى منهم خير قط، أمّا المسلمون فهم بحاجة أولاً: بأن يكونوا مسلمين حقاً، إذ الإسلام ليس هو مجرد انتماء وإنما هو منهج حياة يجب تطبيقه في كل كلية وجزئية، فإن فعلوا ذلك كانوا حقيقين بنصر الله، قادرين على الوقوف في وجه عدوهم، والله المستعان.

ما الوسائل المثلى لرجع القدس وخاصة المسجد الأقصى الذي هو في أيدي اليهود؟ وهل يجب علينا الجهاد وجوباً لرجعه؟

الوسيلة الرجوع التام إلى الإسلام، وذلك الواجب الأول ثم الجهاد، والله أعلم.

(١) رواه أبو داود (٣٧٤٥).

هل يجوز تهنئة النصارى بالاحتفال بيوم ميلاد المسيح ورأس السنة الميلادية. علماً بأن هذه التهنئة مجرد مجاملة وليس للاحتفال معهم؟

هذه المجاملة على حساب الدين، إذ تتضمن اعترافاً بما هم متلبسون به من الضلال عن الحق نسأل الله العافية.

سماحة الشيخ.. ما حكم الإسلام فيمن يتخذ صديقاً له كافراً كالنصارى مثلاً ويبادله الرسائل بعد رجوعه إلى وطنه؟

إن كانت الصداقة لمصلحة، من غير أن يتولاه، فلا مانع والله أعلم.

سائق سيارة أجرة يسأل عن حكم توصيل النصارى إلى الكنيسة؟

أمّا نصارى اليوم فإنهم حرب على الإسلام فلا يجوز إيصالهم إلى كنائسهم، بخلاف ما إذا كانوا أهل ذمة، والله أعلم.

ذكرتم أن فئة من الصابئين ـ في تقسيم الموسوعة ـ يعتمدون التعميد والغطاس، فما معنى التعميد والغطاس؟

التعميد هو ما شهر عند النصارى من اغتسال من يريد أن يدخل في دينهم وينضم إلى معتقداتهم ويدخل تحت لوائهم بماء المعمودية، فهم يعمدونه بالاغتسال من ذلك الماء، وعندئذٍ يتحول من معتقداته الأصلية إلى معتقدات النصارى التي ينقل إليها، فذلك رمز الانتقال إلى معتقدات النصارى التي يميلون إليها، وكذلك أطفالهم يحملونهم إلى هنالك ينشئونهم على النصرانية من خلال تعميدهم وهكذا الغطاس فإنه مأخوذ من الغطس في الماء والله أعلم.

كيف يجمع بين قول من قال بأن الصابئين يعبدون الملائكة أو

الكواكب أو ما شابهها من الأقوال، وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٢].

نعم، الآية جاءت في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وجاء ذكر الملل الست ـ كلها ـ في قول الله تبارك وتعالى في سورة الحج ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الحج: ١٧] فآية الحج هذه لا إشكال فيها، وإنما قد يتصور شيء من الإشكال في آية البقرة وفي آية المائدة المشابهة لها، ولكن آية البقرة جاءت إثر صب قوارع الإنكار على اليهود، وقد اختلف العلماء اختلافاً بالغاً فيها، هل هي في المعاصرين لعهد رسول ﷺ أو هي فيمن كان من قبل، وعلى كلا القولين فإن الإتيان بهذه الآية الكريمة إنما هو لأجل الاستدراك بعد تلك القوارع التي صبت على بني اسرائيل فيما تقدم، فإنه بناءً على قول من قال بأن الآية هي في المعاصرين لعهد الرسول ﷺ قد يذهب الوهم ببعض الناس إلى أنه لا يمكن أن تقبل توبة هؤلاء، وأنهم حقت عليهم كلمة الله، فهم واقعون في سخط الله على أي حال، فأراد الله سبحانه وتعالى ـ بناءً على هذا القول أن يأتي هنا بما يشبه الاستدراك لإفهام الناس أن باب التوبة مفتوح وأن الله سبحانه وتعالى يجزي كل من آمن وعمل صالحاً من هذه الملل كلها بالمثوبة إن ترك ما هو فيه وعليه من الضلالة، وانخرط في سلك الإيمان بالله والعمل الصالح، وأما على القول الآخر بأن الآية في السابقين قبل مبعث رسول الله ﷺ فالآية أيضاً جاءت بما يشبه الاستدراك، لئلا يذهب الوهم بأحد إلى أن هؤلاء ومن كان قبلهم من أسلافهم الماضين حقت عليهم جميعاً كلمة الله، فجاء البيان الإلٰهي هنا بما يثبت أن هؤلاء لم يمقتوا لعنصرهم وإنما مقتوا لصنيعهم.

فأسلافهم السابقون الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون، وليست الآية في الذين يعبدون الأجرام الفلكية ويعبدون الكواكب ...إلخ وإنما فيمن كانوا من قبل موحدين، والله أعلم.

إن قال قائل إنه لا يسع جهل الملل الست لكون القرآن نص عليها فبماذا يجاب؟

نحن نقول بأن كل من قامت عليه الحجة بمعرفة أي شيء نص عليه القرآن فإنه لا يسعه جهل ذلك، لكن لو قدرنا أن أحداً من الناس قرأ القرآن وهو أعجمي اللسان لا يفقه من معانيه شيئاً إلا ما يترجم له، وهو لم يترجم له شيء من هذه المعاني، فهل يقال إنه لا يعذر بجهل هذه الحقائق التي نص عليها القرآن، مع أن الحجة لم تقم عليه لعدم معرفته هذه الألفاظ القرآنية وذلك لو أن أحداً من الناس يتحدث بالعربية ولكنه لم يرق به فهمه إلى معرفة معاني القرآن الكريم، على أن كثيراً من الأمة أميون لا يقرأون القرآن، فهل هؤلاء ـ في جميع هذه الأحوال ـ لا يعذرون، بل عليهم أن يعرفوا معنى اليهود والنصارى والصابئين والمجوس ...إلخ؟! على أن الصابئين اختلف فيهم اختلافاً كبيراً، فتحديد هويتهم أمر صعب لا يمكن أن نتوصل إليه إلا بعد استقصاء لمعتقداتهم ومعرفة عباداتهم، وذلك يكاد يكون متعذراً، والله أعلم.

لو ادعى رجل أنه من الصابئين فكيف يمكن لنا أن نعرف صدقه من كذبه، وهل نجري عليه أحكام الصابئين أم لا؟

إن ادعى أنه صابئ فالأصل أن يصدق في دعواه، وهناك قرائن يمكن من خلالها أن تعرف حقيقة أمره، ويستجلى صدقه من كذبه، فبالإمكان أن

يمتحن ويسأل ماذا يعتقد وماذا يعبد وأين يتجه فتمكن المقارنة من خلال هذه الأقوال المحكية، ويعرف من خلال ما يخبر به عن نفسه أنه صابئ أو لا، والله أعلم.

هل للصابئين وجود في زماننا هذا، فإن كان لهم وجود فأين؟

نعم، لهم وجود، وقد اطلعت على استطلاع عن الصابئين في إحدى الصحف قبل عقود من السنين وهؤلاء هم صابئة العراق، ولكن يقال إن عددهم قليل جداً يتراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً وتوجد أيضاً صائبة بحران من بلاد الشام، والله أعلم.

هل يسع جهل أحكام الملل الست لمن قامت عليه حجتها؟

من عرف هذه الملل واطلع على أحكامها وقامت عليه حجتها فلا يعذر إذا جهل ذلك، إذ لا يرجع أحد من العلم إلى الجهل، ولا من اليقين إلى الشك والله أعلم.

ألا يمكن الجمع بين الأقوال المتعددة في الصابئة ونقول إن من هذه الطائفة من آمن ووحّد، ومنها من أشرك وعبد غير الله تعالى، ويمكن أن نلمس ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الحج: ١٧]؟

يحتمل، ولكن كيف يقال إن منهم مجوساً ومنهم أهل كتاب ومنهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الكواكب... إلى آخر تلك الأقوال الغريبة ومنهم من يقول إن قبلتهم إلى القطب الشمالي فهذه أقوال متضاربة والله أعلم.

هل يمكن تحديد الفترة التي بدأ فيها ظهـور الصابئة؟ وإذا كانوا على أحد الأقوال ينتسبون إلى ولدي آدم عليه السلام، فهل هم طائفة من المجوس أم المجوس طائفة منهم؟

ذكر ابـن حزم في كتابـه «الفِصَل فـي الملل والأهـواء والنحل» بأن الصابئين هم أقدم ملة، ثم انحرفوا بعد ذلك عن الجادة، وبناءً على كلامه هذا فقد كانوا أهل توحيد، لأن أسـبق الملل ملة التوحيد، فآدم عليه السلام عندما أنزل إلى الأرض واسـتقر فيها كان على ملة التوحيـد، وكان بنوه وأتباعه على ملـة التوحيد إلى أن حصل فيهم الانحراف، ثم جميع الرسـل الذين بعثوا من بني آدم هم على ملة التوحيد، فيحتمل إن كانت الصابئة انحرفت عن ملة التوحيد وشـرعت لها ما لم يأذن به الله مـن العبادات، ودانت بما هويت أنفسـها من المعتقدات يحتمل أن يكون انحـراف بعض الطوائف الأخرى ناشـئاً عن انحرافها، فمن المحتمل أن تكون الطائفة المجوسـية استمدت شـيئاً من معتقداتها وطقوسـها من الصابئة، ويفهم من كلام ابن حزم أن الصابئة كانـوا على التوحيد ثـم انحرفوا بعد ذلـك فبعث فيهم إبراهيم عليه السلام، والله أعلم.

ذكرتم بأن الصابئة تعتقد بعقيدة لا إلٰه إلا الله، فهل نسـتطيع القول بأن السيخ صابئة لاعتقادهم بعقيدة لا إلٰه إلا الله.

لا نسـتطيع القول بذلك، لأن الصابئة بناءً على الأقوال التي قيلت فيهم لهم مزايا خاصة في المعتقـدات وفي العبادات ولهـم طقوس تميزهم عن السيخ، والله أعلم.

ما معنى قولكم قد يكون قوم زرادشت أهل كتاب ولكن رفع الكتاب عنهم؟

لا يلزم أن يكون الرفع رفعاً حسـياً، ولكن الرفع بالتلاشي، فهم أضاعوا

الكتاب ولم يحافظوا عليه، وما لم يحافظ عليه يتلاشى ويذهب، فلعل هؤلاء كان هذا شأنهم والله أعلم.

إذا اغتصب المشركون مالاً لمسلم، ثم غنم المسلمون غنائم من أولئك المشركين المغتصبين، فهل يحق للمسلم أن يطالب بتعويض عن ماله المغتصب، علماً بأن ماله المغتصب ليس من ضمن الغنائم ؟

ما دام ذلك المال عينه غير مغتصبة فلا والله أعلم.

هل يجوز التعامل مع المشرك فيما استولى عليه من مشرك مثله ؟

إن استولى مشرك على مال مشرك، فإن لم يظهر لنا ذلك فما لنا وله، وإن ظهر لنا ذلك فإن الظلم مردود، ولا يجوز معاونة الظالم على ظلمه، والله أعلم.

إذا اشترى المسلم من المشرك المال الذي استولى عليه لكي يرده إلى صاحبه فما حكم ذلك ؟

إن كان ذلك لا يقوي المشرك على شركه، وإنما هي محاولة لانتزاع ذلك المال من يده ـ بمثابة فك الأسير من الأسر ـ فلا حرج في ذلك والله أعلم.

إذا استولى كافر على مال مسلم، وأخذ يتقوى به على محاربة المسلمين، فهل يجوز إتلاف ذلك المال إن وجد إلى ذلك سبيلا ؟

نعم، يتلف ذلك المال مع التعويض على الرأي الذي نختاره، أما على رأي القائلين بأنه ينتقل إلى ملكية المشرك فيتلف من غير تعويض، والله أعلم.

ما دليل أصحاب القول الوسط الذي يجوّز أخذ مال المسلم بعد سيطرة الكافر عليه إذا قسم غنيمة ما بين المسلمين؟

الدليل على ذلك حديث رواه الدارقطني من طريق ابن عباس جاء بهذا التفصيل، ولكن الحديث ضعيف[1] ولذلك لم نأخذ به، والله أعلم.

هل يمكن القول إن المال لله، استخلف الإنسان عليه، فإن استطاع المسلم استخلاصه من يد الكافر فقد استخلفه الله عليه؟

لا نستطيع أن نقول بأن أخذ المسلم المال من يد الكافر يعني انتقالاً لذلك المال عن صاحبه إلى الذي استخرجه من يد الكافر، بل نقول إن المال يبقى لصاحبه، وإن كان المال مال الله، ولكن الله خص منفعته بمن خصه به، والله أعلم.

إذا وقع مشرك أو منافق في شيء من المخاطر، وكان هناك بعض المسلمين، هل يجوز أن ننجيه؟

الإحسان مطلوب في كل شيء ولكل أحد، فلعل ذلك الإحسان يكون سبباً لاستقامته وصلاحه، وعليه فلا مانع من إنجائه بل هو مأمور به، والله أعلم.

من المعلوم أن المشركين في حرب على المسلمين هل تحل أموالهم؟

إن حاربهم المسلمون حربا مشروعة في الدين لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى فنعم، ولكن إن كان المسلمون يحاربون لأجل وطن أو لأجل قومية أو أمثال هذه الشعارات التي ما أنزل الله بها من سلطان فلا، والله أعلم.

---

(١) حديث الدارقطني من طريق ابن عباس عن النبي ﷺ قال: فيما أحرز العدو فاستنقذهُ المسلمون منهم أو أخذه صاحبه قبل أن يقسم فهو أحق فإن وجده وقد قسم فإن شاء أخذه بالثمن». الدارقطني السير رقم ٤١٥٥.

هل يجوز استجلاب الأيدي العاملة من المشركين؟

نحن نأسف كثيراً أن الغيرة الإيمانية انطفأت شعلتها في قلوب المؤمنين، ومن أجل ذلك صاروا لا يفرقون بين المسلم وغيره، فيستوردون الأيدي العاملة التي لا تجر على البلاد الإسلامية إلا الوباء والوبال، ولا تنشر في أوساط المسلمين إلا الفساد والإلحاد ـ والعياذ بالله ـ، مع أن هؤلاء يرجعون إلى منظمات كفرية من شأنها محاربة الإسلام والمسلمين، وقد عرف عنهم أن سعيهم إنما هو لتدمير عقيدة المسلمين، وللقضاء على كيانهم وهم يسخرون ما يجمعونه من بلاد الإسلام لأجل محاربة الإسلام في بلاد الإسلام وفي غير بلاد الإسلام، فعندما يرجعون إلى بلادهم يضايقون المسلمين هناك، ويحاربونهم بهذه الأموال التي يجمعونها ويستخرجونها من أيدي المسلمين في بلاد المسلمين، فالقضية ليست قضية هينة، على أن وجودهم وكثرتهم في بلاد الإسلام قد يؤدي إلى مضار تعرفونها، وهذه الأمور يجب التنبه والتفطن لها، وخصوصاً في جزيرة العرب التي قال فيها الرسول ﷺ: «لئن بقيت لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً»[1] وقال عليه الصلاة والسلام: «أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب»[2]، وقال: «لا يجتمع بجزيرة العرب دينان»[3]، فالواجب على المسلمين التنبه لذلك والله أعلم.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ

(١) رواه مسلم (٣٣١٣).

(٢) رواه البخاري (٢٨٢٥) ومسلم (٣٠٨٩) بلفظ (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب) ورواه أحمد (١٦٩١) بلفظ (أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران).

(٣) رواه البيهقي (١١٤٠٩).

عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨] ألا يمكن أن يقال إنها ناسخة، فالذي يظهر منها أنها نزلت بعد عام الفتح وذلك لقوله ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨] ولفظة نجس مطلقة تشمل نجاسة الحس ونجاسة المعنى فلا بد لتقيدها من الاحتمال، وما طرقه الاحتمال سقط به الاستدلال؟

الآية الكريمة وإن كانت نزلت بعد الفتح فإن حكمها كان سارياً من قبل، بدليل موقف فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها من أخيها عمر رضي الله عنه قبل إسلامه، وبدليل موقف السيدة أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها من أبيها عندما وفد على رسول الله ﷺ، وإنما نزلت الآية مقررة لما كان معلوماً من قبل عند المسلمين، لأجل أن يبنى على ذلك النهي عن قربان المسجد الحرام من قبل المشركين، وأما القول بأن هذه النجاسة نجاسة حسية ونجاسة معنوية، فإن حمل هذه النجاسة على كونها نجاسة معنوية إنما يتوقف على وجود القرينة، والقرينة عندما توجد تصرف اللفظ عن معناه الحقيقي إلى معناه المجازي بحيث لا يجمع بين المعنى المصروف عنه والمعنى المصروف إليه، ولذلك قال أكثر العلماء بأن اللفظ إن حمل على المجاز لم يحتمل الحقيقة لأن القرينة التي صرفته إلى المجاز دلت على أن الحقيقة غير مقصودة به، فلذلك كان الجمع بين الحقيقة والمجاز متعذراً في قول أكثر العلماء المحققين، والله أعلم.

قلتم: إن نجاسة من يقولون بأنهم كتابيون نجاسة حسية، فهل تنقض مصافحتهم الصوم؟ وإذا كان ذلك فما الواجب على من قام بذلك؟

من الذي يقول بأن الصيام ينتقض بملامسة النجاسة؟ فهل من أحد قال بذلك؟ فالصوم لا ينتقض بملامسة النجاسة بلا خلاف، والله أعلم.

ذكرتم بأنكم سألتم بعضاً من القساوسة عن التناقض بين الأناجيل، فهل لنا أن نعرف ردهم عليه؟

نعم زارني ذات مرة أسقف من قبرص وقسيس من بريطانيا، وطرحت عليهما العديد من الأسئلة، ومن جملة الأسئلة التي طرحتها هذا التناقض الذي نراه في الأناجيل الأربعة، مع أنهم يعتقدون أن هذه الأناجيل الأربعة هي مقدسة، وأنها كلها حق، والحق لا يتناقض، فكيف هذا التناقض العجيب فيها في أمر يعد من أساسيات الاعتقاد عندهم، وكيف يمكن أن يكون الموصوف بأنه ابن الله هو الموصوف بأنه إنسان والموصوف بأنه عبد أن يكون هو الله؟!! فهل يمكن أن يكون الابن هو الأب وهل يمكن أن يكون العبد هو الرب ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً؟! فما كان من إجابتهم إلا أن قالوا بأن هذه القضايا يعرفها المتوغلون فيها والدارسون لها، وما هذا إلا تهرب فإن الدين يخاطب به جميع الناس، فلا بد أن تستوعبه عقولهم جميعا إذ هو ليس حكراً على طائفة من الطوائف، وكيف يمكن أن يكون هذا الدين مجرد اتباع من غير اقتناع، ومن غير أن تكون عقيدته مفهومة بينة حتى ترسخ في النفس، وكذلك زارني مرة أخرى قسيس آخر من بلاد أخرى ـ لا أذكرها الآن ـ وطرحت عليه هذا السؤال مع أسئلة أخرى، وكان من ضمن الأسئلة التي سألتهم عنها ما وجدته من صراع كبير بين الطائفة البروتستانتية والطائفة الكاثوليكية خصوصاً بعد ما قام لوثر بحركته الإصلاحية فإن البروتستانت أفضى بهم الأمر إلى أن كثيراً منهم نص على أن البابا هو طاغية وأنه ملعون وأنه ضال وأنه على غير هدى من ربه وعلى غير بصيرة من دينه، فسألتهم هل تعتقدون أنتم بصفتكم بروتستانت نفس هذا الاعتقاد؟ ولكنهم حاولوا أن ينفوا ذلك، وأخبرتهم بأن هذه النصوص موجودة صريحة فيما كتبه مراجعهم الدينيون، ثم سألتهم عن معنى هذا الإصلاح، فإن كانت

الحركة الدينية التي كانت من قبل حركة صحيحة فما معنى هذا الإصلاح؛ وهل هذا الإصلاح استند إلى نصوص سابقة؟ وكان أيضاً من ضمن ما سألتهم عنه، متى كتبت الأناجيل الأربعة؟ فاعترفوا بأنها كتبت بعد المسيح عليه السلام بنحو سبعين عاماً، فقلت لهم: وإنجيل برنابا؟ قالوا: هو غير مقدس، قلت لهم تاريخه قبل هذه الأناجيل الأربعة، وهو أقرب عهداً بالمسيح عليه السلام وهو يتفق مع العقل السليم، ويتفق مع النصوص القطعية من القرآن الكريم، فإن إنجيل برنابا فيه نصوص تتفق مع نصوص القرآن الكريم، حتى أنه نص على نبوة نبينا محمد ﷺ كما جاء في سورة الصف ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] إذ جاء صريحاً فيه هكذا، ولكنهم حاولوا أن ينفوا كونه كتاباً مقدساً مع أن نصوصه هي التي تتفق مع العقل السليم والفطرة السليمة والله أعلم.

ما هي أوجه الشبه والاختلاف بين العقيدتين اليهودية والنصرانية؟

هؤلاء وهؤلاء ليسوا على شيء، وقد شهد بعضهم على بعض بذلك، فاليهود قالت ليست النصارى على شيء والنصارى قالت ليست اليهود على شيء، فهم جميعاً ليسوا على شيء بشهادة كل واحدة من الطائفتين على الأخرى، ولا يجمعهما جامع إلا بغض الإسلام وعداوته، فقد اجتمعوا جميعاً على عداوة الإسلام وإلا فهؤلاء أفرطوا وهؤلاء أفرطوا، فالنصارى أفرطوا في ـ عيسى عليه السلام حتى ادعوا أنه هو الله وأنه ابن الله، واليهود ـ لعنهم الله ـ غلوا في تنقيص المسيح عليه السلام نزهه الله وبرأه مما قالوا ـ إذ زعموا أنه زنيم، وإنما الأصل في ذلك أن النصارى ـ وخصوصاً البروتستانت ـ يعتمدون على العهدين العهد القديم والعهد الجديد، وإلا فمن حيث المعتقد: فمعتقد هؤلاء زائغ ومعتقد هؤلاء زائغ وإن كان المعتقدان لا يتفقان على شيء، وقد يفضي

الأمر بالنصارى أحياناً إلى الطعن في موسى عليه السلام ولكنهم لم يطعنوا فيه كما طعن اليهود في ـ عيسى عليهما السلام جميعاً وبرأهما مما قال هؤلاء وهؤلاء، ومما يجب أيضاً أن ندركه بأن اليهود والنصارى بكفرهم برسول الله ﷺ أصبحوا جميعاً غير منتفعين ولو آمنوا بالرسالتين السابقتين، وقد أجاد في هذا أحد علماء المعتزلة عندما حاوره يهودي فسأله عن إيمانه بموسى والتوراه فقال: إن موسى الذي بشر بمحمد ﷺ ودعا إلى الإيمان لا شك أنني أؤمن به وكذلك التوراة المبشرة به ﷺ الداعية إلى الإيمان وأما موسى الذي لم يدع إلى الإيمان به ﷺ فليس هو برسول من الله وإنما هو شيطان وكذلك التوراة المنافية للإيمان بالقرآن وبمحمد عليه الصلاة والسلام ليست هي من وحي الله وإنما هي من وحي الشيطان والله المستعان.

عاملة كُتِبَ على بطاقتها أنها نصرانية ولكن لا يظْهَر في حركاتِهَا وفي عباداتِها شيءٌ يدُلُّ على أنَّها نصرانية، فكيف يُمكن للمسلم أن يُمَيِّزَ بالنسبة للعاملات بين مَن هي نصرانية وبين مَن هي مُشْرِكة؟ وما حكم رُطُوبَاتِ كُلٍّ منهما؟

إذا كانت تقرأ الإنْجِيل، وتَدِينُ بِهذه الدِّيانة فَيَحِلُّ طَعَامُها كما جاء القرآن بِذَلِك، وإلا فَهي في حكم المشركين، والمشركون حكمهم كما قَال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٢٨]؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

مَن هم أصحاب الفَتْرَة، وإلى أين مأواهم؟

أصحاب الفَتْرَة هُمُ الذين كانوا بين نبِيَّيْنِ مِن أنبياء الله، ومعنَى هذا أنَّ أصحاب الفترة هُم الذين سَبَقوا بعثة سيدنا رسول الله ﷺ بِحيث لَم تصل إليهم دعوته، وما كانوا مُعَايِشِين ـ أيضاً ـ لِدَعْوَة نَبِيٍّ مِن الأنبياء الذين هُم

قَبلَه وقد اختلف العلماء فيهم هل هُمْ مَعْـذُورُون أم لا ؟ فالذين قالوا بأنَّهم مَعْذُورُون نَظَروا إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]، ومعنَى ذلك أنَّه قبل أن يُبْعَث رسول إلى أمَّة مِن الأمم فإن تلك الأمة تكون معذورة بسبب جهلها وعدم معرفتها.

وَالآخرون اعْتَمَدُوا على روايات جاءت تدُل على أن هؤلاء يُسْـأَلُون يوم القيامة وَيُعَذَّبُون، وقالوا بـأن المراد بقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] عَذَاب الدُّنيا أيْ لا يُرْسِل الله تعالى نِقَماً عَلَى الأمم بسبب عدم عملها بالحق إلا بَعْدَ أن يُرْسِل إليهم رسولاً فَيُكَذِّبُوا ذلك الرَّسُول، عندئِذ يُرْسِل الله تعالى عليهم نِقَماً بسبب هَذَا التَّكذيب، وأمَّا الأمم فإنَّها مسؤُولة عن اتباع الحق الذي جاء به المرسـلون مِن قَبْل، إذْ مَا مِن أمَّة إلا وهي مسـبوقة بِرِسَـالَة، فآدم عليه السلام كان رسـولاً إلى بَنِيهِ كما هو شـائع، ثم جـاء بعد ذلك نوح عليه السلام فكان رسولاً، ثُم هَلُم جرا فقد أرسل الله تعالى المرسلين مَتَوالين كل واحد منهم يَلِي الآخر ولو بعد فترة، ولكن مَوَاكب النُّبُوَّات لَمْ تَنْقَطِع عَنْ هَذِه الأرض فكانت حُجَّة الله ـ تعالى ـ قَائِمَة، علـى أنَّ كثيراً مِن الأمور التي كان عليها أهل الجاهليـة تَتَنَافى مع العقل السَّـليم ومع الفِطرَة السَّـليمة فكانوا يَتَّخِذُون آلِهة مِن دون الله، إذ كانوا يعبدون آلِهَـة يصنعونَهَا بأيديهم وهذا مِمَّا تَأْبَاهُ العقول السـليمة، فلذلك قالوا بأنَّهم غير معذورين، وحقيقة الأمر الأدِلَّة في هَذَا مُتَعَارِضَة ونَحْنُ نَكِلُ الأَمْر إلى الله سـبحانه، ولَسْنَا مسؤولين عنهم إذْ لَم يَأتِ نَص قطعي لنكون مُتَعَبَّدِين بِهِ؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

هناك عدد من المفاهيم يقـول البعض بأن دعاة المسـلمين يوضحونها بصورة تخالف الواقع الذي يعيشـه الناس اليوم، مـن بين ذلك يقولون بأن هنالك عـداوة محكمة بين العقيدة الإسـلامية وعقيدة أهل الكتاب

حيث أن الصورة المدفوع بها هو أن أصحاب هـذه العقيدة لا يحملون شيئا من الخير للأمة المسلمة، ولكن الذي يشاهده الناس الآن هو أن أصحاب هذه العقيدة يندفعون بأعداد كبيرة للدفاع عن شعوب مسلمة في حين لا يُرى شيء من ذلك عند المسلمين بالطرق السلمية نفسها، فهل هذا يشكك في عقيدة المسلم؟

عقيدة المسلم عقيدة واضحة لا غبار عليها، ويجب أن نعلم أن العقيدة الصحيحة التي جاء بها الكتاب المنزل قبل القرآن الكريم لا تتصادم مع عقيدة القرآن ولا تختلف إذ لم يكن نسخ في المعتقدات أبداً، وإنما حصل لها ما حصل من التحريف، فجاء القرآن الكريم ليصوب هذا التحريف الذي حصل، وليرد الناس إلى الجادة التي كان عليها الأنبياء المتقدمون، وهو الذي يعنيه قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، وقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة: ١٩].

ونحن نجد القرآن الكريم ينصف أهل الكتاب فلا يعمم الحكم عليهم بالانحراف جميعاً، لأن بعض أهل الكتاب في عصر النبوة أدركوا الحقيقة وأتبعوا الحق بل كانوا على الحق من قبل أن ينزل القرآن، فالله تبارك وتعالى يقول في هؤلاء: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٥٢ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٥].

هكذا يصف طائفة من أهل الكتاب، أنهم اتبعوا الحق، وآمنوا به وارتضوه ولم يفرطوا فيه، ويقول الله تعالى:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٤].

ويقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٣] إلى آخر ما وصفهم الله تعالى به.

فهذا ثناء من الله تبارك وتعالى على طائفة من أهل الكتاب، أنزل فيهم الحق تعالى قرآناً يتلى في الصلوات وفي غيرها، وهو مما يدل على إنصاف من كان منصفاً متبعاً للحق. ونحن لا نشك أن كثيراً من الناس على الفطرة. ولو تبينوا الحقيقة لقبلوها، ولو تبينوا الحق لاتبعوه، ولكن هنالك ضباب حال ما بينهم وبين معرفة الحق.

ونرجو أن يكون هنالك عرض حسن للإسلام من قبل المسلمين، وهذا يتوقف كما قلت أكثر من مرة إلى أن تصوغ الأمة نفسها أولاً صياغة جديدة، تكون مستمدة من القرآن ومن السُّنَّة الثابتة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، عندئذ تكون حقيقة بأن تعرض الإسلام الحق، أما وهي على ما هي عليه من الانحراف في الفكر ومن الاختلاف في المناهج والمسالك،

ومن التفرق إلى ذات اليمين وذات الشـمال وإيثـار الهوى على الهدى فإن ذلك مما يجعل ظهور الإسلام عند الأمم الأخرى على غير حقيقته لأنه يظل مكتنفـاً بضباب كثيف يحجب صورته وملامحه، فلذلـك كان من المهم أن يبخر هذا الضباب حتى تسطع شـمس الحقيقة فتتبدد الأوهام ويتبين الناس حقيقة الإسلام دين الله تعالى الحق، والله الموفق.

رجل تزوج من هولندية وهو في مصر ووثَّق زواجه في السفارة الهولندية والمصرية لكن عندما انتقـل معها إلى هولندا لم يرها تصنع شـيئا من المسيحية ولا تؤدي طقوساً معينة تتصل بالنصرانية، وحاول أن يدعوها إلى الإسلام ولكنها لَم تستجب، فالآن هل يتركها أم يبقى معها؟

لا ينبغي للمسلم أن يكون أسـير شـهوته، وأن يندفع في الزَّوَاج بِمن لا يرتضيها في دينها، ذلك لأن زواج المسلم من الكتابيات شُرِع في الوقت السـابق ليكون وسيلة من وسـائل الدعوة إلى الإسـلام عندما يحتَكُّ أهل الكتاب بالمسلمين ويرَوْنَ فيهم الأخلاق الفاضلة والـمُثُل العليا والاستقامة على الطريقة، فإن ذلك مِمَّا يُؤَدِّي إلى أن يَتَفَاعل هؤلاء مع المسلمين، وقد كانت كلمة المسـلمين نافذة، ودولتهـم مهيمنة، اسـتخلفها الله تعالى في الأرض ومَكَّن لَها، فالمؤمن إذا تـزَوَّج الكتابية ومات عنها فإنه يَموت وهو قرير العين لأن أفلاذ كبده سـوف ينشؤون على الإسـلام في كنف الدَّولة الإسـلامية، وأمَّا الآن فالأمور بعكس ذلك تَماماً، فكثير مِن الذين تَزَوَّجُوا غير المسـلمات عَرَّضُوا أولادهم للارتـداد، وعرَّضُوهم لأن يَنْشَـؤُوا على الكَفر، بعيدين عن الإسلام.

وهذا وقَعَ عند أُنَاس كثيرين أعرفهم، حتـى أدى الأمر إلى أن تكون أسرة أعرفها خرَجَ منها أربعون على غير الإسلام ـ والعياذ بالله بسبب هذا

التَّسرُّع في الزواج بغير المسلمات، فبِما أن هذه المرأة امتنعت عن الإسلام فلا أرى أن يَتمَسَّك بِها بل خير له أن يُسَرِّحَها ولا سيما أنَّها ـ أيضاً ـ غير متمسكة بتعاليم دينها الذي هي عليه فماذا عسى يرتَضِيَ منها؟ على أنَّه لا بد مِن مُرَاعَاة أن تكون هذه التي يتزوَّجها مُحصَنَة، أي عفيفة والله تعالى يقول:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [المائدة: ٥].

فترون أن الله ـ تعالى ـ اشترط الإحصان، والمقصود بالإحصان هنا العفَّة؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

شخص سبَّ الدِّين والعياذ بالله، هل يُعْتَبَر نَجِساً نَجَاسَة حسِّيَة؟ يعني هل تتنجس مَلَابسُه وَعرقه؟

علينا أن نُدْرِك أن الدِّين إنَّما هو دين الإسلام، لأنّ الله ـ تعالى ـ قال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، فَسَبُّه سب لِمن شَرَع هذا الإسلام، فمن سبَّ الدين وَلَم يَتُب ولَم يُقْلع عن غَيِّه ولَم يَعُد إلى الشهادتين فإنه يكون في حكم المرتد عن دين الله والعياذ بالله.

والمرتد هو في حكم المشرك، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٢٨]، وهذه النجاسة اختلف فيها هَل هي نَجَاسة حِسِّيَة أو أنَّها نَجَاسَة معنوية؟ ثم إن كانت حِسِّيَة فهل هي نَجاسة كَسْبِيَّة لأنَّهم لا يتقون النَّجَاسَات أو هي نَجَاسة ذاتية؟ هذا مِمَّا اختلف فيه، والذي يَتَرَجَّح

أن هذه النَّجاسة حسية بدليل أن السـيدَة أم المؤمنين أم حبيبة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهَا لَّما جاء أبو سـفيان قبل الفتح إلى المدينة المنورة طالباً تَمديد صلح الحديبية بعدما حدث ما حدث مما أدى إلى قلق قريش ودخل عليهـا أراد أن يَجلس على الفراشِ فطوتـه عنه، فعجب من أمرها، فقالت له: «إنَّك رَجُل مشـرك نَجَس وهذا فراش رسـول الله ﷺ»، فهذا دليل على أن هذه النجاسة حسِّيَة وإلا لَما أرادت أن تطوي الفراش عنه، هذا مِن ناحية.

ومن ناحية أخرى نجد ما يدل على ذلك في قصة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ قبل إسلامه عندما أراد أن يمسك القرآن فاشترطت عليه أخته أن يغتسل.

وعند من يجعلها نجاسة كسبية يقول بأنه ـ أي المشرك ـ إنما هو نجس لأنه لا يتقي النجاسات وعلى هذا فلو اغتسل وأماط الأذى عنه ولم تكن فيه نجاسـة فلا حرج في رطوباته، والتعبير بالنَجَس لا بالنَجِس يؤكد أن ذواتهم أنجاس؛ والله ـ تعالى ـ أعلم.

هل للمسلم أن يُشَارِك غَيْرَه في احْتِفَالَات رأس السَنَة الميلَادِية إذا دُعِي إِلَيْها؟

لا ريب أن المسـلم لَطِيفُ المعَامَلَة والمعْشَـر وَلكـن مع ذلك أمر عقيدتـه لا يُمكن أن يَتَهـاوَن فِيه، فَإِنَّـه يَحْرِص كل الحِـرص على أن يَسْتَمسِـك بِعقيدته، وهذه الاحتفـالات ترتبط بِمُعْتَقَـدَات تَخْتَلِف تَمَام الاختلاف عن مُعْتَقَدَات الإسـلام فلِذلك يَتْرُك المسـلم أَهْلَهَا وشـأْنَهُم ولا يُشَاركهم فيها، والله أعلم.

هل يصح أن نقول إن الشريعة الإسلامية ناسخة للشرائع السماوية السابقة؟

نعم؛ الشريعة التي جاء بها الرسـول ﷺ هي ناسخة للشرائع السابقة بل

يجب علينا أن نقطع بذلك قولاً واعتقاداً، ومصدر الشرائع واحد، فكلها من عند الله تعالى ولكن الشرائع السابقة كانت موقوتة والشريعة التي بعث بها النبي ﷺ بعدما استقرت على ما هي عليه هي شريعة مستمرة ثابتة لا ينسخها ناسخ والله أعلم.

لو سأل سائل لماذا لا تصلح الديانات اليهودية والنصرانية في هذا الزمان، فكيف نرد عليه؟

وهل الديانة اليهودية ـ بحسب ما عليه اليهود اليوم ـ والنصرانية ـ بحسب ما عليه النصارى اليوم ـ صلحت في عصر من العصور حتى يقال لماذا لا تصلح في وقتنا هذا.

كيف وهي ديانة ليست فيها طاعة لأمر الله، حسبك ما فيها من جعل أنداد لله كما قال تعالى:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

وكيف تصلح ديانة يعتقد المتدين بها أن الله تعالى ثالث ثلاثة أو أن له شركاء؟! أو يعتقد المتدين بها أن الله تعالى يحسد عباده، كما يعتقد اليهود أن الله حسد عباده على العلم، وأنه منع آدم عليه السلام أن يأكل من شجرة العلم حسدا منه للجنس البشري خشية أن يتعلموا شيئا فيميزوا بين الخير والشر، ناهيك بتشبيههم الله بخلقه حتى زعموا أنه يَصرع ويُصرع تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وذلك فيما نصت عليه توراتهم المحرفة أن اسرائيل صارع الله وقد تمكن من صرعه ولم يفلته حتى باركه تعالى الله عن ذلك، وقد قلت من قبل إن الديانة الصحيحة التي بُعث بها جميع الرسل ديانة قائمة على عقيدة

التوحيد وعقيدة التنزيه لله فلم يأت رسول من رسل الله بعقيدة التثليث ولا بعقيدة التشبيه والله أعلم.

تعددت الشرائع السماوية ولم تتعدد الأديان السماوية، فما الأديان الأخرى التي يدل عليها قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]؟

أدرك الإنسان بطبيعته أنه بحاجة إلى ما يسمى دينا لأن الإنسان بدون دين يشعر بخواء فكري وفراغ روحي، فحاول أن يملأ هذا الفراغ بأي شيء كان، فلذلك أحدث الناس ما أحدثوه من الديانات التي ابتدعوها من فكرهم المحدود وعقلهم القاصر ونظرتهم الجامدة، ففشلت هذه الديانات في إسعاد الإنسان لأنها لا تدل على حقيقة من حقائق الغيوب ولا تحل لغزا من ألغاز هذه الحياة، فكل العبادات والطقوس التي يمارسها الناس من منطلق تعبدهم ترجع إلى تصورات اعتقدوها ولكنها ليست من الحقيقة في شيء، بل هي أوهام باطلة لأنها لا تتفق مع أمر الله ومن يبتغ دينا من هذه الأديان غير دين الإسلام فلن يقبل منه، أما اليهودية فهي تحريف للدين الحق الذي بعث الله به موسى عليه السلام، والنصرانية هي تحريف للدين الحق الذي بُعث به عيسى عليه السلام، ناهيك بالوثنية التي هي كلها أوهام وخرافات فمن يبتغ دينا من هذه الديانات الباطلة كلها غير دين الإسلام دين الله تعالى الحق فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين والله أعلم.

إذا كان دين الرسل هو دين الإسلام فما مصدر تسمية كل من النصرانية واليهودية إن صحت التسمية، وما الدليل على أن النصرانية هي دين الإسلام؟

أنا لم أقل إن النصرانية هي دين الإسلام، قلت إن النبيين بعثوا بالإسلام كما قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣] أما تسمية اليهودية والنصرانية، فقيل إن اليهودية سميت يهودية أخذا من قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي ملنا إليك وابتغينا ما أنت تأمر به، ومن هذا يكون هاد يهود بمعنى مال يميل، وقيل نسبة إلى يهوذا وهو سبط من أسباط بني إسرائيل، فبنو إسرائيل كانوا منقسمين إلى اثنى عشر سبطا، ورأى بعض المفسرين المتأخرين أن هذه التسمية وجدت بعد الانشقاق الذي حصل بين بني إسرائيل أنفسهم وذلك بعد ما مات سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ فانقسمت مملكة إسرائيل إلى مملكتين؛ مملكة ابنه رحبعام ومملكة غلامه يوربعام، فكثير من الأسباط مالوا إلى الغلام وسبط يهوذا هو الذي بقي مع الابن فسمي هؤلاء يهوداً ثم حصل بعد ذلك ما حصل من الغزو البابلي فأبيد من أبيد منهم فاجتمعوا كلهم تحت لواء يهوذا بعد أن فك أسرهم واجتمع شملهم فكان ذلك سبباً لأن سمو يهوداً، وعليه فهذه تسمية حادثة أطلقوها على دينهم.

وأما النصرانية فقيل أصلها المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ولد في قرية ناصرة على حسب ما يقولون، وقيل لأنهم قالوا له نحن أنصار الله، وعليه فالتسمية مأخوذة من النصر ولكن بعد مرور الأيام صارت علما على هذا الدين الذي لوثوه ببدعهم وضلالاتهم وتحريفاتهم على أن هذا الدين نفسه، هو متأثر تأثرا كبيرا بعقيدة الروم الوثنية، وقد كتب أحد الكاتبين من النصارى المتأخرين قبل سنوات وصية شهد فيها بهذا، وهو شاعر عربي نصراني لبناني معروف بالشاعر الخوري أو القروي وكانت وصيته بعد ما بلغ من العمر تسعين عاما سجل فيها هذه الحقيقة، إذ جاء فيها: لقد

أثبتت المصادر التاريخية أن يسوع المسيح عليه السلام كان يعبد الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد واستمر أتباعه على هذه الملة إلى مدة ثلاثة قرون حتى تنصر قسطنطين عاهل الروم فأدخل في النصرانية بدعة التثليث ومالأه على ذلك بعض الأساقفة وعلى رأسهم مكاريوس الذي لقب نفسه أورثوذكس ـ أي مستقيم الرأي ـ وعارضه آخرون وعلى رأسهم آريوس وعقدت بينهما مجامع للحوار فاز فيها آريوس بالحجة القاطعة والحق المبين، ولكن السلطة التي هي مصدر البلاء وضعت ثقلها في الميزان فأسكتت صوت الحق وظل الحق يتململ في قيده منتظرا آريوسا جديدا، ثم يقول هذا الكاتب: وكم أتمنى وأنا الآرثوذكسي المولد أن يكون هذا الآريوس بطريركاً بطلا ينفي عن ديننا وصمة ألحقها به غرباء غربيون وكثيراً ما كان الغرب مصدر بلائنا الديني والسياسي معا، ثم أتبع ذلك قوله: وإيمانا مني بصدق نبوة نبينا العربي وإعجاباً مني بمعجزته القرآن أردت أن أكون قدوة لإخواني أدباء النصرانية فأدخل في دين الله، ولكني رأيت إصلاح ديني السابق خيراً من الانتقال إلى دين جديد، وكخطوة أولى في هذا السبيل أعلن عن عزوفي عن آرثوذكسيتي المكاروسية إلى آرثوذكسيتي الآريوسية»، ثم بعد ذلك تحدث عن ما يمكن أن يجتمع عليه المسلمون والنصارى من عقيدة توحيد الله، وقال: «وبهذا يكونون إخوانا على سرر متقابلين»، ثم ذكر «أنه يوصي بأن يصلي عليه بعد موته شيخ وكاهن وأن يقتصرا في صلاتهما على قراءة الفاتحة الشريفة والصلاة الربانية وأن يدفن في مكان قريب من بيته خطط لدفنه وأن يوضع على قبره شاهد خشبي عليه هلال وصليب متعانقين رمزا للوحدة التي سعى إليها...» إلى آخر ما كتب في وصيته، والرجل كان قاب قوسين أو أدنى من الدخول في دين الله، ولكن

غلبت عليه الشقوة والعياذ بالله، وإلا فقد اعترف بنفسه أن هذا الدين هو دين الله وهذا يعني أن الدين الذي هم عليه ليس هو من دين الله في شيء والله المستعان.

مات شخص من أهل الكتاب وكان هذا الميت معروفاً. وكانت له أعمال خيرية، وبعد موته أصبح حديث عامة الناس حتى منا نحن المسلمين، وعندما أعلمناهم بأنه لا يجوز الترحم لميت من أهل الكفر زعموا بأنه من أهل الكتاب، وأن له من الأجر ما يدخله الجنة ونحن نوالي ذلك الميت، فبماذا نرد على هؤلاء المفتونين؟

الرد عليهم بما أنزل الله في كتابه، فقد قال سبحانه تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، وحذر سبحانه من موالاة اليهود والنصارى حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، والله تعالى المستعان وهو ولي التوفيق.

البـدع

سماحة الشيخ: هنالك ضبابية في فهم حقيقة البدعة، فالبدعة مثلاً يعتبرها البعض منكراً صارخاً فيسارع إلى إنكارها ســواء كانت في الصلاة أو في غيرها من الأعمال، وصار هنــاك زج بالكثير من الأعمال والأفعال التي لم تكن موجودة أيام النبي ﷺ إلــى خانة البدعة، لذلك صار هناك إنكار على البدع أكثر من الإنكار على الأشياء الظاهرية المحرمة التي يفهمها العامي كما تفضلتم، فما هو تحديد مفهوم البدعة؟

كلمة بدعة تحتمل أكثر من معنى؛ لأن بدعة من بدع الشــيء بمعنى جاء بشــيء لم يُســبق إليه، وهي فعلة بمعنى مفعولة بمعنى مبدوعــة، فالبدعة قد تكون محرمة، وهذه هي التي يشير إليها حديث رسول الله ﷺ عندما يقول عليه ـ أفضل الصلاة والســلام ـ: «إن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[١].

فهنا نــرى أنه ﷺ يقول بــأن كل محدثــة بدعة، ولكن في أي شــيء هذه المحدثات؟ إنما هي محدثات الدين، فمحدثات الدين هي بدع؛ أي من أحدث شــيئاً يتنافى مع أصل الدين، أمــا إن كان ما أحدثه له أصــل في الدين بحيث يكون هو مرغوبــا فيه بالنظر إلى كليات الدين وأصولــه؛ فذلك مما يدخل في البدعة الحسنة التي عناها حديث رسول الله ﷺ عندما قال: «من سنّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»، فترون أنه قال سن سنة حسنة أي طريقة حســنة. وفي المقابل يقول: «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[٢]، هذا له أجر تلك السُّنَّة وأجر من عمل بها إلى يوم

(١) رواه النسائي (١٧٨٦).

(٢) رواه مسلم (٤٨٣٠).

القيامة، وفي المقابل الآخر عليه وزرها؛ أي وزر السُّنَّة التي أحياها، ووزر من عمل بتلك السُّنَّة إلى يوم القيامة، ذلك لأن الذي سن سنة حسنة سنته غير خارجة عن أصل الدين، وهذا الذي سنّ السُّنَّة السيئة سنته عكس ذلك.

ونحن نرى في عهد الصحابة ﭫ أشياء لم تكن موجودة في عهد الرسول ﷺ ولكن لم يعتبروها بدعة ضلالة، ولم يعتبروها بدعة سيئة بل اعتبروها بدعة حسنة، من ذلك ما يتعلق بتنظيم أمور الناس في حياتهم الاجتماعية وحياتهم السياسية، فقد كانت أمور لم يكن مفتقراً إليها، ولم يكن المسلمون بحاجة إليها في عهد رسول الله ﷺ، ولكن مع تطور الأمور ومع انتشار الفتوح واتساع الرقعة الإسلامية وتطور حياة الأمة كانت الأمة بحاجة إليها، من ذلك إحداث التاريخ، فما كان التاريخ معروفاً في عهد الرسول ﷺ، وإنما أُحدث في عهد عمر ﭬ، واجتمع المسلمون على أن يكون هذا التاريخ بدايته من هجرة الرسول ـ عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام ـ، فهذه تعد بدعة حسنة؛ لأنها لا تتصادم مع الدين، وليس فيها أي مضرة بل فيها مصلحة، والدين إنما هو قائم على مراعاة مصالح العباد، فلذلك عدّوها بدعة حسنة.

ومن ذلك أيضاً أنشاء بيت المال ولم يكن معهودا في عهد الرسول ﷺ، وإنما كان الفيء يقسّم ما بين الناس، فلما كان عمر ﭬ حبس الفيء، وصار يقسّم على الناس منافعه دون أصله لحاجة المسلمين إلى أصل يرجعون إليه يكون قواماً لدولتهم، وهذا مما لم يُعد بدعة سيئة، كذلك جمع الناس على مصحف واحد في عهد الخليفة الثالث وكان ذلك باتفاق الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ ؛ لأجل ما في اختلاف القراءات من الشقاق والخلاف بين المسلمين، كذلك جمع القرآن الذي كان في عهد الخليفة الأول وبمشورة الخليفة الثاني كل ذلك إنما كان من الأعمال الحادثة التي لم تكن الحاجة داعية إليها في عهد الرسول ﷺ، هذا كله مما يدخل في البدع الحسنة.

كذلك جمع الناس على إمــام واحد في صلاة قيام رمضان بعدما كانوا في عهد الرسول ﷺ متفرّقين، يصلي الثلاثة النفر والشخصان والأربعة، كل يصلون بأنفســهم، هؤلاء يصلون وحدهم، وهؤلاء يصلون وحدهم، فجمعهم عمر رضي الله تعالى عنه على إمام واحد، وكان في ذلك مصلحة كبيرة. كذلك أيضاً بالنســبة إلى الأذان الأول للجمعة إنما ذلك لأجل مراعاة الضــرورة الداعية إلى ذلك؛ لأجل تنبيه الناس إلى الجمعة، فهكذا هذه الأمور كلها مما يدخل في البدعة الحسنة.

أما البدعة الســيئة فهي التي تتنافى مع الديــن، وذلك أن يبتدع الناس من أمر الدين ما لم يأذن به الله، ومن أمثلة ذلك إتيــان الناس إلى المقابر ليقدموا القرابيــن والنذور، وليطلبوا من أصحاب القبور قضــاء حاجاتهم، فإن هذه من البدع الســيئة؛ لأن الإســلام جاء هادماً لمثل هذه المعتقــدات، جاء ليقرر في نفوس المؤمنين جميعاً بأن الله ـ تبارك وتعالى ـ يجب أن يفرد بالاستعانة كما يجب أن يفرد بالعبادة كما قال تعالى تعليما لعباده: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، أي لا نعبد إلا إياك ولا نســتعين إلا إياك، فكما أن العبادة لا يجوز أن تكون لغيره سبحانه وتعالى كذلك الاســتعانة في مثل هذه الأشــياء لا تكــون بغيره؛ لا ســيما أولئك الأموات في قبورهم فأنى يســتجيبون لدعــوة داع أو يقضون حاجة محتاج وهم موتى، وإذا كان النبي ﷺ مع عظم قدره وعلو شــأنه وما له من منزلة عند الله سبحانه وتعالى يقول له الله تبارك وتعالى ـ:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]، ويقول تبارك له:

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فكيــف بغيــره ﷺ؟! بل كيف بالموتى في قبورهم؟! فمثل هذه البدع تعد بدعا سيئة، وكذلك كل بدعة جاء الإسلام بما يناقضها، فهي بدعة سيئة لا يجوز أن تقر أبدا، والله أعلم.


سلطنة عُمان
وزارة الأوقاف والشؤون الدينية


جواب على أسئلة
من الجزائر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فعندما كنتُ في زيارتي الأخيرة للقطر الجزائري الشقيق سُلِّمْتُ رسالة من بعض من التبس عندهم الحق بالباطل والبصيرة بالعمى والرشد بالغي، فلم يدركوا المخرج من الحيرة، وظنوا أنهم أحاطوا بالحقيقة من أطرافها، وألموا بالحق من جوانبه، وقد أخفى هؤلاء أسماءهم فلم يفصحوا عنها، وأودعوا رسالتهم هذه أسئلة عسى أن يكون باعثها الرغبة في الوصول إلى الحقيقة لا التعنت عليها، واستيضاح الحق لا مكابرته والتعامي عنه، وقد لخصوا أسئلتهم في نقاط.

النقطة الأولى: عن موقف الإباضية من بعض الصحابة ﷺ كالخليفتين الثالث والرابع؟

والجواب: إن تلك فتنة طهّر الله منها أسنتنا فنحرص على أن نطهر منها ألسنتنا، وحسبنا أن نعمل بما يدل عليه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]. وقد سبق لي أن أجبتُ جواباً مطولاً عن هذا السؤال نُشر أخيراً في كتاب عُنْوِنَ بـ«اللقاءات»، وها هو ذا مرسل مع هذا الجواب إلى السائلين، فليرجعوا إليه (ص١٢٢-١٣٧). وسوف يجد هؤلاء أن الذي تجنَّى على الخليفة الرابع ليس هو من الإباضية وإنما تجنَّى عليه قوم آخرون لم يحاسبوهم على جنايتهم بل برأوهم من الخطأ والوهم وأيدوهم على ظلمهم وناصروهم على بغيهم، وقد بلغ تجني هؤلاء الجناة على هذا الخليفة الشرعي أنهم جعلوا لعنه سنة ينشأ عليه الصغير ويشيب

عليها الكبير! وسوف يجدون ـ إن شاء الله ـ في ما نقلته من نصوص أحد أئمتهم وهم ـ بلا ريب ـ يعدّونه مجدداً لِنِحْلتهم أنه تحامل بحقدٍ وكراهية على هذا الخليفة الشرعي حتى شبهه بفرعون وشكّك حتى في إسلامه! فهلا وقفوا أمام ذلك كله وقفة محاسبة لهذه النصوص وقائلها ودوافعها، فما بالهم يكيلون بمكيالين؟ أيرى أحدهم القذاة في عين أخيه ولا يرى الجذع في عينه؟!

هذا مع التباين بين الموقفين، موقف من لم يَرْضَ من الخليفة الشرعي نزوله عن الحق الشرعي ورضاه بما أدى إلى هدم الخلافة الشرعية وتحويلها إلى ملك عضوض، وموقف من شنَّ عليه من أول الأمر حرباً لا هوادة فيها وعمد إلى الخلافة فحولها إلى كسروية قيصرية؛ إذ أفقدها روح الإسلام بإماتته الشورى الشرعية، التي وصف الله بها عباده المؤمنين وأمر بها نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام في أدق المواقف وأحرجها، بل حوّلها إلى ميراث يرثه الابن عن الأب ولو كان سكيراً عربيداً!! ويرغم على قبول ذلك المهاجرين والأنصار بإصلات السيوف على رقابهم، وأين الثريا من الثرى والضراح من الضريح والحق من الباطل؟

كيف تغمض العين عن هذه الجرائم كلها التي لا تزال الأمة تتجرع غصصها، وتكابد لأواءها، وتفتح بالسخط والغضب على من حرص على بقاء الحق ودوام الرشد وكبح الباغي ونصرة الخلافة واستمرار الشورى في الأمة؟!

ألم يأمر الله ﷻ بالقسط حتى مع العدو حيث قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

النقطة الثانية: عن انتماء الإباضية إلى عبدالله بن وهب الراسبي؛ الذي خرج عن الإمام علي ـ كرّم الله وجهه ـ بدعوى الخطأ في قضية التحكيم. وكيف يخطئ من هو معدود في الخلفاء الراشدين؛ الذين وصفهم النبي ﷺ بما وصفهم به في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه ... إلخ.

والجواب: إن هذا السؤال محير، فهل السائل يعتقد عصمة الخلفاء الراشدين، وأنهم لا يخطئون قط؟! مع أننا نجد الكتب التي يزعم السائل أن الأمة مجمعة على ما فيها نسبة أفحش الخطأ وأوحش الظلم إلى رسول الله ﷺ نفسه، وحسبنا من ذلك هذه القصة التي أخرجها مسلم في صحيحه قال: «حدثني زهير بن حرب حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا ثابت عن أنس أن رجلاً كان يتهم بأم ولد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ لعلي: «اذهب فاضرب عنقه». فأتاه علي فإذا هو في ركى يتبرد فيها، فقال له علي: اخرج. فناوله يده فأخرجه، فإذا هو مجبوب ليس له ذكر، فكف علي عنه ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنه لمجبوب ما له ذكر». (رقم ٢٧٧١، ٢١٣٩/٤).

فليت شعري؛ كيف يرضى هؤلاء أن ينسب هذا الجرم الفاحش إلى رسول الله ﷺ الذي هو أبرّ الناس قلباً وأوفرهم عقلاً وأطهرهم سريرة وأحسنهم سيرة وأقومهم سلوكاً وأطيبهم أخلاقاً وأحسنهم مظهراً ومخبراً. ويرون مع ذلك أن غيره معصوم من الخطأ ومصون من الزلل، مع أن هذا الذي عزي إليه صلوات الله وسلامه عليه لو صحت نسبته إلى أحد من عامة الناس لكان حقيقاً أن يعدُّ جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً، حاشا لرسول الله أن يكون كذلك، إذ القتل بمجرد الاتهام جرم وأي جرم؟ لا يصدر من أي عاقل يحترم عقله فضلاً عن صدوره من النبي عليه أفضل

الصلاة والسلام، على أنه ﷺ كان بشــراً عادياً لكانت له في حادثة الإفك التي وقعت وحكاها القرآن عبرة تصونه مــن الاندفاع وراء نزعات النفس ونزغات الشيطان، على أن الاعتبار بما يحدث من شيمة أهل العقول كما قال الشاعر:

مــن لــم تفــده عبــراً أيامه كان العمى أولى به من الهدى

ثم إنه ولا ريب لا يمكــن أن يكون ﷺ أغير علــى أم ولده منه على زوجه أم المؤمنين حبيبته وبنت أحب الرجال إليه، فكيف لم يأمر بضرب عنق مــن رميت به ورمي بها فــي قصة الإفك؛ التي برأهــا الله تعالى من عارها، وطهرها من سوء أحدوثتها؟!

أما تبرير بعض شــراح الحديث لما أمر به رسول الله ﷺ من قتل من اتهم بأم ولده بأنه كان من المنافقين، فتلك دعوى ساقطة من عدة وجوه:

أولها: أنه لم تقم بذلك حجة، ولم تأت به رواية، وإنما هو من الرجم بالغيب واتباع الظنــون ﴿**وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا**﴾ [النجم: ٢٨] .

ثانيها: أن الرواية تثبت خلاف ذلك، إذ نصهــا: أن رجلاً كان يتهم بأم ولد رسول الله فقال رســول الله ﷺ لعلي: «اذهب فاضرب عنقه» إذ ذَكَرَتْ قول رســول الله ﷺ لعلي «اذهــب فاضرب عنقــه» مرتباً علــى اتهامه بأم ولده ﷺ بالفاء التي تدل على ربط ما بعدها بما قبلها برباط السببية، وذلك دليل نصي على أن سبب الأمر بضرب عنقه هو الاتهام، وليس غيره.

ثالثها: أن النبي ﷺ لم يأمر بقتل أحد من المنافقين، ولو كان آمراً بقتل أحدهم لأمر بقتل عبد الله بن أُبي الذي كان على رأسهم وكان حربة النفاق

المسنونة التي تطعن الإسلام من الخلف، فلا يعقل أن يأمر رسول الله ﷺ بضرب عنق أحد لا يؤبه له ويدع ضرب أعناق هذه الرؤوس التي تكيد للإسلام كيداً.

رابعها: أنه لو كان الباعث للأمر بضرب عنقه نفاقه لما كان لعلي ـ كرّم الله وجهه ـ أن يدع قتله ويخالف ما أمره به رسول الله ﷺ بسبب أنه مجبوب، إذ لا فرق بين الجب والفحولة في أمر النفاق وخطورته وضرره، فالفحل والمجبوب في ذلك سواء.

هذا؛ ولا يخفى على لبيب أن حادثة التحكيم كانت عاقبتها مرة، جرَّت على الأمة من الويلات والمصائب ما دكدك بنيانها وقوّض أركانها، إذ أدت إلى طي الخلافة وظهور الملك العضوض والتلاعب بكتاب الله ونقض عرى الإسلام عروة عروة وانتشار الظلم وتأصيل الحمية، كما سأشير إلى بعض ذلك إن شاء الله عند جوابي على النقطة الرابعة.

وإن أبيتم إلا أن تلصقوا الجرم بعبد الله بن وهب بسبب خروجه عن عهدة خلافة علي ـ كرّم الله وجهه ـ فهو ليس بأول خارج عنه، إذ أول من خرج عنه بل عليه طلحة والزبير ومن معهما بعدما بايعاه بيعة شرعية فنكثا في بيعتهما وأخرجا معهما أم المؤمنين، وشنوا جميعاً على الخليفة الشرعي حرباً سُفكت فيها دماء وأُزهقت بسببها أرواح، فما رأيكم في خروج هؤلاء؟!

ثم خرج من بعدهم معاوية الذي أجلب على الأمة بخيله ورجله وناصب الخليفة الشرعي العداء ووقف له بالمرصاد واستعان بمن استعان به على تقويض صرح الخلافة الشرعية وسنَّ لعن الإمام علي على المنابر ودعا الناس إلى سِبابه، وحسبكم هذه القصة التي أخرجها مسلم في

صحيحه قال: «حدثنا قتيبة بن سعيد ومحمد بن عباد ـ وتقاربا في اللفظ ـ قالا حدثنا حاتم ـ وهو ابن إسماعيل ـ عن بكير بن مسمار عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسب أبا التراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ فلن أسبه لأن تكون لي واحدة منهن أحب إليّ من حمر النعم... إلخ» (رقم: ٢٤٠٤، ١٨٧١/٤).

فأنتم ترونه كيف دعا حتى أصحاب رسول الله ﷺ إلى سب علي بن أبي طالب، ولم يكتف بدهماء الناس الذين يستجيبون لكل داع ويسيرون وراء كل ناعق.

هذا؛ وقد جاء النص الصريح عن النبي ﷺ حاكماً عليه وعلى فئته بالبغي، فقد روي عن ثلاثين صحابياً أن النبي ﷺ قال: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية». (البخاري رقم: ٤٣٦، ١٧٢/١)، فما بالكم لم تروا في خروج معاوية وحزبه على علي بن أبي طالب حرجاً مع أنه خرج عليه ليستلب الخلافة من يده، ويحولها إلى ما يهواه من النظام الكسروي القيصري الذي جاء الإسلام لنقض بنيانه وهد أركانه؟!

أما عبدالله بن وهب فقد كان نصيره ومؤازره ولم يخرج عنه إلا بعد التحكيم الذي رآه ناقضاً لبيعته، فبالله عليكم أين هذا من ذاك؟!

على أن بني أمية وأشياعهم لم يخفوا ما كانوا ينطوون عليه بين حنايا صدورهم من سخائم أججها قتل أسلافهم على أيدي صناديد المسلمين من المهاجرين والأنصار في بدر وغيرها، فلذلك عدوا واقعة الحرة التي شنها يزيد بن معاوية على حرم النبي ﷺ تحقيقاً للثأر ممن قتل أسلافهم فاطمأنت بذلك نفوسهم وسكنت جائشة صدورهم وقد ترجم ذلك شاعرهم عندما قال:

ليت أشـــياخي ببدر شـــهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
كيـــف حكَّــت بقبـــاء بَرْكَها واستحر القتل في عبد الأشل

أولا يعدُّ هذا حقداً على الإســـلام ومناوءة للذين آمنوا وتسفيهاً لآراء المهاجريـــن والأنصار؟؛ الذين شـــدخوا يافـــوخ الكفر وفجَّـــروا حيزومه وناصـــروا رســـول الله ﷺ؟! فكيـــف يتربع هـــؤلاء على دســـت الخلافة الإسلامية، وهذه هي طواياهم التي تملأ حناياهم؟ وهل كان لهم أن يصلوا إلى هذه الغاية التي ســـعوا إليهـــا إلا بإضعاف الأمة عندما قســـموها إلى قسمين بعدما طرحوا عليها قضية التحكيم؟

فليت شـــعري؛ أكانت تتحقق لهم غايتهم لو اتفقت كلمة عصبة الحق على رفض التحكيم وساروا قدماً تحت لواء خليفتهم الشرعي غير لاوين على هذه القعقعات التي كان الباطل يطلقها ليشـــغلهم بها عن المضي في سبيل الحق؟ والله المستعان.

النقطة الثالثة: جاء فيهـــا: لقد اطلعنا على كتاب عنوانـــه: «الرد القويم البالغ على كتاب الخليلي المسمى بالحق الدامغ»، فكان حقاً رداً علمياً قابل فيه الحجة بالحجة والدليل بالدليل، ونحســـبك قد اطلعت عليه، وللأسف الشـــديد وجدنا فيه من التلفيق والتحريف للنصوص لإيهام القارئ بمفهوم يخالف مقصود أصحابها والاستشـــهاد ببعض الآيات القرآنية التي تخاطب المشـــركين والكفار وإيهام القارئ أنها تخاطب الموحدين بعد فصل سياقها عن لحاقها.

والجواب: إني لســـت أدري ما مـــراد هؤلاء بقولهـــم: «وجدنا فيه من التلفيـــق والتحريف للنصـــوص... إلخ»، هل مرادهـــم أن صاحب الرد قام بتلفيق وتحريف النصوص، أو أن المردود عليه هو الذي قام بذلك؟

فإن كان الثاني هو مرادهم فحسبي أن أقول بأن صاحب ذلك الرد لم يستحي من الله تعالى ولا من الناس أن يزوّر وينسب إليّ ما لم أقله ومن ذلك قوله (ص١٤٩): «والخليلي يقول بقولهم ـ أي المعتزلة ـ في جميع ما يذهبون إليه في عقائدهم، ومن ذلك القول بخلق العباد أفعالهم»، وهل هذه إلا فرية جاء بها من بين يديه ورجليه، فمن أين له أني أقول بقول المعتزلة بأن العباد يستقلون بخلق أفعالهم؟! مع أنني رددت على مقولتهم هذه في مواضع من تفسيري «جواهر التفسير» كما في تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]. على أنه لو كان منصفاً يبتغي الحق في ما يقوله لكان حسبه تصريحاً بهذا ما وجده في الحق الدامغ نفسه حيث جاء فيه (ص١١١) ما نصه: «والفارق بين إحداث الله لكلامه وإحداث العبد لكلامه أمران:

أولهما: ما يفرق به من حيث إن العبد لا يستقل بإيجاد فعله استقلالاً تاماً، وإنما له منه جانب الكسب والله هو الخالق له» اهـ.

فانظر كيف تعامى عن هذه الحقيقة الصريحة في هذا الكلام، ليفتري من عنده كلاماً يلبس فيه الحق بالباطل تأسياً بالذين كفروا الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق».

ومن ذلك قوله أيضاً (ص١٦٩): ولما كانت سُنَّة الله في خلقه أن قول الباطل لا يثبت على ساق، فإن الخليلي ينقض غزله فيرد ما يسمى «بالكلام النفسي» الذي أثبت أنه قول الإباضية المتفقين على إثباته مع الأشعرية، ويثني على ابن أبي نبهان وعلى تقريره للكلام النفسي، ويستشهد له بقول الأخطل النصراني، ثم يحرّف تلك الآية الصريحة في القول المسموع وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، ويخضعها للكلام النفسي غير المسموع كما تقدم.

ولكن نجده هنا ينقض ما سماه بالكلام النفسي ويرده رداً قوياً، مُبيّناً أنه لا يدل على ذلك لا كتاب الله ولا سُنَّة رسوله ﷺ، وإليك نص كلامه هنا مقارناً بكلامه السابق.

سبق الكلام عمّا جاء في كتابه هذا (ص١٠٠) حيث قرر أنّ أصحابه ـ الإباضية ـ مع الأشعرية اتفقوا على أن كلام الله ﷻ هو الكلام النفسي القائم بذات الله غير المسموع؛ لأنه مجرد عن الحروف والأصوات والجمل والكلمات ـ كما عرفه الخليلي ـ ثم يستشهد لأصحابه على ذلك بكلام الأخطل النصراني.

ولكنه في (ص١٠٣) من كتابه هذا ينقض ذلك كله ويثبت أن المسمى بالكلام النفسي لم يقم عليه شاهد لا من الكتاب ولا من السُنَّة، فيقول (ص١٠٣): «ونحن عندما نتحدث عن خلق القرآن فإنما نتحدث عن هذا القرآن المتلو بالألسن، المكتوب في المصاحف، ولسنا نتحدث عن الكلام النفسي إذ لم يقم عليه شاهد من الكتاب نفسه ولا من السُنَّة». اهـ.

وهذه فرية لا تصدر إلا ممن مسخه الله تبارك وتعالى فصار لا يستحي من الله ولا من خلقه؛ إذ لا يبالي أن يسجل عليه الكذب في كلامه، فقد زعم أني قلت بأن الكلام النفسي ليس عليه دليل من الكتاب ولا من السُنَّة، وأنا لم أقل ذلك قط، وإنما الذي قلته أنه لا دليل على تسميته قرآناً، وهذا نص ما قلته في الحق الدامغ (١٠٣): «ونحن عندما نتحدث عن خلق القرآن، فإنما نتحدث عن هذا القرآن المتلو بالألسن المكتوب في المصاحف السابق تعريفه، ولسنا نتحدث عن الكلام النفسي، إذ لم يقم شاهد من الكتاب نفسه ولا من السُنَّة على تسميته قرآناً، وإنما اصطلحت الأشاعرة على تسميته بذلك، ولا مشاحة في الاصطلاح، غير

أنهم لم يستندوا في اصطلاحهم هذا على شيء ثابت سماعه، فلذلك لم نعول عليه». اهـ.

فانظروا كيف حرّف هذا الكلام وحوره بحسب هواه؛ ليتسنى له أن يجادل بالباطل ليدحض به الحق، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢]، وما هذه إلا قطرة في محيط أكاذيبه التي افتراها، على أنه نسب إليّ زوراً بأنني حرّفت الكلم في نقولي وأنا أتحدى كل من يزعم ذلك أن يأتيني بدليل عليه.

ولعلكم منساقون أيضاً في تياره بقولكم: «وللأسف الشديد وجدنا فيه من التلفيق والتحريف للنصوص لإيهام القارئ بمفهوم يخالف مقصود أصحابها والاستشهاد ببعض الآيات القرآنية التي تخاطب المشركين والكفار وإيهام القارئ أنها تخاطب الموحدين بعد فصل سياقها عن لحاقها».

فإن كنتم تزعمون أني أنا الذي لفّق وحرّف النصوص فأتوني على ذلك ببينة واضحة، وبيّنوا ما النص الذي حرّفته، فإن الدعاوى إن لم تعزها البينات لم تعد أن تكون في حكم الأدعياء.

وقولكم: «فكان حقاً رداً علمياً قابل فيه الحجة بالحجة والدليل بالدليل» هو من أعجب ما يقال في هذا، وحسبي أن أقول بأنني في الحق الدامغ ذكرت في مبحث خلق القرآن خمس عشرة حجة من القرآن نفسه، وست حجج من الحديث الشريف كلها دالة على خلقه، ولم يتعرض هو لها بشيء؛ لأنه أعيته حجتها وتلاشت أكاذيبه أمام آية صدقها، وإنما طنطن حول المقدمات، وما كان إلا مجترا لما قاله أسلافه من قبل، كما أنه كان يعتمد على روايات كاذبة في الاستدلال لموضوع الرؤية كرواية ثوير بن

أبي فاختة الذي قال عنه الثوري بأنه كان ركناً من أركان الكذب، وقد رفع عقيرته محتجاً بها وناهيك بعقيدة تبنى على أركان الكذب!!

ولم يكن يملك إلا السباب في دفع الحجة وهو دليل إفلاسه كما قيل: «وكل اغتياب جهد من لا له جهد»، وقد غضضت الطرف عن هذا الرد السخيف عملاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، ولم أعبأ بالرد عليه؛ لأنني واثق أن أولي البصائر إذا قارنوا بين كلامي وكلامه تبيّن لهم البون الذي بينهما، فإن نور الحق لا يحجبه نسيج الباطل، وهذا ما وقع فعلاً. فكم من قارئ ـ من غير أهل مذهبنا ـ قرأ الكتابين فتبيّن له سخف ما في هذا الرد، وعرف الحقيقة بالمقارنة، وتبين الحق بدليله فاعترف به والحمد لله.

أما الذين في قلوبهم مرض؛ الذين يستهويهم نعاق كل ناعق، وتستفزهم ضلالة كل ضليل فما لي ولهم، فإنهم تصامموا عن القرآن ونذره، فقد قال الله تعالى في نظرائهم من قبل: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ [البقرة: ٦ ـ ٧]، وحسبي أن يرى الحق في كلامي العقلاء وإن تجاهله السفهاء.

وأما سبابه فليس بضائري وإنما ينقلب على نفسه:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

لذلك صرفت عنايتي عن كتابه وما فيه من سخف القول وفاضح الإفك، غير أني رأيت من الواجب عليّ أن أقدم للأمة عقيدة الإسلام الناصعة الصحيحة، المبنية على صريح القرآن والثابت الصحيح المتواتر من سُنَّة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وما يسترشد به من العقل السليم، فشرعت في تأليف كتاب جامع مانع، يضم بين دفتيه قضايا العقيدة المتفق عليها والمختلف

فيها، مع استعراض جميع أدلة المختلفين، وتعزيز الحق وتزييف الباطل، ووضع الروايات على محك النقد وبيان زيف الزائف منها، وقد اضطررت إلى بيان ترهاته التي أوردها ومحقها بحجة الحق الدامغ لئلا يغتر بها سخفاء العقول؛ الذي لا يفرقون بين التبر والتراب والتمر والجمر، وقد أنجزت ـ والحمد لله ـ من هذا السفر المبارك خمسة مجلدات[١] وأنا الآن أسبح في خضم السادس، وأرجو إذا وفقني الله لإتمامه أن يكون خمسة عشر مجلداً، وسميته «برهان الحق في تأصيل العقيدة الإسلامية ودفع الشبه عنها بالأدلة العقلية والنقلية»، وقد أبيت أن أشرع في طبعه رغم إلحاح الناس عليّ إلى أن يمنّ الله عليّ بإتمامه، وتوجد المجلدات الخمسة منه في بعض المؤسسات الميزابية كمؤسسة عمي سعيد ومعهد الإصلاح ومعهد الحياة ومكتبة مسجد الوادي بغرداية، وبإمكانكم أن تطلعوا عليها هناك، وسوف ترون في المجلد الخامس ـ إن شاء الله ـ الشواهد البيّنة على ارتباط عقيدة الحشوية ـ التي يدافع عنها صاحب ذلك الرد ـ بعقيدة اليهود، وأن أئمة الحشوية يَرِدُونَ من مستنقعات الضلالات اليهودية، منها عبًّا إلى حد التضلع، وذلك من خلال نقل نصوص عديدة من كلام أئمة الحشوية المتقدمين والمتأخرين، كابن قتيبة وابن تيمية وابن القيم وغيرهم.

النقطة الرابعة: اعتماد المذهب في الحديث ـ الذي هو المصدر الثاني في التشريع ـ على مسند الربيع بن حبيب الذي هو كتاب مُعْضَل خالف إجماع الأمة في أكثر من مسألة، وترك الصحيحين وكتب السُنَّة التي أجمعت الأمة على الأخذ منها.

والجواب: ما أعجب هذا الكلام وأغربه، وليت شعري؛ أهو جهل من كاتبه أم هو تجاهل؟!

(١) كان هذا إبان كتابة هذا الجواب.

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

ففي أي شيء خالف مسند الربيع بن حبيب إجماع الأمة؟! وما هو الإجماع المعتد به؟

إننا نرى الحشوية كثيراً ما يتهافتون إلى نقل الإجماع عندما يعززون مواقفهم ويدعمون بدعهم وضلالاتهم، وهم أسرع الناس إلى تكذيب الإجماع ورده عندما تكون مصلحتهم التي يتصورونها في إنكاره، ولو كان مدعوماً بنصوص قطعية من كتاب الله الصادق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ومن سُنَّة نبيه الأمين ﷺ ودلائل العقل، بل نجد في نصوصهم إنكار الإجماع رأساً ونسبة الكذب إلى من ادعاه، فهذا إمامهم أحمد بن حنبل يقول: «من ادعى الإجماع فهو كاذب».

انظر إلى هذا النص وتعزيزه في المكتبة الشاملة:

١ ـ إقامة الدليل على إبطال التحليل، لابن تيمية ج١، ص٣٢٧.
٢ ـ الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ج٦، ص٢٨٦.
٣ ـ المستدرك على مجموع الفتاوى، ج٢، ص١١٤.
٤ ـ إعلام الموقعين، لابن القيم، ج١، ص٣٠.
٥ ـ الصلاة وحكم تاركها لابن القيم، ج١، ص١١٦.
٦ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم ـ (٢٢١/٥).
٧ ـ شرح زاد المستقنع للشنقيطي ـ (٢٢٠/١٦).
٨ ـ شرح العقيدة الواسطية ـ المصلح ـ (الدرس ٢٧).
٩ ـ شرح العقيدة الواسطية ـ صالح آل الشيخ ـ (٢٧٣/٢) و(٢٨١/٢).
١٠ ـ قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر ويليه كتاب مسائل الجاهلية ـ (١٢٩/١).
١١ ـ كتاب الاعتصام، للشاطبي ـ (٢٩٤/١).
١٢ ـ مجموع مؤلفات عقائد الرافضة والرد عليها ـ (٢٧/٢٤) و(١٠٩/٢٤).
١٣ ـ موسوعة الرد على الصوفية ـ (٥٣/١٠٠) و(٥٤/١٠٠) و(٢٧٣/١٦٨).
١٤ ـ موسوعة توحيد رب العبيد ـ (٢٢٤/١١).

١٥ ـ سلسلة التفسير لمصطفى العدوي ـ (١٣/١٨).
١٦ ـ محاسن التأويل (تفسير القاسمي) ـ (الجزء الأول).
١٧ ـ أرشيف ملتقى أهل التفسير ٢ ـ (١٤٤٧/١).
١٨ ـ الإحكام في أصول القرآن ـ (ص٧٥).
١٩ ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ـ (٢٨٠/١).
٢٠ ـ مشكاة المصابيح مع شرحه مرقاة المفاتيح ـ (٦٥٧/١).
٢١ ـ آداب الزفاف ـ للألباني (ص١٦٧).
٢٢ ـ الرد المفحم ـ للألباني (ص٣٢).
٢٣ ـ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة ـ (١٦٥/١).
٢٤ ـ توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار ـ دار الكتب العلمية (٩٣/١) و(٩٦/١).
٢٥ ـ ثمرات النظر ـ لمحمد الصنعاني (ص١٣٢).
٢٦ ـ المفصل في علوم الحديث ـ الشحود (١٧/٢).
٢٧ ـ أصول الفقه على منهج أهل الحديث ـ (ص٤٠).
٢٨ ـ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ـ (١٩٦/١).
٢٩ ـ إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار ـ (ص١١٦ وص١٥٩).
٣٠ ـ الإحكام لابن حزم ـ (٥٣١/٤) و(٩٧/٥).
٣١ ـ الاعتصام ـ (٢٧٤/١).
٣٢ ـ الخلاصة في بيان أسباب اختلاف الفقهاء ـ (٤٨٧/١).
٣٣ ـ المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ـ (ص٤٨).
٣٤ ـ المسودة ـ مجموعة مؤلفين (ص٢٨٣).
٣٥ ـ رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب ـ (١٤٤/٢).
٣٦ ـ معالم أصول الفقه عند أهل السُنَّة والجماعة ـ هامش (ص١٦٣).
٣٧ ـ من أصول الفقه على منهج أهل الحديث ـ (ص٥٤).
٣٨ ـ نهاية السول شرح منهاج الوصول ـ (٧٩/٢).
٣٩ ـ الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ـ (١٨٣/١).
٤٠ ـ الموسوعة الفقهية الكويتية ـ (ص٢٦).
٤١ ـ تمام المنة في التعليق على فقه السُنَّة ـ (ص٣٦٦).
٤٢ ـ موسوعة الفقه الإسلامي ـ (٧٣/١).

وقد وجدت ابن تيمية يرد إجماعاً قطعيـــاً دلت عليه نصوص الكتاب العزيز والسُــنَّة النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة والسـلام، ولم يخالف فيه أحد من الأمة إلا من أعرض عن القرآن واتبع نهج الفلاسـفة، وذلك أنه ادعــى أن العالم قديم بالنوع وهذا ما لا يقوله المســلمون، وقد حكى الإجماع على حدوثــه وكفر من قــال بقدمه ابن حزم فــي كتابه «مراتب الإجماع» (ص١٦٧) حيث قال:

«باب من الإجماع في الاعتقادات يكفر من خالفه بإجماع.

ثم قال: اتفقوا أن الله ﷻ وحده لا شريك له خالق كل شيء غيره وأنه تعالى لم يزل وحده ولا شيء غيره معه ثم خلق الأشياء كلها كما شاء».

ولكــن ابــن تيميــة اعترضه بشــدة فــي نقــده لمراتــب الإجماع (ص٣٠٣-٣٠٦) حيث قال: «أما اتفاق الســلف وأهل السُنَّة والجماعة على أن الله وحده خالق كل شــيءٍ فهذا حق، ولكنهم لــم يتفقوا على كفر من خالف ذلك:

فإن القدرية الذين يقولون: إن أفعال الحيوان لم يخلقها الله أكثر من أن يمكنَ ذكرهم، من حيــن ظهرت القدرية في أواخــر عصر الصحابة إلى هذا التاريخ، والمعتزلة كلهم قدرية، وكثـير مـن الشيعـة، بـل عامة الشــيعة المتأخرين، وكثير مــن المرجئة والخــوارج، وطوائف من أهل الحديث والفقه، نُســبوا إلى ذلك، منهم طائفة مــن رجال الصحيحين، ولم يجمعوا على تكفير هؤلاء، بل هو نفســه قد ذكر في أول كتابه: أنه لا يكفر هؤلاء.

والمنصوص عن مالك والشــافعي وأحمد في القدرية أنهم إن جحدوا العلم كفروا، وإذا لم يجحدوه لم يكفروا.

وأيضاً: فقد ذكر في كتابه «المِلل والنِحل» أن الصحابة وأئمة الفتيا لا يكفرون من أخطأ في مسألةٍ في الاعتقاد ولا فتيا، وإن كان أراد بقوله: «أتى المسلمون على هذا» فهذا أبلغ.

ومعلوم أن مثل هذا النقل للإجماع لم ينقله عن معرفته بأقوال الأئمة، لكن لما علم أن القرآن أخبر بأن الله خالق كل شيء، وأن هذا من أظهر الأمور عند الأمة، حكى الإجماع على هذا، ثم اعتقد أن مَن خالف الإجماع كفر بإجماع، فصارت حكايته لهذا الإجماع مبنيةً على هاتين المقدمتين اللتين ثبت النزاع في كل منهما.

وأعجب من ذلك حكايته الإجماع على كفر من نازع أنه سبحانه «لم يزل وحده، ولا شيء غيره معه، ثم خلق الأشياء كما شاء».

ومعلوم أن هذه العبارة ليست في كتاب الله، ولا تنسب إلى رسول الله ﷺ، بل الذي في «الصحيح» عنه حديث عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «كَانَ اللهُ ولَا شَيْءَ قَبلَه، وَكَانَ عَرشُهُ عَلَى المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ» وفي لفظ: «ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ».

وروي هذا الحديث في البخاري بثلاثة ألفاظ:

رُوي: «كان الله ولا شيء قبله».

ورُوي: «ولا شيء غيره».

ورُوي: «ولا شيء معه».

والقصة واحدة، ومعلوم أن النبي ﷺ إنما قال واحداً من هذه الألفاظ، والآخران رُويا بالمعنى، وحينئذ فالذي يناسب لفظ ما ثبتَ عنه في الحديث الآخر الصحيح، أنه كان يقول في دعائه: «أَنتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبلَكَ

شَـيْءٌ، وَأَنتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعدَكَ شَـيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَـيْءٌ». فقوله في هذا: «أنت الأول فليس قبلك شيء» يناسـب قوله: «كان الله ولا شيء قبله» وقد بسـط الكلام على هذا الحديث وغيره في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا الكلام على ما يظنه بعض الناس من الإجماعات، فهذا اللفظ ليس في كتاب الله، وهذا الحديث لـو كان نصاً فيما ذكر فليس هو متواتراً، فكم مـن حديث صحيح ومعناه فيه نـزاعٌ كثير، فكيف ومقصود الحديث غير ما ذكـر، ولا نعرف في هذه العبارة عـن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، فكيف يُدَّعى فيها إجماع! ويُدَّعى الإجماعُ على كفر من خالف ذلك!

ولكن الإجماع المعلوم هو ما علمت الأمة أن الله بيَّنه في القرآن، وهو أنَّ خَلقَ السـماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، كما أخبر الله بذلك في القرآن في غير موضع، فإذا ادعى المدعـي الإجماعَ على هذا وتكفير من خالف هذا كان قوله متوجهاً، وليس في خبر الله ـ أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ـ ما ينفي وجودَ مخلوق قبلهما، ولا ينفي أنه خلقهما من مـادَّةٍ كانت قبلهما، كما أنه أخبر أنه خلق الإنسـان وخلق الجن، وإنما خلق الإنسان من مادة، وهي الصلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار.

فكيف وقد ثبت بالكتاب والسُـنَّة وإجماع السلف ـ الذي لا يعلم فيه نزاع ـ أن الله لَمَّا خلق السـماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وكان عرشـه على الماء قبل ذلك، فكان العرش موجوداً قبل ذلك، وكان الماء موجوداً قبل ذلك.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله قدر مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتَ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وكان عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ».

وقد أخبر سبحانه أنه: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وثبت عن غير واحد من الصحابة والتابعين وغيرهم من علماء المسلمين أنه خلق السماء من بخار الماء، ونحوُ ذلك من النقول التي يُصَدِّقُها ما يُخبِرُ به أهلُ الكتاب عن التوراة، وما عندَهم من العلم الموروث عن الأنبياء، وشهادةُ أهلِ الكتاب الموافقةِ لما في القرآن أو السُّنَّة مقبولة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣].

ونظائر ذلك في القرآن.

وهذا الموضع أخطأت فيه طائفتان:

طائفة من أهل الكلام من اليهود والمسلمين وغيرهم، ظنوا أن إخبار الله بخلقه للسماوات والأرض وما بينهما يقتضي أنهما لم يُخلقا من شيء، بل لم يكن قبلهما موجود إلا الله.

ومعلوم أنَّ خبر الله مخالف لذلك، والله قد أخبر أنه خلق الإنسان والجان من مادة ذكرها، والذين يثبتون الجوهر الفرد من هؤلاء وغيرهم يعتقدون أنَّ خَلْقَ الإنسانِ وغيرِه مما يخلقه في هذا العالم ليس هو خلقاً لجوهرٍ قائم بنفسه، بل هو إحداثُ أعراضٍ يُحَوِّلُ بها الجواهرَ المنفردةَ من حال إلى حال.

وهذا مخالف للشرع والعقل ـ كما قد بسط في موضعه ـ فإن هؤلاء يقولون: إنّا لم نشهد خَلْقَ عينٍ من الأعيان، بل الرب أبدع الجواهر المنفردةَ ثم الخلقَ بعد ذلك، إنما هو إحداث أعراض قائمة بها.

وطائفة أخرى أبعد عن الشرع والعقل من هؤلاء: «يتأولون خلق السماوات والأرض بمعنى التولد والتعليل والإيجاب بالذات، ويقولون: إن الفلك قديم أزلي معلول للرب، وأنه يوجب بذاته، لم يزل ولا يزال». اهـ.

فأنتم ترونه كيف يخالف إجماعاً دلَّ على مضمونه القرآن الكريم وعززته السُنَّة النبوية على صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام واقتضاه العقل السليم.

أما القرآن فقد دلّت منه نصوص كثيرة على أنه تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ جاء ذلك في سورة الأنعام والرعد والزمر وغافر، وقال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٣]، وهب أنه تعالى خلق السماوات والأرض من مادة سابقة فإن تلك المادة هي أيضاً «شيء»، وهي داخلة ـ بلا ريب ـ في عموم المخلوقية لله تعالى فيستحيل أن تكون أزلية.

وأما السُنَّة النبوية فهي قوله ﷺ: «كان الله ولا شيء معه» وفي رواية أخرى: «كان الله ولا شيء غيره»، ولا تنافي بين هاتين الصيغتين وصيغة: «كان الله ولا شيء قبله» التي اختارها ابن تيمية ليدفع بها في نحر الحق، فإنه كان ولم يكن شيء قبله ولا معه في أزله قبل أن يخلق الخلق.

وأما اقتضاء العقل السليم لذلك، فإنه ـ ولا ريب ـ دال على استحالة أن يكون مع الله شيء في أزله، أو أن يكون مشاركاً في قدمه، ولو جاز أن

يشاركه غيره في القدم لجاز أن يشاركه في الألوهية والربوبية!! وهو مناف لوحدانيته.

ولم ينفرد ابن حزم برواية هذا الإجماع، فقد نقله غيره كما جاء في كلام الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٢/٢٠٢) حيث قال: «قال شيخنا ـ يعني الحافظ العراقي ـ في شرح الترمذي: الصحيح في تكفير منكر الإجماع تقييده بإنكار ما يعلم وجوبه من الدين بالضرورة كالصلوات الخمس ومنهم من عبر بإنكار ما علم وجوبه بالتواتر ومنه القول بحدوث العالم وقد حكى عياض وغيره الإجماع على تكفير من يقول بقدم العالم. وقال ابن دقيق العيد وقع هنا من يدعي الحذق في المعقولات ويميل إلى الفلسفة فظن أن المخالف في حدوث العالم لا يكفر لأنه من قبيل مخالفة الإجماع وتمسك بقولنا إن منكر الإجماع لا يكفر على الإطلاق حتى يثبت النقل بذلك متواتراً عن صاحب الشرع؛ قال: وهو تمسك ساقط إما عن عمى في البصيرة أو تعام لأن حدوث العالم من قبيل ما اجتمع فيه الإجماع والتواتر بالنقل».

ويشير ابن دقيق العيد في قوله: «من يدعي الحذق في المعقولات ويميل إلىالفلسفة» إلى ابن تيمية، فهو الذي اشتهر بهذا القول وقد عزاه إليه غير واحد.

وعلق الكوثري على كلام ابن تيمية في نقد مراتب الإجماع بقوله: «لا عجب في القول بإجماع الأمة على كفر من أثبت خالقاً سواه تعالى بالمعنى الذي سبق، ولا في إكفار من ينكر أنه سبحانه لم يزل وحده، ولا شيء غيره معه، وإنما العجب كل العجب اجتراء ابن تيمية هنا على القول بحوادث لا أول لها والقول بالقدم النوعي في العالم، وبقيام

الحوادث به سبحانه، متعامياً عن حجة إبراهيم المذكورة في القرآن الكريم، ومنكراً لما يعزوه لصحيح البخاري «كان الله ولا شيء معه» مع أنه هو القائل بأن ما في الصحيحين يفيد العلم ـ يعني اليقين إجراءً له مجرى الخبر المتواتر ـ ومخالفاً للإجماع اليقيني في ذلك وأنى يتصور قدم للنوع الذي لا وجود له إلا في الذهن؟! وعدم تناهي ما دخل بالفعل تحت الوجود لا يتصوره إلا عقل عليل، وعلى فرض وجود النوع في الخارج لا يكون موجوداً إلا في ضمن أفراده، وأنى يكون للنوع قدم مع حدوث أفراده؟!!

ودعوى أن الله لم يزل ومعه شيء توازن في البشاعة القول بقدم شيء بعينه سواه تعالى بل القول بالقدم النوعي كالقول بالقدم الشخصي في البطلان، بل ذاك أسقط من هذا، وكلاهما يستلزم نفي الإرادة عن الله سبحانه، ولا شأن للسلف الصالح في الخوض في مثل هذه البحوث، وأما استغلال بعض الكلمات المجملة المروية عنهم بتأويلها على معنى لا يتصور خطوره على بالهم فتقويل لهم بما لم يقولوا. اهـ (تعليق الكوثري رقم (٤) على مراتب الإجماع ونقد مراتب الإجماع، ص ١٦٨ - ١٦٩).

ولم يكن تصريح ابن تيمية بالقدم النوعي للعالم في نقده مراتب الإجماع وحده، بل صرح به في كثير من كتبه، منها كتابه المسمى بـ«منهاج السُّنَّة»، وكتابه المسمى بـ«موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول»، أو «درء تعارض العقل والنقل» وفي «الموافقة» وفي «شرح حديث عمران بن حصين» ولولا تجنب الإطالة لنقلت نصوص كلامه موثقة، وإنما أكتفي بما قاله في «درء تعارض العقل والنقل» بعد أن حكى مقولة أحد متكلمي

الأشـاعرة في هذا، ويظنه الكيا الطبري، وهي: «قد أطبـق الملِّيون وأتباع الأنبياء كلهم على اسـتحالة حـوادث لا أول لها، وقال ملحدة الفلاسـفة بإثبات حوادث لا أول لها»، فقد تعقبه ابن تيمية بقوله: «وهذا القول الذي يحكيه هذا وأمثاله من إجماع المسـلمين أو إجمـاع الملِّيين في مواضع كثيرة يحكونه بحسب ما يعتقدونه من لوازم أقوالهم وكثير من الإجماعات التي يحكيها أهل الكلام هي من هذا الباب فإن أحدهم قد يرى أن صحة الإسلام لا تقوم إلا بذلك الدليل وهم يعلمون أن المسلمين متفقون على صحة الإسـلام فيحكون الإجماع على ما يظنونه من لوازم الإسـلام كما يحكون الإجماع على المقدمات التي يظنون أن صحة الإسـلام مستلزمة لصحتهـا وأن صحتها من لوازم صحة الإسـلام أو يكونون لم يعرفوا من المسلمين إلا قولين أو ثلاثة فيحكون الإجماع على نفي ما سواها. وكثير مما يحكونه من هذه الإجماعـات لا يكون معهم فيها نقل لا عن أحد من الصحابة ولا التابعين ولا عن أحد من أئمة المسـلمين بل ولا عن العلماء المشـهورين الذين لهم في الأمة لسـان صدق ولا فيها آيـة من كتاب الله ولا حديث عن رسـول الله ﷺ وهم مع هذا يعتقدون أنها من أصول الدين التي لا يكون الرجل مؤمناً أو لا يتم دين الإسلام إلا بها ونحو ذلك.

ومثل هذا الرجـل وأمثاله من أهل الكلام لما اعتقـدوا أن العلم بإثبات الصانع وصدق الرسـول موقوف على هذا الدليل أخذ يحكيه عن جميع أهل الملل وجميع أتبـاع الأنبياء وهو مع هذا لا يمكنـه أن ينقله عن عالم واحد لا من الصحابة ولا مـن التابعيـن ولا تابعيهم ولا معه فيـه آية ولا حديث والمنصوص عن الأئمة المشهورين عند الأمة يناقض ذلك ولهذا عاد فحكى عن أهل الحديث الذين سـماهم مشبهة أنهم يقولون بذلك وإن كان ذكره في معرض التشـنيع عليهم ففي ذلك ما يبين أن أتباع الأنبيـاء تنازعوا في ذلك

وما ذكره من أن حدوث العالم لا يتم إلا بإبطاله. يقول منازعوه: إن الأمر في ذلك بالعكس وإن القول بما أخبرت به الرسل من أن الله تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام لا يتم مع هذا القول ولا يتم إلا بنقيضه لأن إبطال هذا يستلزم ترجيح أحد طرفي الممكن بلا مرجح وحدوث مجموع الحوادث بلا سبب حادث ويصير الفاعل فاعلاً بعد أن لم يكن بدون سبب جعله فاعلاً بل حقيقة هذا القول أنه صار قادراً بعد أن لم يكن بغير سبب وصار الفعل ممكناً بدون سبب وهذا ممتنع في بدائه العقول.

وبذلك صالت الدهرية على أهل الكلام الذين سلكوا هذه السبيل فإنهم لما رأوا فساد هذا القول في صريح المعقول وظنوا أن هذا قول الرسل وأتباعهم اعتقدوا أن الرسل صلوات الله عليهم أخبرت بما يخالف صريح المعقول ثم من أحسن الظن بهم قال: فعلوا ذلك لمصلحة الجمهور إذ لم يمكن مخاطبتهم بالحق المحض فكذبوا لمصلحة الجمهور فساء ظن هؤلاء بما جاءت به الأنبياء وامتنع أن يستدلوا به على علم، وأولئك المتكلمون بجهلهم قصدوا إقامة الدليل على تصديق الأنبياء ونصر ما جاؤوا به فلما نقص علمهم بالسمعيات والعقليات أدى ما فعلوه إلى تكذيب الرسل والطعن في ما جاؤوا به.

فأما القول بما أخبرت به الرسل فلا يناقض هذا الأصل بل يبطل ما يدفع به الملاحدة أقوال الرسل. اهـ (درء تعارض العقل والنقل، ج٨، ص ٩٥ - ٩٨، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م).

ومهما يكن من خطأ في قول المعتزلة بأنهم يستقلون بخلق أفعالهم، فإنه لا يتساوى مع خطأ من قال بـ«قدم العالم»؛ لأنه ينافي عقيدة وحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولست الآن بصدد مناقشة ابن تيمية في كلامه هذا وما جاء به فيه من مسالك ملتوية؛ لأجل تبرير ما يعتقده من قدم العالم، فإن موضع ذلك كتابنا «برهان الحق»، على أن كلامه بين تهافته لا يخفى تساقطه إلا على من اتبع هواه وأعرض عن الذكر، وإنما سقته هنا ليتبيّن هؤلاء الذين يدعون مخالفة ما في مسند الربيع للإجماع كيف يتلاعب أئمتهم بالإجماع نفسه، فيقرونه تارة وينكرونه أخرى بحسب ما يملي عليهم هواهم.

وإذا كان هذا هو موقف الحشوية من الإجماع وهكذا تلاعبهم بما ثبت الإجماع عليه، فلا أعجب إلا ممن يدعي منهم أن في مسند الإمام الربيع بن حبيب رحمه الله تعالى ما يخالف الإجماع، نعم هو مخالف لإجماع هواهم لأنه معتضد بنصوص القرآن التي طالما شنوا عليها حرباً لا هوادة فيها، كما قال إمامهم البربهاري في كتابه المسمى بـ«شرح السُنَّة» (ص٥٤): «إذا سمعت الرجل تأتيه بالأثر فلا يريده ويريد القرآن فلا تشك أنه رجل قد احتوى على الزندقة فقم من عنده ودعه»، فلينظر اللبيب كيف يعرضون عن القرآن مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ٩٩ ـ ١٠١]، ويقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦]، ووصف الله تعالى القرآن بقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢]، وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٣]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ

ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢]، فهذا قـول الله تعالى في القـرآن ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢].

وليت شـعري؛ لماذا هذه الحملة على القرآن إن لم تكن لأجل الصد عنه وطمس نوره والتعمية على هداه؟!

وإذا كانت الأمم السـابقة تمكـن ضُلَّالُها من تحريـف كتبها وتبديل نصوصها، فإن الله تعالى صان القرآن مـن أي تحريف وتبديل كما قال عز من قائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فقطعت عنه أيدي المحرفين وصرفـت عنه مؤامرات الماكرين غير أنهم اسـتعاضوا عن هذا تحريف أحاديث رسـول الله ﷺ، فقد اجترأوا على الكذب عليه ونسبة ما هو بعيد عن هديه إليه، كما نسبوا إلى أصحابه ما هم براء منه، وحاولوا أن يصرفوا الناس عن القرآن إلـى هذه الأحاديث المزورة والأقوال المختلقة، كما نجد ذلك فـي كلام البربهاري هذا، وقد تسلسـل ذلـك فيهم جيلاً بعد جيل حتى سـمعنا أحد حشـوية العصر ـ وهو عبد الرحيم الطحان ـ يقول على مسـمع ومرأى من مؤيديـه الذين يعتقدون معتقـده: «لا خير في قرآن بغير سُـنَّة ولا خير في سُنَّة بدون فهم سـلفنا الصالح»، وكلامه موجـود بصوته يمكننا إحضاره إذا اقتضى الأمـر، فما أعجب هذه الجرأة على الله ورسـوله، حيث ينفي الخير عن كتاب الله وعن سُـنَّة رسوله ﷺ ويجعله موقوفاً على كلام طائفة مـن الناس، مع أن الله تعالى يقول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]، وإن لم يكن هذا صدًّا عن كتاب الله وعن سُنَّة رسوله ﷺ فبماذا يفسر يا ترى؟!

هذا، وقد رأيتم كيف اتخذ هؤلاء الإجماع ألعوبة يتصرفون فيها وفق هواهم، فهم يقرونه تارة وينكرونه تارة أخرى بحسب ما يبدو لهم من الأهواء!! وليس اعتذار من اعتذر منهم ـ بأن ذلك محمول على ما ينقله الخصوم من الإجماع ـ بشيء، فإنه لو صح أن ذلك هو مراد قائله لكان مردوداً بأن الغاية لا تبرر الوسيلة، فإن كان الإجماع في ذاته حجة فلا يسوغ أن يقال فيها هذا، على أن الكيل بمكيالين ليس من شيمة أهل العدل والإنصاف؛ الذين يتبعون الحق ويتحرون الحقيقة، ونحن نرى في ما نقلوه عن أحمد ما يخالف تأويلهم هذا للنص المحكي عنه، فكم نقل منهم عنه أنه ذكر ذلك مقروناً بعلته حيث قال: «من ادعى الإجماع فهو كاذب لعل الناس قد اختلفوا».

ولا ريب أن قولكم إن في مسند الربيع مخالفة لما أجمعت عليه الأمة دعوى عارية من الدليل، على أن إجماع الأمة الذي يعتد به هو إجماع جميع فئاتها من غير خلاف بينهم وليس إجماع طائفة منهم، وإلا لساغ لكل طائفة أن تدعي أن قولها هو الإجماع وقول غيرها مخالف له.

وكذلك قولكم بأن الإباضية تركوا الأخذ بما في الصحيحين وكتب السُنن التي أجمعت الأمة الأخذ منها هي دعوى ساقطة، فكم اعتمد الإباضية في فقههم على ما جاء عند الشيخين وغيرهما، وكم نجد من غير الإباضية تركاً للأخذ بروايات أخرجها الشيخان وغيرهما، ولا يمكنني الآن استقصاء بيان ذلك فإن شرحه يحتاج إلى مجلدات، وما من مذهب من المذاهب الأربعة إلا وقد ترك التعويل في بعض الأمور على ما رواه الشيخان، كما بينت بعض ذلك في بعض الأجوبة التي حررتها.

أما ترجيح الإباضية لما رواه الربيع على ما رواه غيره فإنما يرجع ذلك إلى عدة أمور:

أولها: أن سلسلة الربيع الذهبية خالية من وجود من يعتقد العفو عن أهل الكبائر وإن لم يتوبوا، أو أنهم يعذبون إلى أمد ثم يحولون من العذاب إلى النعيم، ولا ريب أن العقل والشرع قاضيان بأن اعتقاد أن مرتكب الكبيرة ـ ومن بينها الكذب ـ لا يعفى عنه إن لم يتب وعقابه التخليد في جهنم رادع عن الكذب على رسول الله ﷺ والاجتراء على نسبة ما لم يقله إليه.

أما العقل؛ فمن المعلوم أن من كان يتصور أن الإقدام على أمر ما يترتب عليه العقاب حتماً، وأن عقابه خالد أبدي لا يكون جريئاً على الإقدام على ذلك الأمر، بل ينهنهه اعتقاده عن مقارفته، بخلاف من كان يتصور أنه قد يعفى عنه وإن لم يعف عنه عذب إلى أمد ثم انقلب إلى النعيم، إذ لا يستوي في موازين العقل أصحاب هذا المعتقد وذاك المعتقد.

وأما الشرع؛ فكم من نصوص في القرآن تدل على هذا، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [فاطر: ١٨]، وقوله: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠]، وبيّن تعالى أن اعتقاد اليهود أنهم سيغفر لهم جرأهم على أخذ عرض هذا الأدنى، فقد قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩].

كما بيّن سبحانه أن اعتقادهم بأنهم لا يلبثون في النار إلا إلى أمد جرأهم على التولي عن تحكيم الكتاب الذي أوتوه، وذلك في قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣ ـ ٢٤]، ومن المعلوم أن طبائع البشر من حيث أصلها لا تختلف بين أمة وأمة، وإنما ترتقي بالأمم العقائد الصحيحة والتصورات الصادقة والصلة بالله ﷻ بوسائل العبادات السليمة الخالصة.

ونحن نجد أن أثر عقيدة العفو عن أهل الكبائر وخروجهم من النار بعد أن يصلوها قد جرت على هذه الأمة من المصائب في الدين ما لا يقل عما جرته على من كان قبلها، وهذا بشهادة أصحاب هذا المعتقد أنفسهم، إذ لم يقتصروا على الكذب على رسول الله ﷺ بل كذبوا على الله علانية، وقالوا عليه قولاً عظيماً تكذبه نصوص القرآن وأحاديث الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، ودونكم شاهداً على ذلك هذا النص الذي ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٥٠/٥ ـ ١٥١)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٢٣٢/٩)، حيث قالا عن: «ابن وهب حدثنا عبد الرحمٰن بن يزيد بن أسلم قال: لمّا ولي يزيد بن عبد الملك قال سيروا بسيرة عمر، فمكث كذلك أربعين ليلة، فأتي بأربعين شيخاً فشهدوا له أنه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب».

وقد ذكر ذلك أيضاً الذهبي في «العبر في خبر من غبر» (١٢٨/١ ـ ١٢٩)، واليافعي في «مرآة الجنان» (٢٢٤/١)، وقال ابن العماد في «شذرات الذهب» (١٢٨/١): «قال عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم لمّا استخلف ـ أي يزيد بن عبد الملك ـ قال سيروا سيرة عمر بن عبد العزيز فأتوه بأربعين شيخاً شهدوا له أن الخلفاء لا حساب عليهم ولا عذاب، فأقبل

على الظلم وإتلاف المال والشرب والانهماك على سماع الغناء والخلوة بالقيان».

فليت شعري؛ ألا يعدُّ هذا كذباً على الله تعالى الذي حذر من مجرد الركون إلى الذين ظلموا وتوعد على ذلك النار إذ قال: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]، فكيف يعفى عن الظالم نفسه ولا يحاسب ولا يجازى على ظلمه؟! وإذا كان الله تعالى يخاطب نبيه داود عليه السلام بقوله: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦]، فكيف بسائر الناس؟ كيف يكون من تسلط على رقاب الأمة مأذوناً له أن يفعل ما يملي عليه هواه، وأن يأتي من الفسوق ما شاء، وأن يرتكب من الظلم والطغيان ما تذوب منه الجبال، وتتدكدك به الأوتاد؟!

ولينظر العاقل كيف اجترأ هؤلاء الشيوخ الذين تواطأوا على هذه الشهادة الكاذبة أن يكذبوا على الله تعالى ويقولوا هذا القول لا لغرض إلا تزيين الظلم والطغيان والفجور لمن تسلط على رقاب الأمة، لأنهم كرهوا العدل والإنصاف وعافوهما، وقد زين لهم الشيطان شهواتهم فلذلك لم يرق لهم ما كان من عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه من فطمهم عن هذه الشهوات وإقامة موازين القسط بين الناس، فليت شعري؛ أيؤمن هؤلاء وأمثالهم على نقل سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمة من الكذب والتدليس، وكيف تقدم روايتهم على رواية الذين آمنوا بوعيد الله كما آمنوا بوعده، فكانوا ناظرين في كل ما يقولونه ويعملونه إلى وعد الله ووعيده، واقعين بين خوفه ورجائه بائعين لدنياهم مضحين بأنفسهم في سبيل الحق لأجل إقامة موازينه العادلة في الأرض؟!

ثانيها: أن روايات الربيع خالية مما شيبت به روايات غيره من وصف الله تعالى بما لا يليق بجلال قدسه إذ رواياته في هذا جميعاً تدور حول محور تنزيه الله تعالى عن جميع النقائص ومشابهته لخلقه، بينما نجد في الروايات الأخرى ما تقشعر منه الأبدان من وصفه تعالى بصفات خلقه، حتى إن بعضها يوحي أنه لا يعلم كثيراً مما يقع من عباده حتى تطلعه عليه ملائكته، وقد بسطت القول في هذا في الأجزاء الثلاثة ـ الرابع والخامس والسادس ـ من برهان الحق، ولا أجد داعياً إلى توسعة هذه العجالة ببيان هذا فإن القول في ذلك يطول.

ثالثها: أن روايات الربيع خالية من التجني على مقام صاحب النبوة الكبرى والرسالة العظمى عليه أفضل الصلاة والسلام ووصفه بصفات الجبابرة أهل الظلم والبطش، وكم نجد من مثل هذا في الروايات الأخرى ناهيك بتلك الرواية التي سلف ذكرها وفيها أنه كان يأمر بالقتل بمجرد الاتهام ولو لم تقم على مقتضاه بينة! مع أن هذا يتصادم مع ما دعا إليه القرآن من التحفظ وعدم تصديق هذه الدعاوى إلا بعد قيام بينة تفوق البينات كلها في عدد شهودها وكيفية التثبت فيها، فكيف يصدق أن رسول الله ﷺ يتسرع في إصدار أوامره بضرب الأعناق من أجل اتهام لم يقم عليه دليل بل كان الدليل واضحاً على بطلانه، وهو الذي وصفه الله تعالى بأنه على خلق عظيم وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم؟! مع أن الله سبحانه رسم له طريقاً مستقيماً ومنهاجاً عادلاً في التعامل مع مثل هذه الأحداث حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ١١ - ١٨].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤].

فليت شعري؛ كيف يصدق أن يعدل النبي ﷺ بعد هذا كله عن هذا المنهج الرباني إلى منهج شيطاني لا تنسجم معه الفطرة السوية؟! فكيف إذا كانت هذه الفطرة مسددة أيضاً ببصيرة الوحي وأنوار الشرع؟ أَوَلَا يكون في ذلك كله ما يحمي نفس النبي عليه أفضل الصلاة والسلام من التأثر بهوى النفس ونزغات الشيطان؟

وكم نجد في تضاعيف الروايات التي شحنت بها أمهات كتب الحديث من أمثال هذه المسرحيات، التي لا تدل إلا على خيال مأفون وخبال مستحكم في عقول مبتكريها.

وإليك نموذجاً من هذه الترهات التي سودت بها كتب الحديث لتكون دمغات سوداء في صفحة سيرة رسول الله ﷺ الذي وصفه الله بأنه رحمة للعالمين، فقد أخرج أحمد وأبو يعلى في مسنديهما والحاكم في مستدركه ـ وصححه وتابعه الذهبي ـ والطحاوي في «مشكل الآثار»: عن هشام بن عروة عن أبيه قال قال لي أبي إن عائشة قالت له: «يا ابن أختي لقد رأيت من تعظيم رسول الله العباس أمراً عجيباً، وذلك أن رسول الله ﷺ كانت تأخذه الخاصرة فتشتد به جداً، قالت: وكنا نقول أخذت رسول الله عرق

الكلية ولا نهتدي للخاصرة، فأخذت رسول الله ﷺ الخاصرة يوماً من ذلك فاشتدت به جداً حتى أغمي عليه، فخفنا على رسول الله وفزع الناس إليه، قالت: فظننا أن به ذات الجنب فلددناه، قالت: ثم سري عن رسول الله ﷺ وأفاق، قالت: فعرف أن قد لددناه فوجد أثر اللد، فقال: أظننتم أن الله سلطها عليَّ؟! ما كان الله ليسلطها عليّ، والذي نفسي بيده لا يبقى أحد في البيت إلا لد إلا عمي، قالت عائشة: فلقد رأيتهم يومئذ يلدون رجلاً رجلاً، قالت عائشة: ومن في البيت يومئذ يذكر فضلهم، قالت: فلد الرجال أجمعين، قالت: ثم بلغنا والله اللدود أزواج النبي ﷺ فلددنا والله امرأة امرأة، قالت: حتى بلغ اللدود امرأة منا، قالت: إني والله صائمة، فقلنا لها: بئس ما ظننت أن نتركك وقد أقسم رسول الله ﷺ، قالت: فلددناها والله يا ابن أختي وإنها لصائمة».

فانظر إلى هذه الرواية أتجد فيها أخلاق نبي الرحمة الذي كان يفيض قلبه بالشفقة وتتدفق نفسه بالحنان، أم أنك تجد ما وصف به فيها أشبه بخصال الجبارين؛ الذين لا يريح ضمائرهم ولا يسكن جائشة نفوسهم إلا التشفي والانتقام، فما الذي عمله الذين كانوا في البيت يومئذ إلا أنهم أرادوا العافية والسلامة له صلوات الله وسلامه عليه، وذلك من الإحسان طبعاً، وقد قال تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، فكيف يعقل أن يقابل ﷺ هذه الشفقة منهم بشظف الأخلاق وقسوة المعاملة وإنزال العقوبة بهم؟!

أوليست هذه الروايات وأمثالها هي التي تفتح الثغرات لأصحاب النيات السيئة للطعن في الإسلام والقدح في رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام؟!

ثم كيف يعقل ـ لو كانت هذه العقوبة مشروعة ـ أن يعفى منها العباس ﵁ مع أنه أحد المشاركين في اللد، كما جاء في كتب السيرة بأن الكل أجمعوا على ذلك وأن العباس ﵁ هو الذي اعتذر إلى رسول الله ﷺ بقوله: خشينا يا رسول الله أن يكون بك ذات الجنب (السيرة النبوية لابن هشام ٦/٦٦) أوليست العدالة تقتضي أن يشرك الكل في العقوبة لو كانت عقوبة مشروعة؟!

فليت شعري؛ كيف تنزل هذه العقوبة بكل من كانوا في البيت رجالاً ونساء، ويعفى منها العباس مع أنهم شركاء في موجبها لو كان لده ﷺ من أجل ابتغاء العافية له موجباً لها؟! أولم يكن رسول الله ﷺ ألزم العباس يوم بدر عندما أخذ أسيراً ما ألزمه غيره من أسرى قريش من الفدية، ولم يعفه عنها مع كونه خرج فيمن خرج إلى بدر مكرهاً، ولم يكن راغباً في الخروج؟!

هذا؛ ودونك قصة أخرى هي من جنس هذه المسرحيات مروية عند الشيخين، ففي صحيح البخاري ما نصه:

حدثني محمود حدثنا عبد الرزاق قال: أخبرني ابن جريج، قال: أخبرني عمرو بن دينار سمع جابر بن عبد الله ﵄، قال: لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخرَّ إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق، فقال: إزاري إزاري، فشد عليه إزاره.

وقال مسلم: حدثنا زهير بن حرب حدثنا روح بن عبادة حدثنا زكرياء بن إسحق حدثنا عمرو بن دينار قال: سمعت جابر بن عبد الله يحدث أن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة وعليه إزاره، فقال

له العباس عمه: يا ابــن أخي لو حللت إزارك فجعلتــه على منكبك دون الحجارة، قال: فحلّه فجعله على منكبه فســقط مغشياً عليه، قال: فما رؤي بعد ذلك اليوم عريانا.

فليت شــعري؛ هل تطاوع النبي ﷺ فطرته الزكية أن يحل إزاره ويبقى عارياً أمام الناس في ذلك المشهد وهو أمام بيت الله تعالى الحرام؟! وهذا وإن كان قبل بعثته ﷺ يســتحيل أن يكون من خلقــه، كيف وقد زكى الله سبحانه خلقه وســوى فطرته؟! وهل يعقل أن يصدر مثله من سليم العقل ســوي الفطرة ولو لم يكن ذا دين قط؟ فكيف يتصور أن يكون ممن هيأه الله لحمل رســالة الرحمة إلى الخلق أجمعين، أيعقل أن يضل عقله حتى ينزل منزلة الحيوان الأعجم في قبول مثل هذا الأمر؟! كلا، فإن الله سبحانه قد حلاه بمكارم الأخلاق ومحاسن الخلال منذ طفولته الأولى، وهل يعقل أيضاً أن العباس يأمره بذلك، مع أنه أمر في ذاته يتنافى مع الطبيعة البشرية ويأباه الحياء الذي فطر الله تعالى عليه جميع البشر؟!

ولا ريــب أن الله تعالى اختار رســوله ﷺ من أطيــب عنصر وأخلص معدن وأكــرم ضئضئ فأنى للعبــاس عم النبي ﷺ ـ الذي ســبق في علم الله أنه ســيكون حميمه ونصيره وسيتشــرف بالإيمان برسالته والاستظلال بلوائــه ـ أن يأمر ابن أخيه ـ الــذي عرف بطبع الحيــاء والإباء من كل ما يخدش حياءه ـ بمثل هذا؟!

مع أنه كان عليه أفضل الصلاة والســلام أشــد حياءً مــن العذراء في خدرها، كما وصفه بذلك أصحابه.

هذا؛ وكم تجد في الروايات التي عند غير الربيع ما يؤذن بأن أصحاب النبي ﷺ كانوا يجترئون على نبذ أوامره وتسفيهه في ما يأمرهم به حتى في

أهم القضايا التي ينعقد بها مصير الأمة. ففي صحيح البخاري ما نصه: حدثنا يحيى بن سليمان قال حدثني ابن وهب قال أخبرني يونس عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: «لما اشتد بالنبي ﷺ وجعه قال ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده. قال عمر إن النبي ﷺ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا فاختلفوا وكثر اللغط، قال قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع. فخرج ابن عباس يقول إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه»، فهل يعقل أن يعترض ابن الخطاب رضي الله عنه ـ وهو صاحب رسول الله ﷺ الذي كان براً في صحبته حريصاً على طاعته وتنفيذ أوامره وإحياء سننه ـ على أمر يأمر به رسول الله ﷺ يرتبط به مصير الأمة اتفاقاً أو افتراقاً، ويتعلل بأنه ﷺ غلبه الوجع!! وكيف يسكت أصحاب النبي ﷺ عن ذلك من غير أن يوقفوا المعترض عند حده؟!

ليت شعري؛ أهان عندهم الإسلام أم هان في نفوسهم قدر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام حتى ينزلوا أوامره هذه المنزلة؟! على أنه لم يقف الأمر عند هذا الحد بل جاء في بعض الروايات أنهم وصفوا رسول الله ﷺ بالهجر! فقد قال مسلم في صحيحه (٥/٧٥): حدثنا إسحاق بن إبراهيم أخبرنا وكيع عن مالك بن مغول عن طلحة بن مصرف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال يوم الخميس وما يوم الخميس. ثم جعل تسيل دموعه حتى رأيت على خديه كأنها نظام اللؤلؤ. قال: قال رسول الله ﷺ: «ائتوني بالكتف والدواة ـ أو اللوح والدواة ـ أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً». فقالوا إن رسول الله يهجر.

حاشا لرسول الله ﷺ من هذه المقولة الباطلة وبرأ الله أصحابه أن يقولوها أو أن يجتمعوا على خلاف ما يأمرهم به رسول الله ﷺ.

على أننا نجد في الصحيحين أيضاً أنه لن ينجو يوم القيامة من أصحاب رسول الله ﷺ إلا شواذ كهمل النعم!

ففي صحيح البخاري حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي حدثنا محمد بن فليح حدثنا أبي قال حدثني هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «بينا أنا قائم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم، فقلت: أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم، قلت: أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم».

فليت شعري؛ أيكون جميع أصحاب رسول الله ﷺ هلكى حتى لا يخلص منهم إلا مثل همل النعم؟!

رابعها: أن روايات الربيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس فيها ما يخالف القرآن أو يخالف العقل السليم وكم تجد من الروايات التي عند غيره ما يصادم القرآن الكريم ويتنافى مع العقل السليم، كأحاديث تشبيه الله تعالى بخلقه المصادمة للنصوص القطعية كقوله: تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، وهي بلا ريب منافية للعقول السليمة التي تهتدي بفطرتها إلى تنزيه الله تعالى عن مشابهته لخلقه، وكذلك الأحاديث التي تصف رسول الله بأنه غليظ الطبع قاسي القلب خشن المعاملة كتلك التي أسلفنا ذكرها، فإنها مخالفة أي مخالفة لما جاء في وصفه في القرآن كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤]، وقوله:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

على أن علماء الحديث نصوا بأن الرواية وإن جاءت من طريق الثقة متصلة الإسناد ترد لأمور، منها: مخالفة القرآن ومخالفة مقتضيات العقول ـ وإن لم يطبقوا ذلك ـ ومن ذلك قول البغدادي في كتابه الفقيه والمتفقه (ص ١٣٢ ـ ١٣٣): اذا روى الثقة المأمون خبراً متصل الإسناد رد بأمور:

أحدها: أن يخالف موجبات العقول فيعلم بطلانه، لأن الشرع إنما يرد بمجوزات العقول، وأما بخلاف العقول فلا، والثاني: أن يخالف نص الكتاب أو السُنَّة المتواترة، فيعلم أنه لا أصل له أو منسوخ، والثالث: أن يخالف الإجماع، فيستدل على أنه منسوخ أو لا أصل له، لأنه لا يجوز أن يكون صحيحاً غير منسوخ، وتجمع الأمة على خلافه، وهذا هو الذي ذكره ابن الطباع في الخبر الذي سقناه عنه أول الباب، والرابع: أن ينفرد الواحد برواية ما يجب على كافة الخلق علمه، فيدل ذلك على أنه لا أصل له، لأنه لا يجوز أن يكون له أصل، وينفرد هو بعلمه من بين الخلق العظيم، والخامس: أن ينفرد الواحد برواية ما جرت به العادة، بأن ينقله أهل التواتر فلا يقبل، لأنه لا يجوز أن ينفرد في مثل هذا بالرواية. اهـ.

خامسها: أن روايات الربيع خالصة من شائبة آثار أهل الكتاب، وهذا ما لم يكد يسلم منه أي مجموع من مجاميع الأحاديث الأخرى، فكم تجد فيها من روايات تشم منها روائح أكاذيب أهل الكتاب لا سيما اليهود، فإن

جميع الروايات التي فيها تشبيه الله تعالى بخلقه تجد لها إذا فتشت في ما عند أهل الكتاب جذوراً أصيلة في عقيدتهم، وقد بينت كثيراً من ذلك في «برهان الحق»، وكشفت كيف التطابق بينها وبين ما عند أهل الكتاب مما اختلقوه من الأكاذيب ودنسوا به طهر الكتاب الذي عندهم.

وكذلك الروايات التي تؤصل لعقيدة الإرجاء، فإن القرآن الكريم هو أقوى شاهدٍ وأعظم حجة في كونها ناشئة عن فكر أهل الكتاب المنحرف، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٠ ـ ٨١]، ويقول سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣ ـ ٢٤]، وقال تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]، وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٌ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

هذا؛ ولا ريب أن ما نجده في الروايات من التجني على رسول الله ﷺ ووصفه بصفات أهل البطش والجبروت أو الميل إلى الشهوات نجد له أصلاً أصيلاً في ما افتراه أهل الكتاب على الأنبياء ومن بينهم أنبياء بني إسرائيل، فهذه توراتهم المحرفة مليئة بذلك. ففي الإصحاح الرابع

والثلاثين من سفر التكوين أن يعقوب عليه السلام احتال على أهل شكيم حتى تمكن منهم فأبادهم واستباح نساءهم.

وفي الإصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني: «وكان عند تمام السنة في وقت خروج الملوك أن داود أرسل يوآب وعبيده معه وجميع إسرائيل فأخربوا بني عمون وحاصروا ربة، وأما داود فأقام في أورشليم، وكان في وقت المساء أن داود قام من سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جدّاً، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد أليست هذه بتشبع بنت اليعام امرأة أوريا الحثي؟ فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها، وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود. قالت إني حبلى. فأرسل داود إلى يوآب يقول أرسل إليّ أوريا الحثي، فأرسل يوآب أوريا إلى داود، فأتى أوريا إليه فسأله داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب، وقال داود لأوريا انزل على بيتك واغسل رجليك، فخرج أوريا من بيت الملك، وخرجت وراءه حصة من عند الملك، ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته، فأخبروا داود قائلين لم ينزل أوريا إلى بيته. فقال داود لأوريا أما جئت من السفر. فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟ فقال أوريا لداود: إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي. وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر. فقال داود لأوريا أقم هذا اليوم أيضاً وغداً أطلقك. فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده، ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره. وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده وإلى بيته لم ينزل».

«وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريا. وكتب في المكتوب يقول اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت. وكان في محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه. فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريا الحثي أيضاً، فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب. وأوصى الرسول قائلاً: عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب، فإن اشتعل غضب الملك وقال لك لماذا دنوتم من المدينة للقتال. أما علمتم أنهم يرمون من على السور من قتل أبيمالك بن يربوشت ألم ترمه امرأة بقطعة رحى من على السور فمات في تاباص. لماذا دنوتم من السور؟ فقل قد مات عبدك أوريا الحثي أيضاً».

«فذهب الرسول ودخل وأخبر داود بكل ما أرسله فيه يوآب. وقال الرسول لداود قد تجبر علينا القوم وخرجوا إلينا إلى الحقل فكنا عليهم إلى مدخل الباب فرمى الرماة عبيدك من على السور فمات البعض من عبيد الملك ومات عبدك أوريا الحثي أيضاً. فقال داود للرسول: هكذا تقول ليوآب لا يسوء في عينيك هذا الأمر لأن السيف يأكل هذا وذاك. شدد قتالك على المدينة وأخربها، وشدده».

«فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً. وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب». (سفر صموئيل الثاني ـ الإصحاح الحادي عشر).

فانظر هذا الوصف الإجرامي والشهواني الذي يعزونه إلى داود

النبي عليه السلام، فهو عندهم لم يكتف بأنه تعقب أحد رجاله المخلصين في أهله بالفاحشة حتى أمر بدفعه إلى الموت دفعاً لينال مراده من الاستيثار بحليلته.

ونجد في ما عزوه أيضاً إلى لوط عليه السلام ما يقشعر منه الجلد ويطير منه اللب، حيث عزوا إليه أنه زنى بابنتيه وحملتا منه بعد أن سقتاه الخمر، ففي الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين: «وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض، هلم نسقي أبانا خمراً، ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي واضطجعي معه، فتحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فحبلت ابنتا لوط من أبيهما فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضاً ولدت ابناً، ودعت اسمه بن عمي. وهو أبو بني عمون إلى اليوم» (سفر التكوين ١٩: ٣٠-٣٦).

فهذا قدر الرسل عندهم، أويبقى شك بعد ذلك أن ما نجده ـ في كتب الحديث عند المسلمين من المسرحيات الهزيلة والأخبار الساقطة المعزوة إلى النبي عليه أفضل الصلاة والسلام سواء ما ذكرنا منها وما لم نذكر ـ هي من دسائس اليهود التي روجوا لها بين هذه الأمة لحط قدر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ولإشاعة الفاحشة في ما بينها وترويج الظلم وتزيينه في نفوس أبنائها، ناهيك باجتماع أربعين شيخاً يشهدون شهادة واحدة أن الخلفاء

لا حساب عليهم ولا عقاب!! وليس من وراء ذلك قصد إلا إماتة العدل وإشاعة الجور والحيلولة دون تراجع الحكام عن غيهم وميلهم إلى الرشد.

وأين هذا من منهج أهل الحق والاستقامة الذين استماتوا في طلب الحق ونشره وواجهوا الظلم والفساد بكل حزم وعزم جاعلين كتاب الله تعالى وهدي رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام نصب أعينهم وملء وجدانهم ومشاعرهم؟

لم تلههم زهرة الدنيا وزخرفها إذ همهم صالح يتلوه رضوان
باعوا بباقية الرضوان فانيهم كأن لذة هذا العيش أوثان
وقف على السنة الزهراء سعيهم وفي الجهادين إن عزوا وإن هانوا
ما زايلت خطوة المختار خطوتهم ولا ثنى عزمهم نفس وشيطان

فشتان ـ لعمر الحق ـ بين الهدى والضلال والحق والباطل والبصيرة والعمى.

هذا؛ وأرفق لكم هذا القرص الذي فيه دراسة وافية أعدها أحد المشايخ عن الربيع ومسنده، دافع فيها عن هذا المسند الصحيح وفند فيها تلبيس المشككين، وستجدون إن شاء الله فيها الرد على تساؤلاتكم حول هذا المسند، كما أنني أرفق لكم كتاب «اللقاءات» (المجلد الأول) فاقرأوه بإمعان، فإنكم ستجدون فيه إن شاء الله جواباً على بعض ما سألتم عنه.

وأسأله تعالى أن يهدينا جميعاً ببصيرة الحق ونور القرآن وهدي النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلاً ويوفّقنا لاجتنابه، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.


سلطنة عمان
وزارة الأوقاف والشؤون الدينية

الفهرس